


طاهر المعتز بالله

القيصر



 storytel original

القيصر

التاريخ السري لفلاديمير بوتين

المعتز بالله، طاهر.

القيصر : طاهر المعتز بالله

القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2024.

590 صفحة، 20 سم.

تدمك : 3-253-820-977-978

–المقالات العربية.

أ– العنوان : 814

رقم الإيداع : 25173 / 2024

الطبعة الأولى : نوفمبر 2024.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©.

–
كيان للنشر والتوزيع

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

Alqaysar Originally published as a Storytel Original Series

القيصر 2023 © من سلسلة أعمال ستوري تيل الأصلية.

ع ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم

هاتف أرضي: **0235918808**

هاتف محمول: **01000405450 – 01001872290**

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين.

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

القيصر

التاريخ السري لفلاديمير بوتين
طاهر المعتز بالله

إهداء

إلى الذين احترقوا ليضيئوا الطريق

صراع الجبابرة

الموتى فقط هم الذين رأوا نهاية الحرب - جورج سانتايارنا.
في ثلاثينيات القرن العشرين أوروبا كانت مستعدة تعمل أي حاجة لتفادي الدخول في حرب عالمية ثانية.
بعد صعود الحزب النازي للسلطة في بداية الثلاثينيات، هتلر أعاد نشر القوات العسكرية في الراينلاند على حدود فرنسا
بحجة فرض السيادة الوطنية، وضم النمسا لألمانيا بحجة توحيد الأرض التاريخية، واحتل جزء من تشيكوسلوفاكيا بحجة
حماية الأقليات الألمانية، وكل ده محدش اعترض.
قادة أوروبا اتبعوا معاه سياسة ال Appeasement أو المهادنة، وقالوا إنه يحاول يعيد لألمانيا حقوقها بعد معاهدة فيرساي
المجحفة.

ولكن لما احتل باقي تشيكوسلوفاكيا وأصبح من الواضح أن عينه على بولندا، رئيس الوزراء البريطاني نيفيل تشامبرلين حس
أن دوافعه أكبر من مجرد رفع الأذى اللي وقع على ألمانيا بسبب فيرساي.
ولذلك في مارس سنة ١٩٣٩ بريطانيا وفرنسا تعهدوا بحماية سيادة بولندا على أراضيها، في رسالة لهتلر أن غزوه لبولندا
معناه دخوله في حرب ضدهم.

هتلر مخدش التهديد على محمل الجدية، فرنسا مفيش منها قلق وبريطانيا عمرها ما هتتحارب لوحدها.
وفكر في البداية في التحالف مع بولندا لمهاجمة الاتحاد السوفيتي والحصول على ال Lebensraum أو الأرض اللازمة لمعيشة
الشعب الألماني في الشرق، ولكن بولندا رفضت التحالف وأعلنت العصيان.
حتى لو نجحت في هزيمة الاتحاد السوفيتي وتخلصت من الخطر على حدودها الشرقية، هتفضل تحت رحمة ألمانيا اللي
جيشها لو دخل مش هيخرج.

ولذلك هتلر قرر يغزو بولندا، ورغم عدم اهتمامه باحتلال فرنسا إلا إنه قرر يغزوها هي كمان لتأمين الجبهة الغربية
و ضمان عدم دخوله في حرب على الجبهتين، باعتبار أن بريطانيا مسيرها يا إما الاستسلام أو الغزو زيها زي غيرها.
عشان بريطانيا تحارب محتاجة حليف والحليف الوحيد اللي ممكن يقف قصاده هو الدب الروسي، ولذلك محتاج يتحالف
مع ستالين قبل ما ستالين يتحالف مع بريطانيا.

من ناحية يضمن عدم دخوله في مواجهة قبل ميعاها مع الاتحاد السوفيتي في بولندا، ومن ناحية ثانية يتأكد من ضعف
بريطانيا ووقوفها وحيدة أمام الطوفان النازي، ومن ناحية ثالثة ميخسرش عنصر المفاجأة لما يهاجم الاتحاد السوفيتي آجلاً
أو عاجلاً.

المشكلة أن روسيا عدو لدود لألمانيا تاريخياً وفكرياً.
ألمانيا حاربت روسيا في الحرب العالمية الأولى، بالإضافة إلى إن الشيوعية خطر وجودي يجب القضاء عليه في نظر النازية.

ولكن في السياسة لا يوجد أعداء دائمين أو حلفاء مستمرين.
سنة ١٩٣٩ العالم كان على موعد مع مفاجأة من العيار الثقيل.
في شهر أغسطس تم توقيع اتفاقية مولوتوف-ريبنتراب.
المعاهدة اللي على اسم وزراء الخارجية نصت على عدم الاعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي لمدة عشر سنين، ولكنها
قوبلت باستهجان في الاتحاد وفي ألمانيا على حد سواء.
الألمان مش فاهمين إزاي الرايخ الثالث يحط إيده في إيد الشيوعيين، والشيوعيون الحالمون بتصدير الشيوعية حول العالم
غاضبون لعمل معاهدة مع نظام فاشي.

وعلى الرغم من عدم ثقة ستالين في هتلر خاصة بعد قراءته لكتاب «كفاحي» اللي بيؤكد فيه إن التوسع الطبيعي لألمانيا هو

تجاه الشرق ناحية الأرض الروسية، إلا إنه كان مستعد يتحالف معاه بعد رفض بريطانيا وفرنسا الدخول معاه في حلف ضد ألمانيا.

المعاهدة بتعبر عن توافق مصالح مؤقت وليس صداقة دائمة، وبتسمح لكل طرف فيهم يعمل على أهدافه التوسعية بدون خوف من رد فعل الطرف الآخر، وقد كان.

وفي يوم ٣ سبتمبر هتلر أمر باحتلال بولندا، فبريطانيا وفرنسا أعلنوا الحرب على ألمانيا.

الاتحاد السوفيتي احتل أجزاء من بولندا بحجة حماية حدوده، بينما فرنسا وبريطانيا رغم إعلان الحرب لم يشتبكوا مع القوات الألمانية، كل اللي فرنسا عملته إنها أمرت بعض الجنود بدخول الأراضي الألمانية عدة كيلومترات ورجعوا تاني على طول وكأنهم كده وفوا بعهدهم مع بولندا.

هتلر كسب الرهان، الاتحاد السوفيتي احتل شرق بولندا بحجة حماية الأقليات الروسية، وفرنسا وبريطانيا رغم إعلانهم الحرب على ألمانيا لم يتخذوا أي مبادرة للهجوم، فهتلر قرّر إن هو اللي هيهاجم.

في مايو سنة ١٩٤٠ بعد حوالي ٨ شهور من الحرب الكلامية القوات الألمانية شنت هجوم مرعب على غرب أوروبا عرف باسم بليتزكريج، أو الهجوم الصاعق من شدة سرعته.

الهجوم المختلف بشكل جذري عن حرب الخنادق اللي عرفها العالم في الحرب العالمية الأولى، الدبابات فيه بتهاجم لكسر دفاعات العدو مدعومة بالطيران فوقها والمشاة جنبها، تحت غطاء من المدفعية المتمركزة وراها.

هجوم كاسح خلّى هتلر يحتل بلجيكا وهولندا ولوكسمبرج وفرنسا في ست أسابيع فقط!

وبعد سيطرته على غرب ووسط أوروبا، بدأ يستعد لغزو روسيا، وبسبب نجاح البليتزكريج الساحق في اختراق أعتى الحصون الدفاعية، توقّع إنها هتسقط في غضون ثلاثة أشهر في أقصى تقدير، وبالتالي الجيش لم يُجهز بملابس شتوية باعتبار أن العساكر طالعين مشوار صد رد.

وبالفعل يوم ٢٢ يونيو سنة ١٩٤٠، في عملية أطلق عليها اسم بارباروسا تيمناً بالإمبراطور الروماني فريديريك بارباروسا صاحب التوسعات الأوروبية، بدأ الغزو الألماني للاتحاد السوفيتي. ستالين اتعرض لصدمة مروعة!

صحيح بعد احتلال فرنسا شك أن هتلر على وشك خرق المعاهدة وغزو الاتحاد، لكنه كان عامل حسابه إنه لو غدر بيه مش هيغزو قبل سنة ١٩٤٢، بالذات بعد خطأ هتلر في عدم تجهيز الجيش بملابس شتوية.

ستالين متخيلش إن في حد عاقل ممكن يغزو الاتحاد السوفيتي بلبس صيفي!

المشكلة إن ال Red Army أو الجيش الأحمر كما كان يطلق عليه بيمر بأسوأ حالاته.

ستالين قبل الحرب أمر بتصفية كبار الجنرالات في محاولة لتثبيت حكمه وإزالة خطر الانقلابات العسكرية، في سياسة تعرف باسم ال Coup proofing أو الوقاية من الانقلاب.

التصفية السياسية لقادة الجيش أضعفت القدرة العسكرية بشكل انعكس على الاستعدادات القتالية.

بينما الجيش الألماني شارك بثمانين في المية من قوته في الغزو لفتح جبهة شاسعة بطول ١٨٠٠ ميل من شمال الاتحاد السوفيتي لجنوبه، وفي اليوم الأول القوات الجوية الألمانية المعروفة باسم «اللوفتفافه Luftwaffe» أسقطت حوالي ١٠٠٠ طائرة من طائرات الجيش السوفيتي.

المدن سقطت بسرعة واحدة ورا الثانية لحد ما الجيش الألماني سيطر على غرب الاتحاد السوفيتي وجنوبه بما فيه أوكرانيا، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من موسكو.

ولكن الجيش السوفيتي بعد تجاوز الصدمة الأولى بدأ يستعيد توازنه، والشعب تطوّع للدفاع عن أرضه بالملايين.

المعركة اشتدت حول ٣ مدن، سقوطهم كان هيشكل كارثة استراتيجية: لينينغراد في الشمال وموسكو في المنتصف وستالينغراد في الجنوب.

لينينغراد، أو سانت بطرسبرغ سابقاً، مدينة ساحلية بناها الإمبراطور بيتر الأول في الشمال قرب الحدود مع فنلندا بهدف

فتح بوابة على أوروبا.

بيتر أسهم في تحويل روسيا لقوة عظمى بعد توسعه الغربي على حساب الدولة العثمانية، وسمى عاصمته الجديدة على اسم القديس بطرس أو بيتر أحد حوارِيّ المسيح.

المدينة كانت مهد الثورة البلشفية سنة ١٩١٧، وبعد وفاة لينين سنة ١٩٢٤ اتغيّر اسمها لتصبح لينينغراد أو مدينة لينين. ونظرا لأهميتها التاريخية، في شهر سبتمبر هتلر أصدر أمر سري لقادة الجيش بمحو المدينة من على وجه الأرض، في غياب أي جدوى عسكرية من الغزو بسبب موقعها المنعزل في الشمال الغربي.

وبعد قصف دموي من الطيران والمدفعية، تم حصار المدينة وثلاثة مليون من سكانها.

ورغم وجود خط إمداد من طريق النهر المتجمد في الشرق، لم يتم إخلاء السكان.

ستالين أصدر في أغسطس أمراً رقم ٢٧٠ أعلن به منع التراجع منعاً باتاً، وقال إن أي جندي هيهرب أو يستسلم ه يتم إعدامه والقبض على أهله، فخط الإمداد أصبح مجرد طريقة لاستبدال القتلى بجنود جدد، في ظل إصرار ستالين على دس أكوام اللحم في المفرمة.

ومن ضمن الجنود دول شاب اسمه فلاديمير، ساب مراته وابنه تحت الحصار وانضم لجهاز الشرطة السري للقيام بعمليات تخريب خلف خطوط العدو.

فلاديمير ابن غير متعلم لأب اشتغل طبّاخ في فندق أستوريا الشهير قبل الثورة، وطبخ فيه لمجموعة من المشاهير وعلية القوم زي راسبوتين وستالين، وبعد الثورة طبخ لأرملة لينين وعمل كطباخ في أحد مقرات الحزب الشيوعي.

فلاديمير قضى خدمته في الجيش على متن إحدى الغواصات في الثلاثينيات، واتجوز شابة صغيرة اسمها ماريا وخلف منها ابن مات وهو صغير، وقبل الحرب خلف منها ابن للمرة الثانية، ولكنه ملحقش يتهنى بأسرته.

بعد قيام الحرب فلاديمير اتطوع في إحدى فرق التفجير الخاصة بقوات ال NKVD أو البوليس السري اللي تحول بعدها للكي جي بي (1).

الفرقة هدفها تنفيذ عمليات تخريبية خلف خطوط العدو في محاولة لقطع خطوط الإمداد وإضعاف الروح المعنوية في المناطق المحتلة.

في مهمة شبه انتحارية تم إسقاط فلاديمير وفرقته بالطائرات خلف خطوط العدو على بعد ١٠٠ كم من لينينغراد. الأكل اللي مع الكتيبة خلص قبل ما ينفذوا مهمتهم فطلبوا مساعدة من الأهالي، اللي بعد ما جابوا لهم أكل سلموهم للعساكر الألمان.

متعاطفين معاكم وعازيين نأكلكم لكن أكل العيش مر.

فلاديمير نجح هو ومجموعة من زميله يهربوا ولكن الألمان خرجوا وراهم، وبدأوا في اصطيادهم واحد ورا الثاني بمنتهى القسوة، فاضطر يغطس في إحدى البرك لحد ما بعدوا عنه بعدها بساعات. ولكن وهو راجع اتصاب في انفجار لقنبلة يدوية شل حركته، وكان هيموت بعد ما فضل مرمي على الطريق لحد ما شافه جار قديم شاله على كتفه لحد المستشفى العسكري.

الإصابة تسببت في عاهة مستديمة خلته يتألم ويمشي وهو بيعرج بقية حياته، ولكنها في نفس الوقت أنقذته هو ومراته. وحدته المكونة من ٢٨ فرد مرجعش منهم غير أربعة، بالإضافة إلى إن وجوده في المستشفى سمح له يهرّب جزء من أكله لمراته وابنه أسهم في إنقاذهم من الموت من الجوع.

الحصار استمر لمدة ٨٧٢ يوم شافوا فيهم الموت بعينهم، لحد ما الجيش الأحمر قدر عن طريق توسع غير مسبق في التسليح والتجنيد يكسر الحصار ويبدأ الزحف تجاه ألمانيا.

فرحة كبيرة بسبب انتهاء الكابوس، للأسف مكملتش بسبب إصابة ابنه اللي مكملش عشر سنين بعدوى بكتيرية قاتلة.

وبينما الاتحاد السوفيتي سعيد بقرب هزيمة ألمانيا، فلاديمير وماريا كانوا بينعوا وفاة ابنهم. وبما أنه مصاب تم تسريحه من الخدمة وراح يشتغل في مصنع أسلحة في لينينغراد، وعاش مع ماريا في غرفة صغيرة حوالي ١٦ متر مربع في شقة متواضعة شاركوها مع عائلتين تانينين. شقة فيها بوتاجاز بعين واحده ومفيهاش مية سخنة ولا بانيو، اللي عايز يستحمى لازم يسخن المية على البوتاجاز. شقة أهم ما فيها أنها شهدت ولادة ابنهم الثالث يوم ٧ أكتوبر سنة ١٩٥٢. ابن مكانوش يتخلوا إن العالم كله هيعرف اسمه بعدها سنين طويلة: «فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين»

الرجل الذي يملك العالم

«المرّة الأولى التي تعرّضت فيها للضرب كانت وصمة عار، تلك الحادثة كانت أول تجربة لي في مدرسة الشارع، وتوصلت من خلالها إلى أربع استنتاجات، الأول أنني كنت مخطئاً، لا أتذكر التفاصيل الدقيقة ولكنني أهنته بلا سبب فضرّبتني بشكل فوري، الاستنتاج الثاني هو أنني لا يجب أن أعامل أي أحد بهذه الطريقة، يجب أن أحترم الجميع، لقد كان هذا درساً عملياً لطيفاً! الدرس الثالث هو أنني أدركت أن في أي موقف سواء كنت مخطئاً أم لا، يجب أن أكون قوياً، يجب أن أكون قادراً على الرد. الدرس الرابع هو أنني يجب أن أكون جاهزاً في أي وقت للرد على أي تعدي أو إساءة، لقد فهمت أنك إذا أردت الفوز يجب أن تقاتل للنهائية في كل معركة كما لو كانت المعركة الأخيرة والحاسمة. يجب أن تفترض عدم إمكانية الانسحاب وأنك ستقاتل للنهائية، تلك قاعدة درسوها لنا لاحقاً في الـ كي جي بي، ولكنني تعلمتها مبكراً في تلك المعارك عندما كنت طفلاً».

فلاديمير بوتين

كلمة «مير» من أهم الكلمات في اللغة الروسية لما تحملها من معاني عديدة ومؤثرة. مير: كلمة من الصعب ترجمتها لكلمة واحدة، فهي من الممكن أن تعني القرية، أو المجتمع، وفي نفس الوقت قد تعني السلام، أو العالم.

والاسم الروسي الشهير فلاديمير مزيج من كلمتي فلاديت بمعنى يملك ومير بمعنى العالم، «الرجل الذي يملك العالم». ولادة فلاديمير كانت معجزة بالنسبة لأبيه وأمه لعدة أسباب، زي أنهم كانوا على وشك الموت في الحرب، وإنه الابن الثالث بعد وفاة أخين، وكمان لأن والدته عمرها ٤١ سنة. ولذلك فرحوا بيه بشدة، ومن أول يوم له على وش الدنيا حاولوا يوفروا له طفولة هادئة ومستقرة وإن كانت لا تخلو من الفقر.

والده عضو في الحزب الشيوعي وعامل وممثل للحزب بأحد المصانع، بينما والدته اشتغلت كعاملة نظافة ومندوبة توصيل عيش، واشتغلت في أي وكل وظيفة تقدر تشتغلها من غير شهادة، وفي نفس الوقت تسمح لها تقضي أطول وقت ممكن مع ابنها اللي اعتبرته عوض من ربنا عن وفاة أخواته.

وبما إنها مسيحية متدينة، عمدت ابنها في الكنيسة الأرثوذكسية في السر وهو عنده سبع سنين لسبيين، الأول هو أن الكنيسة تم قمعها من النظام الشيوعي، وبعد كده تم تشجيعها على العمل والدعوة بشكل علني لرفع الروح المعنوية والتعبئة العسكرية بعد اندلاع الحرب، قبل ما يتم قمعها تاني بعد انتهائها. والثاني هو اعتناق والد فلاديمير الشديد للشيوعية بكل ما تقتضيه من علمانية، ورؤية للدين كأداة من أدوات السيطرة على الشعوب. وعلى الرغم من الاختلافات، الرابط بين ماريا وجوزها كان حبهم لابنهم الصغير وتعلقهم بيه لدرجة الخوف عليه حتى من الحضانة.

بوتين الصغير قضى طفولته في الشقة كطفل وحيد ومدلّل من الثلاث عائلات كلهم. قربه من العائلة اليهودية كان سبب محوري في مناعته ضد البروباغاندا العنصرية ضد اليهود المنتشرة في روسيا في الوقت ده، ولما كبر شوية العالم بتاعه وسع وشمل المبنى كله بالحديقة المحيطة به، ولكنها حديقة خالية من الأشجار، زيتها زي المحلات الخالية من البضائع، علامة على مدى الضرر اللي لحق بالمدينة خلال الحرب، ومعاناتها للنهوض بعدها. نزول بوتين للساحة اللي قدام البيت كان أول احتكاك له مع العالم الخارجي، هناك شاف مجموعة من المدمنين والسكارى خلته ميحبش الخمر والسجائر من سن صغير، وقعد فترة طويلة وسيلة الترفيه الوحيدة له هو وأصحابه هي مطاردة الفئران في المبنى لقتلهم.

وفي يوم من الأيام فضل يجري ورا فار لحد ما زنقه في ركن، وفجأة الفار لف ورمى نفسه عليه، فبوتين اترعب وهو اللي طلح يجري منه!

الفأر تحول من الدفاع للهجوم بعد إدراكه استحالة الهروب، في أول درس للطفل الصغير إن عدم وجود مجال لإنقاذ ماء الوجه وتفادي المواجهة ممكن يؤدي لقتال شرس وغير متوقع، مفيش أخطر من اللي معندوش حاجة يخسرها. زي ما قال الفنان عمرو واكد في فيلم إبراهيم الأبيض: «إبراهيم ميخافش إلا من الغشيم!». الموقف اتحفر في ذاكرة بوتين اللي بدأ يشكل مخزون من تجاربه في مدرسة الشارع، وبعد دخوله المدرسة بدأت شخصيته تتكون وتظهر بشكل أوضح.

جسمه الرفيع وطوله القصير خلوه عرضة للتنمر، فدخل في معارك لأنفه الأسباب لإثبات قوته ورجولته بغض النظر عن إمكانيات الخصم وقوته، لأن في الشارع القلب أهم من العضلات. ولو الخصم اللي أهانه ده شخص لا يمكن يغلبه، لأنه أحد المدرسين مثلاً، كان بيشعر بانفجار لا يتوقف من الغضب لعدم قدرته على رد الإساءة.

في إحدى المرات عمل حاجة غلط فالمدرس شده وجرجره خارج الفصل قدام زميله، بوتين دخل في حالة من الغضب الشديد، وكل ما زميله ينجحوا في تهدئته يرجع يفتكر اللي حصل ويغضب من أول وجديد، مش بس بيشتيل لأ ده كمان قادر على الاشتعال ذاتياً لمجرد تذكر حدث في الماضي.

زيه زي ال HR، لا بينسي ولا بيسامح. مع الوقت العراك بقى بالنسبة له نوع من أنواع التمرد على سيطرة الأهل وحزم الأب، اللي مكنش بيتردد في ضربه لتأديبه، لدرجة أنه في مرة ضربه بالحزام لمجرد تأخره بره البيت.

العصيان والتمرد امتدوا للدراسة فأهملها رغم إشادة المدرسين بذكائه، وبقى معروف كأحد مثيري الشغب في المدرسة. سمعته وفرت له حماية من التنمر وعملت له هيبه وسط الطلاب، ولكنه خسر بسببها احترام السلطات. لمدة ٣ سنين بوتين كان الطفل الوحيد اللي لم يرشح لدخول منظمة الرواد الصغار.

المنظمة مخصصة للأطفال من سن ١٠ ل ١٤ سنة، ودخولها يعتبر أول سلمة في طريق الترقى في الحزب الشيوعي. ولكن بوتين غير مهتم لا بالدراسة ولا بالحزب، كل اللي بييفكر فيه إزاي يبقى أقوى، فقرر يتعلم فنون قتالية عشان يبقى عنده إلى جانب القلب أو الشجاعة، العقل والعضلات، فانضم لفريق الملاكمة ولكنها معجبتهوش، مناخيره اتكسرت بعد أول تدريب فقرر ميلعبهاش تاني.

ولكن لما جرب السامبو، وهي اختصار روسي لجملة الدفاع عن النفس بلا أسلحة، انبهر بها، اللعبة مزيج من الجودو والمصارعة والكراتيه، فحبها لأنه حس أنها لايقة على طبيعة جسمه.

الأجسام الطويلة ممكن يبقى لها أفضلية في الضرب من مسافة، ولكن الأجسام القصيرة ميزتها الأكبر في الالتحام لأنها أقرب للأرض وبالتالي توازنها أعلى.

لما قال لأهله على هوايته الجديدة، عملوا زي أي أب وأم داعمين لقرارات أولادهم وعارضوها بشدة،

الأم خافت عليه واعتبرت القصة كلها سخافة لا تستحق النقاش، بينما الأب أصدر فرمان بمنعه من التدريب.

المدرّب اضطر يروح لهم البيت أكثر من مرة في محاولة مستميتة لإقناعهم مش بس بموهبة ابنهم، لكن كمان بأهمية الرياضة والدروس اللي هيتعلمها من ممارستها وتفيده في حياته.

والده عضو الحزب المخلص عارف إن الولد اتدلج ومحتاج انضباط، فافتتح أن يمكن بالفعل تكون أفضل طريقة لتهديبه هي الرياضة، فسمح له يروح التدريبات اليومية.

وبالفعل الرياضة كان لها تأثير السحر عليه، بوتين انبهر بالقوة اللي ممكن يستمدها من تعلم الفنون القتالية، فقرر يواظب عليها لحد ما يتقنها، واتضح لأول مرة في حياته أنه لما بيحط قدامه هدف مبيستسلمش لحد ما يحققه، فانتظم في

التدريب، وأكل كويس ونام كويس وبذل كل جهده عشان يتحسن، لدرجة أنه بدأ يهتم بالدراسة لأنه محتاج يحافظ على مستوى معين عشان ميتردش من الفريق.
وعملاً بصحة مقولة العقل السليم في الجسم السليم، تفوق في النادي وفي الفصل لدرجة أنه أصبح عضو في منظمة الرواد وبعد فترة بقى مدير فرع المنظمة في المدرسة كلها.
الرياضة تسببت في تحول جذري في شخصيته أسعد أهله وطمئنتهم أن ابنهم ماشي في الاتجاه الصحيح، ولكنهم مكانوش يعرفوا إنه على وشك المرور بتحول ثاني أكبر وأخطر، تحول هيكون له تأثير على أوروبا كلها، هيبدأ بمشاهدته لفيلم السياف والدرع.

السيف والدرع

«لقد أذهلني كثيراً كيف يمكن لقوة صغيرة، شخص واحد في الحقيقة، أن يحقق شيئاً لا يستطيع جيش بأكمله إنجازه، يمكن لضابط مخبرات واحد أن يتحكم في مصير الآلاف من الناس».

فلاديمير بوتين

سنة ١٩٦٥ في العيد العشرين لانتصار الاتحاد السوفيتي على ألمانيا النازية، البلد كانت بتمر بحالة من النوستالوجيا واليوفوريا الوطنية، فانتشرت الأفلام والروايات التي تتكلم عن فترة الحرب وما قبلها، أشهرهم على الإطلاق كانت رواية الجاسوسية:

The Sword and the Shield

أو السيف والدرع للكاتب فاديم كوزفنيكوف التي اشتغل كمراسل أثناء الحرب، فكتب رائعة أدبية بلامح واقعية عن الجاسوس الروسي ألكسندر بيلوف التي عاش في ألمانيا وانضم للمخابرات الحربية النازية أو ال «شوتزشتافل» Schutzstaffel المرعبة المعروفة بال SS، وعاش حياة مزدوجة أقرب لحياة رأفت الهجان. من جوة شيوعي ومن برة نازي، أسهم من خلال عمله وتضحياته في انتصار الجيش الأحمر، الرواية نشرت على شكل سلسلة في مجلة Znamya أو الراية، مجلة اتحاد الكتاب التي يرأسه كوزفنيكوف، الرواية نجحت نجاح ساحق بسبب تفاصيلها الواقعية وتوافقها مع البروباغندا الرسمية للحزب، على عكس رواية Life and Fate أو الحب والقدر لفاسيلي جروسمان التي كوزفنيكوف أسهم في منعها؛ لأنها غير متوافقة مع البروباغندا الرسمية، رغم أنها أكثر واقعية.

رواية السيف والدرع كسرت الدنيا وباعت نسخ أكثر من الفيل الأزرق، فاتحولت لفيلم طوله خمس ساعات أصبح أنجح فيلم في تاريخ الاتحاد السوفيتي كله بعد عرضه سنة ١٩٦٨.

بوتين دخل الفيلم هو وأصحابه وخرج في حالة من الإعجاب تصل إلى الانتشاء من شدة الروعة، فدخله أكثر من مرة، وكل مرة ينهر من قوة جهاز ال كي جي بي، ومن قدرة شخص واحد فقط في التأثير على حياة الملايين، الشخص الذي كل هدفه في الحياة يبقى قوي طبيعي يجذب للقوة.

طول عمره بيتعلم إزاي يقدر يتغلب على فرد، دلوقتي عرف أنه ممكن يتغلب على مؤسسات ودول بأكملها، وأدرك وجود قوة طاغية، غير مرئية ولكنها في كل مكان زيها زي الجاذبية، قوة مهولة متحركة في كل شيء، مكنش يتخيّل إنها موجودة أو حتى ممكنة، فحسم أمره لما تيقن إن ده اللي عايز يعمل بقية حياته، وقرر ينضم لل كي جي بي.

بوتين مكنش يعرف تاريخ ال كي جي بي القمعي، ولا يعرف إن الفيلم جزء من جهود رئيس الجهاز الجديد يوري أندروبوف لتحسين صورته، وإظهاره في صورة حامي حمى الوطن بعد عقود من ترسيخ سمعته كسجان؛ ولذلك تاني يوم من قراره، راح مقر ال كي جي بي في لينينغراد.

المبنى صغير الحجم وضخم التأثير له هيبية في نفوس المارة، وصعب الوصول لمدخله من أول مرة، بوتين فضل يدور لحد ما لفت انتباه أحد الضباط، فدخله وقعد معاه.

بوتين قاله إنه عايز يخدم البلد ويتطوع في المنظمة، فالضابط قاله تطوع فين؟

حد قالك إن إحنا بنوزع شط رمضان؟

وتعجب بوحدة بقى وتقولها ابقى صحنى أصلي الفجر؟

أنت فاكرنا اتحاد الطلبة يلا؟!

الجهاز ميقبلش متطوعين، هو اللي بيخاطب الأفراد المهتم بتجنيدهم سواء في الجامعة أو في الجيش.

فبوتين ماستسلمش وسأله عن التخصصات اللي المنظمة بتحتاجها عشان يدرسها في الجامعة، فالضابط في محاولة أنه يتخلص منه قاله يدرس قانون.

بوتين خد النصيحة بجدية وقرّر يذاكر عشان يدخل كلية حقوق، وعلق في البيت صورة ضخمة لرجل مجهول الهوية. واحد من أصدقائه شاف الصورة وقاله مين ده؟ محمد رمضان؟

قاله لا ده يان بيرزين، بطل الثورة ومؤسس المخابرات الحربية البلشفية.

ستالين قبض عليه سنة ١٩٣٧ بتهمة الخيانة وأعدمه بعدها، قبل ما تتم تبرئته بعد وفاته.

هوس بوتين بالانضمام لل كي جي بي كان بيزيد كل يوم، ولكنه عمل زي أي جاسوس محترم وحافظ على سرية رغبتة حتى مع أقرب الناس له، وبدأ يأخذ كل الخطوات الممكنة لتحقيق هدفه.

آخر سنتين من المرحلة المدرسية، اللي مدتها عشر سنين فقط على عكس أمريكا اللي الدراسة فيها ١٢ سنة، اختار يدرس أدب وتاريخ لغة ألمانية رغم اعتراض والده اللي كان يفضل دراسته لمواد فنية تؤهله للالتحاق بكلية هندسة.

ولكن بوتين زي القطر، ماشي في خط مستقيم لا بيجود ولا بيرجع للوراء.

وبالفعل سنة ١٩٧٠ تخرج بتقدير امتياز في اللغة الألمانية والتاريخ والتربية الرياضية، وجيد في الجغرافيا والأدب واللغة الروسية، ومقبول في باقي المواد العلمية، وقدم للالتحاق بكلية حقوق في جامعة لينينغراد المرموقة، أحد أفضل الجامعات في الاتحاد السوفيتي.

نسب القبول في الجامعة ضعيفة جدًا، واحد من ضمن كل أربعين متقدم فقط هو اللي بيتقبل. المفاجأة أنه اتقبل رغم درجاته المتوسطة بشكل يوحى باحتمالية وجود يد خفية ساعدت على القبول.

وللأسف في ظل غياب وثائق معتمدة أو مصادر مؤكدة فلا يمكن معرفة السبب على وجه التحديد، ولكن مرجح يكون واحد من ثلاث احتمالات:

الأول هو الحظ والتوفيق.

وارد تكون درجاته وتقاريره النهائية نالت إعجاب لجنة القبول.

الثاني هو الضابط اللي قابله لما راح مقر الجهاز.

صعب يحصل موقف زي ده من غير ما يتكتب تقرير عنه، وربما كان الجهاز حاطط عينه عليه من ساعتها وقرر يساعده لكسب عنصر محل ثقة في دوائر النخبة.

أما الاحتمال الثالث فهو دخوله بسبب والده.

رغم عمله في مصنع لإنتاج عربات القطر، ورغم معاناة الأسرة المادية زي أغلب الأسر الروسية، إلا أنهم في الحقيقة كانوا أحسن من غيرهم كثير.

الأسرة صحيح عايشة في شقة مشتركة، لكن عندهم تلفزيون، وعندهم Dacha أو شاليه بسيط خارج المدينة لقضاء الصيف وعطلات نهاية الأسبوع.

والأهم من كل ده، أن عندهم تلفون.

الحصول على تلفون خاص في الوقت ده شيء نادر وفي منتهى الصعوبة.

محدث عارف على وجه التحديد إذا كان والده انضم لجهاز المخابرات من قبل الحرب، ومفيش معلومات مؤكدة عن استمراره فيه بعدها.

كل المعروف هو وجود ما يسمى بال Active Reserves أو الاحتياطي النشط، أحد أضخم أفرع جهاز الكي جي بي، بيضم كل الأعضاء السابقين حتى بعد مغادرتهم وعملهم في مؤسسات مدنية، بشكل يسمح للجهاز بتتبع ما يحدث في كافة أركان الاتحاد، وفي نفس الوقت يسمح للأفراد بالحصول على دخل إضافي هم في أمس الحاجة له، مقابل تقارير بسيطة عن جيرانهم وزمائيلهم.

وده ممكن يفسر وجود عملة نادرة زي التليفون في بيت عامل بسيط زي والد بوتين. كلها احتمالات، لكن الأكيد أن بوتين أصبح على بعد خطوة من حمل الدرع وسل السيف. وفي الجامعة بوتين قضى كل وقته في الدراسة والرياضة. شاب نشيط وشجاع ومليان طاقة، شارك في بطولات جودو في شتى أنحاء الاتحاد السوفيتي، ورفض الانضمام لفريق الجامعة عشان يفضل يلعب مع فريقه القديم في نادي العمال، عنده ولاء بيخليه لا يقبل إلا الولاء، الخيانة بالنسبة له أشد من القتل، بينما الفنون القتالية قانون، وسيلة لوضع القواعد وفرض النظام في عالم بلا نظام. بدأ يقتنع في الوقت ده أن الأمن والاستقرار أهم ألف مرة من الأيديولوجيا، أما البنات والخمرة والسجائر فمجرد تشتيت للتركيز وضياح للوقت.

وفي الإجازة الصيفية اشتغل في أعمال البناء، لتوفير بعض المال اللي في الأغلب كان بيصرفه على المتعة الشخصية. أول صيف بعد ما خلص شغل سافر جورجيا وصرف كل اللي حوشه خلال عدة أيام على ساحل البحر الأسود. وتاني صيف اشترى معطف غالي، وبباقي الفلوس اشترى تورتة لوالدته، تحت شعار الفلوس مش كل حاجة يا أمي، ومع العودة للدراسة الحاجة الوحيدة اللي قدرت تجذبه باستثناء الرياضة هي الموسيقى. زي باقي شباب الاتحاد السوفيتي كان بيسمع شرائط فريق البيتلز المهربة، ولعب لفترة الأورديون والجيتار. الموسيقى جسر بين الشرق والغرب في زمن بلا جسور، فوفرت له شعور نادر بالحرية مزادش منه غير إهداء مامته ليه لعربية كسبتها في اليانصيب، فبقى من ضمن مجموعة فائقة الصغر تملك سيارات خاصة في الاتحاد السوفيتي. ورغم أنه طالب جاد إلا أنه كان سائق متهور، قلبه ميت ومستعد ياخذ مخاطرات غير محسوبة.

وفي نفس الوقت بيحاول ياخذ بكل الأسباب اللي ممكن تحقق حلمه. من أول يوم بيفكر إيه المواد اللي ممكن تساعده للانضمام للجهاز. تحت قيادة أندروبوف الكي جي بي كان في سباق مع الزمن للحاق بالغرب المتفوق اقتصادياً، فبدأ في تعيين خبراء في الاقتصاد والعلوم السياسية والتجارة الدولية.

بوتين سجل في مادة قانون التجارة الدولية مع أحد نجوم أعضاء هيئة التدريس أناتولي سوبتشاك، سوبتشاك رجل وسيم وخطيب مفوه، بيدرس في أكاديمية الشرطة إلى جانب عمله في الجامعة. كتب رسالة دكتوراه داعمة للرأسمالية فتم رفضها في البداية، قبل ما يحصل على الدكتوراه ويكتب بعدها مجموعة من الكتب في الاقتصاد، فأصبح أول أستاذ قانون اقتصادي في الجامعة، بوتين درس مع سوبتشاك واختاره كمشرف على رسالة التخرج اللي كتبها عن أثر مبدأ Most favoured Nation أو الدولة المفضلة، وهو مبدأ شهير في التجارة الدولية بيمنع الدولة من التمييز بين شركائها التجاريين، وبيلزمها لو عاملت دولة ثانية بشكل مفضل تعامل باقي الدول بنفس الطريقة.

التزام مبهر وسعي ملفت لشاب عنده ٢٣ سنة، كان على موعد مع تحقيق حلمه في صيف سنة ١٩٧٥. في آخر سنة له في الجامعة، أحد الضباط تواصل معاه وبلغه بترشيحه للانضمام لجهاز ال كي جي بي بعد إجراء التحريات اللازمة، فتم عمل مقابلة مع والده اللي اطمنوا لكونه أب كادح من الطبقة الوسطى، حسن السير والسلوك، حاسس بفخر لتخرج ابنه وإكماله لتعليمه على عكسه هو ومراته.

والده قالهم أن فلاديمير، أو فولوديا زي ما كان بيدلعه، أغلى ما في حياته هو ومراته، لأنه ابنه الوحيد اللي اتولد بعد وفاة أولادهم الاثنين.

التحريات والمقابلة كانوا في صالح بوتين، فاتقبل في الجهاز وحقق حلمه بعد حوالي سبع سنين من مشاهدته لفيلم السيف والدرع، ولكنه فوجئ أن الواقع غير الأفلام، وأن الحياة أبعد ما تكون عن الأحلام.

موظف بدرجة جاسوس

«العمل مع الناس هو العمل الأكثر تعقيداً على وجه الأرض».

فلاديمير بوتين

بوتين انضم للكي جي بي بعد ما كبر وتوحّش على مدار السنين، وأصبح دولة داخل الدولة، بعد ما كان مجرد جهاز مخابرات، أصبح مسئول عن حماية القادة السياسيين، وإدارة الحدود والجمارك، بالإضافة لحماية المنشآت الحيوية والمواقع النووية. جهاز عملاق هدفه الرسمي خدمة الحزب الشيوعي، ولكنه أصبح في حد ذاته ثقل مضاد ومركز قوي آخر لا يقل أهمية عن الحزب نفسه اللي مكلف بحمايته.

رئيس الجهاز يوري أندروبوف كان سفير الاتحاد في المجر أثناء الثورة المجرية سنة ١٩٥٦، وشاف بعينه إزاي الثوار قتلوا أفراد البوليس السري وعلقوا جثثهم على العواميد في الشوارع.

المشهد اتحفر في ذاكرته وأقنعه أن الحل الوحيد لبقاء الاتحاد السوفيتي هو استخدام القوة بعناية، ولذلك كان حريص على تطوير وإصلاح الاتحاد وفي نفس الوقت مصمم على قمع أي شبهة تحدي للسلطة المركزية، لدرجة إنشائه مجموعة من المستشفيات النفسية سنة ١٩٦٩ لإيداع المعارضين، باعتبار أن المعارضة أكبر دليل على الأمراض العقلية! وعلى الرغم من معرفة بوتين بالتجاوزات بعد ما كبر، إلا أنه كان شايفها مجرد استثناءات من جهاز منافعه أكبر من أضراره؛ ولذلك بدأ العمل فيه بضمير مرتاح.

وبعد انتهائه من المدرسة التمهيدية، اللي اتعلم فيها قواعد وأساسيات العمل المخبراتي زي طرق التحقيق والمراقبة واستخلاص المعلومات، اتخرج برتبة ملازم واشتغل في قسم مكافحة التجسس (2) في لينينغراد، وهو القسم المسئول عن اكتشاف الجواسيس والعمليات التابعة لأجهزة المخابرات الأجنبية، المشكلة أن أغلب الأجانب في موسكو حيث السفارات والصفقات في قلب العاصمة.

بوتين تولى مسئولية متابعة العملاء الوطنيين إلى جانب مهمة كشف العملاء الأجانب، فكان من ضمن مهامه متابعة المخبرين السوفييت اللي بيسافروا للخارج في مهام رسمية زي الصحفيين والرياضيين.

المواطن في الاتحاد السوفيتي مترقب جوة وبرة. رغم أن التكنولوجيا تطورت وطرق المراقبة أصبحت أكثر تقدماً، إلا أن وسيلة المخابرات الأساسية كانت وستظل في نظر بوتين تجنيد العناصر البشرية أو المخبرين.

طبقاً لبوتين فإن ٩٠% من مخابرات ال كي جي بي مصدرها مدنيين بلغوا عن قرايبهم وأصدقائهم وزملائهم بشكل مباشر أو غير مباشر، لدرجة إنه قال في إحدى المرات:

«لا يمكنك فعل أي شيء بدون عملاء سريين» (3).

وعلى الرغم من أنه بيشتغل في وظيفة كان بيحلم يشتغلها من وهو في المدرسة، إلا أنه أدرك بعد وقت قليل إن وظيفته مختلفة بشكل كبير عن الفيلم اللي كان سبب في التحاقه بها.

الجهاز تضخم بشكل زاد من البيروقراطية وقلل من الكفاءة، لدرجة أنه بقى معروف في الأوساط المخبراتية الغربية بال Bloated Organization أو الجهاز المنتفخ!

عدد مهول من الموظفين بيصدروا كميات لا تعد ولا تحصى من المعلومات.

تسجيلات مكالمات وتقارير وقصاصات جرائد يتم جمعها ورفعها لقادة الحزب بشكل يومي، ولكنها معلومات بلا أي تحليل أو تعليق، زي العين اللي بتشوف ومبتفكرش.

معلومات أغلبها غير مفيد وغير مؤثر ولكن ده مش مهم؛ لأن عقيدة الجهاز قائمة على جمع المعلومات بغض النظر عن الجدوى أو القيمة، المهم كل مواطن يبقى عنده ملف مليون ممكن يتفتح عند اللزوم، دون ضرورة تأثير المعلومات دي على الإدارة السياسية.

المخابرات هنا لا تؤثر على السياسة، ولكن السياسة هي اللي بتوجه المخابرات. بالإضافة إن الأكشن كله في العاصمة موسكو، بينما هو شغال في الأقاليم، ومع ذلك كان بيشتغل بجهد وإخلاص ومبيشتكيش؛ لأنه عارف إن الطريقة الوحيدة للترقي هي إتمام العمل على أكمل وجه، ولما حد بيسأله بيشتغل فين؟ بيقول إنه ضابط في وزارة الداخلية.

ولو حد من أصدقائه المقربين شكك في إجابته وضغط عليه، يقول له إنه متخصص في الموارد البشرية أو ال HR، باعتبار أن ال HR وال كي جي بي وجهان لعملة واحدة.

وهكذا من وظيفة لوظيفة، ومن ترقية لترقية، بوتين استمر في العمل بكل جهد، ومع ذلك وضعه المادي والمهني مكنش قد كده، متواضع في أقصى تقدير.

بوتين فضل معندوش غرفة خاصة به لحد ما والده أحيل للتقاعد وخذ شقة أوضتين وصالة تقديراً لإصابته في الحرب وهو عنده ٢٥ سنة.

وفي ظل حالة السلم اللي سادت العلاقات السوفيتية الأمريكية في السبعينيات، عاش حياة رتيبة هادئة كأنه شغال محاسب، بيروح الكي جي بي كل يوم الصبح ويرجع ببطيخة.

ومع ذلك، البحث عن العملاء والأجندات المعادية لم يتوقف لحظة.

وكعادة الحياة السلام لم يستمر طويلاً، وشرارة الحرب المرة دي بدأت في أفغانستان.

² Counterintelligence.

³ You can't do anything without secret agents!

مقبرة الغزاة

«لدينا الآن الفرصة لإعطاء الاتحاد السوفيتي حرب فيتنام الخاصة به».

مستشار الأمن القومي الأمريكي زيجنيف بريجنسكي في خطاب للرئيس جيمي كارتر.

رغم أن أفغانستان واحدة من ضمن عدة دول أطلق عليها لقب مقبرة الغزاة كناية عن صعوبة احتلالها، إلا أنها كانت في الحقيقة مطمئناً للغزاة وهدفاً دائماً لهم بسبب موقعها المتميز في وسط آسيا، وبسبب غياب حدود طبيعية تمنع تقدم الجيوش من كل جانب.

عبر تاريخها، أفغانستان التي لم تصبح دولة موحدة إلا في القرن الثامن عشر، احتلها ليف من ألمع الغزاة زي الملك الفارسي داريوس، والإسكندر الأكبر، وجنكيز خان.

وبعد احتلال بريطانيا للهند، حاولت تأمينها من الغزو الروسي عن طريق احتلال أفغانستان كمنطقة عازلة في المنتصف، في فترة تعتبر النسخة الأقدم من الحرب الباردة عرفت باسم The Great Game أو اللعبة العظمى، التي بدأت سنة ١٨٣٠ واستمرت طوال القرن التاسع عشر.

بريطانيا حاربت أفغانستان مرتين وفي المرتين فشلت في إخضاعها بشكل كامل، ولكنها نجحت في تحقيق مكسب استراتيجي مهم، فبعد اتفاقها مع روسيا على ترسيم الحدود الأفغانية الشمالية بشكل ودي، سنة ١٨٩٣ الحكومة البريطانية في الهند نجحت في إقناع الحاكم الأفغاني الأمير عبد الرحمن خان بترسيم الحدود بين الهند وأفغانستان، ورسمت خط حدودي بطول ٢٦٤٠ كم سمي باسم وزير خارجية حكومة الهند الاستعمارية، البريطاني سير مورتيمر ديورند.

بريطانيا كانت مهتمة بترسيم الحدود لضمان إمكانية الدفاع عن الهند من مكان استراتيجي على الخطوط الجبلية في شرق أفغانستان.

المشكلة إن الخط ده قطع مجتمعات وأراضي شاسعة تخص قبائل البشتون، ولكن بريطانيا كما جرت العادة بترسم خطوط على الخرائط لحماية مصالحها بدون أي اعتبار لتأثير الخطوط دي سواء في الحاضر أو المستقبل.

الأمير عبد الرحمن وافق على التقسيم بما يعنيه من تنازل عن مساحة شاسعة من الأراضي الأفغانية لصالح مستعمرة الهند شرق الخط، ولكنه تنازل من لا يستطيع الرفض.

الأمير ييحكم بدعم من بريطانيا التي أنهت الحرب الأفغانية الثانية، ووافقت على توليه الحكم مقابل تخليه عن إدارة السياسة الخارجية لصالح بريطانيا، ولكن الأفغان شعب مقاتل صعب السيطرة عليه.

سنة ١٩١٩ الأمير الأفغاني أمان الله خان انتهز فرصة ضعف بريطانيا المنهكة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وأعلن استقلال أفغانستان، وفي مفاجأة للجميع حشد قواته وبدأ الزحف نحو الشرق لمهاجمة القوات البريطانية في الهند واستعادة الأرض الأفغانية، ولكن رد بريطانيا كان عنيف.

الأمير فشل في استعادة الأرض ولكنه نجح في توقيع معاهدة سلام مع بريطانيا استعاد بيها استقلال أفغانستان وحققها في إدارة سياستها الخارجية، التي ربما كانت الهدف من البداية بينما استعادة الأرض مجرد كارت لإجبار بريطانيا على التفاوض.

الحكم انتقل بعدها بين عدد من الأيدي بسبب مزيج من الثورات والتمردات والاضطرابات، إلى أن تولى الملك محمد ظاهر شاه الحكم سنة ١٩٣٣، عاشت البلد في عهده فترة من الرخاء والسلام والنمو استمرت ٤٠ سنة.

شاه قام بتحديث مؤسسات الصحة والتعليم وحقق مستوى غير مسبوق من النمو الاقتصادي، ولكن مع بداية السبعينات الاقتصاد بدأ يعاني، حالة جفاف غير مسبوق أدت إلى مجاعة مؤلمة.

سنة ١٩٧٣ الملك سافر في رحلة علاجية، فقريبه وأخو مراته، رئيس الوزراء السابق محمد داوود خان، أعلن انقلابه على الحكم ولغى الملكية، وعين نفسه رئيساً لجمهورية أفغانستان.

ليه بعد فترة رخاء واستقرار يحصل انقلاب عسكري ومن أحد أعضاء العائلة المالكة؟ يرجح لسببين: إما بسبب انقسام في العائلة المالكة، أو بسبب مؤامرة من الشيوعيين، فأتثناء عمله كرئيس وزراء في الخمسينيات وبداية الستينيات، خان كان من أشد المنادين بعودة أراضي البشتون إلى أفغانستان، مما أدى إلى توتر العلاقات مع باكستان التي ورثت الأرض البشتونية بعد انفصالها عن الهند واستقلالها عن بريطانيا سنة ١٩٤٧. باكستان وبريطانيا رفضوا طلب أفغانستان بإعطاء البشتون حق تقرير المصير؛ لأن انفصال البشتون معناه تنازل باكستان عن جزء كبير من أرضها؛ ولذلك الأمر مرفوض تمامًا، والملك أدرك أنه محتاج يضحى بيه من أجل إنقاذ علاقته مع الجار، فأقاله من منصبه سنة ١٩٦٣، وأصدر تعديلاً دستورياً ييمنع أي حد من أعضاء العائلة المالكة من تولي مناصب حكومية. ده بالنسبة للخلافات العائلية، أما بالنسبة للمؤامرات الشيوعية فعلى الرغم من رضا الاتحاد السوفيتي عن الملك وتعاونه معاه في مشاريع البنية التحتية، بريجنيف بدأ يشعر بالقلق من رئيس الوزراء الدكتور موسى شفيق، شفيق كان بينادي بتحديث الاقتصاد الأفغاني على النموذج الغربي، وطالب بتحسين العلاقات مع إيران ومع أمريكا، اللي بالفعل كانت بتستثمر في مشاريع بنية تحتية وبتقدم معونات اقتصادية رغم معرفتها بتلقي أفغانستان لمعونات من الاتحاد السوفيتي، ده إلى جانب سمعته كعالم إسلامي معادي للشيوعية. محدش عارف السبب الحقيقي وراء الانقلاب، لكن المؤكد أنه فشل في تحقيق أهدافه عن طريق ارتكاب مجموعة من الأخطاء القاتلة.

الخطأ الأول هو إلغاء الملكية في بلد محافظ محب للتقاليد، أفغانستان تُحكم بالملكية بشكل أو بآخر منذ عام ١٧٤٧. الملك مهما كان عنده مشاكل إلا إنه له هيبه، وبيرمز للاستقرار واتصال الماضي بالحاضر، خان في محاولة لفرض بداية جديدة، ومحو ماضي صعب يُمحي من الأذهان، غير العلم، والنشيد، وورق البنكوت، ولكن بدل ما الشعب يشعر بدخوله في عهد جديد ويفرح لتأسيسه جمهورية جديدة، أغلبهم شاف التغييرات دي إهدار للموارد ومحاولة بائسة لكسب شرعية من نظام بلا شرعية.

عزل الملك وتغيير نظام الحكم تسبب في زلزالٍ مدوّ فجّر طاقات مكبوتة مكنتش تقدر تطلع أمام الملك، ولكن الآن أصبح لها فرصة أمام رئيس يزعم أنه ديمقراطي.

مش ديموقراطي، طب قابل بقى!

الخطأ الثاني هو تخليه عن الديمقراطية، تغنى بها في العلن ووأدها في السر.

اللي بعض الأحزاب هيقبلوه من الملك، مش هيقبلوه من رئيس، وخان كان ملكي أكثر من الملك نفسه. حل الأحزاب اللي كان مسموح بها أيام الملك، وقبض على المعارضين ومن ضمنهم اليساريين اللي دعموه في انقلابه وقلب عليهم أول ما احتياجه لهم انتهى. اعتقال شخص واحد بيخلص السلطة من أذى محتمل لفرد، ولكنه بيكسبها عداوة عشر أفراد.

كل شخص من الآلاف اللي دخلوا السجن له أهل وأصدقاء وجيران وزمائل، سجنه بلا جريمة بيخلق ضغينة في نفوسهم بتتراكم مع مرور الأيام، وكأن أسرع طريقة لتسييس الشعب هي معاقبته على ممارسة السياسة.

أما الخطأ الثالث وده الأخطر هو تسييس القوات المسلحة.

في سبيل الانقلاب على قريبه خان كان محتاج يضمن ولاء الجيش، وبالفعل الانقلاب كان مدعوم بعدد من كبار الضباط اللي كافتهم بمرتبات وترقيات ومزايا خلوا المشاركة في انقلاب بالنسبة لزمائلهم فرصة لا تعوّض لتأمين مستقبلهم. إلى جانب أنه ضرب مثال عملي للمعارضة أن اللي معاه الجيش ميتضربش على بطنه، فبدأت بعض القوى السياسية في محاولة لكسب الضباط وتجنيدهم، وعلى رأسهم الحزب الشيوعي الديمقراطي.

الحزب تأسس في الستينيات بعد سماح الملك بتأسيس الأحزاب، وبعد كده انشق لجبهتين كل واحدة منهم على اسم الجريدة بتاعتها: الخلق وبرشام.

الجهتين اتوحدوا بسبب قمع خان وتشجيع الاتحاد السوفيتي على العمل المشترك ضد خان بعد ما بدأ يتبع سياسة موالية للغرب.

في بداية حكمه خان حاول يقنع حلفاء باكستان، زي إيران وأمريكا والعالم العربي، إنهم يدعموا قضية البشتون، ولما أدرك أن ده مش هيحصل، بدأ يميل تجاه موسكو على أمل أنها توفر له السلاح والدعم الدبلوماسي، ولما أدرك متأخرًا أن الاتحاد مش هيساعد في المواجهة، وأنه مجرد بيستغل احتياجه له لبسط نفوذه مش أكثر قرر يعكس الدفة مرة ثانية ناحية المعسكر الغربي، فالإتحاد السوفيتي حس إنه على وشك خسارة دولة ذات أهمية استراتيجية، خسارة مش هيقبلها بعد خسارته لمصر، وقرار الرئيس أنور السادات بتقوية علاقته بالولايات المتحدة، اللي قال إنها تملك ٩٩% من أوراق اللعبة فيما يخص حل مشاكل الشرق الأوسط. وهكذا اكتملت العناصر في الداخل والخارج للخلاص من خان، اللي كل يوم، بالعنف والعند، كان يبيلف الحبل أكثر حوالين رقبتة.

نار مستعرة تحت الرماد، وانفجارها كان في ١٧ أبريل ١٩٧٨. بعد اغتيال مير أكبر خان، عضو حزب الشعب الديمقراطي وأشهر معارضي خان، آلاف المشيعين خرجوا في جنازته. الشرطة هاجمتهم فالناس نزلوا الشارع، والجنازة تحولت لموجة مظاهرات عارمة. خان أمر قواته بالاشتباك مع المتظاهرين، وطلب من فرقة دبابات حصار القصر الجمهوري لحمايته، ومكنش يعرف إن عدد كبير من الضباط أعضاء في الحزب ومتعاطفين مع المتظاهرين. الدبابات اتحركت بالفعل، وبعد ما أخذت مواقعها، وجهت المدافع على القصر، خان حاول يقاوم ولكن بلا فائدة، وتم قتله هو وعائلته بالكامل في أحداث دموية مات فيها أكثر من ٢٠٠٠ واحد وعرفت باسم ثورة «ثور»، وهو اسم الشهرة في النتيجة الإيرانية باللغة الأفغانية.

ولكن كعادة التحالفات اللي بتقوم على هدف واحد، التحالف لا يستمر طويلًا بعد تحقيق الهدف، بالذات لو كان الهدف ده التخلص من شخص ساب وراه فراغ في السلطة.

قادة جبهة الخلق المدعومة من القوات المسلحة استحوذوا على الحكم. نور محمد تراقي تولى الرئاسة، وعين حفيظ الله أمينيًا كالرجل الثاني، أما البرشام فتخلصوا منهم واحد ورا الثاني، إما بالحبس أو بالإرسال للخارج في مهام دبلوماسية.

وعشان يطمنون الراعي الرسمي للحزب أن الخلافات الداخلية لن تؤثر على السياسة الخارجية، وقعوا اتفاقية صداقة مع الاتحاد السوفيتي في ديسمبر ١٩٧٨.

الاتفاقية ضمنت عدم سخط الاتحاد، ولكنها أثبتت للعالم أن ثورة «ثور» انقلاب شيوعي، وأن أفغانستان كلها كام شهر وتدخل في فلك الاتحاد السوفيتي، ومين عارف؟ ممكن بعد فترة تدخل حزب وارسو، وهو حلف عسكري هدفه عمل ثقل معاكس لحلف الناتو.

أمريكا أعربت عن قلقها، ولكنها مكنتش عايزة تتسرع وتخسر الحكومة الجديدة قبل ما تديها فرصة وتشوف توجهاتها، عملاً بمبدأ شهير في السياسة الدولية اسمه: يا رب اخلف ظني! بالإضافة إنها مكنتش حابة تدخل في مواجهة مباشرة مع الاتحاد.

طرف واحد بس كان مستعد يدخل في مواجهة مع الحكومة والقوات المسلحة والاتحاد السوفيتي نفسه. طرف عانى من القهر السياسي تحت خان، وعانى من الإصلاحات الاشتراكية تحت تراقي.

طرف تحولت المقاومة بالنسبة له من رفاهية إلى فرض عين، يا ينجح فيه، يا يموت وهو بيحاول. مزارعين مسلمين بسطاء محدش يعرفهم، العالم كله عرفهم بعد كده باسم المجاهدين الأفغان. في نفس الفترة اللي شهدت انتشار الشيوعية، ظهر في أفغانستان حركات إسلامية بتنادي بالتمسك بالتعاليم الإسلامية كدرع

في مواجهة شطط الشيوعية وإفراط الرأسمالية.

فظهرت حركة الشباب الإسلامي في جامعة كابول، وسطح فيها نجم اثنين من أبرز طلابها شخصيتين عكس بعض تمامًا، جمعهم دراسة الهندسة وفرقتهم رؤيتهم للمجتمع المنشود: أحمد شاه مسعود، وقلب الدين حكمتيار.

مسعود مقتنع بالإسلام والديمقراطية ولا يجد تضاد بينهم، بينما حكمتيار مقتنع بالعنف كوسيلة لا بد منها لمقاومة المجتمع الكافر، اتقبض عليه سنة ١٩٧٢ بتهمة قتل طالب ماوي، يتبع فكر الزعيم الصيني ماو تسي تونج، قبل ما يفرج عنه سنة ١٩٧٣ بسبب عفو شامل أصدره خان في بداية حكمه قبل ما يكشف عن أنيابه.

ولما خرج انشق عن الجمعية الإسلامية المعتدلة وأسس منظمة متشددة باسم الحزب الإسلامي، زيه زي كثير غيره تأثر بأفكار سيد قطب عن ضرورة جهاد المجتمع الجاهلي، وزيه زي كثير غيره برضه مخدش في الاعتبار أن الأفكار دي صدرت بعد فترة سجن وتعذيب، وأنها أفكار في منتهى الخطورة، قادرة على القتل والظلم والتدمير؛ ولذلك يجب التعامل معها بحرص وتأني شديد، مش بس لأنها قضية حياة أو موت، لكن كمان لأنها قضية محاربة وحل دم مجتمع بأكمله، بتهمة دعم أو في أضعف الأحوال عدم مقاومة السلطة.

ولكن الشباب عاطفي، يشعر أكثر مما يفكر.

وقود بلا مقود.

ولكنه وقود كافي لتجنيد عدد كبير من الطلاب، وبالأخص في جامعة كابول.

بعد فترة من نمو منظمة الشباب عدد كبير من أعضائها انضموا لمنظمة الجمعية الإسلامية، اللي جمعتهم مع أعضاء هيئة التدريس أصحاب نفس الفكر زي برهان الدين رباني، أستاذ اللاهوت أو علم التوحيد، اللي سافر ودرس ماجستير فلسفة إسلامية في الأزهر قبل ما يرجع أفغانستان سنة ١٩٦٨.

عدد كبير من الطلاب والأساتذة اللي سافروا مصر للدراسة في الوقت ده تأثروا بنموذج جماعة الإخوان المسلمين، اللي أسسها حسن البنا سنة ١٩٢٨، وأصبحت خلال فترة قصيرة واحدة من أكبر الحركات الإسلامية في العالم عن طريق مزجها بين العمل الدعوي والخيري والسياسي، والمزج ده كان مصدر قوتها، وفي نفس الوقت نقطة ضعفها؛ لأن على قد ما الدعوى فادت السياسة، على قد ما السياسة أفسدت الدعوى.

ومع ذلك الطلاب الأفغان انبهروا بقدراتها التنظيمية، ورغبتها في إقامة حكومات إسلامية حول العالم كله.

خاصة أنها كانت بتمر بحالة من الانتعاش في السبعينيات تحت حكم الرئيس أنور السادات، بعد فترة ملاحقة وحظر تحت حكم الرئيس جمال عبد الناصر في الخمسينيات والستينيات، لا يوجد أفضل من اليمين لضرب اليسار، ولا أفضل من اليسار لضرب اليمين!

بعد انقلاب خان ومحاولة غلق المجال السياسي، تم سجن عدد كبير من أعضاء الحركات الإسلامية، فبعضهم زي رباني وحكمتيار هربوا لباكستان، اللي رحبت بيهم بعد إثارة خان لقضية البشتون.

جهاز المخابرات الباكستانية Inter-Services Intelligence أو ال ISI سمح لهم بالعمل من داخل باكستان ودعمهم بالمال والسلاح لإسقاط خان، ولكن بعد الانقلاب على خان المعارضة امتدت من الحركات الإسلامية لقطاع كبير من المجتمع غير المدفوع بفكر أو أيديولوجية، ولكن مدفوعًا بالرغبة في الحفاظ على عاداته والدفاع عن ممتلكاته.

الحكومة الشيوعية الجديدة أصدرت مجموعة من القرارات أشعلت فتيل الغضب في شتى أنحاء أفغانستان، رغم إنها قرارات قد تبدو في ظاهرها جيدة ومناصرة للفقراء.

قانون إصلاح الأراضي وإعادة تقسيمها يصب في مصلحة صغار الفلاحين ظاهريًا، ولكنه ضرهم واقعيًا، الفلاحين كانوا يعتمدوا على كبار الملاك في زراعة وبيع وتسويق منتجاتهم، القانون في نظر بعضهم أضر علاقتهم بيهم وخلاهم مش عارفين يعملوا إيه في المحصول؟

بينما إصلاح قانون الزواج اللي قلل المهر المطلوب أثار غضب الأهالي، اللي كثير منهم بيعتبر المهر تأمين لبناتهم من غدر

الزمان، خاصة في ظل عدم عمل معظمهم.

وهي دي مشكلة الحلول المعقدة والسياسات الجاهزة، في دليل على صحة مقولة:

لكل مشكلة معقدة هناك حل واضح، وبسيط، وخاطئ!

المشاكل المعقدة بحاجة لحلول شاملة، والحلول الشاملة محتاجة بحث ودراسة ومشاركة مجتمعية واسعة، فرض حلول على الناس دون دراسة واقعهم يبشعرهم بغضب من الاستعلاء عليهم، ويحرمهم من فرصة المشاركة في حل مشاكلهم. ده مش معناه أنهم دائماً صح.

أهل القرى هاجموا مناديب الحكومة لتشجيع تعليم البنات واعتبروها دعوة للفسق والفجور، المشكلة أن أهل الريف والقرى الصغيرة شافوا أن القرارات دي مش بس تعدي على حياتهم، لكن كمان تعدي على الإسلام وتعاليمه، فرفعوا راية الجهاد، وحملوا السلاح في وجه الحكومة بينما هي غارقة في صراعات داخلية.

لما المواطنين في القرى وشتى المحافظات خارج العاصمة بدأوا في حمل السلاح ضد الحكومة، تراقي وحفيظ الله انقسموا. تراقي فكر في التراجع بينما حفيظ الله لجأ للقمع، فبدل ما يقضي على المقاومة أشعلها، لدرجة أن في بعض التقديرات حوالي ٨٠% من مساحة أفغانستان أصبحوا خارج سيطرة الحكومة.

الاتحاد السوفيتي قلق من التطورات.

بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران سنة ١٩٧٩، من الوارد أن الثورة تنتهي بإقامة نظام إسلامي شبيه في أفغانستان، فقرروا دعم تراقي صاحب الميول الأكثر اعتدالاً والاستعداد الأكبر للتفاوض.

نائبه حفيظ الله حس أنه سيتم التضحية به فاغتال رئيسه في محاولة للانفراد بالسلطة وإقناع الاتحاد السوفيتي بعدم وجود بديل آخر أكثر صلاحية، ولكن الاتحاد بدل ما يدعمه قرر التخلص منه.

في نظر بريجنيف، المسلحين الإسلاميين اللي عرفوا باسم المجاهدين خطر لا بد التخلص منه، قبل ما صراعهم المسلح يلهم المسلمين في مناطق آسيا الوسطى داخل الاتحاد يشيلوا السلاح في وجه الاتحاد، ولكن قبل التخلص من المجاهدين يجب التخلص من حفيظ الله.

في اجتماع بين قادة الأجهزة الأمنية لمناقشة طرق التخلص من حفيظ الله أمين، ال كي جي بي اقترح استخدام سلاحه المفضل: السم.

وده لأنه بيشتغل بعد فترة من تجهيزه فبيدي فرصة كافية لمنفذ العملية للهرب، وفي نفس الوقت بيدي الاتحاد فرصة للإنكار، وبالفعل ال كي جي بي نجح في تسميمه، ولكن فشل في اغتياله، الراجل ما شاء الله صحته بقت كويسة، فورمة زي الفنان أمير كرارة!

ومع ذلك مفيش مشكلة، ما دام فشلنا في السم يبقى نجرب القنص.

حفيظ الله عرف إن حياته في خطر فزود عدد حراسه اللي بقم ماشيين معاه زي ظله، فخطة القنص هي كمان فشلت.

الاتحاد قال هنعمل إيه في الرؤساء اللي عايزين يعيشوا للأبد دول؟

فقرر الاتحاد يلجأ للخداع المباشر، فبلغوا حفيظ إن حياته في خطر من الجهاديين طول ما هو في قلب العاصمة، وطلبوا منه يروح قصر تاج بيج، أو التاج الكبير، في جنوب غرب كابول، بينما الهدف الحقيقي هو إبعاده عن قواته لتسهيل القضاء عليه.

حفيظ الله مشكش لحظة في نوايا الاتحاد اللي كان مقتنع أنه خايف عليه وبيحاول يحميه.

الكلام ده تقوله عن خطيبتك مش عن الاتحاد السوفيتي!

دبدوب في مواجهة دب، والدب لا يلعب ولا يروض!

بذهابه إلى قصر التاج الكبير، الفأر دخل برجله في المصيدة.

في القصر ال كي جي بي حطوا له سم في الأكل، المرة دي الجرعة أكبر ومع ذلك برضو مماتش.

حفيظ الله شرب كوكاكولا كثير مع الأكل فخففت السم بدرجة كبيرة.
ال كي جي بي قال إيه يا جماعة؟
الشرقاوي باعت لنا فاندام ولا إيه!
مبدهاش بقى، الراجل ده لازم يتضرب بالنار!
حفيظ الله عاش ولكنه تعب بشدة وأدرك أنه تعرض لمحاولة اغتيال، ولحد آخر لحظة كان مقتنع إن المجاهدين وخصومه السياسيين هما اللي بيحاولوا يسمموه، إنما الاتحاد السوفيتي ده قمر!
هيشك فيه ليه وهو لآخر لحظة بيتلقى منه معونة وعلاقتهم جيدة؟
حفيظ الله دخل في غيبوبة، بينما الاتحاد السوفيتي دخل أفغانستان.
يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٧٩ في ليلة الكريسماس، ٨٠ ألف عسكري سوفيتي، بالإضافة ل ١٨٠٠ دبابة و ٢٠٠٠ مدرعة، عبروا حدود أفغانستان.
الخطة اعتمدت على ثلاثة محاور، الأول هو فرض السيطرة على الأرض عن طريق الوجود داخل المدن الكبيرة والطرق الرئيسية.
الثاني هو السيطرة على العاصمة بسرعة خاطفة، عن طريق إسقاط مجموعات من مقاتلي المظلات في كابول لتأمين المنشآت الحيوية زي المطارات وشبكات الاتصال.
المطارات مهمة لعمل جسر جوي مع الاتحاد لنقل مزيد من الدعم والإمدادات، وشبكات الاتصال زي الإذاعة والتلفزيون ومقرات الحكومة والقواعد العسكرية، السيطرة عليهم هتخلق حالة من الارتباك والتخبط تضمن عدم تنسيق رد عسكري قوي ضد الغزو.
أما المحور الثالث والأخير فهو إرسال مجموعة من القوات الخاصة، المعروفة باسم السبيتسناز Spetsnaz، لتصفية حفيظ الله وحاشيته في قصر التاج الكبير.
الخطة نجحت نجاح ساحق.
على مدار عدة أسابيع المستشارين العسكريين السوفييت مهدوا للغزو عن طريق الأمر بتفريغ الأسلحة من الذخيرة والمراكب من الوقود بحجة القيام بالصيانة السنوية.
والجيش في حالة لا يرثي لها.
تصفية القادة لأسباب سياسية أضرت بالكفاءة القتالية.
فالعاصمة سقطت بسهولة، وتم تنصيب بابرak كارمال كرئيس لحكومة عميلة، أو [\(4\)](#) Puppet government، تحركها أصابع الاتحاد السوفيتي، سيد الظلام المتحكم في الخيوط.
سيد على وشك مواجهة أصعب خصم في تاريخه منذ مواجهة ألمانيا النازية سنة ١٩٤١ في الحرب العالمية الثانية.
وكعادة الأزمات، المواجهة بين المجاهدين والسوفيت تحولت إلى حرب بالوكالة.
في العلن، الرئيس الأمريكي جيمي كارتر أعلن عن انتهاء فترة ال [\(5\)](#) Détente، وفرض مجموعة من العقوبات الاقتصادية على الاتحاد السوفيتي شملت منع سفنه من الصيد داخل المياه الإقليمية الأمريكية، وحرمانه من التكنولوجيا ومعدات الزراعة الحديثة، بالإضافة لعدم المشاركة في أولمبياد موسكو سنة ١٩٨٠.
بينما في الخفاء، الولايات المتحدة قررت دعم المجاهدين بالمال والسلاح، بعد إدراكها وقوع الاتحاد السوفيتي في بركة من الوحل، وتورطه في مواجهة هتستمر سنين طويلة شديدة الشبه بحرب فيتنام، والدعم هنا يبدأ من باكستان.
سنة ١٩٧٧ انقلب الجنرال ضياء الحق على رئيس الوزراء الباكستاني علي بوتو، وواعد بإجراء انتخابات خلال ٩٠ يوم.
ولما التسعين يوم خلصوا قال يعني هي الانتخابات هتطير؟ الاستعجال ده اللي بيبوظ الدنيا.

فأجل الانتخابات لأجل غير مسمى، وأعدم علي بوتو حتى لا يكون هناك بديل سواء في الماضي أو في المستقبل.
كرد فعل حكومة كارتر ووقفت المساعدات لباكستان، خاصة في ظل تقارير مؤكدة عن سعي ضياء الحق لعمل قنبلة نووية،
ولكن الوضع اختلف تمامًا بعد الغزو السوفيتي.
في خلال أيام من الغزو الرئيس الأمريكي اتصل بجنرال ضياء الحق ووعدته بمئات الملايين من الدولارات من المساعدات مقابل
دعم المجاهدين اللي عدد كبير منهم متخذ باكستان قاعدة لشن الهجمات على الاتحاد السوفيتي.
الجنرال اليميني المحافظ وافق على العرض، كل اللي طلبه تعهد الولايات بحمايته في حالة تعرضه لهجوم انتقامي من
السوفيت وضربهم لقواعد المجاهدين داخل حدوده.
وبعد انتخاب الرئيس رونالد ريجان نجح في زيادة حجم المساعدات لدرجة إن باكستان أصبحت ثالث أكبر دولة متلقية
للمساعدات الأمريكية في العالم.
ولكن ريجان كان في حاجة إلى دعم إعلامي لتبرير المساعدات الاقتصادية، فاستضاف مجموعة من المجاهدين في البيت
الأبيض سنة ١٩٨٣، وأقنع الكونغرس إن ضياء الحق حليف مهم في الصراع ضد الاتحاد السوفيتي.
الله!

مش ده الديكتاتور اللي بينتهك حقوق الإنسان ومش راضي يعمل انتخابات؟
لا تقل ديكتاتور، ولكن قل مناضل من أجل الحرية.
إخواني، لقد تسرعنا في الحكم على باكستان!



وهكذا الاتحاد اللي كان فاكر أنه داخل يحارب شوية فلاحين بأسلحة بدائية، فوجئ إنه بيحارب أمريكا، وبدأ العالم يتحدث
عن موعد الحرب العالمية الثالثة!

[4](#) Puppet تعني عروسة أو دمية في مسرح العرائس، والتعبير يقصد به حكومة عميلة يتم التحكم فيها من الخارج.

[5](#) كلمة فرنسية تعني الانفراج أو نهاية التوتر، عرفها وزير الخارجية هنري كيسنجر في خطابه للكونغرس عام ١٩٧٤ على أنها طريقة للتعامل مع دولة معادية تضمن الحفاظ على السلام، وفي نفس الوقت حماية
المصالح الحيوية. الكلمة تشير إلى فترة هدوء واستقرار في العلاقات الأمريكية السوفيتية من نهاية الستينيات إلى نهاية السبعينيات، شهدت توقيع عدد من الاتفاقيات لحد انتشار الأسلحة النووية بين

البلدين، بعد أن كانوا على وشك الدخول في حرب نووية أثناء أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢.

حرب النجوم

«أعزائي المواطنين الأمريكيين، يسعدني أن أخبركم أنني وقعت اليوم على تشريع سيحظر روسيا إلى الأبد، سنبداً القصف خلال خمس دقائق»

الرئيس رونالد ريجان

بعد انتخاب رونالد ريجان كرئيس للولايات المتحدة، الاتحاد السوفيتي أعلن حالة الطوارئ. في خطاب أمام البرلمان البريطاني سنة ١٩٨٢، ريجان توقع انتصار الديمقراطية والحرية على الماركسية اللينينية، التي هيتهني بها الأمر في مزبلة التاريخ!

وبعدها في مارس سنة ١٩٨٣ ريجان وصف الاتحاد السوفيتي بإمبراطورية الشر⁽⁶⁾. في خطاب أمام مجموعة من الإنجليين، رفض فيه مطالب بعض الجهات الأمريكية بوضع حد على الأسلحة النووية، باعتبار إن القوى العسكرية هي الوسيلة الوحيدة للدفاع عن النفس أمام المد الشيوعي غير الأخلاقي، التي يعتبر المبادئ أقل أهمية من الحرب الطبقة. وعلى الرغم من ردود الأفعال السوفيتية الغاضبة، ريجان أعلن في نفس الشهر عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي، البرنامج التي عرف بعد كده باسم Star Wars⁽⁷⁾ عبارة عن شبكة من الأقمار الصناعية هدفها رصد وتدمير الصواريخ الباليستية السوفيتية لمنع أي هجوم نووي من الاتحاد السوفيتي.

في السابق العائق الوحيد أمام تحول الحرب الباردة لحرب ساخنة هو مفهوم الدمار المؤكد المتبادل⁽⁸⁾. الدفاع ضد الصواريخ الباليستية معناها عدم قدرة الكرملين على شن هجوم مضاد، وده ملوش معنى في نظر الكرملين غير رغبة الولايات المتحدة في توجيه ضربة استباقية للقضاء على الاتحاد السوفيتي! البرنامج الطموح كان سابق سنه ولم يخرج للنور، ولكنه نجح في رفع الاستعدادات القصوى تجاه حرب نووية محتملة، ليس فقط داخل الاتحاد ولكن في أوروبا كلها.

في إحدى ألعاب الحرب البريطانية لمحاكاة رد الفعل تجاه هجوم نووي سوفيتي، تم تجهيز خطاب للملكة إليزابيث بعنوان الحرب العالمية الثالثة، لإلقائه أمام الشعب البريطاني فور بداية الحرب.

وسنة ١٩٨٤ في واحدة من أشهر حوادث الميكروفون الساخن، أثناء الاستعداد لإلقاء خطاب من داخل مزرعته بكاليفورنيا، رونالد ريجان صاحب الحس الفكاهي العالي، حب يهرج مع مهندسين الصوت، فقالهم إنه وقّع تشريع معادي لروسيا، وإن الولايات المتحدة هتبدأ في القصف خلال خمس دقائق، ومكنش واخذ باله إن الميكروفون شغال.

محدث استبعد إمكانية الدخول في حرب في أمريكا، ولكن محدش ضحك على الإطلاق في الاتحاد السوفيتي! الموضوع اتلم واتعرف إنه كان مجرد إقفيه من الرئيس، ولكنه وضّح إن في الأجواء دي لا بد أن تكون الأولوية فيها لعمليات الجاسوسية، العالم على بعد شعرة من الحرب.

المشكلة إن بوتين بعيد كل البعد عن قلب الأحداث في موسكو، وقاعد بيصور ورق في لينينغراد، وعلى الرغم من تميزه في العمل إلا إن عنده عيب قاتل بالنسبة لأي جاسوس: تم ٢٨ سنة وما زال غير متزوج.

ال كي جي بي لا يسمح بوجود عملاء عندهم⁽⁹⁾ Fear of commitment.

العزوبية أخطر من الرأسمالية، وعقلية ال⁽¹⁰⁾ Single and ready to mingle في منتهى الخطورة. الزواج بالنسبة لل كي جي بي حماية للعميل من الوقوع في قبضة الأجهزة المعادية التي ممكن يحاولوا يستدرجوه بالحسنات الجميلات، وفي نفس الوقت حماية منه هو شخصياً، الزواج عامل زي مرساة السفينة، هيثقل العميل ويربطه

بروسيا إلى الأبد.

ولما أدرك إن حالته الاجتماعية قد تكون سبب في ركود حياته العملية، قرر يكمل نص دينه، واتجوز ليودميلا. ليودميلا مضيئة طيران جميلة أعجب بها سنة ١٩٨٠، وعلى غير المعتاد في المجتمع الروسي، ارتبطوا بشكل غير رسمي لمدة ٣ سنوات لحد ما اتجوزوا سنة ١٩٨٣.

العروسين سافروا لقضاء شهر العسل في جنة الله على الأرض: أوكرانيا، فزاروا كييف ومن بعدها راحوا جزيرة القرم اللي بوتين اعتبرها قطعة من الجنة لجمال طبيعتها وشواطئها وجوها. وما رجع وكما توقّع، تم استدعاؤه لأهم مدرسة لتجهيز ضباط المخبرات في الاتحاد السوفيتي كله: مدرسة الراية الحمراء، فيما يعد أول خطوة في طريق السفر للعمل في الخارج.

المدرسة شديدة الأهمية، مبيدخهاش غير عليّة القوم من أبناء قادة الحزب ورجال ال كي جي بي لإن شهادتها قوة دفع لا يستهان بها إلى الأمام، وممنوع دخولها لليهود وتثار القرم والشيشان، وأسأتذتها من أمثال يوري مودين من أهم أسباب سمعتها اللامعة، مودين آخر ضابط اتصال مع مجموعة من خريجي جامعة كيمبريدج في بريطانيا، اتعرفوا باسم

magnificent⁽¹¹⁾، وقدروا يخرقوا صفوف السلطة البريطانية في انتصار مدوي للمخبرات السوفيتية.

كل ده خلى بوتين في منتهى السعادة، وحس إنه بعد ما وصل لحيطه سد في لينينغراد، أصبح على وشك الخروج من عنق الزجاجة.

من أول يوم في المدرسة، بوتين كان بيعمل كل اللي يقدر عليه عشان يبهر أسأتذته اللي عارف أن مستقبله بعد التخرج مرتبط بمدى رضاهم عنه، على عكس زمايله كان بيروح كل يوم لابس بدلة في منتهى الأناقة من ثلاث قطع لإثبات مدى الجدية، والحرفية.

هناك بوتين اتعلم المزيد من المهارات المهمة للعملاء زي القدرة على التواصل بالشفرة، والهروب من المتابعين، وإجراء عمليات مراقبة متطورة، بالإضافة لاختراع شخصية بكل تفاصيلها، سواء مراسل، أو رجل أعمال، أو دبلوماسي، عشان يقدر يندمج وسط المجتمع بدون لفت الأنظار.

وعلى الرغم إنه مش اجتماعي بالمعنى التقليدي للكلمة، إلا أنه أثبت قدرة مدهشة على التواصل وبناء علاقات مع اللي حوالية، مش عن طريق الود والانفتاح، ولكن عن طريق تصدير صور مختلفة عن نفسه اعتماداً على شخصية اللي بيكلمه. يعرف اللي قدامه محتاج إيه، وبناء على الاحتياجات دي يصدر له صورة توافق توقعاته.

في حيوانات بتتكاثر وتجذب الانتباه بسبب قدرتها على الغناء، وحيوانات تانية بقاؤها معتمد على التلؤن، وهو محتاج يتدرب لعدة سنوات لشرب كافة تفاصيل المجتمع اللي هيروحه، اللي هيتحدد بناء على مهاراته ونتيجة اختباراته.

في زمن الحرب الباردة المواهب الأفضل بيتم إرسالها للدول الغربية، وبوتين نفسه يعيش حياة الجاسوسية اللي حلم بها وهو صغير، ولكن المشكلة إنه كل ما يطلع خطوة إلى الأمام، سلوكه يرجعه خطوتين لورا، بوتين بيمشي في الشارع وكأنه يملكه.

تمكّنه من رياضة الجودو خلى قلبه ميت، معندوش مانع يتخانق مع أي حد أيّاً كان مين، خاصة إنه عارف إن البوليس مش هيقدر يعمل حاجة بسبب عمله في ال كي جي بي.

العادة اللي كانت فيه وهو صغير فضلت معاه لما كبر، مع أي استفزاز أو شعور بالإهانة بيشتبك دون عمل أي حساب للعواقب.

وفي إحدى المرات في لينينغراد اتخانق مع مجموعة من المشجعين المتعصبين أو الهوليجانز، وضرب عدد كبير منهم لكن الكثرة غلبت الشجاعة.

ذراعاه اتكسر في الخناقة ورجع من الأجازة بنقطة سوداء في سجله كجاسوس محترف، كانت أحد أسباب وصفه بشخص مغامر يملك قدرة محدودة على الشعور بالمخاطر وتقديرها؛ ولذلك مكملش تدريبه لعدة سنوات لاحتراف تفاصيل الحياة

في الغرب، تفاصيل زي شروط التمويل العقاري والأعراف الاجتماعية كفيلة بفضح أي عميل على غير دراية بيهم. بوتين فوجئ بانتهاء تدريبه قبل ميعاده، مع أمره ببدأ العمل في مستعمرة الاتحاد السوفيتي الوحيدة في أوروبا الغربية، البلد اللي حصل عليها ستالين بعد نجاحه في اقتحام برلين قبل وصول الحلفاء: «ألمانيا الشرقية».

[6](#) Evil Empire.

[7](#) حرب النجوم اسم سلسلة أفلام خيال علمي شهيرة من إخراج جورج لوكاس.

[8](#) MAD: Mutual Assured Destruction.

[9](#) خوف من الارتباط.

[10](#) غير مرتبط ومستعد للدخول في علاقة عاطفية جديدة.

[11](#) خماسي كيمبريدج - العظماء الخمسة.

تركة هتلر

«التاريخ يثبت عدم وجود جيوش لا تقهر»

جوزيف ستالين

في نهاية عام ١٩٤٣، تشرشل وروزفلت وستالين اجتمعوا في طهران، فيما يعد الأول من ثلاث مؤتمرات بين الثلاثة الكبار عقدوا لمناقشة أحداث الحرب العالمية الثانية والاتفاق على ما سيحدث بعدها.

المؤتمر شهد موافقة ستالين المبدئية على الدخول في حرب ضد اليابان إلى جوار الولايات المتحدة في المستقبل، على أن تقوم الولايات المتحدة وبريطانيا بغزو فرنسا العام التالي لفتح جبهة ثانية أمام هتلر، بالإضافة للاتفاق على إقامة منظمة دولية بديلة لعصبة الأمم في محاولة لحفظ السلام العالمي، وبالفعل بعد أكبر عملية إنزال برمائي في التاريخ، غزو فرنسا نجح والحلفاء قدروا يحرروا فرنسا وبلجيكا بينما ستالين نجح في استعادة بلغاريا ورومانيا ودخل غرب ألمانيا وأصبح على بعد ٦٤ كم من العاصمة برلين، وبما أن هزيمة هتلر أصبحت وشيكة، تمت الدعوة لعقد مؤتمر ثانٍ لتقسيم التركة.



وبما أن ستالين صاحب الموقف الأقوى والجيش الأقرب من العاصمة، وبما أنه راجل كبير مواليه ١٨٧٨، قالهم إن الأطباء مانعينه يسافر مسافات طويلة، وطلب عقد المؤتمر في مدينة يالطا على ساحل البحر الأسود في شبه جزيرة القرم. ستالين ثعلب متمكن، اختار يالطا المحررة حديثاً بعد تدميرها على يد الألمان، لإظهار مدى الضرر اللي لحق بالاتحاد السوفيتي، ومدى التضحيات اللي قدمها الجيش الأحمر لتحريره.

تشرشل قال والله يا جماعة لو كنا قعدنا ندور ١٠ سنين مكناش هنلاقي مكان أوحش من كده! ووصف يالطا، المعروفة كمنتجع صيفي للقيصرة الروس، بأنها ريفيرا⁽¹²⁾. الجحيم، وهناك الثلاثة اتفقوا على عدم إنهاء الحرب إلا باستسلام ألمانيا غير المشروط على أن يتم تقسيم أرضها بين الحلفاء والاتحاد بشكل يعكس وجود الجيوش على أرض الواقع؛ الاتحاد هياخذ الشرق، والولايات المتحدة وبريطانيا هياخدوا الغرب.

هنا تشرشل قال ⁽¹³⁾ Excuse me معلش، ممكن ندخل فرنسا معنا؟

تشرشل حب فرنسا تكون واحدة من الدول المستعمرة لألمانيا بعد انتهاء الحرب، مش حباً في الكرواسون ولكن رغبة في مشاركة تكاليف إعادة الإعمار مع حليف أوروبي مستقر.

ستالين قاله فرنسا إيه اللي هتخس معنا؟

إحنا رايعين نلعب (14) Paddle!؟

اللي عايز بيقشش بيقشش من جيبه، إما أنا مش هأقبل غير بالقسمة على ثلاثة! وبالفضل، تشرشل وروزفلت وافقوا يدوا فرنسا أرض من نصيبهم في ألمانيا الغربية، على أن يتم تقسيم برلين الواقعة في الشرق إلى برلين شرقية تابعة للاتحاد، وأخرى غربية تابعة للحلفاء، بهدف نزع السلاح والقضاء على النازية. بينما ستالين تعهد بمهاجمة اليابان خلال ٣ شهور من استسلام ألمانيا، وفي المقابل طالب باستعادة الأرض اللي خسرتها روسيا في حربها مع اليابان على مدار ١٩٠٤-١٩٠٥، واعتراف الحلفاء باستقلال جمهورية منغوليا الشعبية عن الصين بعد تحولها لدولة تابعة للاتحاد السوفيتي، بالإضافة للاحتفاظ بالأرض اللي احتلها من بولندا مع بداية الحرب سنة ١٩٣٩. عايزني أرجع الأرض اللي ألمانيا احتلت روسيا مرتين من خلالها آخر ثلاثين سنة!؟

(15) NYET!

إيه رأيكم بدل ما نرجع أرض بولندا في الشرق، نزع بولندا كلها ناحية الغرب؟ تم الاتفاق على إعادة رسم الحدود البولندية لتعويض الأراضي اللي خسرتها لصالح الاتحاد السوفيتي بأراضي من شرق ألمانيا، بينما الاتحاد السوفيتي احتفظ بمدينة كونيجسبرغ الساحلية الواقعة بين ليتوانيا وبولندا، وأعاد تسميتها إلى كالينينغراد. التنازل الوحيد اللي قدمه ستالين هو موافقته على مشاركة أحزاب غير شيوعية في الحكومة البولندية اللي عينها بعد طرد الجيش الألماني، لكن تشرشل صمم على إقامة انتخابات حرة نزيهة في بولندا وكافة دول أوروبا الشرقية زي تشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وبلغاريا بعد تحريرهم من النازية، في مقابل موافقة الولايات المتحدة وبريطانيا على أن تكون الدول المجاورة للاتحاد السوفيتي هتكون دول صديقة للاتحاد، في استجابة لرغبة ستالين بخلق منطقة عازلة بينه وبين مناطق النزاع في أوروبا اللي مبيحيش منها غير المشاكل، واعتراف ضمني بنفوذه الممتد خارج حدود الاتحاد. درجة من الحوار والتفاهم غير مسبوقة، تسببت في نشر التفاؤل بأن المستقبل سيكون خالي من الحروب، ولكنه تفاؤل حذر لم يخلو من النقد.

تم لوم تشرشل بسبب تجاهله لمطالب حكومة بولندا في المهجر وموافقته على شروط ستالين. بريطانيا دخلت الحرب بسبب غزو بولندا تقوم نيجي وإحنا بننتصر نتنازل في حق بولندا؟ أما روزفلت اللي عانى بشدة من المرض أثناء المؤتمر، تم لومه على السماح لستالين باستغلال مرضه واللعب به؛ لأنه حتى لو محتاج ستالين للقضاء على النازية، فالشيوعية على المدى الطويل أخطر بكثير. أما ستالين فمحدث كان يقدر ينتقده ولو في سره، ومع ذلك ظهرت همسات في أروقة السلطة داخل الاتحاد السوفيتي بأنه أخطأ بموافقته على تقسيم برلين. ليه نسمح بوجود منطقة رأسمالية داخل الأرض الشيوعية؟

الرأسمالية دي فيروس سريع الانتشار، لو سبناه كل شاب في الاتحاد هيصحى يقول أنا عايز أفتح ستارت أب (16)!

ومع ذلك ورغم الانتقادات كل قائد من الثلاثة نجح في تحقيق أهدافه بشكل أو بآخر. المشكلة أن التحالفات القائمة على أهداف مؤقتة، في الحالة دي هزيمة ألمانيا، غالبا بتنتهي بعد تحقيقهم، ونهاية شهر العسل المؤقت بين القوى العظمى بدأت مع سقوط الرايخ الثالث، اللي توقع هتلر دوامه لألف عام. لكن ما دايم إلا وجه الله، حد ضامن عمره!

في نهاية أيامه، قام هتلر بتعيين ضابط البحرية كارل دونيتز كخليفة لرئاسة الدولة من بعده، وبعد انتحاره داخل مخبأه في ٣٠ أبريل سنة ١٩٤٥، كارل بعث رئيس الأركان ألفريد يودل لمفاوضة قائد قوات الحلفاء في أوروبا الجنرال الأمريكي دوايت أيزنهاور، على أمل إقناعه بالتعاون مع ما تبقى من الجيش الألماني لقتال الجيش الأحمر، أيزنهاور رفض، وقاله أنت جاي تستسلم مش جاي تتفاوض.

وبالفعل يوم ٧ مايو تم توقيع اتفاقية وقف إطلاق نار واستسلام غير مشروط، يدخل في حيز التنفيذ ثاني يوم الساعة ١١:٠١ مساء بتوقيت وسط أوروبا.

العالم كله فرح بتوقيع المعاهدة، ما عدا ستالين!

أول شيء اعترض عليه هو مكان توقيع المعاهدة في مقر أيزنهاور في مدينة ريمس الفرنسية.

مُضي في فرنسا ليه؟ هو إحنا عاملين خطوبة على الضيق؟

العاصمة برلين يبقى يستسلموا في برلين.

الحلفاء قالوا له يا سيدي نبقى نعوضها في كتب الكتاب، وبعدين هو إحنا مضيينا في الدقي؟

ما هي فرنسا دي الألمان احتلوها برضه.

ورفضوا طلبه بإعادة توقيع المعاهدة لحد ما فكرهم بحاجة رعبتهم!

وقال لهم أنتم نسيتم اللي حصل في ألمانيا سنة ١٩١٨؟

القوات الألمانية بعد ما تفوقت على القوات الفرنسية اللي عدد كبير منها أعلن التمرد ورفض القتال سنة ١٩١٧، وكانت على

بعد ٥٠ ميل من باريس، بدأت في تلقي هزائم موجعة، خاصة بعد دخول أمريكا الحرب وحصار البحرية البريطانية لموانئها

بشكل تسبب في مجاعة موجعة كانت كافية لإشعال ثورة عارمة بدأت من جنود البحرية وامتدت للبلد كلها.

القيصر هرب وساب البلد فتولى الحكم من بعده حكومة برلمانية أعلنت تحول ألمانيا لجمهورية، وبدأت في بحث سبل

التفاوض مع الحلفاء خوفًا من تعرض ألمانيا للغزو!

وبالفعل، في نوفمبر سنة ١٩١٨ ألمانيا قبلت شروط مجحفة شملت استسلامها الكامل وانسحابها من الأراضي اللي حصلت

عليها في شرق وغرب أوروبا، بالإضافة لوقف القتال في إفريقيا.

الحكومة البرلمانية فوضت وزير الخارجية الجديد ماتياس إرزبرجر لتوقيع الهدنة في غابة كومبين في فرنسا، وكانوا عارفين أن

ما باليد حيلة.

لكن الشعب اللي كان بيسمع أخبار انتصار الجيش الألماني صباحًا ومساء مصدقش أن الجيش ممكن يهزم، واقتنع أن

الاستسلام لم يكن بسبب الهزيمة ولكن بسبب الخيانة من اليهود والشيوعيين.

ماتياس تم اغتياله بعدها بثلاث سنوات، بينما الاقتناع بالخيانة كان أحد أهم أسباب قيام الحرب العالمية بعدها بعشرين

سنة.

ستالين فكرهم باللي حصل وقالهم للأسباب دي لازم القائد الأعلى للقوات الألمانية يوقع على الاتفاقية، الرئيس المدني ده

نبقى نجيبه في افتتاح محطة المترو!

وإلا كلها كام سنة وهتيجي مجموعة تقول أن الهزيمة العسكرية ما هي إلا خيانة مدنية، وساعتها هنعيد كل حاجة من

الأول!

الحلفاء اقتنعوا، وبالفعل تم توقيع معاهدة الاستسلام لثاني مرة يوم ٨ مايو، المرة دي في حضور المشير غيورغي جوكوف

قائد الجيش الأحمر، وده سبب احتفال الحلفاء بيوم النصر الأوروبي (17). يوم ٨ مايو، بينما روسيا بتحتفل بيوم

النصر (18). يوم ٩ مايو بسبب فرق التوقيت.

وده على قد ما يبدو اختلاف بسيط، على قد ما هو كان بداية لخلافات أكبر مظهرتش غير بعد نهاية الحملة العسكرية،

وبداية احتلال ألمانيا.

بعد الحرب قادة الدول الثلاث اتقابلوا لثالث مرة في مدينة بوتسدام في ألمانيا، ولكن المرة دي المؤتمر شهد وجوه جديدة.

روزفلت توفي بعد مؤتمر يالطا بشهرين وحل مكانه نائبه هاري ترومان، بينما تشرشل خسر الانتخابات في نصف المؤتمر

وحل بداله نائبه في حكومة الحرب الائتلافية ورئيس حزب العمال كليمنت أتلي، بينما أبو هول السياسة العالمية، الرفيق

ستالين، باقي ولا يتغير.

علاقة ستالين بترومان كانت مختلفة عن علاقته بأيزنهاور.

ترومان مبيثقش فيه وقرر ميقلوش عن القنبلة النووية اللي قللت من أهمية مشاركة الاتحاد السوفيتي في الحرب ضد اليابان، ولكنه مع ذلك لمح له وقال إن الولايات المتحدة أصبحت تملك سلاح بقدره تدميرية غير مسبوقه.

ستالين زعل وقاله إزاي متقوليش التفاصيل؟

إزاي يبقى في أسرار بين الحلفاء؟

بينما هو عارف كل حاجة ومخبي لأن عنده جاسوس داخل مشروع مانهاتن، كلاوس فوكس، جاسوس حضر اختبار ترينيتي وشاهد انفجار القنبلة الذرية قبلها بأسبوع.

الجواسيس الروس عرفوا عن مشروع مانهاتن قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي (19).

ومع ذلك الرغبة في تفادي مواجهة جديدة كانت أكبر من غياب الثقة، ولذلك الثلاثة أكدوا في البداية على التزامهم بتنفيذ البنود اللي اتفقوا عليها في مؤتمر يالطا، وقرروا تشكيل مجلس سيطرة الحلفاء كحكومة عليا لألمانيا كلها، وظيفتها إصدار القرارات على أن تتولى التنفيذ إدارة كل دولة في منطقتها الخاصة.

نموذج حالم ولكن محكوم عليه بالفشل، بسبب اختلاف الأهداف والرؤى فيما يخص مستقبل ألمانيا بشكل جذري.

الاختلاف الأول كان على حجم التعويضات.

ستالين عايز ألمانيا تدفع مبالغ مهولة، لكن الولايات المتحدة وبريطانيا مش عايزين يعيدوا خطأ معاهدة فيرساي اللي ألزمت ألمانيا بدفع تعويضات كبيرة قسمت ظهر الاقتصاد وأسهمت في انتشار الفكر الراديكالي بعد الحرب العالمية الأولى.

فاتفقوا إن ستالين يدي الحلفاء في غرب ألمانيا جزء من الإنتاج الزراعي في شرقها، مقابل بضائع ونقود سائلة، ولكنه بعد فترة توقف عن تحصيل ما يكفي من المحصول فالحلفاء توقفوا عن الدفع، والفشل في التحصيل ممكن يكون بسبب سياساته الانتقامية من ألمانيا.

الحلفاء عايزين ألمانيا قوية لضمان استقرار وازدهار أوروبا، بينما ستالين عايز ألمانيا مفككة وضعيفة لضمان، عدم تشكيلها لأي خطر على الاتحاد السوفيتي في المستقبل.

ولذلك في الوقت اللي بريطانيا والولايات المتحدة أنفقوا على إعادة الإعمار وبالأخص في قطاعات مهمة زي التصنيع، ستالين أمر بتفكيك الماكينات وإرسالها للاتحاد كنوع من أنواع التعويض، إلى جانب استحوذاه على أراضي كبار الملاك الزراعيين دون تحمل عبء إثبات اشتراكهم في جرائم النازية.

آثار السياسات الاقتصادية المختلفة بدأت تظهر بوضوح بعد تبني الولايات المتحدة خطة مارشال (20) وتخصيصها مليارات الدولارات لإعادة إعمار دول أوروبا وبالأخص ألمانيا، ولكن الأهم والأكبر من الاختلافات الاقتصادية، كان الاختلافات السياسية.

الحلفاء بدأوا يفكروا في اليوم اللي هتتوحد فيه ألمانيا، وشافوا أن الوصول له محتاج إجراء انتخابات ديمقراطية في كافة المناطق المحتلة لانتخاب حكومة ممكن تشيل الراية في المستقبل، بالإضافة لتوحيد السياسات النقدية والمالية.

ستالين وافق بشكل مبدئي وسمح بإنشاء أحزاب مستقلة في شرق ألمانيا، وبعدها رجع وضمهم كلهم في تحالف بقيادة حزب شيوعي تابع لموسكو.

ورفض توحيد السياسة النقدية والمالية لسبب بسيط، وهو إنه مش عايز يمشي من ألمانيا ولا عايزها تتوحد، وعلى الرغم من قوته، الحلفاء المرة دي مكنوش منتظرين موافقته.

وبالفعل الولايات المتحدة وبريطانيا ضموا المناطق الواقعة تحت احتلالهم في منطقة واحدة، وبعد فترة انضمت لهم فرنسا، وأعلنوا عن تبنيهم لعملة موحدة جديدة باسم المارك الألماني كبديل للرايخ مارك ذو القيمة المتهاوية، في محاولة لإطفاء نار

التضخم.

ستالين اعترض بشدة لعدم استشارته وأعلن انسحابه من مجلس سيطرة الحلفاء، ولما لقاها مكملين في سكتهم وبدأوا في تداول المارك الألماني في برلين الغربية، كثر عن أنيابه، وقرر حصار برلين.

في يونيو سنة ١٩٤٨ ستالين حاصر برلين الغربية عن طريق قطع الطرق والقطارات والقنوات النهرية التي بتوصل للمدينة. هدف الحصار هو التخلص من الحلفاء في برلين؛ لأنهم لو فضلوا يا هيموتوا من الجوع يا هيموتوا من البرد، ولكن على عكس ما توقع الحصار بدل ما يؤدي إلى الانسحاب، أدى لإصرار الحلفاء على البقاء في معركة أصبحت بالنسبة لهم حياة أو موت.

الاتفاقية التي بين الحلفاء والاتحاد السوفيتي بتديهم حق استخدام المجال الجوي في شرق ألمانيا للوصول إلى برلين، فالولايات المتحدة بالتعاون مع بقية الحلفاء عملت جسر جوي لنقل الأكل والوقود والملابس.

خلال عام كامل تم نقل ٢.٣ مليون طن من البضائع عن طريق آلاف الرحلات الجوية، لحد ما ستالين أدرك أن الحصار يضره أكثر ما يفيد، بالذات بعد ما الأمريكان حولوه لملحمة علاقات عامة، ولكن للأسف، نهاية الحصار تزامنت مع بداية الحرب الباردة.

الحلفاء استمروا في توحيد مناطقهم لحد ما أعلنوا تأسيس جمهورية ألمانيا الفيدرالية، التي عرفت باسم ألمانيا الغربية، فالالاتحاد السوفيتي رد بإعلان تأسيس جمهورية ألمانيا الديمقراطية، التي عرفت باسم ألمانيا الشرقية.

والفرق بين كل ألمانيا فيهم كان بيزيد مع مرور الوقت مش بيقبل، فبعض سكان ألمانيا الشرقية هربوا لألمانيا الغربية بأعداد مهولة تسببت في إحراج كبير للاتحاد السوفيتي، التي بيعيش أزهى عصوره كقوة علمية وليس فقط عسكرية، بعد نجاحه في إطلاق أول قمر صناعي في التاريخ (سبوتنيك) سنة ١٩٥٧.

السوفيت قالوا لو الرأسمالية كويسة كانوا الأمريكان طلوعوا الفضاء، فالأمريكان قالوا ما هي لو الشيوعية حلوة كانوا الألمان قعدوا فيها!

وفي محاولة لوقف نزيف الهجرة وما يؤدي له من نزيف العقول (21) إلى الغرب، الاتحاد قفل حدود ألمانيا الشرقية باستثناء برلين، فاللي عايز يسافر بقى يروح برلين الشرقية يركب المترو لبرلين الغربية ومن هناك يسافر لألمانيا الغربية.

سنة ١٩٦١ خليفة ستالين نيكيتا خروتشوف أمر السلطات في ألمانيا الشرقية بوضع حل نهائي لثغرة برلين الشرقية. في أغسطس سنة ١٩٦٢ تم غلق المعابر من برلين الشرقية لبرلين الغربية ووضع سلك شائك قسم المدينة بالنصف تحول بعدها لحائط خرساني ضخمة؛ عائلات كاملة صحبوا الصباح لقوا أنفسهم مقسومين بين الشرق والغرب، فحاولوا يهربوا بأي طريقة، بعض المحاولات نجحت، ومحاولات كثير فشلت، فالسلطات فضلت تطور في السور لحد ما بقى عبارة عن حائطين من الخرسانة بطول ١٥٥ كيلو متر، وارتفاع ٤ متر، وبينهم مسافة سميت بشريط الموت، عبارة عن ألغام وحواجز مضادة للاقتحام، إلى جانب مجموعة من الحراس المدججين بالسلاح متوزعين على أكثر من ٣٠٠ برج مراقبة!

اللي حاول يهرب اضرب بالنار بلا تردد، ومع ذلك محاولات الهرب استمرت، ورغم كل ده، استمرت محاولات الهروب من جنة الشيوعية، التي نط من فوق السور واللي هرب في مواسير الصرف واللي ركب منطاد ساخن وطار من فوقه.

غلق الحدود بدل ما يحل للاتحاد مشكلة برلين، رسخ سمعتها كعاصمة الحرب الباردة، وبالتالي أصبحت عاصمة الجاسوسية في العالم، حلم لأي ضابط يحاول يشق طريقه في عالم الجاسوسية، وعلى رأسهم فلاديمير بوتين.

[12](#) ريفيرا بالايطالية تعني الساحل، ويقصد بها سواحل جنوب فرنسا وشمال إيطاليا على البحر الأبيض المتوسط.

[13](#) بعد اذنكم.

[14](#) ال Paddle Tennis لعبة رياضية مزيج من التنس والاسكواش تلعب في ملعب يتوسطه شبكة ومحاط بالألواح الزجاجية.

[15](#) لا باللغة الروسية.

[16](#) شركة ناشئة، أو شركة جديدة.

[18](#) Victory Day.

[19](#) FBI: Federal Bureau of Investigation.

[20](#) خطة تهدف لدعم الولايات المتحدة لإعادة إعمار أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية سميت باسم وزير الخارجية الأمريكي جورج مارشال.

[21](#) Brain drain يقصد بها سفر المتعلمين إلى الخارج، وهي ليست بالضرورة ظاهرة سلبية في كل الأحيان لما قد يكتسبوه من خبرات وما يرسلوه من أموال لتخفيف الأعباء الاقتصادية على ذويهم في الداخل. رجل الأعمال المصري الشهير وصاحب مؤسسة الألفي للمنح التعليمية، معزز الألفي، يقول Brain drain is brain gain. السفر من أجل التعلم ينمي العقول ولا يستنزفها، ولكن في النهاية الأمر كله متوقف عن مدى مساهمة أصحاب العقول في تحسين الوضع الذي تركوه.

خلف خطوط العدو

«أدركت أن الاتحاد السوفيتي مريض بمرض مميت يسمى الشَّلَل، شَلَل في السلطة».

فلايمير بوتين

بعد كل الجهد اللي بذله في الدراسة بويتن افتكر إنه رايح برلين، وبعد كده اتفاجئ إنه رايح دريسدن بالقرب من حدود تشيكوسلوفاكيا.

هاعمل أيه أنا في بلد مفيهاش سفارة واحدة؟

هراقب بتوع الدليفري؟

الإحباط تحول إلى اكتئاب، فتوقف عن ممارسة الرياضة، وشرب خمور بكميات أكبر أسهمت في زيادة وزنه بدرجة ملحوظة، على عكس زوجته اللي حست بمدى الفرق الجميل بين الحياة في روسيا والحياة في ألمانيا، الشوارع نظيفة، والبضاعة الغريبة متوفرة، وشبابيك المباني بتتغسل كل أسبوع.

فانهرت بالبلد وشافتها مكان مناسب لتربية بنتهم حديثة الولادة اللي بوتين قرر يسميها ماريا أو ماشا على اسم والدته، وبما أن المحلات مفيهاش طوابير ومليانة أحدث المنتجات، اشتروا لأول مرة جهاز ستيريو وجهاز أتاري، بالإضافة للجينز والأزياء الأجنبية اللي كثير منها بيتهرب عشان يتباع في السوق السوداء في روسيا، ولكن السعادة المادية لم تكن كافية لجلب السعادة الزوجية.

بوتين زوج صعب وطلباته كثير.

لو مش عاجبه الأكل ميلمسوش، ولو أمر بشيء مبيقبلش المناقشة فيه.

متقلب المزاج وربما يكون متعدد العلاقات! رغم أنه يقضي معظم يومه في الشغل.

بوتين انضم لوحدة مكافحة الجاسوسية، ومن المرجح أن مسؤولياته في دريسدن كانت مقسمة لثلاث أجزاء:

الأول هو متابعة الطلاب الأجانب في معهد دريسدن للتكنولوجيا ومحاولة تجنيد العملاء والمخبرين.

الثاني هو إرسال التقارير لموسكو بالإضافة للتعاون مع جهاز الأمن الألماني المرعب المعروف باسم شتازي، وهو جهاز أشبه بدولة داخل دولة، تحكمه في المجتمع الألماني الشرقي لا يقل عن تحكم الكي جي بي في المجتمع الروسي، ففي دولة عدد مواطنيها ١٧ مليون نسمة جهاز الشتازي شغال فيه حوالي ٩١ ألف موظف، بالإضافة لما لا يقل عن ١٧٣ ألف مخبر!

ثالثاً، وهو الأخطر، كان التنسيق مع الجماعات المسلحة في دول العالم الثالث اللي بعضها يمكن تصنيفه كجماعات إرهابية.

القوة العسكرية المهولة اللي تملكها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي خلت المواجهة المباشرة مكلفة للطرفين؛ ولذلك ال كي جي بي شاف الإرهاب أداة مثالية لمهاجمة الغرب وإضعافه، فشجع الشتازي على التواصل مع الجماعات المسلحة المعادية للغرب، لإمدادهم بالمال والسلاح والتدريب إذا لزم الأمر.

طبقاً لكتاب كاثرين بيلتون:

Putin's People: How the KGB Took Back Russia Then Took on the West

أحد مسؤولي وزارة الداخلية الألمانية الشرقية كان على تواصل مع مجموعة مسلحة ليبية، وأشرف على شبكة من مواقع التدريب في الشرق الأوسط، الضابط حس إن الجهاز بيربي وحش كلها مسألة وقت وهيعض الإيد اللي اتمدت له، ومش بعيد ينقل عملياته لقلب ألمانيا، بعد ما بدأت المجموعة في التخطيط لتنفيذ عمليات في ألمانيا الغربية ضد القوات العسكرية الأجنبية.

لما اشتكى لمدير الشتازي قال له إن أمريكا هي العدو الأهم، ولذلك المفروض يركز في الكشف والقبض على الجواسيس الأمريكيان، ويسيب الأصدقاء الليبيين يشوفوا شغلهم!

النتيجة كانت تفجير ملهى ليلي شهير بعدها بأسابيع أدى لمقتل ثلاث جنود أمريكيان وإصابة المئات. الكي جي بي كان عارف المخطط وطرق تهريب السلاح، بالإضافة لأسماء المنفذين وأماكن إقامتهم وتدريبهم بالتفصيل، ومع ذلك معملش حاجة لأن أي هجوم على أمريكا بالنسبة للجهاز فعل مرحب به. طبقاً لكتاب ماشا جيسن:

The Man Without a Face: The Unlikely Rise of Vladimir Putin

من المرجح مشاركة بوتين في بعض الاجتماعات مع بعض الجماعات المسلحة المدعومة من الكي جي بي، ومع ذلك من الصعب تأكيد المعلومة لأنها لم تذكر في أي وثائق رسمية منشورة، باستثناء شهادات شخصية من مصادر لا يمكن التأكد من مدى صدقهم، خاصة أن بعضهم خاف من العواقب فاتكلم تحت غطاء السرية.

ماشيا بتقول إن تعامل بوتين مع الجماعات المسلحة أدى لتكوين شبكة اتصالات واسعة مع العالم الخفي في ألمانيا الشرقية. عالم بتختلط فيه الجريمة بالإرهاب بالأجهزة الأمنية في علاقات تحكمها المصالح وتدار من خلف الستار، وبما أن الاغتيالات في نظر الكي جي بي وسيلة سياسية مشروعة، بدأ يكون معلومات عن أحدث أنواع السموم وأشدّها، وبالأخص اللي أثرها يظهر بعد فترة فيصعب اكتشافها.

شبكات ومعلومات مهمة للسيطرة والإخضاع والتصفية إذا لزم الأمر.

الجهاز هو درع وسيف الحزب الشيوعي اللي بيحكم الاتحاد بالحديد والنار.

ولكن سنة ١٩٨٩ القبضة الحديدية بدأت تلين، وشروخ السد أذرت بطوفان.

بركان الاتحاد السوفيتي على وشك الانفجار.

بعد وفاة بريجنيف سنة ١٩٨٢، تولى من بعده قيادة الحزب الشيوعي والاتحاد السوفيتي رئيس الكي جي بي يوري أندروبوف، ولكنه مات فجأة بعد سنتين.

فجه بعده كونستانتين تشيرنينكو وحكم لمدة سنة واحدة فقط ومات سنة ١٩٨٥، فالحكم انتقل لميخائيل غورباتشوف؛ غورباتشوف اتولد سنة ١٩٣١ وذاق مرارة الجنة الشيوعية في طفولته، جده الأول اتعذب، والثاني أعدم في عهد الإرهاب العظيم لستالين، بعد صعوده لرئاسة الحزب اكتشف إنه ورث دولة منهكة ومتأخرة عسكرياً واقتصادياً مقارنة بالغرب، فأعلن عن مجموعة إصلاحات لازمة لمواكبة العصر، أطلق عليهم اسم البريسترويكا أو الإصلاح الهيكلي، والجلانسوست أو الشفافية.

البريسترويكا سمحت بتبني بعض خصائص الاقتصاد الحر، زي الملكية الفردية، والسماح بتكوين شركات خاصة وإعطاء المنتجين والمزارعين حرية تحديد الأسعار، ودي سياسة مش أول مرة يطبقوها في الاتحاد السوفيتي.

سنة ١٩٢١ بعد انتصار الجيش الأحمر بقيادة فلاديمير لينين في الحرب الأهلية الروسية، الاقتصاد كان في حالة يرثى لها بعد سنوات من تطبيق نظام اشتراكي قاسي أطلق عليه اسم شيوعية الحرب، الدولة فيه ألغت الملكية الفردية وألغت معها النقود، وصادرت الحبوب من الفلاحين لتوزيعها على المواطنين.

وفي محاولة لإنعاش الاقتصاد ووقف التمردات، لينين قرر تطبيق مجموعة من القرارات الرأسمالية المعاكسة، عرفت باسم

السياسة الاقتصادية الجديدة⁽²²⁾. فأعاد تقديم النقود وسمح بالملكية الخاصة للأراضي والشركات الصغيرة لتشجيع الإنتاج، بينما استمرت الدولة في إدارة الصناعات الثقيلة والمواصلات والتجارة الخارجية.

كل واحد حر يزرع إيه ويبيع إيه باستثناء القطاعات الحيوية.

السياسة الجديدة أدت لانتعاش ملحوظ في الاقتصاد ورجعته لمستويات ما قبل الثورة البلشفية وما تبعها من حرب أهلية، ولكنها في نفس الوقت تسببت في انتقادات عنيفة من الشيوعيين الراديكاليين، اللي شافوها منفذ لعودة البرجوازية الفاسدة. الديمقراطية انتصرت، والتجربة رغم نجاحها النسبي مكملتت.

سنة ١٩٢٨ ستالين أعلن عن أول خطة اقتصادية خمسية لتسريع عملية التصنيع، والقضاء على طبقة الملاك الجدد. وما أشبه الليلة بالبارحة.

غورباتشوف أدرك أن السماح بدرجة من الملكية الخاصة هو الحل، أو على الأقل جزء منه، فقرر يعيد تجربة لينين بعمل هيكلية اقتصادية شاملة لاحظ إنها لن تكتمل سوى بإصلاح سياسي موازي، يشمل السماح بحرية التعبير لكشف الفساد ومكافحته، والمعارضة السياسية لخلق قاعدة سلطة موازية وإضعاف النخب الشيوعية.

فنادى سنة ١٩٨٨ بضرورة عمل انتخابات حرة نزيهة لأول مرة في تاريخ الاتحاد، التي مشافش انتخابات حرة ونزيهة من أيام الثورة البلشفية.

الإصلاحات تسببت في تهاؤل العديد من المواطنين، وصدمة للحرس القديم، التي اعتبروا إصلاحات غورباتشوف خطوة تجاه سقوط الدولة وليس إنقاذها، وعلى رأسهم إريك هونيكر.

هونيكر شيوعي حتى النخاع.

وهو عنده ١٤ سنة انضم لجمعية الشباب الشيوعي في ألمانيا.

اتقبض عليه من الجستابو⁽²³⁾ سنة ١٩٣٥ واتسجن لمدة ١٠ سنين لحد ما تم تحريره على يد الجيش الأحمر، وبعدها ترقى في الحزب الاشتراكي الديمقراطي لحد ما بقى مسئول عن بناء جدار برلين سنة ١٩٦١، قبل ما يتولى رئاسة الحزب سنة ١٩٧١. الحكومة الشيوعية في ألمانيا الشرقية بقيادة هونيكر رفضت إصلاحات غورباتشوف بشكل قاطع، واعتبرتها خيانة لمبادئ الاشتراكية، لكن الألمان حسوا إن زمن القمع على وشك الانتهاء، وإن كل اللي محتاجينه هو استغلال إصلاحات غورباتشوف التي كان دايمًا يقول وهو بيخاطب الجماهير: يجب عليكم الضغط من الأسفل. وبالفعل الجماهير بدأت في الضغط.

مع الإعلان عن انتخابات ألمانيا الشرقية المرتقبة في ٧ مايو ١٩٨٩، مجموعات وأفراد كانوا بيعملوا في الظل بدأوا في الاستعداد لخوض المعركة الانتخابية، التي تم السماح فيها على غير العادة بوجود مراقبين.

وفي نهاية الاقتراع، الحزب الاشتراكي الديمقراطي الحاكم أعلن عن فوزه بالانتخابات بنسبة تفوق الـ ٩٨%!

المراقبين اعتراضوا وقالوا إن طبقًا للقوائم فحوالي ١٠% من الأصوات باطلة، و١٠% من الناخبين لم يشاركوا رغم أن الإحصائيات الرسمية للحزب بتؤكد نسبة مشاركة تفوق الـ ٩٨%!

يعني البلد كلها نزلت والبلد كلها انتخبته!

المظاهرات خرجت في الشوارع للمطالبة بإلغاء النتيجة وسحب الشرعية من الحكومة ولكن لا حياة لمن تنادي.

العند أدى إلى زيادة الغضب.

في سبتمبر بعض أعضاء كنيسة سانت نيكولاس في مدينة ليبزيغ بدأوا في التظاهر كل يوم إثنين بعد الصلاة، عدد المتظاهرين زاد كل أسبوع لحد ما وصل لعشرات الآلاف تزامنًا مع زيارة غورباتشوف، التي قال في محاولة لإقناع حكومة هونيكر بإجراء إصلاحات أن الحياة بتعاقب اللي بيتأخر.

فرد عليه هونيكر بأن حكومته هتتحل كل المشاكل عن طريق التمسك بالمبادئ الاشتراكية وليس التخلي عنها، في تحدي مباشر لزعيم الحزب، وتحدي أكبر لآلاف المتظاهرين التي أثبتوا أن زمن الخوف من الشتايزي انتهى.

وبعد رفض فريق من قوات المظلات تنفيذ أمر هونيكر بإخلاء المظاهرات بالقوة، عدد المتظاهرين تضخم بشكل ملحوظ.

انحياز الجيش للثورة كان رسالة إيجابية شجعت عدد أكبر على المشاركة، وبقي من الواضح إن الناس مش هتمشي قبل تنفيذ المطالب، فتم عزل هونيكر وتولى من بعده الرئاسة نائبه في محاولة فشلت في احتواء الموقف لتأخرها، وعدم رضا

الجماهير عن البديل.

كل يوم بيعدي على أي حركة اجتماعية آمنة من التعرض للعنف بيخلي مطالبها تزيد مش تقل.

وفي ظل تمسك غورباتشوف بعدم التدخل العسكري لدعم الحكومة الشيوعية، زي ما حصل في المجر سنة ١٩٥٦ وفي تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨، محدش كان عارف كيف يمكن الخروج من الأزمة في ظل جماهير غاضبة وحكومة متعنتة. اثنين فقط كانوا شايفين اللي بيحصل ده لمصلحتهم: هيلموت كول وميكولوس نيميث.

رئيس وزراء المجر ميكولوس نيميث سعد للسلطة عن طريق الحزب الشيوعي، وأدرك زي كثير غيره من قادة الدول أعضاء حلف وارسو بما فيهم غورباتشوف، أن الإصلاحات الاقتصادية لا تكفي.

الوضع متأزم والبلد في حاجة ملحة لعمل إصلاحات سياسية.

نموذج الاشتراكية محتاج تغييرات جذرية.

النموذج اشتراكي وليس شيوعي لأن على الرغم أنه الحزب الشيوعي، إلا أن الشيوعية، وهي أعلى درجات الاشتراكية، لم تطبق حتى داخل روسيا نفسها.

تطبيقها معناه حل الدولة بعد الوصول للمساواة الشاملة ونهاية الصراع الطبقي.

في الجنة إن شاء الله.

أما على الأرض فما زال هناك احتياج للدولة والشرطة.

وعلى الرغم من وجود تفرقة طبقية أقل بالمقارنة بدول رأسمالية زي الولايات المتحدة، فما زال هناك تمييز، الفرق أن الأرستقراطية الجديدة أصبحت من أعضاء الحزب بعد ما كانت قديماً من ملاك الأراضي.

كل ده خلى نيميث الشيوعي ضد الشيوعية، ويحلم بخروج المجر من فلك الاتحاد السوفيتي.

ولكن الخروج من حلف وارسو مش زي دخوله!

هناك عشرات الآلاف من الجنود السوفيت داخل المجر، بالإضافة أن الاتحاد السوفيتي تدخل عسكرياً لقمع المظاهرات المناهضة للشيوعية سنة ١٩٥٦ والتاريخ سهل يعيد نفسه.

بالذات أن المجر تعتبر أقل الدول الأعضاء في حلف وارسو، المعروفين باسم الكتلة الشرقية، التزاماً بتطبيق الستارة الحديدية، اللي مقصود بيها الفصل بين الشرق والغرب.

بعد حوالي ٥ سنوات من حراك ١٩٥٦، المجر بدأت في إرخاء القبضة الحديدية في بداية الستينيات.

موقعها الجغرافي في أقصى غرب الكتلة الشرقية، وحدودها مع النمسا اللي ارتبطت بها تاريخياً في الإمبراطورية النمساوية المجرية، خلوها أقرب للاندماج مع الغرب عن مقاطعته، وانفتاحها وترحيبها بالأجانب تسبب في انفتاح الغرب عليها.

إصدارها تأشيرات للسائح بسهولة شجع الدول الغربية على معاملتها بالمثل، وتساهلها في حراسة حدودها مع النمسا خلوها هدف لسكان ألمانيا الشرقية الراغبين في السفر.

آلاف المواطنين اللي عائلتهم افترقوا بعد بناء جدار برلين كانوا بيتجمعوا في المجر، أقرب وأسهل دولة ممكن يدخلها مواطنو ألمانيا الشرقية والغربية على حد سواء.

كل سنة عدد الزوار من ألمانيا الشرقية داخل المجر كان بيزيد.

عشان يسافروا كانوا بياخدوا إذن بالسفر للمجر، ولكنهم غير مسموح لهم بالسفر من هناك إلى الغرب.

نيميث متعاطف معاهم ومعندوش مشكلة يسمح لهم بالعبور إلى النمسا في الطريق إلى ألمانيا الغربية، اللي قانونها بيعتبرهم مواطنين كاملي الأهلية وليسوا لاجئين، خاصة أنه بيواجه مشاكل اقتصادية أكبر بكثير.

المجر في نهاية الثمانينيات كانت صاحبة أعلى نصيب للفرد من الديون (24) في أوروبا كلها، في مارس ١٩٨٩ لما نيميث شاف ميزانية وزارة الداخلية لحماية الحدود مع النمسا شطب على البند كله، وبلغ غورباتشوف أنه مش هيقدر يقفل الحدود أكثر من كده.

وبعدها وقع على اتفاقية جنيف للاجئين اللي نصت على تسليح حرس الحدود بما يكفي للدفاع عن أنفسهم فقط، لحماية

الهاربين وطالبي اللجوء.

موقفه المتساهل واللامبالي بأعراف وتقاليد حلف وارسو خلاه هدف لقادته القدامى.

في اجتماع لقادة الدول أعضاء الحلف، رئيس ألمانيا الشرقية إريك هونيك، ورئيس رومانيا نيكولاي تشاوشيسكو، بدل ما ينادوه بلقب الرفيق نيميث، قالوله مستر أو أستاذ نيميث، فيما يعد إهانة عظيمة في الإتيكيت الشيوعي لأنها تسمية لا تقال إلا لبرجوازي مُتعفن.

أما الشيوعي الحق فهو رفيق، زي ما قال عم الفنانة داليا البحيري في فيلم السفارة في العمارة:
الرفيقة الدادة أم عطيات مرجع في الأدب الروسي!

غورباتشوف معترضش على إهانتته، ولكنه طمأنه من عدم تكرار سيناريو ١٩٥٦.

وقاله يا عبيط!

متخافش! ٨٩ مش ٥٦!

المرة دي أوعدك، مش هنديكم بالجزمة!

فالسؤال تحول من إمكانية خروج الألمان لكيفية خروجهم، والإجابة كانت على يد شخص أسهم في إعادة رسم خريطة أوروبا، المستشار ورئيس الوزراء الألماني هيلموت كول.

كول رئيس الاتحاد الديمقراطي المسيحي، حزب يمين الوسط. ⁽²⁵⁾ الحاكم في ألمانيا الغربية، بيحلم بتوحيد الألمان بعد عقود من الاحتلال والتفرقة.

لما عرف أن نيميث مش ضد فكرة لم الشمل، بدأ يناقش معاه إمكانية فتح الحدود الغربية أمام مواطني ألمانيا الشرقية في المجر بشكل كامل، ووعده بمساعدته في أزمة الديون عن طريق الوساطة لدى البنوك الألمانية.
نيميث وافق على العرض، واتفق على فتح الحدود في سبتمبر لمساعدة كول اللي كان على وشك خوض منافسة داخلية في مؤتمر الحزب في سبتمبر.

وبالفعل يوم ١١ سبتمبر، دون الرجوع لغورباتشوف، تم فتح الحدود المجرية، وخلال أسبوعين حوالي خمسين ألف ألماني دخلوا النمسا ومن هناك ركبوا القطار لألمانيا الغربية.

بينما المجر كلها ركبت القطار وغادرت الشيوعية في أكتوبر سنة ١٩٨٩.

على عكس حكومة ألمانيا الشرقية، اللي شافت نفسها أقوى من التاريخ، فأدبها التاريخ.

الحكومة أدركت أنها في مأزق ولازم تتحرك، كل يوم المظاهرات بتزيد والاقتصاد بيضعف، فقررت تسهيل إجراءات السفر للخارج والسماح بالسياحة في الداخل، ولكنهم مفكروش يهدوا الحائط اللي اعتبروه مصدر أكل عيش من غيره هيفقدوا أي أهمية.

وفي مؤتمر صحفي يوم ٩ نوفمبر، المتحدث باسم الحكومة جانتر شابوفسكي أخطأ خطأ قاتل، في مثال حي على أن الغباء جندي من جنود ربنا، بدل ما يعلن عن تسهيل الإجراءات أعلن عن إلغائها، وصرح أن مواطني ألمانيا الشرقية هيقدرروا يسافروا ألمانيا الغربية بكل حرية بداية من الآن!

السفر مفروض يتم وفقاً لإجراءات وتصاريح، ولكنه أعلن القرار دون قراءة كافة التفاصيل.

الإعلام الغربي سمع الخطاب فأعلن عن فتح الحدود بين الألمانيتين.

الخبر انتشر أسرع من محمد صلاح، فالناس نزلوا من بيوتهم في برلين واتجهوا للحائط، ومع زيادة العدد الحراس سمحوا لهم بالعبور بدون تصاريح أو حتى جوازات سفر، وبدأ الألمان في تكسير رمز الاحتلال والحصار من الناحيتين.

وهكذا في ليلة لن ينساها التاريخ، سقط جدار برلين، أهم أركان الستار الحديدي الفاصل بين الشرق والغرب منذ سنة

١٩٦١.

سقوط الجدار كان علامة على بداية التغيير في منطقة متعطشة للتغيير.
الشعب حس بدفعة غير مسبوقه من التفاؤل، ودرجة غير مألوفة من الانتماء والامتلاك.

بينما بوتين وزملاؤه حسوا بالذعر!

بعد عقود من تجريم العمل السياسي خارج الحزب، الشعب طالب بإجراء انتخابات حرة مستقلة لاختيار ممثلين بشكل شعبي بدلاً من اختيارهم طبقاً لهوى قادة الحزب، وهاجموا الأجهزة الأمنية بعد عقود من عدم الجرأة على التطاول عليها ولو في السر.

بوتين وزملاؤه كانوا ضد اتخاذ الأجهزة الأمنية كשמاعة لتعليق فشل الإدارة؛ لأنهم في النهاية جزء من المجتمع، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم.

على قد ما بوتين مقتنع بأن الانتخابات الحرة مفيدة للبلد على المدى الطويل، وعلى قد ما كان خائف من مدى سلطة قادة الحزب، لدرجة أنه بدأ يشوف التفوق العسكري الغربي رادع حميد لسلطة بلا رادع، يا عالم ممكن تعمل إيه لو انفردت بالتفوق العسكري، على قد ما كان قلقان من التغيير وخايف من عقلية الجماهير (26).

الجموع بتتصرف بطريقة غير متوقعة، والنظام اللي بعضه قمع أفضل بالنسبة له من الثورة اللي كلها خروج عن القواعد والقوانين؛ ولذلك كان يفضل الإصلاح التدريجي على الثورة المفاجئة، ومكنش يتخيل سنة ١٩٨٩ أن الثورة هتجيله لحد عنده.

سقوط الجدار أشعل المظاهرات في شتى المحافظات بما فيهم دريسدن.

المتظاهرين عددهم زاد بعد الدفعة المعنوية من عزل هونيكر وسقوط الجدار وعزل الرئيس، فاستمروا في المطالبة بإجراء انتخابات معبرة عن الإرادة الشعبية، وبدأوا في الهجوم على الشتازي كرمز لكل الشرور.

وفي أحد أيام شهر ديسمبر المتظاهرين تجمعوا أمام مقر الشتازي القريب من مقر الكي جي بي، وبدأوا في الهتاف طلباً في السماح لهم بالدخول.

المبنى مليون حراس مدججين بالسلاح، ولكنها قوة بلا تأثير أمام عشرات الآلاف من المتظاهرين اللي نجحوا في النهاية في فتح البوابة واقتحام المبنى.

بوتين راقب الموقف في رعب!

آلاف الأوراق والملفات اللي بتحتوي على أسماء العملاء والمخبرين أصبحت في يد المتظاهرين اللي بدأوا يدوروا على سجون التعذيب الشهيرة تحت الأرض.

بوتين سمع الادعاءات وضحك من سذاجتها، مش عشان مفيش سجون، ولكن عشان عارف أن مكانها مش هناك!
ومع حلول المساء وهدوء حالة اليوفوريا اللي تسبب فيها الاقتحام، بدأ المتظاهرين يبحثوا عن هدف جديد، والمرة دي هدفهم كان مبنى الكي جي بي!

المبنى صغير الحجم، ضخم النفوذ، مكتوب عليه لافتة بعنوان المركز الثقافي.

خصم ٥٠% على كورسات اللغة الروسية بمناسبة عيد تحرير سيناء!

محدث عارف إيه اللي جوه المبنى، رغم أن الكل عارف أن من هنا تدار الأمور.

واحدة واحدة الناس بدأوا في التجمع حول المبنى، وخلال وقت قصير العشرات تحولوا لآلاف، وبوتين لقي نفسه في موقف لا يحسد عليه!

اقتحام المبنى هيتسبب في كارثة أمنية، لأنه هيكشف تقارير سرية وهيفضح شبكة كاملة من المخبرين والمتعاونين مع الكي جي بي، والمشكلة أن المبنى فاضي، مفيهوش غير بوتين ومعه أربع عساكر فقط!

فأول ما حس أن الوضع ممكن يخرج عن السيطرة اتصل بالوحدة العسكرية السوفيتية في دريسدن، وطلب إرسال قوات

دعم عاجلة لمنع اقتحام المبنى.

الضابط رد عليه وقالوا أنه ميقدرش يتحرك قبل ما ياخذ الأمر من موسكو، ووعده يتصل بالقيادة المركزية ويرد عليه. ساعات انتظار طويلة مروا ببطء وثقل، وصل خلالهم العدد لنفس الحجم اللي ممكنه من اقتحام الشنازي، فبوتين اتصل مرة ثانية وفوجئ بالضابط بيقوله:

(27) Moscow is silent!

القيادة مردتش عليا وبالتالي مش هقدر أتحرك.

بوتين اتصدم وحس أن كل السنين اللي قضاها في الجهاز الأمني كان بيحمي بيت من الورق.

الحكومة السوفيتية الهشة أصيبت بأخطر أمراض السلطة (28) Decision Paralysis، عدم القدرة على اتخاذ قرار بسبب شدة مركزية البيروقراطية الهرمية العتيقة.

وفي ظل غياب الأوامر، القرار أصبح في إيدته.

فخرج من المبنى بكل هدوء ووقف أمام المتظاهرين الغاضبين في صمت، استنى لحد ما سكتوا وقالهم أن المبنى محمي وحراسه مسلحين على أعلى مستوى، وحذرهم أنه أعطى أوامر بإطلاق النار على أي حد يحاول اقتحامه.

كلامه بهدوء وثبات من غير ما يرفع صوته أو ينفعل بأي شكل أكد للمتظاهرين أن الثقة دي مش من فراغ، فصدقوا كذبتة، وقرروا عدم المجازفة، ومشيووا واحد ورا الثاني لحد ما روحوا كلهم.

قدرته على الكذب بإقناع أنقذت الكي جي بي من كارثة محققة، لكنه أدرك أن البلد نفسها عدت مرحلة الإنقاذ، إصلاحات غورباتشوف خرجت المارد من القمقم، ولكنه بخروجه أوشك على تدمير القمقم نفسه.

توحيد ألمانيا وخروج الاتحاد السوفيتي منها مسألة وقت مش أكثر، ولكنه مش هيخرج بالساهل.

هناك العديد من الأسئلة الخطيرة بحاجة لإجابات.

ألمانيا عدو تاريخي للاتحاد السوفيتي، إيه اللي يمنع الزمن يعيد نفسه؟

وهما أن حاليًا نصفها في الكتلة الشرقية والنصف الآخر في الكتلة الغربية، لو توحد الجسد الكامل هينحاز لأي من الجبهتين؟

والأهم، هينضم لأي من الحلفين؟

هل هتنضم لحلف وارسو منتهي الصلاحية؟

ولا هتنضم لحلف الناتو (29)؟

هل يسمح بوجود الذئب على أعتاب الحظيرة؟

وفي وسط هذه التساؤلات، لم يلحظ أحد أن الذئب قد دخل بالفعل.

²² NEP: New Economic Policy.

²³ البوليس السياسي لألمانيا النازية.

²⁴ Debt per capita ratio.

²⁵ Center right party.

²⁶ Mob mentality.

²⁷ موسكو صامتة.

²⁸ شلل إداري ناتج عن العجز عن اتخاذ القرار.

²⁹ Nato: North Atlantic Alliance - حلف شمال الأطلسي.

حلف الناتو

«لقد سمح كليتتون لنفسه بالضغط على روسيا لأنه نسي لدقيقة، لثانية واحدة، أن روسيا تمتلك ترسانة كاملة من الأسلحة النووية».

بوريس يلتسن.

بعد الحرب العالمية الثانية الأوروبيين كانوا يعانون من مثلث الفقر، والجوع، والخواء. الحرب خلفت دمار اقتصادي شامل، وسقوط النازية خلق فراغ سياسي، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي حاولوا يملوه بشتى الطرق.

الشيوعية بدأت تنشط بعد سنوات من العمل في الخفاء تحت الحكم النازي، ولكن خلاص بعد انتصار الجيش الأحمر لم يعد هناك داعي للاختباء.

الرئيس هاري ترومان راقب التطورات الأوروبية بحذر شديد، وطلب رأي وزارة الخارجية. سنة ١٩٤٦ أحد المسؤولين بالسفارة الأمريكية في موسكو جورج كينان، أرسل للولايات المتحدة خطاب مفصل من ٨٠٠٠ كلمة، عرف بعدها باسم التليجرام الطويل⁽³⁰⁾، قال فيه إن فرص التعايش السلمي بين الاتحاد وبين الولايات المتحدة منعدمة.

الاتحاد دولة قوية، خطورتها مش بس في مستوى تسليحها الفائق، ولكن في شعورها بالخطر. الاتحاد مؤمن بوجود مؤامرة عليه وعلى الشيوعية كلها، اللي صعب تطبق في دولة أه ودولة لأ، ولذلك يبسعى بكل قوة لعمل ثورات شيوعية في العالم كله.

وده بيحطه في مواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة، عاصمة الرأسمالية في العالم. كينان مكش من دعاة الحرب والمواجهة، ولكنه دعا لاتباع سياسة احتواء للاتحاد عن طريق مكافحة تمدد الشيوعية خارج نطاقها الجغرافي الحالي، الولايات المتحدة أقوى من الاتحاد وتقدر تحاصر نفوذه، على أمل الوصول لتسوية مرضية مع مرور الوقت ... مش هنحاربهم، بس هنوقف توسعهم.

الخطاب أحدث صدى واسع حول العالم وأذر بقرب الدخول في صراع جديد، رغم عدم استقرار غبار الصراع السابق. الاتحاد السوفيتي رد بنشر خطاب نوفيكوف، سفيره في الولايات المتحدة، قال فيه إن الولايات المتحدة خرجت من الحرب باقتصاد قوي خلاها عايضة تسيطر على العالم، ولذلك يجب على الاتحاد خلق منطقة عازلة على حدوده الغربية لوقف الهيمنة الأمريكية.

وبالفعل، في نهاية الأربعينيات المد الشيوعي كان على أشده؛ خلال سنوات قليلة الشيوعيون سعدوا للسلطة في ألبانيا وبولندا وبلغاريا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر، وفي كل دولة طريقة صعودهم كانت مختلفة عن الثانية، في تشيكوسلوفاكيا وصلوا للحكم عن طريق انقلاب ناعم بدون سفك دماء. وفي رومانيا تم انتخابهم ديمقراطيًا، وبعدها سيطروا بشكل كامل ولغوا الانتخابات.

ركبوا أسانسير الديمقراطية، وأول ما وصلوا قالوا معلش والله الأسانسير عطلان. أما في المجر معروفش يركبوا الأسانسير ففصلوا الكهرباء عن العمارة كلها. خسروا في الانتخابات فسيطروا على البوليس السري، وصعدوا للحكم من خلال الاعتقال والتصفية لحد مبقاش فاضل غيرهم.

أما في بولندا، حيث المنافسة الشديدة والتاريخ الديمقراطي العريق، ستالين دعا ١٦ سياسي غير شيوعي لموسكو، أول ما وصلوا قبض عليهم كلهم فالشيوعيين كسبوا، وكالعادة أول ما طلوعوا حلفوا إنهم مش نازلين.

التطورات دي خلت ترومان يتأكد أن زمن سياسة الانعزال انتهى بغير رجعة. بعد اندلاع الحرب الأهلية اليونانية في أعقاب الحرب العالمية الثانية وإعلان بريطانيا التوقف عن دعم الحكومة في مواجهة الشيوعيين، ترومان أقنع الكونغرس بضرورة دعمهم لملء الفراغ اللي سابتته بريطانيا.

لو الشيوعيين كسبوا في اليونان، الـ (31) cowboys في تكساس (32). مش هيعرفوا يسوقوا عربياتهم؛ لأن اللي هيحصل في اليونان هياثر على تركيا، واللي هيحصل في تركيا هياثر على الشرق الأوسط، واللي هيحصل في الشرق الأوسط هياثر على محطات البنزين عندنا.

دي كانت بداية ما يعرف باسم Truman Doctrine (33) اللي بينص على ضرورة مكافحة الشيوعية ودعم الحركات المناهضة لها حول العالم.

العقيدة وجه لعملة وجهها الآخر كان خطة مارشال للمساعدات. أكثر من ١٣ مليار دولار تم ضخها لإعادة إعمار أوروبا، والأهم للوقاية من الشيوعية. الثروة ترياق الراديكالية.

صاحبك الشيوعي اللي مبيرضاش يحاسب على القهوة عشان ميخونش مبادئ البروليتاريا، لو صحي يوم لقي نفسه وارث مليون دولار هيقول أنا اسمي الحقيقي آدم سميث! رحلتي من كارل ماركس إلى كارلوس اللي في الساحل!

وإغراق أوروبا بالمساعدات هدفه عدم فوز الشيوعيين بالانتخابات في دول ديمقراطية زي فرنسا وإيطاليا. ستالين فهم الهدف الباطن من المساعدات فمنعها عن دول الكتلة الشرقية، ولكنه أدرك ضرورة مزج الاقتصاد بالسياسة، فأنشأ مؤسسات إقراض وتمويل لدعم اقتصاد الدول الشيوعية وإبقاء الأنظمة التابعة لموسكو في السلطة.

المنافسة الاقتصادية والتدخل العسكري في الخارج كان بداية حروب الوكالة (34) بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وبداية الحرب الباردة بينهم.

بريطانيا كانت أكثر الدول الأوروبية تلقى للمساعدات الأمريكية، وأكثرهم قلقًا من التمدد السوفيتي. وزير الخارجية البريطاني إرنست بيفن دعا إلى إنشاء تحالف عسكري أوروبي غربي، وبالفعل سنة ١٩٤٨ تم توقيع معاهدة بروكسل للدفاع المشترك بين بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبورج. إنجاز كبير ولكن ينقصه وجود الولايات المتحدة، الرادع الأهم تجاه الاتحاد السوفيتي.

ترومان رحب بفكرة تحالف عسكري عابر للمحيط الأطلسي، وأعلن عن رغبته في فتح باب العضوية للدول الإسكندنافية. كل ما عدد الدول يزيد كل ما عدد القواعد العسكرية والأماكن المتاحة لوضع القوات تزيد هي كمان. الدول الإسكندنافية رحبت بالمبدأ ولكن رفضت الانضمام بشكل مباشر لعدم إغضاب الدب الروسي، وبعد مفاوضات وافقوا على الانضمام ولكن بشروط.

وفي أبريل سنة ١٩٤٩ تم توقيع معاهدة واشنطن لإنشاء تحالف شمال الأطلسي، من قبل بريطانيا وكندا وفرنسا وبلجيكا والولايات المتحدة وأيسلندا وإيطاليا ولوكسمبورج والبرتغال، بالإضافة للدنمارك والنرويج اللي وافقوا على الانضمام ولكن بشروط تخص حظر أو خفض انتشار الأسلحة النووية الأمريكية والقواعد والمناورات العسكرية.

وهكذا نجحت الولايات المتحدة ودول غرب أوروبا في تأسيس درع عملاق، تنص فيه المادة الخامسة من لائحة تأسيسه (35) على أن أي اعتداء على أحد أعضاء التحالف هو بمثابة اعتداء على الأعضاء كلهم.

نمر مهيّب، ولكنه نمر من ورق.

توحيد القوات معناه توحيد القيادات، والسلاح، والتدريبات، وأنظمة الاتصال، بالإضافة لما يتطلبه التحالف من إنشاء

للقواعد وتجهيز للجنود.

المشكلة أن على عكس الاتحاد السوفيتي اللي جنوده لسه متمركزين في الدول اللي دخلها أثناء مطاردة الجيش الألماني، الولايات المتحدة وأوروبا بعد الحرب كانوا في حالة إجهاد عسكري، مفيش سياسي يقدر يغامر بكرسيه ويأمر بحشد القوات ورفع درجة التأهب.

ولكن بما أن الغباء جندي من جنود ربنا، الشيء الوحيد اللي نجح في كسر الخمول وتحويل الناتو إلى أمر حقيقي وليس فزاعة من ورق كان الاتحاد السوفيتي نفسه.

ثلاث تطورات أدوا إلى تحول الناتو من حبر على ورق إلى واقع على الأرض.

الأول هو نجاح الاتحاد السوفيتي في تطوير قنبلة نووية واختبارها بنجاح.

الثاني هو وصول الشيوعيين للسلطة في الصين.

الثالث هو اشتعال الحرب الكورية بعد غزو كوريا الشمالية لكوريا الجنوبية.

كل ده أدى لاستنتاج واحد فقط: لا توجد دولة في أمن من الاتحاد الذي لا يشبع، ولا يتوقف.

قادة التحالف اتفقوا على إنشاء مقر للقيادة المركزية في بروكسل على أن يتولى مسئوليتها قائد الحلفاء في المسرح الأوروبي في الحرب العالمية الثانية دوايت أيزنهاور، وفي سبتمبر سنة ١٩٥٠، ترومان أمر بإرسال قوات أمريكية لأوروبا.

أثر التطورات امتد ليشمل تغيير جذري في العقيدة العسكرية لأعضاء الحلف، وخلصهم يتغاضوا عن أعداء الماضي ويركزوا في كيفية مواجهة أعداء المستقبل.

ألمانيا لم تعد الخطر الأكبر في أوروبا، بالإضافة أن الاتحاد ممكن يسعى للاستحواذ على ألمانيا كلها، فالحلف وافق على ضم أعضاء جدد.

سنة ١٩٥٢ تم ضم اليونان وتركيا، وسنة ١٩٥٥ تم ضم ألمانيا الغربية بعد تعهدها بعدم الحصول على أسلحة نووية، أو بيولوجية، أو كيميائية.

وهكذا الناتو أصبح له قواعد ملاصقة لقوات الاتحاد المتمركزة في ألمانيا الشرقية، فالاتحاد رد بتأسيس حلف وارسو كتحاليف مضاد سنة ١٩٥٥ بعد توقيع ألبانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية والمجر وبولندا ورومانيا على اتفاقية دفاع مشترك.

رغم أن سلسلة التحركات والتحرك المضادة توحى بلعبة شطرنج مثيرة، إلا أن الحقيقة كانت أقرب لمواجهة حياة أو موت. في الخمسينيات، قائمة الأهداف النووية للقوات الجوية الأمريكية، شملت ٩١ موقعًا في شرق برلين فقط!

وفي الثمانينيات ألمانيا كان فيها أعلى كثافة للأسلحة النووية في الميل المربع في العالم!

ولذلك بعد سنين من الوقوع في خانة اليك بين الشرق والغرب، احتمالية توحيد ألمانيا تسببت في زلزلة الوضع القائم اللي مبقاش قادر على مواكبة المستجدات.

عالم جديد على وشك استبدال العالم القديم.

عالم أقوى رجل فيه هو الرئيس الأمريكي!

[30](#) Long Telegram.

[1](#) زعارة البقر.

[32](#) ولاية أمريكية في الجنوب.

[33](#) عقيدة ترومان.

[34](#) حرب دون مواجهة مباشرة بين بلدين تقام على أرض بلد أخرى وتعرف باسم Proxy wars.

توحيد ألمانيا

«تشير التجربة التاريخية إلى أن أمثال هتلر يأتون ويذهبون، بينما الشعب الألماني والدولة الألمانية باقيان». جوزيف ستالين.

جورج بوش ابن لعضو في مجلس الشيوخ عن ولاية كونيتيكت. درس الاقتصاد في جامعة ييل قبل ما يخدم كطيار في القوات الجوية أثناء الحرب العالمية الثانية. وبعد إنهائه الخدمة بامتياز صعد نجمه كأحد أنجح رجال الأعمال في ولاية تكساس، ومن بعدها اتجه للسياسة وأصبح نائب الرئيس رونالد ريغان، قبل ما يفوز بالانتخابات ويصبح الرئيس الواحد والأربعين للولايات المتحدة سنة ١٩٨٨. بوش أعلن بعد توليه الرئاسة عن تبني سياسة أكثر اعتدالاً من سياسات الرئيس السابق فيما يخص الاتحاد السوفيتي، واستعان بـ جيمس بيكر، صديقه وشريكه في لعب التنس في [Country Clubhouse](#) (36) مدينة هيوستن، ووزير المالية السابق في حكومة ريغان، لشغل منصب وزير الخارجية. بيكر اللي قال في مذكراته أنه يحب القتل، والمقصود هنا الصيد كناية عن مهارته في اقتناص الفرص وقدرته على التفاوض، وضع إقناع غورباتشوف بتوحيد ألمانيا وانضمامها للناتو على رأس أولوياته. وجود ألمانيا الموحدة في الحلف يبقوه ويبيدي أمريكا الفرصة لنشر قواتها وفرض نفوذها على مساحة أكبر من أوروبا، وفي نفس الوقت يبضمن عدم تكرار التاريخ بصعود راديكالي زي هتلر للحكم. غورباتشوف في البداية رفض الفكرة بشكل قاطع. رغم أنه كان مدرك أن توحيد ألمانيا مسألة وقت مش أكثر، اقتصادها يبيع ومؤسساتها بتنهيار، إلا أنه كان عارف أن انضمامها للناتو هيدمر شعبيته داخل الاتحاد وقد يؤدي إلى نتائج كارثية. ولذلك قال لرئيس الكي جي بي فلاديمير كريوتشكوف أنه لازم يبدأ يستعد لتوحيد ألمانيا، وفي نفس الوقت طمنه أنه لا يمكن يسمح بانضمامها للناتو لأنه يملك حوالي ٤٠٠ ألف جندي سوفيتي بالإضافة لـ ٢٠٠ ألف موظف مدني في شرق ألمانيا، قادرين على فرض رغباته على الأرض مهما كانت الضغوط. ولما بيكر ناقشه في فكرة الاتحاد، قاله نفس اللي قاله لرئيس الكي جي بي، وأعلن موافقته المبدئية بشرط عدم انضمامها للناتو!

بيكر قاله أنت بتهرج؟

عايز ألمانيا موحدة مستقلة وغير منحازة؟

من مصلحتك أن ألمانيا تبقى في الناتو، لأنها هتبقى تحت عينينا وتحت إيدينا.

بدل ما كمان كام سنة يطلع عيل قصير كده بشنب ويقولك جوتن مورجين!

عايزين نحكم العالم!

مش بعيد ألمانيا في الوقت ده تكون قوة نووية، بالتأكيد عدم انضمامها لحلف عسكري هيخليها تسعى للحصول على قنبلة نووية للدفاع عن نفسها.

وساعتها ده مش هيبقى اتحاد سوفيتي، هيبقى اتحاد سكندري!

وأنهي كلامه بسؤال هيحمل واحدة من أهم العبارات في تاريخ العلاقات الأمريكية الروسية، وقاله تحب تشوف ألمانيا موحدة مستقلة وبلا قوات أمريكية خارج الناتو، ولا تحب تشوف ألمانيا موحدة مرتبطة بالناتو، بضمانات أن الناتو لن

يتحرك بوحدة واحدة [\(37\)](#) للشرق من موقعه الحالي؟

غورباتشوف قاله تمديد الناتو أمر مرفوض بشكل قاطع، فيبكر قاله وإحنا موافقين.
غورباتشوف خرج من الاجتماع سعيد بموافقة بيكر على عدم التوسع الشرقي للناتو أبعد من حدود ألمانيا، وبيكر خرج من الاجتماع سعيد أن النقاش تحول من توحيد ألمانيا لتوسع الناتو!
ولكنه لما رجع أمريكا فوجئ برفض بوش تقديم أي تعهدات بخصوص عدم التوسع!
انضمام ألمانيا للحلف خطوة أولى وليس خطوة أخيرة، ولذلك لا بد عدم وضع شروط خاصة تمنع تقدم القوات الأمريكية ناحية الشرق في المستقبل.

كل اللي ممكن نقدمه هو تنازل صوري لحفظ ماء وجه موسكو اللي أصبحت بتعاني كل يوم أكثر من اللي قبله!
سنة ١٩٨٩ البنوك الغربية توقفت عن منح قروض قصيرة الأجل للاتحاد السوفيتي، فأصبح غير قادر على استيراد احتياجاته الأساسية وعلى رأسها الغذاء!
غورباتشوف طلب فلوس من بيكر ومساعدات غذائية من كول اللي أمده بأطنان من الغذاء المدعم بلغت قيمته حوالي ٢٢٠ مليون دولار.

على عكس وزير الخارجية السابق هنري كيسنجر اللي كان شايف أن عملية توحيد ألمانيا هتنتهي خلال سنتين على أقصى تقدير، كول كان شايف أنها في الأغلب هتستمر لسنين طويلة.
ولكن انهيار الاقتصاد السوفيتي خلاه يشوف أنه أمام فرصة لن تتكرر، فوافق على مساعدة الاتحاد مادياً عن طريق الوساطة لدى البنوك الألمانية والغربية، وبدأ يتناقش مع غورباتشوف عن شروطه للموافقة على إعادة توحيد ألمانيا.
ولما قاله عن رغبته في عدم انضمام ألمانيا للناتو، قاله متقلقش، حتى لو انضمامنا مش هنسمح بدخول قوات أو بنية تحتية عسكرية تخص الناتو في ألمانيا الشرقية.

بوش أدرك أنه أمام ورطة ومحتاج يتحرك بسرعة!
كول مستعد يقدم أي تنازل بهدف توحيد ألمانيا، ووصله لاتفاق مرضي مع غورباتشوف ممكن يضرب التحالف في مقتل ويمنعه من التوسع إلى الأبد.
فعمل زي ما كل الرؤساء الأمريكيين السابقين كانوا بيعملوا لما يحبوا يقنعوا رئيس دولة بحاجة هم عايزينها، وعزمه في كامب ديفيد (38).

كامب ديفيد استراحة سياسية على بعد حوالي ١٠٠ كم شمال غرب العاصمة واشنطن.
أسسها روزفلت سنة ١٩٤٢، وأعاد تسميتها أيزنهاور سنة ١٩٥٣ باسم حفيده ديفيد.
٢٠٠ فدان من الطبيعة الجبلية الخلابة خلوا كامب ديفيد مكان الاستراحة المفضلة للعديد من الرؤساء، اللي شافوها مكان ممتاز لاستضافة الزعماء الأجانب بعيداً عن زحمة واشنطن، زي ونستون تشرشل والرئيس المصري الراحل أنور السادات.
كول وصل لقي بوش وبيكر في انتظاره رغم عدم توجيه الدعوة لوزير الخارجية الألماني.
هانز غينشر غير متحمس للانضمام للناتو ومؤيد للفكرة الحاملة بإنشاء تحالف جديد يشمل دول أوروبا كلها، فبوش قرر إبعاده ومعزموهوش لتسهيل عملية إقناع الشخص الأهم وهو هيلموت كول، أول رئيس ألماني تتم دعوته لكامب ديفيد في التاريخ، وهو شرف لو تعلمون عظيم.
رئيس أمريكا هو الباد بوي بتاع المدرسة اللي كل الناس عايزة تتعرف عليه، ولذلك الدعوة في حد ذاتها تحمل قدر عالي من الإشادة والتكريم.

طبقاً لأستاذ إدارة الأعمال بجامعة هارفارد إيثان بيرنستين، الناس بيحبوا اللي يشكرهم، واللي يهنيهم، واللي يعزموهم (39)!
وبوش مضيعش وقت في تنفيذ خطته، وقال لكول امسك نفسك شوية!
مش أي حاجة يطلبها غورباتشوف توافق عليها!

كلها كام سنة ودول شرق أوروبا هتتضم للمجتمع الأوروبي (40)، وساعتها ألمانيا هتكون في وسط القارة بتلعب دور قاطرة النمو ورمانة الميزان، ووجودها في الناتو مهم لحمايتها وحماية باقي الدول اللي حواليتها. وعشان يطمنه فكره بتوقيع الرئيس السوفيتي ليونيد بريجنيف على اتفاقية هيلسينج سنة ١٩٧٥، اللي بتضمن حق كل دولة في اختيار التحالف العسكري اللي عايزة تنضم له. وهما أن ألمانيا الغربية وقعت على الاتفاق، يبقى ألمانيا الموحدة من حقها الاختيار بحرية. وقاله هندعمك في التوحيد ولكن بشرط الانضمام للناتو. كول اللي كان بيحلم بتوحيد أوروبا كلها وليس فقط ألمانيا، وافق ووعد بوش بعدم التنازل في مفاوضاته مع غورباتشوف. ولكن الوعد مكنتش كافي لطمأنة بوش وبيكر اللي أدركوا أنهم لازم يواجهوا العقدة الأكبر بشكل مباشر. محتاجين قعدة هادية مع كوبايتين شاي بالنعناع مع ثاني أقوى رجل في العالم. جلسة بعيدة عن ضغط الإعلام ووسوسة الحاشية والموظفين. فقرروا اتخاذا خطوة تاريخية، ودعوا غورباتشوف إلى كامب ديفيد. وهناك بعد العديد من الجولات والمناقشات والشاي بالياسمين، بدأ سد غورباتشوف في التشقق. وقال مفيش مشكلة ألمانيا تنضم للتحالف ولكن بشرط عدم وجود أسلحة نووية أو قوات أجنبية على أرضها زيبا زي الترويج وأيسلندا. بوش رفض بشكل قاطع. لو عمل كده الكونغرس مش هيرحمه. طول ما في عساكر أمريكيان في أوروبا لازم يكون في غطاء نووي لحمايتهم. فقال لغورباتشوف إن ألمانيا الموحدة هتلتزم زي ألمانيا الغربية بعدم امتلاك أسلحة نووية أو بيولوجية أو كيميائية، ولكن الأسلحة اللي تخص الناتو هتفضل موجودة تحت إشرافه. غورباتشوف حس بتعنت من الولايات المتحدة. الحلف مليء بالاستثناءات، ولذلك طلب وضع خاص لألمانيا لا يجب التعامل معه كضرب من الخيال. فرنسا كمثال وهي أحد أهم أعضاء التحالف غير خاضعة للقيادة العسكرية المشتركة، بينما في بريطانيا الأسلحة النووية الخاصة بالتحالف تحت سيطرة محلية، بينما في الترويج والدمارك هناك شروط تحد وتمنع وجود الأسلحة النووية والقوات الأجنبية. ومع ذلك أمريكا مصممة على انضمام غير مشروط لألمانيا مع التلميح بانضمام أعضاء آخرين في المستقبل، فغورباتشوف قرر مباغته بوش وبيكر بطلب خلى الرفيق ستالين يتقلب في تربته، وقالهم ما دام في النهاية كل الدول الأوروبية هتبقى في الناتو، أنا كمان عايز انضم للناتو!

ليه نضيع فرصة تاريخية لبناء تحالف أوروبي شامل (41)؟ بيكر قاله التحالف الشامل ده مجرد خيال، بينما الناتو أمر واقع. ناتو إيه اللي عايز تدخله؟ أنت فاكركه نادي الجزيرة؟! المشكلة أن مش هو لوحده اللي عنده خيال سياسي حالم يصل إلى درجة السذاجة. الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران نادى بحلف أوروبي شامل. بينما الرئيس التشيكوسلوفاكي فاتسلاف هافيل طالب بسحب جميع القوات الأمريكية والسوفيتية خارج الدول الأوروبية في محاولة لفتح صفحة جديدة.

ها فيل يتمتع بسلطة معنوية هائلة في الغرب، أعضاء الكونغرس وقفوا يصفقون له ١٧ مرة أثناء خطابه، والإعلام كتب عنه بشكل رومانسي حالم بعد نجاح الثورة المخملية (42). سنة ١٩٨٩.

الثورة المخملية دي كانوا بينزلوا يتظارها وحدهم بشرائط كاظم الساهر.

بينما مارجریت تاتشر كان عندها تحفظات على التوحيد والتوسع ومع ذلك كانت مدركة مدى خطأ وضع الجنود الأمريكان والسوفيت في مقارنة واحدة.

في نظر الدول المستضيفة ده جيش غازي وده جيش حامي.

المفاجأة الأكبر كانت موقف بولندا.

رغم معاناتها من الحكم الشيوعي لعقود طويلة، ورغبتها الدفينة في الانضمام للنااتو لاتقاء شر غدر روسيا وغدر الزمان، إلا أنها عارضت بشدة توحيد ألمانيا، خوفاً من مطالبتها باستعادة الأرض اللي خسرتها بنهاية الحرب العالمية الثانية.

فكول أعلن عن نيته في التمسك بحدود ألمانيا الحالية مع بولندا الواقعة على خط نهر أودر نايسه في الشرق.

اختلاف المواقف نابع من من اختلاف المصالح، بوش وبيكر عارفين أن اختلاف الآراء قد يفسد للود قضية.

فبدأوا في التشاور مع الحلفاء بشكل رسمي حول مستقبل ألمانيا في مفاوضات شملت الاتحاد السوفيتي وأمريكا وبريطانيا وفرنسا بالإضافة لألمانيا الشرقية والغربية عرفت باسم ٤+٢.

ومع ذلك عملوا على جعل المنصة مجرد واجهة إعلامية، بينما المفاوضات الحقيقية تمت بشكل منفرد مع كل دولة على حدى في الخفاء (43).

القرارات لا تؤخذ في المؤتمرات، والمشاكل لا تحل إلا في الغرف المغلقة.

والمشكلة دي تحديداً بوش كان متأكد أن مش هيحلها غير الفلوس.

الدولار هيغلب الاستعمار، واحتياجات الاتحاد الاقتصادية تفوق اعتباراته السياسية.

بينما غورباتشوف رغم الضغط اللي عليه كان متأكد أنه هيقدر يقاوم.

خلى الأمريكان يقولوا اللي هما عايزينه بينما العساكر السوفيت في ألمانيا الشرقية هيخلوا الكلمة الأخيرة للاتحاد.

ولكن خلال شهور قليلة، مصدر القوة تحول لمصدر ضعف.

تصريح غورباتشوف بأن التدخل العسكري السوفيتي في المجر سنة ١٩٥٦، وتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨ كان خطأ كبير، أدى لإعادة إحياء الحراك المناهض للشيوعية في البلدين.

وبعد التحول الديمقراطي سنة ١٩٨٩ طالبوا غورباتشوف بإجلاء القوات السوفيتية من أراضيهم، فوافق بشكل مثالي دون أي اعتبارات عملية لتوابح قرار مهول زي ده.

العساكر حالتهم صعبة بعد سنوات من الإهمال، بيعانوا من ضعف الرواتب وسوء التغذية.

وهم ماشيين من المجر بدأوا في تدمير كل ما يمكنهم الوصول إليه.

كسروا القواعد العسكرية، وقطعوا خطوط التليفون، وباعوا كل اللي عرفوا يحطوا أيدهم عليه، من أول الأسلحة الخفيفة لحد الدبابات.

دبابة فبريكا استعمال طيب، البيع لدواعي السفر!

قوات مسلحة غاضبة يعني قبلة موقوتة، والقنبلة كانت على وشك الانفجار في يوليو ١٩٩٠.

قبل الوصول لتسوية سياسية، تم الاتفاق على التوحيد الاقتصادي والمالي لألمانيا مع اعتماد عملة موحدة جديدة.

العملة اللي مع العساكر السوفيت هتبقى بلا قيمة، وده ممكن يؤدي لكارثة مهولة.

غورباتشوف طلب من كول يساعده في تحمل نفقات نقلهم للاتحاد، فكول وعد بدفع مليار ومائتي مليون مارك، بالإضافة لمبالغ أخرى كمساعدات اقتصادية.

الضعف الداخلي أثر على السياسة الخارجية وخلق غورباتشوف مستعد يتنازل مقابل الفلوس.
المشكلة أن الفلوس دي مبتوصلش للمواطنين.
غورباتشوف اعترف لبيكر أن المليارات اللي اتحولوا من ألمانيا اختفوا، وطلب منه قرض عاجل من أمريكا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.
بيكر بعد ما عرف أن المبالغ اللي هدفها تحسين الأوضاع المعيشية للسكان تم تحويلها لحسابات المسؤولين في الخارج اعتذر ورفض التدخل.
ونصحه يدور على دولة ثانية مستعدة تساعد، وقاله يا ريت الدولة دي متكونش إسرائيل لإن زي ما أنت عارف فلوسهم فلوسنا!

بينما كول كان مستعد يعمل أي حاجة في مقابل التوحيد.
ندفع مفيش مشكلة بس المهم يمشوا.
وبالفعل كما توقع بوش، مع زيادة ضعف غورباتشوف موقفه استمر في التراخي، لدرجة أنه خاف معاونيه ينقلبوا عليه لو محققش أي مكاسب في المفاوضات.
فتم الاتفاق على انضمام ألمانيا الموحدة للناتو، ولاء القوات السوفيتية خلال ٤ سنوات، مع التعهد بمنع نشر أسلحة نووية داخل ألمانيا الشرقية، وعدم دخول قوات أجنبية تابعة للتحالف حتى خروج آخر عسكري سوفيتي.
الولايات المتحدة حصلت على كل شيء، وقررت إلقاء بعض الفتات لإنقاذ ماء وجه غورباتشوف، اللي خسر المفاوضات بسبب ضعفه الداخلي وليس الضغط الخارجي.
خسارة هتغير شكل السياسة الأوروبية إلى الأبد.
ولكن خسارة غورباتشوف كانت مكسب لألمانيا.
يوم ٣ أكتوبر سنة ١٩٩٠ تم توحيد ألمانيا لأول مرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.
التوحيد كان سبب في سعادة الألمان وبالأخص سكان ألمانيا الشرقية، اللي بدأوا في تلقي مليارات من المساعدات لدمج الاقتصاد الشيوعي الشرقي بالاقتصاد الرأسمالي الغربي.
بعد سنوات طويلة من الطوابير الناتجة عن نقص المنتجات، سكان ألمانيا الشرقية استقبلوا أحدث البضائع على رفوف المحلات.

تطورات اقتصادية وسياسية حميدة استقبلوا معاها مجموعة من التغييرات الاجتماعية الراديكالية أثرت عليهم بشدة.
في ظل الشيوعية كل مواطن له وظيفة مكفولة بالدستور، دلوقتي البطالة أصبحت خطر قادر على تدمير حياتهم في أي لحظة.

الرأسمالية زي ما جابت حرية، زي ما جابت منافسة وضغط وفردية.
وعلى قد ما لم الشمل كان كافي لسعادة عدد كبير من المواطنين، على قد ما التغيير كان صعب على ناس كثير شافوا حياتهم بتتغير قدام عينهم.

الهرمية والطبقية حلوا محل المساواة، والبحث عن الحرية تم استبداله بالبحث عن وظيفة.
بحث شارك فيه الكل بما فيهم ضباط الكي جي بي.

[36](#) النادي الريفي، والمقصود به نادي اجتماعي بعضوية حصرية للنخبة ذات الثروة أو الشهرة أو الانتماء للعائلات العريقة.

[37](#) "Not one inch eastward."

[38](#) Camp David.

[39](#) People like to get thanked, congratulated, and invited.

[41](#) Paneuropean alliance.

[40](#) النسخة السابقة للاتحاد الأوروبي.

4.2 Velvet revolution.

4.3 “ $\exists+\forall$ is meant to discuss, not decide.”

الثورة تبدأ من لينينغراد

«كل التاريخ الروسي يحدث في سانت بطرسبرغ».

ماشا جيسن.

بعد التوحيد لم يعد للكي جي بي مكان في ألمانيا الشرقية.

الضباط حرقوا عدد كبير من الملفات لعدم ترك أي أدلة أو أسرار أمنية، ورجعوا روسيا وهما مش عارفين هيشتلغوا إليه ولا هيشتلغوا فين!

بوتين ولودميلا ومعاهم بناتهم ماشا وكاترينا أو كاتيا الي اتولدت في ألمانيا، لما وصلوا موسكو حسوا أنهم في بلد ثانية غير الي يعرفوها.

بوتين بدأ في الاتصال برؤسائه القدامى بحثاً عن وظيفة فقالوا له لا في وظائف، ولا في شقق!

آلاف الضباط فجأة أصبحوا عاطلين عن العمل وكلهم رجعوا موسكو في نفس الوقت فمبقاش فيها شقة واحدة فاضية.

واحد من رؤسائه نصحوها يرجع لينينغراد لأنه على الأقل هناك يقدر يقعد مع أهله لحد ما يحلها ربنا.

وبالفعل في ظل الفوضى غير المسبوقة الي بيشهدها الاتحاد، بوتين فضل قاعد في شقة أهله ومقبضش مرتبه لمدة ٣ شهور، لحد ما جاله أمر بتولي منصب نائب رئيس جامعة لينينغراد للشئون الخارجية.

منصب هدفه متابعة زيارات الأساتذة والطلاب الأجانب.

بوتين لقي نفسه أمام حيلة سد كل ما يهددها تعلى أكثر.

رجل عنده ٣٨ سنة متجوز ومخلف ومع ذلك لسة عايش مع أهله لأنه معندوش بيت، وفي نفس الوقت ضابط مخبرات بيحلم بخدمة بلده الي بتمر بأزمة وجودية، وبعد ما كان بيحافظ على مصالحها في الخارج فجأة رجع يشتغل في الأقاليم، وبقي مطلوب منه يقوم بدور ممكن يعمله مدرس ألعاب!

ولكنه مكنش يعرف أن بينما العيون كلها على موسكو، وجوده في لينينغراد هيكون سبب في تغيير حياته إلى الأبد.

الاتحاد يمر بفترة مخاض عنيفة توحى بثورة قريبة، وكعادة الثورات الروسية، بدأت في لينينغراد.

بعد توليه حكم روسيا في نهاية القرن السابع عشر، بيتر رومانوف عزم على تحديثها على النموذج الأوروبي وزيادة مساحتها، فدخل في حروب طاحنة مع الإمبراطوريات المجاورة، زي الإمبراطورية السويدية والعثمانية والفارسية، انتهت بتحقيق انتصارات مدوية ونجاحه في مد مساحة روسيا إلى بحر البلطيق.

النجاح خلاه يعرف باسم بيتر العظيم، وكعلامة على العظمة استبدل لقب قيصر بلقب إمبراطور، وأسس عاصمة جديدة على خليج فنلندا باسم سانت بطرسبرغ (44). على اسم القديس بطرس.

المدينة الي كان بيحلم تكون جسر يربط بين روسيا وأوروبا أصبحت القلب النابض للإمبراطورية، ولكن مع بداية الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا، تم تغيير اسمها إلى بتروغراد، أو مدينة بيتر، للتخلص من لفظ بيرغ الألماني.

المدينة عانت أثناء الحرب، ومع ذلك استمرت كمركز للسلطة والحراك السياسي بشكل خلاها مهد الثورتين الي غيروا تاريخ روسيا والعالم سنة ١٩١٧: ثورة الجنود والعمال والفلاحين في بدايتها، وثورة البلشفيين الشيوعيين في نهايتها.

سنة ١٩١٨ لينين أمر بنقل العاصمة إلى موسكو خوفاً من احتمال الغزو الأجنبي، وبعد وفاته تم تغيير اسم المدينة إلى لينينغراد أو مدينة لينين تكريمًا له.

وعلى الرغم من الحروب والثورات وتغيير الاسم، وحتى بعد خسارة مكانتها السياسية لصالح موسكو، لينينغراد استمرت كعاصمة للفكر والفن والثقافة طوال سنوات الحكم الشيوعي.

وزي ما التاريخ بيؤكد، الثورات أحياناً تبدأها الطبقات الكادحة، وأحياناً تشعلها النخب المثقفة. وزي ما معظم النار من

مستنصر الشرر، فمعظم الثورات تبدأ بمطالب غير سياسية، ولا تتحول للسياسة إلا بالقمع والتجاهل. سنة ١٩٨٧ سكان لينينغراد سمعوا إشاعات عن نية السلطة هدم فندق إنجلترا، أحد أقدم فنادق المدينة، فنزلوا الشارع بشكل عفوي وتجمهروا أمامه لمنع الجرافات من إزالة التاريخ. المسئولون نفوا وجود أي نية لهدم الفندق، فالمتظاهرين شعروا بالارتياح قبل ما يفاجأوا بتفجيره بالكامل بعدها بنصف ساعة!

الغضب من الهدم زاد منه الغضب من الكذب، فالسكان استمروا في التجمع، ورغم فشلهم في إنقاذ الفندق، إلا أنهم نجحوا في خلق شيء غريب عمرهم ما جربوه قبل كده: الفضاء العام (45). مكان مفتوح يقدرها يمارسوا فيه أبسط حقوقهم السياسية والإنسانية: الكلام بحرية. حرية لم يعرفوها إلا في حكم غورباتشوف، اللي مع كل قرار له كانوا يبزدادوا جرأة، بينما هو كان يبزداد خوفاً من الوحش اللي خرج من القفص ومبقاش عارف يسيطر عليه!

فبدأت سياساته تعرف باسم خطوتين للأمام، وخطوة للخلف (46). نسبة حرية حولت المنع إلى التضييق. خايف من الديمقراطية، ولكن مش قادر يمنعها في ظل معارضة شرسة من الحزب الشيوعي.

فسمح بإنشاء منظمة الجبهة الشعبية لدعم البيريسترويكا. المنظمة تم تأسيسها بشكل عفوي على يد قادة الحركة الديمقراطية، اللي بعضهم تم اعتقالهم ونفيهم في العصور السابقة قبل ما يرجعوا لاستنشاق نسيم الحرية.

وعلى عكس الحزب الشيوعي، أعضاؤها آمنوا بضرورة اتباع الديمقراطية في المنظمة قبل ما يطالبوا بالديمقراطية في المجتمع، فقضوا وقت طويل في كتابة لائحة لضمان تداول السلطة وعدم تركيزها في يد شخص أو مجموعة واحدة. ولكن رغم الجهد الجبار، المنظمة كانت مجرد منصة للكلام بلا أفعال، لحد ما غورباتشوف فاجئ العالم كله بدعوته لإجراء انتخابات سنة ١٩٨٨ لإزاحة حرس الحزب القديم.

قانون الانتخابات الصادر في ديسمبر سنة ١٩٨٨ نص على انتخاب نواب لمجلس تشريعي جديد جزء منه منتخب من الشعب، وجزء منتخب من الحزب، ورغم أن ده ممكن يبدو إصلاح بسيط إلا أنه في الحقيقة لغى احتكار الحزب الشيوعي للسلطة بجرة قلم.

الأعضاء اللي مكانوش يحلموا بالتجمع دون احتمالية القبض عليهم من كام شهر فجأة لقوا أنفسهم بيحضروا لحملة انتخابية!

وفي خلال عدة أشهر اللي مكانوش يتخيلوه حصل! الحزب خسر هزيمة ساحقة لصالح ممثلي الحركة الديمقراطية وعلى رأسهم أبو القنبلة الهيدروجينية السوفيتية أندريه ساخاروف.

بعد حصوله على الدكتوراه في الفيزياء النظرية، ساخاروف أصبح أحد رواد المشروع النووي السوفيتي إيماناً منه بضرورة عدم احتكار الولايات المتحدة للأسلحة النووية في العالم، وبعدها عارض سباق التسليح خوفاً من الدخول في مواجهة غير محمودة العواقب، وانتقد الاتحاد السوفيتي لانتهاكاته المتكررة لحقوق الإنسان، فكسب جائزة نوبل للسلام تقديراً لمعارضته للاتحاد سنة ١٩٧٥.

رد الاتحاد كان منعه من السفر لاستلام الجائزة، بالإضافة لسحب كل الجوائز والتكريمات، ونفيه داخلياً بعيداً عن العاصمة. الوضع استمر لحد ما غورباتشوف سمح بعودته إلى موسكو، فرجع من المنفى كزعيم معنوي للحركة الديمقراطية الناشئة، اللي على عكس ما غورباتشوف كان متوقع، بدل ما تحميه، حاربتة، وبدل ما تشعر بالامتنان لمنحها بعض الحقوق اللي

سمح بها هاجمته لمنعها من البقية.

وهي دي معضلة الديمقراطية، السماح بجزء منها يؤدي إلى المطالبة بالمزيد.

في مايو ١٩٨٩ المواطنين اختفوا من شوارع الاتحاد السوفيتي.

العائلات كلها قاعدة في البيوت أمام التلفزيون لمشاهدة كونجرس نواب الشعب، أول برلمان منتخب بشكل حر ونزيه من أيام الثورة البلشفية!

غورباتشوف قعد كملك متوج في انتظار تكريم النواب، وفجأة لقي سخاروف مسك المايك ويقول إنه بيدعمه ولكن بشكل مشروط متوقف على قيامه بمزيد من الإصلاحات الضرورية!

غورباتشوف شعر بغضب شديد، أنا هلاقيها منك ولا من الحزب!؟

ولما لقي سخاروف مستمر في إلقاء خطبة عصماء وضعته في موضع الاتهام وليس الامتنان، أمر بقطع الصوت، ومكنش يعرف أن صوت سخاروف اللي اتقطع عن القاعة وصل لملايين المشاهدين اللي بيتفرجوا على البث مباشر! وبعد عدة دقائق ثقال سخاروف انتهى من الحديث وتوجه لغورباتشوف لإعطائه أوراقه، فرفض ياخدهم أمام عدسات التلفزيون.

وبعد ست شهور أصيب سخاروف بأزمة قلبية توفى بسببها، السلطة خافت من تحول جنازته لمظاهرة فحاصروا المدفن وقفلوا محطة المترو لمنع الناس من الوصول، وكالعادة، المنع أدى لنتيجة عكسية، حوالي ١٠٠ ألف شخص حضروا سيراً على الأقدام لتشيع جثمان سخاروف في عز الثلج، ووضع المسمار الأول في نعش غورباتشوف.

ولكن زي ما شهدت الانتخابات وفاة الحزب إكلينيكيًا، شهد الكونجرس بعدها ميلاد نجوم جدد محل النجوم القدامى، وعلى رأسهم بوريس يلتسن وأنا تولي سوبتشاك.

يلتسن هو النسخة المعاكسة لغورباتشوف.

اتولد سنة ١٩٣١ لأب عامل وربة منزل في أقاليم جبال الأورال.

من وهو صغير معروف عنه التمرد والمشغبة، لدرجة أنه خسر صباغين من إيده بعد انفجار قنبلة يدوية كان يلعب بيها! ولما كبر دخل كلية هندسة، واتجوز مهندسة، ومدخلش الحزب الشيوعي غير سنة ١٩٦١ لما أدرك أنه الطريق الوحيد إلى القمة.

وفي الحزب أثبت قدرات تنظيمية فائقة، واستمر في محاولات الصعود لحد ما الفرصة جت له سنة ١٩٧٥ لما بريجنيف أمر بهدم منزل إيباتيف، اللي شهد إعدام آخر القياصرة نيكولاس الثاني وعائلته بالكامل سنة ١٩١٨، ومن ساعتها كل سنة السكان بيقفوا قدام البيت ويحطوا شموع قدامه، ويترحموا على القيصر القديم في معارضة صامته ومستترة للقيصرية الجدد.

يلتسن نفذ الأوامر بشغف وهدم البيت بعد أقل من ٢٤ ساعة من تلقيها، فانفتحت له طاقة القدر وأصبح أحد نجوم الحزب الصاعدين المعروفين بالكفاءة ومحاربة الفساد.

وبعد حوالي عشر سنوات قضاها كرئيس الحزب في مقاطعة سفيردلوفسك، أحد أهم المناطق الصناعية، استدعاه غورباتشوف بعد صعوده للسلطة وعينه كرئيس للحزب في موسكو، فأصبح أشد الداعمين لإصلاحاته السياسية والاقتصادية، ودخل في مواجهات حادة مع أعضاء الحزب، لدرجة أنه رفض منهم المئات بسبب شكه في فسادهم ومعارضتهم للسياسات الجديدة.

في البداية غورباتشوف كان سعيد بالبلدوزر اللي جابه، ولكنه مع الوقت أدرك أن مواقف يلتسن بتخدمه طموحه مش بتخدمه هو.

صراعاته المتكررة زودت حجم الضغط اللي عليه من قادة الحزب.

فقرر يريح دماغه ويتخلص من خصم لم يشتد عوده، فرفده من منصبه، وطرده من حاشيته.

فتحول يلتسن لأحد أشرس المعارضين لغورباتشوف.
نزل انتخابات المجلس سنة ١٩٨٩ وكسب ثقة الناخبين في موسكو بهجومه المتكرر على ساتقي الأوتوبيسات المتأخرة،
ومديري المحلات التجارية ذوات الأرفف الفارغة.
يلتسن قوته الحقيقية في فهم نبض الشارع واللعب مع الكسبان، خروجه من منصبه حماه من السخط الموجه تجاه الحزب
وعمله ريبراندينج (47) حوله من نظامي إلى ثوري، وأصبح شوكة في حلق غورباتشوف الي حاول يتخلص منه فأعاد
إحيائه.

وفي ظل صراعه مع الحزب، غورباتشوف قرر عقد انتخابات لاختيار أول رئيس تنفيذي في تاريخ الاتحاد، لصنع مؤسسة
رئاسية بعيداً عن الهيكل البيروقراطي للحزب، على عكس ما هو معتاد من أيام لينين أن زعيم الحزب هو الي يبحكم.
ولكن الكونجرس قرر انتخاب النواب لرئيس روسيا أيضاً كونها أكبر جمهوريات الاتحاد.
فكسب غورباتشوف رئاسة الاتحاد، وحاول يدعم مرشح منافس لرئاسة روسيا ولكنه خسر أمام يلتسن، الي كسب باكتساح
بعد حصوله على دعم الشيوعيين لخبرته، ودعم الديمقراطيين لثورته، طبقاً لمدرسة الفنانة يسرا في السياسة الدولية:
ياختي كده ينفج وكده ينفج!

وفي نفس الوقت الي يلتسن أصبح فيه ملك موسكو، حليفه في لينينغراد كان على وشك التتويج كأمرها المنتظر، حليف في
الحركة الديمقراطية جمعتهم المصالح وفرقهم الطموح: أناتولي سوبتشاك.
سوبتشاك أستاذ قانون بجامعة لينينغراد، تعاون مع الديمقراطيين الجدد زي يلتسن وسخاروف لتأسيس جبهة لوقف
تجاوزات الأجهزة الأمنية، فحقق شعبية كبيرة في وقت قصير كأحد الوجوه الثورية البارزة في لينينغراد، وعلى الرغم من أنها
مش العاصمة، لكن المجال العام فيها عبارة عن حقل ألغام.
لو العقارب والأفاعي في موسكو، فزجاجات المولوتوف في لينينغراد.
الساسة هناك والثوار هنا.

والثوار أغلبهم حاملين بمستقبل أفضل دون أدنى فكرة عن كيفية تحقيقه.
مثالين عن سذاجة، أو قلة خبرة، أو مجرد جهل بطبيعة العالم والنفس البشرية الي تحمل بداخلها بذور الشر والخير في
اختبار مستمر لا ينتهي.
واختبار الديمقراطيين الأول كان في الانتخابات المحلية لمجلس المدينة.
رغم أن الانتخابات الرئاسية والبرلمانية عادة يحظوا بأكثر متابعة وأشد اهتمام، إلا أن التغيير الحقيقي يبدأ من المحليات.
السياسة بدون إدارة لا تستطيع تحقيق أي شيء، وبالتالي الإرادة السياسية محتاجة كفاءة إدارية علشان المواطن يحس
بتغيير.

بدون إدارة جيدة، العيش الي بتجيبه من الفرن الي في آخر الشارع هيطلع جودته رديئة حتى لو مدعم، والخدمة هتكون
سيئة في المطعم حتى لو غالي.
بالنظر للصورة الكبرى فالحل في السياسة، ولكن بالتدقيق الحل في الإدارة.
وغالباً ما يتم نسيان أن الديمقراطية وسيلة وليست غاية، الغاية هي الحياة الكريمة.
الديمقراطية المفرطة تؤدي أحياناً إلى البيروقراطية؛ لأن من أهم مزاياها تعدد الأصوات، ومن أكبر مشاكلها تعدد الأصوات.
الاتفاق صعب فالقرارات بتأخذ وقت طويل.
أبسط مثال هو سؤال هناكل أيه؟

المشاركة الجماعية تضمن احترام الأقلية، لكنها ممكن تأخر الأوردر (48)!
وللأسف بعض الناس اعتبروا الديمقراطية لعبة ممارستها أهم من نتائجها، فافرطوا في التدقيق والتمسك بضرورة الاعتماد

على الإجماع في كل شيء وأي شيء.

بينما البعض الآخر شافوها مجرد سلم للوصول لقمة الهرم.

سلم صعوده يتطلب المهارة الخطابية، وليس بالضرورة الكفاءة الإدارية، ومن ضمنهم سوبتشاك.

سوبتشاك زعيم بالفطرة ومتحدث متميز، نادى في خطبه ومقالاته بإنشاء مجتمع جديد قائم على العدل وسيادة القانون،

وقال إن المواطنين كلهم يمكن اعتبارهم ضحايا نظام قائم على ذبح نصف الشعب من أجل سعادة النصف الثاني.

ذهن حاد ولسان رشيق خلى خطبه الرنانة قادرة على كسب ثقة الديمقراطيين، ولكنه عارف أن دعمهم مش كفاية،

الشيوعيين ما زالوا قوة لا يستهان بها، فكان يهاجمهم في العلن ويسعى للتحالف معهم في الخفاء.

ففاز برئاسة مجلس المدينة بسهولة، اللي سكانها صوتوا في استفتاء يعد الأول من نوعه تحت الحكم الشيوعي على إعادة

تغيير اسمها من لينينغراد إلى سانت بطرسبرغ، في علامة على قدوم عصر جديد.

ولكن سوبتشاك فاجئ الديمقراطيين بأن العصر القديم حي لا يموت، وعين ضابط بحري متقاعد وأحد أعضاء الكتلة

الشيوعية كنائب له.

أنا جي أغير الدهانات مش الأساسات.

من أول يوم الديمقراطيين حسوا أنهم ارتكبوا خطأ قاتل، بينما سوبتشاك أدرك مدى صعوبة الفعل بالمقارنة بالكلام.

إلقاء خطبة حماسية لتحريك مشاعر عمال المصنع يتطلب مجموعة مهارات مختلفة عن المهارات المطلوبة لإدارة المصنع.

الإصلاحات السياسية والاقتصادية فتحت المجال لعدد كبير من السياسيين اللي لقوا أنفسهم في مواقع قيادية لأول مرة.

إصدار القوانين والقرارات شيء، وتنفيذها شيء ثاني.

أعضاء مجلس المدينة فجأة لقوا أنفسهم مطالبين بإيجاد حل للمشاكل اللي كانوا بيلوموا الحكومة عليها في حملاتهم

الانتخابية.

النقد أسهل من البناء، والسياسة هي فن الممكن بينما الإدارة هي فن الموجود.

سوبتشاك أدرك سريعاً أن مفيش جهة في الاتحاد السوفيتي كله تملك قدرة وخبرة في التعامل مع البشر أكثر من الكي جي بي،

فبدأ يدور على ضابط لتعيينه في جهازه المعاون في نفس الوقت اللي أحد أصدقاء بوتين نصحه يروح يقابل أستاذهم القديم

ونجم المدينة الصاعد، عل وعسى يكون محتاج خدماته.

وبالفعل بوتين زاره في مكتبه، ومن أول مقابلة سوبتشاك عرض عليه يشتغل معاه.

بوتين قاله لازم تعرف أي ضابط في الكي جي بي، لكنه فوجئ بسوبتشاك بيقوله كونك ضابط دي ميزة مش عيب!

المعرفة بخبايا الأمور، وبواطن الجهاز الإداري، ميزة مهمة محتاجينها في المجلس.

الكلام عجب بوتين، اللي حس أن الانضمام للمجلس هو مخرجه الوحيد من الطريق المسدود اللي ماشي فيه، المشكلة أن

ولائه الأول للجهاز، فقابل رؤسائه وبلغهم بالاجتماع، وقالهم لو تحبوا أقدم استقالتي، هقدم استقالتي!

فقالوا له بالعكس، وجودك في مكتب سياسي بارز زي سوبتشاك في مصلحة الجهاز.

التحول الديمقراطي تجربة خطيرة محتاجين نتابع اللي بيحصل فيها لحظة بلحظة.

وهكذا بوتين بدأ العمل في وظيفتين عكس بعض تماًماً، واحدة مهمتها الحفاظ على النظام القديم، والثانية تسعى للقضاء

عليه.

ومع انتخاب سوبتشاك سنة ١٩٩١ كأول عمدة للمدينة، أحكم سيطرته على جهازها التنفيذي، وعين بوتين في مكتبه كنائب

للعمة ورئيس لجنة العلاقات الخارجية المسئولة عن جذب الاستثمارات.

بوتين عمل بكل جد وإخلاص لخدمة مديره الجديد.

الساعات الطويلة اللي قضاها في الشغل، بالإضافة لخدمته السابقة في ألمانيا الشرقية، كانوا سبب في إعطائه لقب شتازي!

موظف من شدة كفائته بيدلعهه يقولوا له يا وزارة الداخلية!

ولكن الاجتهاد مكشش أهم مميزاته.

الولاء، والسعي الدائم لإرضاء مديره، كانوا نقط قوته الحقيقية.

في ظل لعبة العروش السياسية ولاء بوتين كان سبب كافي لكسبه ثقة سوبتشاك، واعتماده عليه بشكل أكبر مع الوقت، فخلاه مسئول عن خصخصة شركات القطاع العام، وإعطاء التراخيص لرجال الأعمال لفتح شركات جديدة في المدينة اللي بتشهد وجود قطاع خاص لأول مرة.

الشركات الناشئة هتقدم خدمات ومنتجات لتلبية احتياجات المواطنين وتحسين معيشتهم، وفي نفس الوقت هتسهم في تنشيط الاقتصاد عن طريق خلق فرص عمل، وزيادة الدخل من الضرائب.

حلم سوبتشاك بتحويل سانت بطرسبرغ إلى مركز تجاري عالمي، محتاج تمويل ضخم لتحقيقه، فمكتب العمدة تحول مع الوقت من جهاز رقابي إلى شريك تجاري.

فقرر هو وبوتين عمل مجموعة من الكازينوهات زي لاس فيجاس لضرب عصفورين بحجر واحد: جذب السياح، والأموال. المدينة هتدخل كشريك مع القطاع الخاص بنسبة ٥١%، مقابل إعطاء الرخص والمباني للشركات، اللي هيدفعوا ضرائب بالإضافة لنسبة من الأرباح.

خبرة بوتين في الكي جي بي خلته الشخص المناسب لإدارة قطاع الأعمال في مكتب العمدة.

معرفته بالموظفين والمجرمين على حد سواء زادت من شهرته كشخص قادر على إنجاز ما لا يمكن إنجازة.

وفي ظل انتشار التبرج والاختلاس وإهدار المال العام، عمل اسم لنفسه كموظف شريف لا يقبل الرشوة، مكتبه مفتوح لأي حد يطلب مساعدته، ولما اتسأل عن السبب جاوب بحكمة وقال محدش عارف اللي قدامه ممكن يبقى مين في يوم من الأيام.

ولكن على قد ما عمله في الكي جي بي أهله للتعامل مع الموظفين والجهاز الإداري للدولة، على قد ما خلاه غير قادر على التعامل مع المعارضة أو الإعلام.

العمل في الجهاز من أهم ميزاته القدرة على التحرك في الظل، لكن العمل السياسي بيتم تحت المجهر، الغلطة فيه مكشوفة، والوقعة بألف.

وبوتين كان على وشك التعرض للهجوم الإعلامي الأول في حياته، بسبب ما عرف بأزمة الطعام في لينينغراد.

في بداية التسعينيات، الشعب الروسي حرفياً مكشش لاقى ياكل.

نقص حاد في البضائع الأساسية، زي السكر، والشاي، والصابون، مصحوب بنقص في البنزين، وانقطاع للكهرباء.

مجلس المدينة اضطر لتوزيع بطاقات تموين فكرت السكان بأهوال الحرب العالمية الثانية.

كل فرد له كيلو ونصف لحمة، وعشر بيضات، وكيلو مكرونة كل شهر.

نقص السكر والسجائر تسبب في مظاهرات كانت على وشك التحول لأحداث شغب بعد تهديد المتظاهرين بكسر الفاترينات واقتحام المحلات.

في ظل نقص العملة الصعبة وانهيار الميزانية، تم التوصل لحل مؤقت لاستيراد ما يكفي من الطعام، قبل دخول الشتاء المميت.

المدينة هتصدر موارد طبيعية بشكل مباشر مقابل مواد غذائية من ألمانيا.

كمسئول عن العلاقات الخارجية بوتين مضى عقود مع عدة شركات روسية ناشئة لعبوا دور الوسيط لتسهيل عملية التبادل مقابل عمولة.

حل عبقرى لإنقاذ السكان من مجاعة محققة.

ولكن المفاجأة أنه بعد توقيع العقود وتصدير آلاف البراميل من البترول للخارج، الشركات اختفوا، لا حس ولا خبر!

بوتين بقى في مأزق لا يحسد عليه.

فاستعان بسلاحه الأهم اللي طلع به من الكي جي بي: شبكة معارفه، وتواصل مع فيكتور زوبكوف، أحد أهم رجال الزراعة السوفيتية في سانت بطرسبرغ.

زوبكوف وصله بكبار الفلاحين والمنتجين الزراعيين على المستوى الإقليمي، فقدر يوفر حد أدنى من الغذاء للقدرة على مواجهة الشتاء.

لكن الحقيقة اللي أنقذ المواطنين من الدخول في مجاعة شاملة كان المواطنين أنفسهم! الذاكرة الجمعية لم تنسى سنوات الحصار والجوع في أوقات الفقر والحرب والثورات، فكل عائلة بقت متعودة تزرع ما تيسر لها داخل أو خارج المنزل.

بالإضافة أن الشتاء نفسه كان رحيم بالشعب المنهك، ولم يلهبهم بالصقيع على عكس التوقعات. رغم احتواء الأزمة بسبب حسن التصرف، وستر ربنا، إلا أن بوتين خرج منها بثلاث دروس هيفضل فاكرهم ما تبقى من حياته.

الدرس الأول هو ضرورة عدم الاعتماد على القطاع الخاص بشكل كلي. الثقة العمياء لا تصح في مؤسسات تعمل من أجل الربح، بالذات في ظل غياب قوة تضمن عدم إخلالهم بالعقود والاتفاقيات.

الدرس الثاني هو ضرورة الحفاظ على شبكة رجال يعتمد عليهم في المواقف الصعبة. الولاء فوق كل شيء، والأشخاص محل الثقة قادرين على فعل أي شيء. ولذلك في بداية عام ١٩٩٢ عين زوبكوف كنائب له بعد ما أثبت كفاءته في أزمة الغذاء. الدرس الثالث والأهم هو أن الديمقراطيين عبارة عن أقوال بلا أفعال.

مجلس المدينة اللي دخل في صراع مفتوح مع العمدة بسبب تهميشه واستثثاره بالسلطة، هاجم بوتين اللي حملوه مسئولية عدم وصول الشحنات الغذائية المتفق عليه، واتهموه بالفساد واقتسام الأموال مع الشركات الوسيطة. المجلس شن حرب مزدوجة، إعلامياً وقانونياً، بشكل أوشك يقضي على مستقبله.

بوتين قال أنا ذنبي إيه أن الشركات خدوا الفلوس وهربوا؟

ده بدل ما تشكروني إني عرفت أتصرف؟

كلامه لم يفتح أعضاء المجلس اللي قدموا شكوى رسمية ضده وصلت لموسكو!

لكن سوبتشاك كان في ظهره، وبدل ما يتخلص منه، تخلص من المجلس!

وأصدر قرار بخفض عدد أعضائه من حوالي ٤٠٠ إلى ٥٠ عضواً فقط.

المدحش أن القرار ذا النزعة السلطوية، في عصر مليء بالمشاعر الثورية، حظى بدعم جماهيري كبير.

شعبية سوبتشاك، طبقاً لأحد استطلاعات الرأي، أعلى من شعبية المجلس بحوالي أربع أضعاف!

الشعب عايز تغيير، مش جدال وكلام كثير!

التفاؤل بإصلاحات غورباتشوف قتل على يد فوضى الغلاء.

الاتحاد السوفيتي ميت إكلينيكيًا، ومحدث تخيل أن الجثة الهامدة ما زالت تملك صحوه أخيرة.

[44](#) Saint Petersburg.

[45](#) Public space.

[46](#) Two steps forward, one step backward.

[47](#) Rebranding: تغيير العلامة التجارية.

[48](#) Order: طلب الطعام.

الانفجار العظيم إلى الداخل

«الشيء الوحيد الباقي لي لدفنه هو لينين».

بوريس يلتسن.

بعد الاتفاق على توحيد ألمانيا، غورباتشوف تحول لبطل في نظر العالم الغربي.

أسطورة رجل الدولة الإصلاحية تحققت بفوزه بجائزة نوبل للسلام عام ١٩٩٠.

خارج الاتحاد الأوروبي والأمريكان كانوا يستنوه أمام المبنى اللي رايحه عشان يسقفوا له، بينما داخل الاتحاد الوضع كان مختلف تمامًا.

بطل الخارج تحول لخائن الداخل.

المواطنون الروس أمطروه برسائل ساخرة، بيهنوه فيها على نجاحه في تحويل الاتحاد إلى دولة متسولة، بتتنازل عن الأرض والنفوذ مقابل الفلوس.

الغضب تعدى الجماهير ووصل لأعلى دوائر السلطة.

وزير الخارجية استقال، ورئيس الكي جي بي فلاديمير كريتشكوف هاجمه لأول مرة بشكل علني أثناء مباحثاته مع الأمريكان، وقال أن البيريسترويكا غلطة كبيرة مكش في أي داعي للاستعجال في تطبيقها.

أما قادة الجيش فكانوا هبتجننوا من خسارة وجودهم على الأرض في ألمانيا، لأنهم عارفين أن انسحابهم هيخلي أي مواجهة مستقبلية أقرب لأرضهم، فأجروا اختبار نووي دون الحصول على موافقته، لتذكرة العالم هما مين، ويقدرُوا يعملوا إيه!

ولكن كله كوم واللي حصل في دول البلطيق كوم ثاني.

سنة ١٩٤٠ ستالين استغل اشتعال الحرب واحتل ليتوانيا، ولاتفيا، وإستونيا.

الانفتاح السياسي في عهد غورباتشوف خلاهم يطالبوا باستقلالهم بشكل مباشر مقدروش يعملوه في عهد ستالين، خاصة بعد قراره بسحب القوات من أفغانستان في نهاية الثمانينيات.

بدون دعم اقتصادي وعسكري سوفيتي، الحكومات الدمى بدأت في السقوط واحدة ورا الثانية.

غورباتشوف لقي الوضع بيخرج عن السيطرة، فحاول وقف العجلة، أو على الأقل إبطائها، وأمر في يناير سنة ١٩٩١ بإعادة الحكومة الشيوعية للسلطة في ليتوانيا بالقوة.

القوى الديمقراطية الليتوانية رفضت الانصياع للأوامر، وحاولوا يسيطروا على مبنى الإذاعة والتلفزيون، فالدبابات السوفيتية قصفت المبنى وقتلت متظاهرين فيما عرف باسم الأحد الدموي.

ولكن بعد انسحاب العساكر، وعلى عكس ما توقع غورباتشوف، العنف أدى للعند، فتم عمل استفتاء في فبراير للتصويت على استقلال ليتوانيا، في تحدي واضح لغورباتشوف اللي استمر في التأكيد على عدم قانونيته.

ولكن القانون شيء نسبي.

في ظل غياب سلطة تشريعية منتخبة، القانون يفرضه من يحمل السلاح، وكلام غورباتشوف ليس له أي قيمة من غير قوة عسكرية تضمن تنفيذه على الأرض.

فأمر بدخول الدبابات إلى موسكو في مارس، وأصدر أمر بمنع التظاهر.

مئات الآلاف نزلوا الشارع في تحدي واضح للقرار.

نصف الديمقراطية لا يُرضي، ونصف السلطوية لا يقمع!

غورباتشوف رفض فتح النار على المتظاهرين، من ناحية لأنه مش دموي بالفطرة، ومن ناحية ثانية لأنه مش عايز يلطخ صورته البيضاء أمام العالم ببقعة دم.

الدم لا يمحي ولا يسقط بالتقادم.

صحيح القوة بتنفع وقت الفوضى، زي ما إرساله للجيش السوفيتي نجح في وقف العنف ضد الأرمن في أذربيجان، إلا أنه لا يصح الاعتماد عليها بشكل كلي وقت السلم.

فقرر يحصل على الشرعية من صناديق الاقتراع بدلاً من مدافع الدبابات، وقرر عمل استفتاء في كافة أنحاء الاتحاد السوفيتي، ببسأل فيه المواطنين لو يحبوا يستمروا في الاتحاد كدول مستقلة متساوية بعد عقود من السيطرة الروسية على باقي أعضاء الاتحاد ككل.

الاستفتاء ينص على انتخاب ممثل عن كل دولة أشبه بالمحافظ، بيقوم بإدارتها بالشكل اللي يحبه دون تدخل من الاتحاد، اللي هيتولى مهام الدفاع والسياسة الخارجية فقط.

الاستفتاء عقد في مارس، وقالت الصناديق لغورباتشوف نعم.

٧٨% من السكان صوتوا لصالح الحفاظ على الاتحاد.

ولكن على الرغم من أنها نسبة كبيرة، إلا أنها خادعة، لأن الاستفتاء قاطعه ٦ دول من أصل ١٥: جورجيا، وليتوانيا، ولاتفيا، وإستونيا، ومولدوفا، لأنهم عازمين على الانفصال.

غورباتشوف اعتبر ده تفويض للمضي قدماً في الإصلاحات، وبالفعل تم عمل انتخابات في يونيو، فاز فيها يلتسن برئاسة روسيا، الدولة الأهم في الاتحاد.

ولكن على عكس ما غورباتشوف كان متخيل، يلتسن اللي طالب بتنحي غورباتشوف من قبل استقالته، تعامل على أنه رئيس جمهورية وليس مجرد حاكم (49). مقاطعة فيدرالية.

فعين وزير خارجية، وبدأ يخطط لكيفية الخلاص من غورباتشوف، اللي لولاه كان زمانه محافظ البحر الأحمر.

فدعم استقلال دول البلطيق وهاجم غورباتشوف للتباطؤ في تقديم المزيد من الإصلاحات.

أي حاجة تضعف غورباتشوف، وتنكد عليه، أنا معاهها على طول!

المشكلة إنه رغم العداوة اللي في قلبه له من ساعة ما رفده، إلا إنه عارف إنه السبب الوحيد في تلجيم قادة الحزب والأجهزة الأمنية، ولكن اللجام على وشك التمزق.

البرلمان الأوكراني أعلن السيادة الأوكرانية، سيادة وليس استقلال، إحنا مبناخدش أوامر من حد ولكن لسه تبعكم يعني بشكل رسمي، والشيشان أعلنت رغبتها في الاستقلال، والشيشان على عكس باقي الدول جزء من روسيا، انفصالها ينذر بتفكك روسيا نفسها!

الأمريكان حسوا أن المعطيات توحى بحدوث حاجة من اتنين، إما انهيار الاتحاد السوفيتي، أو الانقلاب على غورباتشوف. الإدارة الأمريكية انقسمت فيما يخص حل الاتحاد، البنجاجون شايف إنها خطوة عظيمة لازم يسعوا لها بكل قوة، بينما وزارة الخارجية وعلى رأسها بيكر، شايفة إن حل الاتحاد معناه تفكك الجيش، وتفكك الجيش معناه توزيع الترسانة النووية على دول مختلفة، وده هيزود الخطر المحتمل على أمريكا.

بوش أيد موقف بيكر، وفي زيارة لأوكرانيا في أغسطس ١٩٩١، بوش حذر البرلمان من الاندفاع الأعمى وراء حلم الاستقلال،

ووصفه بالوطنية الانتحارية (50)، وأكد على ضرورة عدم الخلط بين الحرية والاستقلال!

الخطاب أثار استياء النواب الديمقراطيين، وأطلق عليه الإعلام الأمريكي لقب تشيكن كريف!

أما بالنسبة لغورباتشوف، فحبوا يأمنوا أنفسهم في الحالتين.

بعثوا يحذروه أن المخابرات المركزية (51). جالها معلومات بتأمر النخبة الحاكمة عليه، وفي نفس الوقت فتحوا قناة اتصال

مع الرجل الثاني في الاتحاد، والنجم الصاعد بسرعة الصاروخ، بوريس يلتسن.

هو ده لب السياسة الأمريكية، هنكسب في الحالتين، وهنؤيد الجهتين، وفي النهاية، إحنا بس اللي هنخرج كسبانين!

بوش قاله مش معنى أن غورباتشوف في الحكم إننا منشتغلش سوا!
يلتسن اللي انبهر بوفرة المنتجات في المحلات الأمريكية لما زار تكساس في نهاية الثمانينيات، فرح بالتواصل وقال له روسيا ليست بحاجة للشيوعية، ولا للإدارة المركزية.
فبوش قاله أفهم من كده أن لما شركة بترول أمريكية تحب تحفر في روسيا تكلمك على طول بدل ما تكلم غورباتشوف؟
يلتسن قاله نعم، أنا طَلَّقت الشيوعية⁽⁵²⁾، وعيوني للرأسمالية.
كل التطورات دي حصلت تحت عيون لا ترحم، ولا تنام.
عيون قررت أن الوقت حان لتدخل الكي جي بي.
مع بداية التسعينيات غورباتشوف وعائلته كانوا تحت المراقبة ٢٤ ساعة، يبسجلوا لهم كل كلمة، وكل حركة، حتى لما بيدخلوا الحمام، دخلوا إمتى وخرجوا إمتى.
الجهاز رصد استعداده لتوقيع معاهدة مع يلتسن، ورئيس الحزب الشيوعي الكازاخستاني، نور سلطان نزارباييف، لإعطاء المزيد من السلطات للدول الأعضاء يوم ٢٠ أغسطس.
هنا رئيس الجهاز فلاديمير كريوتشكوف قال طفح الكيل!
وقرر أن الطريقة الوحيدة للحفاظ على النظام هي التضحية برأسه، فلغى أجازات الضباط، وأمر بتجهيز ٢٥٠ ألف كلبش، وحضر أوراق تفيد إصابة غورباتشوف بمرض نفسي يستوجب عزله، على أن يتولى الرئاسة بدلا منه نائبه غينادي يناييف؛ لأن كريوتشكوف عارف أن الشعب في ظل المد الثوري لن يقبل بصعوده المباشر للحكم.
ولذلك محتاج محلل مؤقت لحين انتهاء فترة العدة، والانفراد بالعرش.
فترة هيحكم فيها البلد بشكل فعلي لجنة طوارئ مكونة من ٨ أعضاء، أهمهم وزير الدفاع، ووزير الداخلية.
خطة محكمة من جهاز مهنته التخطيط، ولكنها مليئة بالمخاطر.
خطة كل اللي شاركوا فيها كانوا مرعوبين، رغم أن هما اللي معاهم القوة والسلاح.
الناس بتخاف من اللي ماسك المسدس، وميعرفوش أنه عادة بيكون خايف أكثر منهم!
ولذلك كريوتشكوف حاول يقنع غورباتشوف لمرة أخيرة، وراح له استراحته في شبه جزيرة القرم مع مجموعة من أعضاء اللجنة، وطلبوا منه يتراجع عن المعاهدة، ويديهم فرصة يرجعوا فيها النظام بمعرفتهم.
الحكم الشيوعي سقط في المجر، وبولندا، وتشيكوسلوفاكيا.
ليتوانيا، ولاتفيا، وإستونيا، وجورجيا، أعلنوا استقلالهم، وأوكرانيا والشيشان في الطريق.
هنستنى أيه تاني؟ لما عمدة موسكو يعلن انفصاله؟
غورباتشوف رفض الطلب وطردهم بشكل حاسم، فخرجوا مرعوبين، ولكن متأكدين أن من أجل الحفاظ على الاتحاد السوفيتي، يجب التخلص من غورباتشوف.
التراجع الآن أصبح غير ممكن.
أخطر انقلاب في تاريخ روسيا بدأ بالفعل!
يوم ١٩ أغسطس الفجر، تم وضع غورباتشوف تحت الإقامة الجبرية في استراحته بالقرم.
الاتحاد السوفيتي صحي على خير تنحي غورباتشوف لأسباب صحية، ومن بعدها التلفزيون والراديو أوقفوا البث اليومي وأذاعوا باليه بحيرة البجع⁽⁵³⁾، الباليه الروسي الشهير المعروف بإذاعته عند حدوث انقلاب، وأعلنوا تولي نائب غورباتشوف يناييف الرئاسة.
دخول الدبابات شوارع موسكو أكد أن إصلاحات غورباتشوف كلها ممكن هدمها في ثواني، والشعب كان في حيرة، جزء عايز يقاتل للحفاظ على مكتسباته، وجزء ثاني عايز ياكل عيش، فالنتيجة كانت الانسحاب التام من المواجهة.

الكل خايف يعارض، وفي نفس الوقت خايف يدعم.

حتى ضباط الشرطة قدموا على إجازات مرضية بشكل قياسي؛ لأنهم مش عايزين ينحازوا بشكل مباشر قبل اتضاح الأمور. الكي جي بي كان مراهن على قوة الدبابة والتلفزيون، والساعات الأولى أثبتت أن العنف والبروباغاندا قادرين على ترويض أي حراك، ولكن بسبب زيادة الثقة، أو قلة التحضير، أو مجرد أن الغباء جندي من جنود ربنا، قادة الانقلاب بدأوا في ارتكاب مجموعة من الأخطاء الكارثية.

الخطأ الأول هو عدم التخلص من رموز المعارضة المحتملة.

الكي جي بي حضر قائمة اعتقالات وعلى رأسهم بوريس يلتسن، ولكن الأوامر لم تنفذ!

بينما يلتسن أول ما شاف أن كل اللي كسبه ممكن يخسره في لحظة، اجتمع ببعض النواب، وأعلن معارضته للانقلاب من داخل البيت الأبيض (54). الروسي، ونادى بعمل إضراب عام.

وفي نفس الوقت، حب يأمن نفسه وأرسل وزير خارجيته لباريس، لعمل حكومة موازية في المهجر في حالة فشله في المقاومة.

وجود يلتسن حر طليق وعدم القبض عليه هو وباقي النواب خلى للمعارضة قيادة سهل للناس يتجمعوا حولها، وينصاعوا لأمرها.

قيادة هتقنع الناس أن الماتش لسه في الملعب، ولو نزلوا ممكن يغيروا النتيجة!

الخطأ الثاني اللي ارتكبه قادة الانقلاب هو التردد.

في خطابه التلفزيوني الأول، يناييف صوته كان مهزوز وأيده بتترعش.

منظره كان كافي لنزول الناس للشارع بالآلاف بعد ما حسوا أنهم أمام قوة ممكن مقاومتها.

قادة الانقلاب حسوا بالذعر، الوضع بيخرج عن السيطرة، لا بد من تصفية مركز المقاومة قبل فوات الأوان.

الحاكم العسكري لموسكو، ومعه قائد قوات ألفا الخاصة بالكي جي بي، لبسوا زي مدني ونزلوا يتمشوا وسط المتظاهرين لدراسة كيفية الاقتحام، وعواقبه المحتملة.

تبقى نازل تتظاهر وفرحان باللي حواليك ومش عارف إن اللي جنبك وزير الداخلية!

الأعداد الموجودة أكدت لهم أن اقتحام البرلمان هيتسبب في حمام دم، تقييم أثبتته وقوع بعض الضحايا في اشتباكات مع قوات الأمن في محيط التظاهرات.

قتل المئات، وربما الآلاف، جريمة ممكن تتسبب في إعدام منفذها لو فشل الانقلاب، ولذلك رغم صدور أوامر شفوية بالاقتحام، الأوامر لم تنفذ بسبب غياب أمر مكتوب.

وفي نفس الوقت اللي الكي جي بي كان بيدرس اقتحام البرلمان، المتظاهرين كانوا على وشك اقتحام مقر الكي جي بي! وده لو حصل ممكن يؤدي لكارثة!

العنف المفرط هيؤدي لفض الجموع، اللي حامية يلتسن أكثر ما هو حاميمهم، فقرر اللعب على ثلاث محاور:

الأول: هو التواصل مع قادة الجيش لمطالبتهم بالخروج من العاصمة، وتحذيرهم أن التاريخ هيشهد عليهم، وفي نفس الوقت فتح قناة اتصال سرية مع الكي جي بي، ووعدهم إنه هيمنع المتظاهرين من اقتحام المقر في حال تعهدهم بعدم فتح النار عليهم.

الثاني: هو إلهاب حماس الجماهير لضمان استمرار الغطاء الشعبي، فخرج للمتظاهرين ووقف على دبابة ومعه مجموعة من النواب ماسكين علم روسيا قبل الثورة البلشفية، بالألوان الأزرق، والأحمر، والأبيض، وخطب مدافعاً عن الديمقراطية، في مشهد ملحمي اتصور ونزل في الجرائد وقنوات التلفزيون حول العالم، فعزز من سمعته كديمقراطي تقدمي قادر بالعبور بروسيا نحو المستقبل.

ولكنه عارف إنه مهما بلغت قوته، محتاج حلفاء لهزيمة الانقلاب، حليفه الأهم في الداخل عمدة موسكو جافريل بوبوف، اللي أمر بقطع الكهرباء والمياه عن مقر لجنة الطوارئ، وطلب من البنوك تجميد حساباتهم. بما أن المقاومة أسهل خارج العاصمة، في ظل سيطرة الجيش الكاملة على موسكو، كان محتاج لحليف قوي بالخارج، ومكنش في أنسب للقيام بالمهمة من أناتولي سوبتشاك. يلستن طلب من سوبتشاك، اللي كان معاه في موسكو في الساعات الأولى من الانقلاب، العودة إلى لينينغراد وقيادة المقاومة من هناك.

لما وصل المطار لقي ضباط من الكي جي بي في انتظاره، لكنه اتفاجئ أن محدش قبض عليه، بالإضافة لاستمرار حركة الطائرات بشكل طبيعي، فركب الطائرة واتجه إلى لينينغراد وهو متوقع الأسوأ. الحاكم العسكري للمدينة، الجنرال فيكتور سامسونوف، أعلن حالة الطوارئ، وحل جميع الأحزاب، والمنظمات المدنية، بما فيهم مجلس المدينة، اللي هتقوم بدوره لجنة طوارئ أحد أعضائها نائب العمدة الحالي، الضابط البحري اللي محدش بلغه بمشاركته في الانقلاب، فياتشيسلاف شيرباكوف.

سوبتشاك لما وصل الساعة ٢ الظهر ملقاش ولا دبابة في الشارع! القوات منفذتش أوامر القيادة، فقال لا ده كده عيد ميلاد مش انقلاب! الوضع على الأرض طمنه، وخلاه متأكد أن عدم كفاءة السلطة، اللي أدت لمطالبة الشعب بالديمقراطية، هتكون هي السبب في فشل محاولة الانقلاب عليها.

المتظاهرون المعارضون للانقلاب بدأوا في التجمع في ميادين لينينغراد، فسامسونوف أمر بإخلائهم، لكن رئيس الشرطة رفض التدخل، ولما عرف بوصول سوبتشاك استدعاه لاجتماع مع سامسونوف في مقر القيادة العسكرية في محاولة لاحتواء الأزمة. وهناك سوبتشاك قابل سامسونوف، وبدأ في مرافعة حادة حاول يثنيه فيها عن استخدام القوة، وقاله إن اللي بيعمله ده غير قانوني، وبالتالي مفيش قدامه غير خيار من اثنين، يا ينحاز للشعب، يا ينحاز للانقلاب، وساعتها التاريخ مش هيسامحه أبداً!

القائد العسكري وقف محتار أمام مرافعة أستاذ القانون المقنعة، فتردد في استدعاء القوات المسلحة لعدة ساعات سمحوا لسوبتشاك بفرض سيطرته على الأرض.

زي أي سياسي محنك عارف أهمية الإعلام، مشي من عند سامسونوف واتجه إلى مقر التلفزيون، وخذ معاه نائبه وعضو لجنة الطوارئ، عشان يسمحوا له بإلقاء بيان أرسله له يلتسن.

قوات موسكو تم السيطرة عليها بالكامل من قادة الانقلاب، بينما محدش اهتم بقناة لينينغراد المحلية باعتبار أنها قناة أقاليم رغم إنها بتوصل لملايين المشاهدين في أغلب مناطق الاتحاد.

سوبتشاك قرأ البيان وندد بالانقلاب بثقة ولباقة، ودعى لمظاهرة حاشدة صباح اليوم التالي لحماية الديمقراطية، وطلع الفجر على مصنع كيروف الشهير، اللي بينتج دبابات، وجرارات زراعية، وتوربينات الغواصات النووية، المصنع يعد من أشهر مصانع الاتحاد السوفيتي، لأنه استمر في العمل رغم قربه الشديد من الجبهة أثناء الحرب العالمية الثانية.

سوبتشاك وقف أمام المصنع عشان يلحق العمال وهم داخلين، ومسك ميكروفون وبدأ يخطب، ووضح لهم أنهم لو موقوفش أمام الانقلاب، الديمقراطية هتختفي من روسيا إلى الأبد.

كلامه على درجة عالية من الكفاءة، جمع بين المنطق والحماس، المشرفون تأثروا وسمحوا للعمال بالتظاهر، فخرجوا معاه في تجمع هائل باتجاه الميدان الرئيسي.

وهناك في مشهد غير مسبوق في تاريخ لينينغراد، وقف حوالي ١٣٠ ألف متظاهر وهتفوا ضد الانقلاب، في حماية الشرطة والكي جي بي!

الجهاز زي ما كان فيه ضباط كبار يدعموا الانقلاب، زي ما كان فيه ضباط صغار يدعموا الديمقراطية، لدرجة إنهم مش بس

رفضوا تنفيذ أوامر الاعتقال والعنف، لا دول كمان دعموا النواب المنتخبين، وساعدوهم في الحشد وطباعة المنشورات بالإضافة لحماية المتظاهرين.

كل ده حصل وبوتين بيصيف على بعد حوالي ٥٠٠ ميل من مسقط رأسه، وزيه زي باقي المواطنين تابع التطورات على التلفزيون، ولكنه مكنش مستعجل على الرجوع.

الثورات تأكل أبناءها، وزى ما قال الحجاج بن يوسف الثقفي في خطبته الشهيرة: «إني لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها»، وبوتين عارف إن الرأس اللي مش هتظهر هي اللي هتفضل سليمة، فخد وقته ورجع لينينغراد بعد سيطرة سوبتشاك على الموقف، وهناك أصبح بين خيارين ملهمش ثالث: يا إما ينحاز للكي جي بي، يا إما ينحاز لسوبتشاك.

وعلى الرغم من انتمائه للكي جي بي إلا أن ولائه الأكبر لمديره اللي اعتبره صديق ومعلم، فقدم استقالته للجهاز، ووقف جنب سوبتشاك اللي حياته هو ويلتسن وكل معاونيهم أصبحت على كف عفريت، وممكن يتم اغتيالهم في أي لحظة. معقول ابن الكي جي بي يستقيل من الكي جي بي!

وبالفعل تم انتشار خبر تحرك كتيبة من القوات الخاصة لاغتيال سوبتشاك، فراح هو وبوتين المصنع وباتوا هناك في حماية قوى الشعب العاملة، ولكن على عكس ما توقعوا، الكتيبة لم تتحرك.

قادة الانقلاب أدركوا فشلهم في فرض السيطرة فحبوا يتراجعوا عن موقفهم، بينما غورباتشوف كان بين الحياة والموت. مراته رايسا جالها جلطة من شدة الرعب، بينما غورباتشوف كان في انتظار قرار إعدامه هو ومراته على يد الحكام الجدد في أي لحظة، وفجأة وهو قاعد بيحاول يتقصى الأخبار من إذاعات الراديو الأجنبية، زاره وفد من قادة الانقلاب طلبوا منه التفاهم على حل وسط للخروج من الأزمة، ففهم أن الشعب بيقاوم، ورفض مقابلتهم وطردهم خارج الاستراحة، ورجع موسكو بعد إرسال طائرة خاصة لإنقاذه من المقاومة الديمقراطية.

طاقم الحراسة الخاص به فضل مدين له بالولاء، ورفض إيذائه مما سهل خروجه، رغم وجود فرقة قوات خاصة من الكي جي بي خارج الاستراحة طوال فترة احتجازه، الفرقة فشلت في التحرك، والانقلاب فشل في السيطرة.

يوم ٢١ أغسطس غورباتشوف دخل موسكو دخول المنتصر، ولكنه انتصار بطعم الهزيمة، اللي حصل أثبت لجميع المراقبين بما فيهم الولايات المتحدة أن غورباتشوف انتهى، لما بوش كلمه قال له متقلقش، كل شيء تحت السيطرة.

بوش قال له هو أنا باكلمك أطمئن على ابن أختي؟

أنا عايز أطمئن على الأسلحة النووية!

مين اللي معاه حقيبة الإطلاق؟

غورباتشوف كذب وقال له إنها كانت معاه في الاستراحة طول الوقت، رغم إن قادة الانقلاب سحبوها منه، ومخدهاش تاني غير لما رجع!

المشكلة إن التظاهر مش هيغير الواقع.

قوة عقلك الباطن ممكن تساعدك تخس، مش تحكم أكبر دولة في العالم (55).

الانقلاب فشل بعد أقل من ٣ أيام على اندلاعه، لكنه نجح في تغيير الإتحاد السوفيتي، ومعاه أوروبا، والعالم كله، إلى الأبد. يوم ٢٤ أغسطس، يلتسن أمر بحل الحزب الشيوعي، وقبض على المشاركين في الانقلاب وعلى رأسهم رئيس الكي جي بي، الجهاز اللي أمر بتفكيكه، وحل بعض أقسامه، وإعادة تسمية ما تبقى منه باسم جهاز الخدمات الأمنية الفيدرالية أو ال.FSB.

قرارات روج لها كخطوات ضرورية لحماية الديمقراطية، ولكن اتضح بعد فترة إنها في نفس الوقت وسيلة لحمايته الشخصية، يلتسن اللي عنده ملكة قراءة المشهد عارف أن دي فرصته وجات له لحد عنده عشان يكون الرجل الأول في روسيا بلا منازع.

المشكلة إنه هيفضل رقم ٢ طول ما غورباتشوف موجود، والطريق لإزاحة غورباتشوف يبدأ بحل الاتحاد السوفيتي، الفكرة كانت أقرب لكونها مستحيلة، لحد ما تاني أهم دولة في الاتحاد أعلنت العصيان. في نفس اليوم اللي يلتسن حل فيه الحزب الشيوعي، البرلمان الأوكراني أعلن استقلال أوكرانيا، على أن يتم تأكيد القرار باستفتاء شعبي يوم ١ ديسمبر.

يلتسن رغم مفاجأته دعم القرار، وقال إن لو الاستفتاء نجح بنسبة ٧٠% هيعترف بنتيجته. وفي حديث مع بوش اللي كان بيحاول يقنعه بضرورة حل الاتحاد، قال له إن من غير أوكرانيا الاتحاد يصبح بلا قيمة. خروج أوكرانيا هيبوظ التوازن مع الدول المسلمة في الاتحاد، اللي مش هيفضل فيه غير روسيا وبيلاروسيا كصوتين فقط أمام خمس أصوات مسلمة!

ده بالإضافة إلى إن أوكرانيا لو انفصلت روسيا هي اللي هتتحمل نسبتها من ديون الاتحاد، ويلتسن مش عايز يحاسب على المشاريب في ظل أزمة اقتصادية طاحنة، خلت موظفي السفارة الأمريكية في واحدة من أهم الدول المنتجة للبترو في العالم مش لاقين بنزين!

أزمة زاد منها رفض بوش تقديم أي مساعدات مادية، أو عينية زي الغذاء والدواء. نقدم لهم مساعدات ليه وهم الدولة الوحيدة في العالم اللي ممكن تشيل أمريكا من على وش الأرض في خلال ٣٠ دقيقة! يلتسن عارف أن بوش أولويته هي عدم فقد السيطرة على الأسلحة النووية، وفي نفس الوقت زي ما كان بيستغل استقلال أوكرانيا للخلاص من غورباتشوف، زي ما كان عايز يحتفظ بنوع من الاتحاد مع السوق الأكبر، والقاعدة الصناعية الأهم للمنتجات الروسية.

فرفض التوقيع على المعاهدة اللي تسببت في محاولة الانقلاب على غورباتشوف، وقرر عمل اتحاد جديد بعضوية أوكرانيا، اللي أصبحت على وشك إنهاء الحرب الباردة، وتغيير التاريخ.

يوم ١ ديسمبر الشعب الأوكراني خرج للتصويت بشكل حر ومباشر بنسبة تاريخية!

٨٤% من الناخبين شاركوا في الاستفتاء، ٩٠% منهم اختاروا الاستقلال!

رشدي الخيال اكتساح!

في نفس اليوم الشعب الأوكراني اختار رئيس البرلمان السابق، ليونيد كرافتشوك كأول رئيس جمهورية بعد الاستقلال. كرافتشوك قيادي سابق بالحزب الشيوعي، قرر الانقلاب على الحزب ودعم الانفصال من الاتحاد بعد الانقلاب، ورحب بالتعاون مع يلتسن لعمل اتحاد جديد والاتفاق على التفاصيل.

يلتسن ضرب على الحديد وهو سخن، واجتمع مع كرافتشوك والقيادي البيلاوسي ستانيسلاف شوشكيفيتش في غابة بيلافيزا القريبة من الحدود البولندية في بيلاروسيا.

الثلاثة وقعوا اتفاقية بيلافيزا لإنشاء اتحاد بديل للاتحاد السوفيتي باسم كومنولث الدول المستقلة (56).

يلتسن اتصل ببوش يوم ٨ ديسمبر، وبلغه نية الدول الأعضاء اللي شاركوا في تأسيس الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٢٢، في حله سنة ١٩٩١، وإنشاء اتحاد بديل.

وقاله متخافش، النووي في عينيا يا سيدي!

الاتحاد هيبقى له قيادة عسكرية مركزية، وبالتالي الأسلحة هتفضل في الحفظ والصون.

خلال أيام، ١١ دولة من أعضاء الاتحاد السوفيتي أعلنوا رغبتهم في الانضمام للاتحاد الجديد، وغورباتشوف تحول لرئيس بلا وظيفة.

مفيش اتحاد، مفيش حزب، مفيش داعي!

غورباتشوف أصبح أمام خيار من اثنين، يقبض على رؤساء الدول أعضاء الاتحاد الجديد، ويفرض إرادته بالقوة العسكرية، أو

يستقيل، فاختار الانسحاب في صمت.

يوم ٢٥ ديسمبر في الساعة مساءً، الشعب السوفيتي فوجئ برئيس الاتحاد يعلن استقالته من منصبه، وحل الاتحاد السوفيتي، على أن تحل روسيا محله في الأمم المتحدة، والمنظمات الدولية المختلفة، في خطاب استمر ١٢ دقيقة أعلن فيه نهاية نظام استمر لأكثر من ٧٤ سنة!

غورباتشوف كان متأثر وحزين لفشله في تطوير الاتحاد الي كتب شهادة وفاته على يديه، ولكن حزنه لم يشفع له عند يلتسن، اللي شعر بغضب شديد بعد مشاهدة خطابه.

١٢ دقيقة من غير تحية واحدة للمعلم الجديد؟

فانتفض لكرامته بشكل يوضح مدى تضخم الأنا العليا، وقرر الانتقام من غورباتشوف، رغم وعده لبوش بالحفاظ على كرامته.

بعد ٣٨ دقيقة من انتهاء الخطاب العلم الأحمر نزل من على الكرملين، واستبدل بعلم روسيا القيصرية، وزوجة غورباتشوف، اللي لسه بتتعافى من الجلطة اللي أصيبت بها في الانقلاب، فوجئت بمجموعة من الضباط يبخبطوا عليها، يقولوا لها لي هدومك إنتى وجوزك، واطلعي بره البيت دلوقتي حالاً!

وهكذا في خلال دقائق، رئيس تاني أكبر دولة عظمى في العالم أصبح بلا مأوى.

أَقْلِ اللّٰهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُنْزِلُ مَنْ تَشَاءُ ۗ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۗ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [آل عمران: ٢٦].

حل الاتحاد السوفيتي تسبب في احتفالات ضخمة في العالم الغربي.

انتهت الحرب الباردة، وانتهى معها سباق التسلح النووي.

الرأسمالية تفوقت على الشيوعية، والديمقراطية انتصرت على السلطوية، في تأكيد لأطروحة منظر السياسة الأمريكي فرانسيس فوكوياما، اللي قال إن الديمقراطية الليبرالية هي الشكل الأخير للحكومة البشرية.

لا يوجد نظام سياسي أفضل من الديمقراطية، وبالتالي الوصول إليها يعد كأنه نهاية للتاريخ!

سعود الديمقراطيين زي يلتسن في روسيا بداية لعصر جديد مليء بالتعاون والتفاؤل، ومحدث تخيل أن العالم كله بعد سنوات قليلة هيترحم على غورباتشوف، وأن تاريخ الديكتاتورية لم ينتهي بعد!

[49](#) Governor.

[50](#) Suicidal nationalism.

[51](#) CIA.

[52](#) "I divorced communism."

[53](#) Swan Lake.

[54](#) مقر البرلمان.

[55](#) من حيث المساحة.

[56](#) Commonwealth of independent states.

حلف الناتو ٢

«أنت لا تفهم يا جورج، أوكرانيا ليست دولة حتى، ما هي أوكرانيا؟ جزء من أراضيها هو أوروبا الشرقية، ولكن الجزء الأكبر هو هدية منا».

فلاديمير بوتين

بعد حل الاتحاد السوفيتي، يلتسن فوجئ بحقيقة خسارة روسيا لقدر كبير من نفوذها الإقليمي. عدد كبير من الدول الأعضاء لم يكتفوا بالاستقلال عن الكتلة الشرقية، وأعلنوا رغبتهم في التحالف مع الكتلة الغربية بشكل رسمي عن طريق الانضمام لحلف الناتو، والاتحاد الأوروبي.

السحر انقلب على الساحر.

بعد سنوات من تشجيع نمو وحش الاستقلال، وتفكيك السلطة المركزية للتخلص من غورباتشوف، يلتسن مبقاش قادر يسيطر على الوحش ده، خاصة بعد فقد الجهاز البيروقراطي للحزب، ورهبة وجود قواعد عسكرية على الأرض. روسيا أصبحت لا تملك أي أداة ضغط على جيرانها باستثناء تهديد الغزو العسكري المباشر، وده أمر ستالين أثبت أنه غير مستبعد زي ما أثبتته أباطرة كثير قبله، مما دفع دول وسط أوروبا للاحتماء بمظلة الناتو الممسوكة بيد الولايات المتحدة الأمريكية.

في ظل غياب الخيار العسكري، يلتسن المتمسك بصورة الديمقراطية المتحضر، اللي بياكل برجر وييشرب فرايتشينو كراميل (57)، لجأ للدبلوماسية، ودعا لاتفاقيات دفاعية منفردة بين روسيا ودول وسط أوروبا، بتمنع دخول أحد أطراف الاتفاقية في معاهدة عسكرية مع أي حلف يعتبره الطرف الآخر غير مرغوب فيه.

بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا رفضوا التوقيع، وأسسوا مجموعة فيشجراد المكونة من أربع دول بعد انفصال التشيك وسلوفاكيا، لتعزيز التعاون وتنسيق جهود الانضمام لحلف الناتو والاتحاد الأوروبي، بعد توقيع معاهدة ماستريخت سنة ١٩٩٢.

المشكلة أن بينما هم هيموتون على أوروبا، أوروبا مش عايزاهم!

رداً على رغبة بعض الدول السوفيتية السابقة في الانضمام للاتحاد الأوروبي، الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران قال لبوش: أوروبا ليست بحاجة ل ٢٠ دولة إضافية!

كل دولة هتيجي بمشاكلها، وديونها!

ألمانيا الغربية دفعت مليارات للاستثمار في شرق ألمانيا لإنقاذ اقتصادها بعد التوحيد، وبالفعل المستشار الألماني هيلموت كول قال لبوش إن دول شرق ووسط أوروبا محتاجين ينتظروا لنهاية العقد؛ لأن الأولوية لدول غرب أوروبا زي النمسا وفرنلندا والسويد.

معلش يعني زي ما قال الكاتب جورج أورويل في رواية مزرعة الحيوانات:

«جميع الحيوانات متساوية، ولكن بعض الحيوانات أكثر مساواة من غيرها» (58)، قادة أوروبا اتبعوا فلسفة: كل الرجال

البيض سواسية، ولكن بعض الرجال البيض أكثر بياضاً من غيرهم!

عايزين نوحد أوروبا الغربية الغنية، مش أوروبا الشرقية الفقيرة.

سد باب الانضمام للاتحاد الأوروبي، أدى لتزاحم دول شرق ووسط أوروبا أمام بوابة الناتو.

فيلتسن قال ما دام مش عارفين تمنعهم من الانضمام للناتو، يبقى ننضم إحنا كمان للناتو!

وطلب من جيمس بيكر أثناء زيارته لروسيا قبل تنحي غورباتشوف بأيام انضمام روسيا للتحالف، وقال له أنا عارف أن

الطريق طويل، ولكن في المستقبل الناتو وكومنولث الدول المستقلة ممكن يندمجوا في تحالف واحد.
بيكر رد بشكل عام وقال له ربنا يسهل.

ربنا يكرم.

ربنا يولي من يصلح!

دخول روسيا الحلف شبه مستحيل.

الحارة هتبقى كلها فتوات، أمال مين اللي هيتضرب؟

انقلاب أغسطس ١٩٩١ أثبت أن روسيا شريك غير مستقر، وغير مرغوب فيه، وقتل حلم ميتران بعمل منظومة دفاع أوروبية شاملة إلى الأبد!

ومع ذلك بيكر حب يستغل حماس يلتسن ورغبته بإثبات رغبته في التعاون بعد عقود من التنافس، فقال يلتسن إن أولوية أمريكا هي الحد من انتشار الأسلحة النووية، وفجأة طلب مغادرة فريق المعاونين بتوعهم، وسأل يلتسن عن أحد أخطر الأسرار المتعلقة بالأمن القومي، وطلب منه يشرح له بروتوكول إطلاق الأسلحة النووية السوفيتية!

يلتسن قال له اسأل براحتك يا سيدي ما إحنا خلاص بقينا أهل بقى، وبدأ يشرح له أن الأمر يصدر من خلال شبكة تليفونات مؤمنة، بينما الإطلاق بيكون بواسطة ثلاث حقائب، واحدة مع يلتسن، والثانية مع وزارة الدفاع، والثالثة مع غورباتشوف، وفي حالة فقد واحدة يتم الإطلاق من خلال الحقيبتين الأخرين وهكذا.

بيكر سجل ملاحظاته وخرج وهو مش مصدق اللي سمعه!

رئيس أكبر دولة معادية للولايات المتحدة شرح له تفاصيل إطلاق السلاح الأهم وهو مبتسم ولا كأنه بيحكي له عن خناقة مع مراته!

من الواضح أن يلتسن مستعد يعمل أي حاجة للانضمام للتحالف.

مع بداية سنة ١٩٩٢، يلتسن أعلن التوقف عن استهداف أمريكا بالصواريخ بعيدة المدى، فبوش قال لا كده لازم نجيبه كامب ديفيد، فتم دعوته لنادي النخبة، ورجع بعد إعلانه مع بوش نهاية الحرب الباردة، وحصوله بعدها على حزمة مساعدات من صندوق النقد الدولي بضمانات أمريكية.

يلتسن كان سعيد ومتفائل بمستقبل العلاقات الروسية الأمريكية، ولم يدرك أن خلف قناع الود والمحبة أنياب جائعة، تستعد للانقضاض.

في مارس سنة ١٩٩٢، تم تسريب ورقة بحثية سرية من داخل البنتاغون في جريدة النيويورك تايمز، تؤكد رغبة وزير الدفاع ديك تشيني ورفاقه تبني استراتيجية أكثر عدوانية أمام روسيا.

الورقة بتقول أن أولوية أمريكا بعد انتهاء الحرب الباردة ليست التعاون مع روسيا، وإنما ضمان عدم ظهور قوة عظمى أخرى.

ولذلك يجب التوسع في تحالف الناتو لضمان احتواء روسيا جغرافياً، وردعها عن القيام بأي عمل عدائي في المستقبل.

الرأي ده قوبل بترحيب كبير من الصقور (59). في أمريكا، ولكن لاقى معارضة من البيت الأبيض ووزارة الخارجية، معقول

ربنا بيعت لنا رئيس تاني أقوى دولة في العالم ويبقى بيحب أمريكا ومستعد يتفاهم، فنحاربه بدل ما نتعاون معا؟

اتخاذ خطوات عدائية تجاه روسيا هيضعف يلتسن داخلياً بشكل قد يؤدي إلى محاولة الانقلاب عليه زي ما حصل مع غورباتشوف، ومش كل مرة هتسلم الجرة! وكحل وسط لإرضاء الدول الراغبة في الانضمام للناتو وفي نفس الوقت عدم

إغضاب روسيا، تم الإعلان عن مبادرة مجلس تعاون شمال الأطلسي (60).

مبادرة عامة تهدف لتعزيز التعاون بين الدول الأعضاء وغير الأعضاء، رحب بها يلتسن اللي شافها دعوة للعمل، واعتضت عليها دول تانية زي المجر، وبولندا، وتشيكوسلوفاكيا.

فتح عضوية المجلس للجميع خلاها بلا أي قيمة، بالإضافة أن الانضمام للمجلس لا يضمن الانضمام للناتو بعد فترة. وده خلق تساؤل في غاية الأهمية: هل يجب محو آثار حدود الحرب الباردة، أم مجرد إعادة رسمها بعد ضم أعضاء جدد؟ ما المميزات والعيوب لفتح عضوية الناتو أمام الجميع؟
أسئلة مهمة هتحدد شكل أوروبا لعقود قادمة، محدش تخيل أن إجابتها هتبدأ من أوكرانيا!
ولكن قبل أن نتحدث عمّا حدث في أوكرانيا يجب أن نتحدث عن تاريخ أوكرانيا منذ البداية.

[57](#) مشروب قهوة شهير من ستارباكس.

[58](#) All animals are equal, but some animals are more equal than others.

[59](#) Hawks: تعبير يطلق على الساسة المؤيدين للحروب والمواجهات.

[60](#) NACC: North Atlantic Cooperation Council

المعضلة الأوكرانية

«بدون أوكرانيا، تتوقف روسيا عن كونها إمبراطورية»

مستشار الأمن القومي الأمريكي

زيجنيف بريجنسكي

أوكرانيا باللغة الروسية تعني الأرض الحدودية.

أرضها خصبة بسبب كثرة الأنهار، حوالي ٢٣ ألف نهر، وبيئة متنوعة، تمتد من شاطئ البحر الأسود في الجنوب، مروراً بسهول في الوسط، إلى غابات الشمال.

الحفريات تشير لوجود النياندرثال من صاندي الماموث في أوكرانيا منذ حوالي ٤٥ ألف سنة، وتدل على وجود قبائل احترفت الزراعة والرعي منذ ٥ آلاف سنة قبل الميلاد، قبائل تكاثروا، وتنافسوا، وهاجروا، وفضلوا في معزل عن العالم لحد ما اتكلم عنهم هيروودوت في القرن الخامس قبل الميلاد.

الإغريق مشهورين بحاجتين، الأولى هي الخيال الواسع الي يظهر في الحكايات والأساطير، والثانية هي الاقتناع التام بأنهم مركز الأرض، إن لم يكن الكون بأكمله.

الأسطورة تقول إن مدينة أثينا تم تأسيسها بسبب منافسة بوسيدون إله البحار، وأثينا آلهة الحرب والحكمة. بوسيدون ضرب البحر برمحه الثلاثي (61). فالمياه اجتاحت الأرض وكونت بحيرات مالحة للسكان، بينما أثينا قدمت للسكان شجر زيتون فضلوها على بوسيدون، وسموا المدينة على اسمها.

الشجر وفر ظل، وزيتون، وزيت.

والزيت عشان يتاكل محتاج عيش، والعيش محتاج قمح، والقمح بييجي من حقول ما وراء البحر الأسود في الشمال.

الإغريق اعتبروا نفسهم مركز العالم، وقسموه ثلاث قارات، آسيا في الشرق، أوروبا في الغرب، وليبيا أو إفريقيا في الجنوب. يرجح أن سبب تسمية آسيا هو بلاد الرافدين، أو بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات، الي تتابعت عليها الدول والأنظمة المختلفة، وأطلقوا على الأرض الشرقية أسا، أو الشروق، وعلى الأرض الغربية أريبو، أو الغروب باللغة الأكادية، بينما ليبيا في الأصل ليبو، وهي قبيلة كبيرة في شمال إفريقيا عرفت القارة باسمها.

على حدود العالم ده، الي كانوا بيعتبروا نفسهم في الوسط منه قبل ما يبدأوا يشوفوا نفسهم أقرب للغرب، كانت الأرض ما وراء البحر الي أطلقوا عليه البحر المضياف، رغم صعوبة الملاحظة فيه بسبب كثرة العواصف.

وما أن الإنسان عدو ما يجهل، وما يخاف، الإغريق بدأوا في نسج القصص والأساطير عن هذا العالم البعيد، فقالوا إن المحارب الأسطوري أخيليس بطل حرب طروادة مدفون هناك في إحدى الجزر، جوار محاربات الأمازون، الي يقطعوا الشدي الأيمن لتثبيت الأقواس بشكل أفضل.

أما الأسطورة الأكثر إثارة لرعب الإغريق كانت عن الأميرة إيفيجينيا، الي تفتك بكل من يلجأ للاحتماء بشواطئ توريكا، الي عرفت فيما بعد بالقرم.

الأساطير استمرت لحد القرن الخامس قبل الميلاد.

الكاتب والمؤرخ هيروودوت كتب سلسلة من تسع أجزاء عن الحروب الفارسية اليونانية، وحب يعرض وجهات النظر المختلفة ليس بشكل محايد، ولكن بشكل شامل، فبدأ في التقصي عن حضارات البرابرة، كل من هم غير اليونانيين المتحضرين.

ورغم زيارته للعديد من الدول على شواطئ البحر المتوسط زي مصر وإيطاليا، إلا إنه مسافرش بلاد شمال البحر المضياف، واعتمد على الأخبار الي نقلها الكيميريون، وهم سكان البلاد السابقين الي هاجروا منها بعد هزيمتهم على يد مجموعة

قبائل من أصول فارسية عرفوا باسم السوثيون. هيرودوت وصف الأرض بأنها الأكثر خصوبة في العالم بعد ضفاف نهر النيل، التي اعتبره خارج المقارنة، وقال إن شعبها بشوش ومضياف في السلم، وشرس في الحرب. ومع زيادة قوة المدن اليونانية، اليونانيون أقاموا مستعمرات على الشواطئ الشمالية للبحر المضياف، فيما يعرف الآن بالقرم وجنوب أوكرانيا، واشتهروا بتجارة الفراء، والعسل، والحبوب مع اليونان. ولكن بعد فتوحات الإسكندر الأكبر، أصبحت مصر والشرق الأوسط المصدر الأكبر والأهم لتصدير القمح إلى الشمال، وأصبحت السلعة الأهم لبلاد شمال البحر المضياف هي العبيد. مع انتشار الإسلام، ومن قبله المسيحية، أصبح من الصعب اقتناء عبيد من نفس الديانة. مفهوم الدولة في أبسط صورها هو عدم استعباد أفرادها.

الحكام المسلمون في إسبانيا جلبوا عبيدًا من شرق، ووسط، وجنوب أوروبا، وعرفوا باسم الصقالبة. ويرجح أن الاسم له علاقة بتسمية القبائل الوثنية في أوروبا باسم السلاف Slav، وهو الاسم الذي اشتق منه كلمة عبد أو Slave باللغة الإنجليزية، رغم أن سلوفو باللغة السلافية تعني الكلمات، وبالتالي بينما كان السلاف الذي في نظر العالم أهل عبودية، كانوا في نظر أنفسهم أهل اللغة والكلمة. السلاف عبر القرون توسعوا وسيطروا على مناطق شاسعة في أوروبا، في الشرق سكنوا ما يعرف الآن بروسيا، وأوكرانيا، وبيلاروسيا، وفي الوسط بولندا، وتشيكوسلوفاكيا، وفي الجنوب صربيا، وكرواتيا. حوالي ١٢ قبيلة، ٧ منهم في أوكرانيا، يعتمدوا على الشورى ولا يقبلوا حكم الفرد، في صورة بدائية أقرب ما تكون للديمقراطية.

استوطنوا الغابات في الشمال قبل ما يظهروا للعالم لأول مرة بسيطرتهم على الجنوب، بالمكنر والحيلة أكثر من القوة الباطشة، تفوقهم في المواجهات العسكرية نبع من براعتهم في عمل الكمائن، وذكاؤهم واضح في التحالف مع الدولة البيزنطية في الجنوب بدلًا من محاربتها، مما يعكس وعي سياسي بميزان القوى العالمية. وهكذا قبل عقود من تحولها لمعبر بين الشرق والغرب، أرض أوكرانيا كانت جسرًا بين الشمال المجهول، والجنوب المتحضر. جسر كان على وشك عبوره أحد أخطر القوى في التاريخ، قوة باطشة أعادت تشكيل العالم كله: الفايكنج. التاريخ عبارة عن مجموعة من الهجرات، والغزوات. ناس بتحارب، وناس بتهاجر.

كل حرب تؤدي لزوال قوى وصعود قوى أخرى، وفي نفس الوقت تضطر أفراد للسفر هربًا وطعمًا في مستقبل أفضل. وهي دي التكلفة غير المعلنة للغزو، الدولة المهزومة أفرادها يبهاجروا للدولة المنتصرة، وأوقات ده بيثقلها بالأعباء، ويخلق صراعات داخلية، تتسبب في بداية عصر اضمحلال بعد ازدهار، ويحل مكانها قوى جديدة تطمح في الهيمنة، فتعرض للغزو، ويتحول المحتل إلى محتل، وكلاهما اسم الفاعل والمفعول للفعل احتل، هتطمعوا في الاستعمار، استحملوا المهاجرين! وده اللي حصل للدولة الرومانية، اللي خفوت نجمها كان بداية صعود نجم آخر أكثر بريقًا، قادم من الشمال. الفايكنج، أو رجال الشمال، ظهروا في الأراضي الإسكندنافية زي السويد، والنرويج، والدنمارك، واحترفوا الملاحة واستخدام الأنهار كطرق سريعة مكنتهم من التوغل للجنوب، من القرن الثامن للحادي عشر توسعوا في أوروبا شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، أحيانًا بالحرب، وأحيانًا بالتحالف والتجارة. ملك الفرنج سمح بإقامة مستعمرة على السواحل الفرنسية الشمالية، عرفت باسم نورماندي، وهو اسم مشتق من Norsemen، أو رجال الشمال.

ويليام الفاتح حاكم المستعمرة نجح سنة ١٠٦٦ في غزو إنجلترا، وما زال نسله على عرشها إلى الآن! في العصر ده كانت الممالك عبارة عن مدن أو City States، رجال الشمال استعمروا عددًا كبيرًا من المدن، من أهمها مدينة

كليف على ضفاف نهر دنيبرو شمال البحر الأسود، فعرفت باسم كليف روس (62).
وروس مشتقة من كلمة سويدية بمعنى الرجال الذين يجدفون (63)، أو كلمة فنلندية بمعنى دفة المركب (64)، وكلاهما تعبيران عن ارتباط الفايكينج الوثيق بالملاحة.
كنت فين يا سمك لما كنا صيادين!
سنة ٩٨٠ تولى حكم كليف روس فولوديمير، وهو النسخة الأوكرانية من فلاديمير.
كحليف للإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني، أرسل له مجموعة من الجنود لمساعدته في قمع أحد التمردات على وعد بزواجه من أخته، ولكن الإمبراطور خلف وعده، ففولوديمير غزا القرم الواقعة تحت الحكم البيزنطي في رسالة للإمبراطور أن نكث الوعد هيتسبب في عواقب وخيمة.
الإمبراطور باسيل قال له في أيه يا نجدت مستعجل على إيه؟
نسييت؟
مين ده اللي نسيك؟ تعرف لو قلبي بيتكلم كان رد عليك يا أخي.
دا أنا بدور على ويدنج بلانرا!
عمومًا، بارك الله لكما، وبارك عليكما، وجمع بينكما في خير.
الإمبراطور وافق على الزواج ولكن بشرط، اعتناق فولوديمير للمسيحية.
إحنا صحيح بنشتري راجل، لكن بنتنا مش هتخسر دينها عشان جوزها.
فولوديمير مدرك خطورة موقع دولته الوثنية بين دولتين مسيحييتين، الفرنج، والإمبراطورية البيزنطية، فقال وداعًا للقالهالا (65)، ومرحبًا بأم العيال!
ووافق على تغيير الديانة، وأمر بهدم مجمع الآلهة في كليف.
مصاهرة الإمبراطورية البيزنطية اللي أرسلت مبشرين لتعميد شعب كليف روس، وتعليمهم المسيحية، رفع من شأن فولوديمير ودولته، اللي شهدت خلال عقود اهتمامًا بالعمارة والتعليم، أحد أهم مراكز القوى في أوروبا كلها.
كنيسة سانت صوفيا، المستوحاة من آية صوفيا في القسطنطينية، بنيت سنة ١٠٣٧، قبل ثلاثة قرون من كاتدرائية نوتردام في باريس، اللي كانت تعتبر بالمقارنة بكليف دولة متأخرة.
بعد زواج حفيدة فولوديمير، الأميرة آنا، من ملك فرنسا هنري الأول، أرسلت جواب لأهلها تشتكي من العيش في باريس، اللي وصفت شوارعها بالقدارة، وسكانها بعدم التحضر!
ولها حق، في الوقت اللي كانت بتعرف تقرأ وتكتب، جوزها الملك مكنش بيعرف يفك الخط.
نهضة على جميع المستويات خلت كليف واحدة من أجمل مدن العالم، ولكن الدوام لله وحده!
الازدهار خلاها مطمع للقوى الصاعدة، جوهره ناصعة محاطة بالمخاطر من كل ناحية، والخطر الأكبر المرة دي قادم من الشرق!

61 Trident.

62 Kievan Russ.

63 Men who row.

64 Rudder.

جنكيز خان وتأثيره على الدب الروسي

«النظام الروسي ليس لديه أيديولوجية، أو حزب، أو سياسة. هو لا شيء باستثناء قوة رجل واحد».

بوريس بيريزوفسكي

تيموجين شاب يتيم أصبح زعيم أحد القبائل المغولية، سنة ١٢٠٦ وَّحد باقي القبائل تحت قيادته، واتخذ لقب خان، وبدأ واحدة من أشهر الحملات العسكرية في التاريخ، قضى أول عشر سنين يحارب الصين، وهي العدو الأقرب، لحد ما قدر يضمها تحت حكمه.

جنكيز خان، زي ما عُرف بعد وفاته، وجنكيز بمعنى الحاكم العالمي (66)، أو حاكم ما بين المحيطين، أسس إمبراطورية شاسعة، امتدت لوسط وغرب آسيا، وشملت بخارى، وسمرقند، وكابول، والقرم.

قبل ما يموت قسم المملكة على أبنائه، وأحفاده سنة ١٢٢٧، ولكن القسمة معجبتش باتو خان، اللي بعد وفاة جده قرر التوسع للغرب، وهكذا بدأ الغزو المغولي لأوروبا.

انقسام أمراء روس سهّل على المغول عملية الغزو، خاصة أن سمعتهم كانت سابقاهم، محاربين على قدر مهول من الشجاعة، والمهارة، والتنسيق، ويعتمدوا بشكل أساسي على سلاح الفرسان للهجوم السريع، وفي نفس الوقت معروف عنهم القسوة والوحشية، المدينة الي تقاومهم يدمروها، ويقتلوا جميع سكانها بلا تفرقة. المغول وصلوا كييف سنة ١٢٤٠.

السكان استخبوا داخل الأسوار فالمغول ضربوها بالمنجنيق، ولما دخلوها دمروها بالكامل، أكوام القتلى من جثث الرجال، والنساء، والأطفال، اترموا على الأرض في كل حنة، وبعد ما كانت أجمل مدن أوروبا، تحولت كييف إلى جثة هامدة، بعد تلقيها ضربة مميتة، هتعاي من آثارها لعدة قرون، وكعادة التاريخ، نهاية قوة تعني ميلاد قوة أخرى، والولادة المرة دي كانت في موسكو.

بعد تدمير كييف واحتلالها على يد المغول، فقدت مركزها كعاصمة دولة كييف روس، وابتلعتها مملكة ليتوانيا المعروفة باسم دوقية ليتوانيا الكبرى (67)، وفي نفس الوقت بدأ نجم مدن أخرى في الصعود، ومن ضمنها موسكو، أو موسكوفي.

حكم المغول عرف باسم حكم القبيلة الذهبية (68)، نسبة إلى لون خيامهم، وعلى عكس الصورة النمطية للاحتلال، المغول سمحوا باستقلال نسبي، وتنوع ثقافي، ولغوي، وديني داخل المناطق الي حكموها. عايزين ضرائب، ومش عايزين قلق.

وده سمح بنمو وازدهار بعض المدن غير المركزية زي موسكو.

سنة ١٣١٧ يوري أمير موسكو تزوج أخت خان القبيلة الذهبية، فحظي نسله من بعده بنفوذ كبير، ولكنهم استمروا في دفع الإتاوة، والاحتماء بعباءة الخان، ولكن مع مرور الوقت، عودهم اشتد، بينما عود القبيلة الذهبية مع النمو الشاسع، واختلاف الأجيال، ضعف.

في منتصف القرن الخامس عشر موسكو رفعت راية العصيان وتوقفت عن الدفع.

القبيلة الذهبية تحركت لقمع التمرد قبل ما ينتشر لباقي الممالك، لكن المفاجأة أن موسكو اتعلمت كل أساليبهم الحربية، فانقلب السحر على الساحر، وانتصرت موسكو معلنة عن نفسها كقوة جديدة لا يستهان بها.

وبما أن الشرعية تولد بالقوة العسكرية، وتنمو بالارتباط بسلالة تاريخية، حكام موسكو بدأوا يعلنوا أنهم من نسل أمراء كييف روس القديمة.

وهكذا ظهرت أول محاولة لربط موسكو بكيف عن طريق إدعاء النسب المشترك، وإدعاء هنا ليس للتكذيب ولكن

لصعوبة التأكيد.

الغريق بيتعلق بقشاية، والإنسان اللي بيعيش واقع مزري، يجد عزاءه في الماضي الذهبي، وال Brand association أو ربط العلامة التجارية للحاكم بالعلامة التجارية لعصر مليء بالإنجازات، بيعلي من شعبيته في عيون الرعية الحاملين بالعودة إلى الأمجاد، حتى لو كانت الأمجاد دي مجرد وهم.

قيمة الأسطورة في الأثر العاطفي، وليس الدقة التاريخية.

من الصعب التأكد من صلة القرابة، ولكن الأكيد أنهم عرفوا يستخدموا الإدعاء لصالحهم، عشان يبرروا به التوسع الجغرافي، اللي تحول من غزو عسكري إلى محاولة استرجاع أرض جدو الله يرحمه.

ولكن يبدو أن إرث أمراء كييف روس لم يكن كافيًا لإيفان الرابع، فادعى أنه من نسل الإمبراطور أغسطس، كعلامة على أحقيته بحكم أراضي الدولة الرومانية القديمة!

ولإحكام الحبكة الدرامية اتخذ لقب تسار، وهو لقب أوروبي مأخوذ من يوليوس قيصر، بمعنى حاكم الحكام، أو الإمبراطور، وبدأ في التوسع شرقًا، وجنوبًا.

ولكن لما حاول يتوسع للغرب في منتصف القرن السادس عشر، للحصول على منفذ لبحر البلطيق، دوقية ليتوانيا، اللي شملت أراضي إستونيا، ولاتفيا، وليتوانيا، إلى جانب بيلاروسيا، قالت له قف مكانك!

أنت بتكلم رئيس الجمهورية يا ولد!

ودخلت معاه في حرب شرسة بالتحالف مع بولندا، والسويد، والدنمارك، فيما عرف باسم الحرب الليفونية، انتهت بهزيمته بعد سقوط موسكو على يد القوات البولندية.

ولضمان عدم الوقوع كضحية لأحلام موسكو التوسعية في المستقبل، دوقية ليتوانيا تحالفت مع مملكة بولندا بشكل رسمي بعد حوالي قرنين من زواج ملك ليتوانيا بمملكة بولندا، وأسسوا الكومنولث البولندي الليتواني بتوقيع معاهدة اتحاد لوبلين سنة ١٥٦٩.

الاتحاد أعاد ترسيم الحدود بين بولندا وليتوانيا رغم خضوعهم لملك واحد.

ليتوانيا أصبحت تحكم أراضي بيلاروس، بينما أوكرانيا أصبحت تحت حكم بولندا.

وعلى عكس موسكو اللي تدار بالحديد والنار، بولندا كانت أقرب ما تكون إلى الديمقراطية.

في موسكو اللي مع الوقت والتوسع أصبحت تعرف باسم روسيا، أو أرض الروس، التسار يملك كل شيء، ويهب الأرض لمن يشاء مقابل الولاء، والمشاركة في الحملات العسكرية.

المجتمع عبارة عن ملاك أرض من النبلاء وفلاحين بيشتغلوا في نظام أقرب للسخرة، عايشين في كوميونات مشتركة أطلقوا عليها اسم مير، كلمة واحدة ترمز للسلام، والعالم، والمجتمع.

نظام عبقرى يضمن بقاء التسار على قمة الهرم، وخضوع كل من فيه.

مشكلته الوحيدة إنه بيخلق احتياج دائم لأرض جديدة من أجل توزيعها، احتياج بيزيد من سعار المجد والتوسع.

أما في بولندا، اللي أثرت على ثقافة ليتوانيا وأوكرانيا، الوضع كان مختلف تمامًا.

النبلاء هما اللي بيختاروا الملك، وبالتالي الهرم مقلوب.

كل ملك عايز يكسب النبلاء يقدم لهم تنازلات، فظهرت فكرة الحقوق لأول مرة، حقوق الملكية (69)، وحقوق سياسية بدائية، زي ضمان عدم دخول السجن بلا سبب.

وظهرت هيئات تمثيلية وتشريعية عبارة عن مجلس مركزي، بالإضافة لمجموعة من المجالس المحلية للنبلاء.

صحيح دي ديمقراطية لأصحاب الأرض من النبلاء وليست ديمقراطية شعبية، ولكنها ما زالت أفكار ثورية في الوقت ده.

الحقوق اختراع بشري، وليست فطرة تاريخية، بدليل تغيرها على مر الأزمنة.

الأوكرانيون، والمقصود بهم أحفاد السلافيين والفايكنج من ساكني أراضي كييف روس، تأثروا بالأفكار الديمقراطية البولندية، على عكس السلافيين في روسيا التي حكم الفرد فيها كان بيزداد قسوة كل ما بتزداد حجمًا؛ لأن زيادة الحجم معناها زيادة المخاطر.

رغم نجاحها في هزيمة التتار في الشرق، وغزو ما يعرف الآن بسيبيريا، إلا أن روسيا تعرضت للغزو من الحدود الجنوبية على يد تتار القرم المسلمين، التي قدروا يحتلوا العاصمة موسكو! القرم أحد الممالك الصغيرة الباقية من عهد المغول، هزموا إيفان قبل ما يهزمهم ويطردهم بعدها بسنة، ولكن بعد ما زودوا من شعوره بالبارانويا وأنه محاصر بالخطر من كل جانب، فشن اعتقالات وإعدامات بالجملة للروس، خلته يعرف باسم إيفان الرهيب.

أما الأوكرانيون فعاشوا في بيئة مختلفة تمامًا، بدرجة قمع أقل بكثير تحت بولندا، ولكن في النهاية، الاحتلال يظل احتلال. البولنديون فقط هم المسموح لهم بامتلاك الأرض، والنخبة الجديدة أصبحت تدين بالمسيحية الكاثوليكية، فضيقوا على السكان التي بيدينوا بالمسيحية الأرثوذكسية منذ تعميم فلاديمير.

وبينما هم يعانون من الصعوبات المعيشية والمضايقات الدينية، اليهود كانوا بينعموا بفترة غير مسبوقه من الازدهار. اليهود تعرضوا للاضطهاد في أوروبا، بالذات بعد اعتناق ملوكها وبالتبعية شعوبها المسيحية في العصور الوسطى. القديس أوغسطين، أحد أهم المفكرين، والكتاب المسيحيين في القرن الخامس، قال يجب السماح لليهود بالبقاء وليس الازدهار (70)، لازم يفضلوا في حالة من البؤس عقابًا لهم على قتل المسيح ورفض الحقيقة، فعاشوا كأقلية لحد ما ربنا

كرمهم بملك اعتنق الديانة، ملك الخزر (71)، وهم قبائل من أصول تركية، اعتنق اليهودية! فالحاشية، ومن بعدها النخبة، ومن بعدهم عموم الشعب اعتنقوا اليهودية هما كمان، التي أصبحت الديانة الرسمية لدولة شاسعة، شملت جنوب روسيا وأوكرانيا، من بحر قزوين في الشرق، إلى البحر الأسود في الغرب. دولة استمرت من منتصف القرن السابع، إلى منتصف القرن العاشر، وانتهت بغزو سفياتوسلاف، آخر الملوك الوثنيين لكييف روس.

طبقًا للأستاذ اليهودي جلين داينر، أستاذ تاريخ وديانات شرق أوروبا، وجود دولة يهودية في شرق أوروبا أمر بينكره العديد من المؤرخين الصهاينة؛ لأنه يضعف حجة نسبهم لليهود القدامى التي عاشوا في فلسطين، وبيثبت أن الأشكناز، وهم يهود أوروبا، أصلهم يعود للخزر، التي دخلوا اليهودية، ولم يرثوها أبًا عن جد منذ سيدنا موسى، مما يضعف ادعاء أحقيتهم بأرض فلسطين المحتلة.

تسييس التاريخ هو أسرع طريقة لتزييفه. مع سقوط الخزر، وبعدها بقرون طرد اليهود مع المسلمين من إسبانيا، عدد اليهود زاد في شرق أوروبا، لدرجة إن سنة 1880، 75% من يهود العالم كانوا في شرق أوروبا، 13,5% في باقي أوروبا، 3,5% في الولايات المتحدة، 8% في الشرق الأدنى. اليهود عاشوا في استقرار نسبي في شرق أوروبا، وبالتحديد في كومولث بولندا وليتوانيا.

عدم السماح لهم بتملك الأرض خلاهم يحترفوا التجارة. كأقلية ليست جزءًا من سكان البلد، لم يجدوا غضاضة في خدمة المحتلين، فأجروا منهم أراضي ومباني، وأصبحوا من الأغنياء المتنعمين بالمقارنة بالفلاحين المعدمين.

إيجار الأصول من النبلاء ضمن لهم حمايتهم، وأدى لزيادة ثقتهم فيهم لدرجة تكليفهم بمهمة جمع الضرائب من السكان، التي بعضهم قرر الهرب من السخرة واتجهوا إلى الأرض الحدودية على ضفاف الدنيرو في الجنوب، بين الكومونيلث، وروسيا، والقرم، لحد ما عددهم زاد وأصبحوا قوة لا يستهان بها، وعرفوا باسم القوزاق (72).

القوزاق كلمة مشتقة من اللغة التركية، وتعني الرجل الحر.

الفلاحين الهاربين اعتمدوا على الصيد، والغزو، لحد ما أصبحوا أحد أشرس الفرق المحاربة في العالم لتمكنهم الشديد من الفروسية.

بولندا استعانت بهم في معاركها لحد ما انقلبوا عليها.

سنة ١٦٤٨، الهيثمان، أو زعيم القوزاق، بوهدان خملنيتسكي قاد ثورة عارمة ضد بولندا. بعد سنوات من احترافهم القتال، القوزاق أدركوا إنهم يقدروا يتخلصوا من الاحتلال، وينالوا الحرية السياسية والدينية، فأعلنوا تأسيس دولة القوزاق الأولى.

الجيوش لما تحارب في الخارج، تعود لمحاربة الأنظمة في الداخل، والثورات نبيلة الأهداف، ولكن ملطخة بالدماء. القوزاق هاجموا النبلاء، وصبوا جام غضبهم على الكرياج الي في أيديهم: اليهود. قتل، وسرقة، وتخريب، واغتصاب، شديد الشبه بالي عملوه بعدها بقرون في فلسطين، وكأن الأحداث اتحفت في الذاكرة الجمعية.

النبلاء طلبوا مساعدة الجيش، فبدأت حرب لمدة خمس سنين أنهكت القوزاق وأوشكت على القضاء عليهم. بوهدان أدرك أن محاربة جيش الكومونولث بمفرده نوع من أنواع الانتحار. لا بد من الاستعانة بحليف، ولم يكن هناك حليف أنسب من موسكو.

سنة ١٦٥٤ تم توقيع اتفاقية بيرياسلاف، على اسم المدينة الأوكرانية، بين بوهدان وممثلين عن التسار الكسي الأول، تنص على حماية روسيا لدولة القوزاق مقابل الاعتراف بسيادة التسار.

روسيا وافقت على التدخل العسكري لاسترجاع الأرض الي احتلتها بولندا في عصر الاضمحلال، المعروف باسم وقت المشاكل (73)، الي بدأ بعدم وجود ولي للعهد بعد وفاة القيصر فيودور سنة ١٥٩٨، وانتهى بانتخاب المجلس الروسي ميخائيل فيودوروفيتش كأول قيصر من أسرة رومانوف الي هتستمر في الحكم لأكثر من ٣٠٠ سنة! أما بوهدان فشاف روسيا مصدر للأمن والحماية، مستعد يدفع ثمنهم من الولاء والطاعة. وبالفعل روسيا دخلت الحرب، وانتصرت على الكومونولث بعد حرب ضروس استمرت ١٣ سنة، انتهت بتوقيع معاهدة أندروسيغو سنة ١٦٦٧.

روسيا استعادت الأرض الي احتلتها بولندا، بالإضافة لشرق أوكرانيا لحد نهر الدنيبرو، بينما بولندا أخذت الأرض غرب النهر. أما أوكرانيا فشهدت عملية استبدال أرستقراطية النبلاء، بأرستقراطية الضباط.

كبار الضباط استحوذوا على أراضي النبلاء الهاربين، وحاولوا يطبقوا نظام عمل بالسخرة للسيطرة على الفلاحين، وإجبارهم على زراعة مساحات شاسعة من الأرض محتاجة عدد كبير من المزارعين.

الضباط كبروا على ثراء ونفوذ النبلاء في النظام الإقطاعي، فلما ثاروا عليهم، طمعوا في الحصول على نفس مزاياهم. وده معناه تخليهم عن مبدأ الشورى وانتخاب القادة المعروفين به.

فجأة الحزم الروسي أصبح مغري لمواجهة سخط الفلاحين وغير الضباط.

المشكلة أن بينما هما يبصروا القمع للأسفل، بدأوا في تلقي القمع من الأعلى!

بعد أن هداً سهيل الحرب، دولة القوزاق فوجئت بروسيا بتروج للنسب التاريخي لكيف روس، كعلامة على استرجاعها لأرضها التاريخية.

وبعد ما كانوا يبهجموا القوزاق وقت المشاكل، ويتهموهم بأن التعرض للتأثير البولندي الكاثوليكي أفسد دينهم، رجعوا وقالوا إخوة من نفس النسب، ونفس الديانة الأرثوذكسية!

الله!

طب والحريات يا قيصر؟

لا يا حبيبي الحريات دي عندهم في بولندا!
القوزاق، الرجال الأحرار، تلقوا الصفحة ولم يثوروا.
انشغلوا بالصراع الداخلي، ونسيوا الاحتلال الخارجي.
لحد بداية القرن الثامن عشر، مع ظهور إيفان مازيبا.
مازيبا قائد قوزاقي أدرك فشل نموذج التبعية السياسية لروسيا.
الاحتماء بعباءة الكبير، معناه أنه هيفضل دائماً شايفك صغير!
فرفض الانضمام للقوة العظمى المتنازعة مع روسيا، زي الدولة العثمانية في الجنوب، وبولندا في الغرب، على أمل الحصول
على فرصة لإنشاء دولة مستقلة بشكل تام.
والفرصة ظهرت مع الحرب الروسية السويدية.
الملك تشارلز الثاني عشر، ملك السويد، محارب عسكري فذ، السويد في عهده كانت قوة لا يستهان بها.
مازيبا، الخادم الوفي لبيتر قيصر روسيا، شاف فرصة ذهبية في التحالف مع تشارلز ضد القيصر على أمل الاستقلال بأوكرانيا
بعد انتصاره في الحرب.
المفاجأة إن تشارلز رغم انتصاراته الأولى، انهزم سنة ١٧٠٩، وانتهى بذلك حلم الاستقلال الأوكراني بعد هروب مازيبا ووفاته
بالمنفى.
القيصر بيتر العظيم كسب منفذ لروسيا على بحر البلطيق، وأسس العاصمة الجديدة سانت بطرسبرغ، وانتقم من القوزاق
أشد الانتقام.
فلغى منصب الهيتمان، وعين جهاز إداري روسي لحكم أوكرانيا سماه مجلس روسيا الصغرى (74)، باعتبار أن أوكرانيا ما
هي إلا جزء من روسيا.
ولكن اللي عمله بيتر كوم، واللي عملته كاترين كوم تاني خالص!
كاترين زوجة بيتر الثالث، حفيد بيتر العظيم، عزلت جوزها وصعدت للعرش سنة ١٧٦٢، قبل ما يموت في ظروف غامضة،
فأصبحت إمبراطورة روسيا رغم أنها ألمانية!
رحلتي من الجوتن مورجن إلى الخراشوا!
كاترين استمرت في سياسات القياصرة السابقين التوسعية، ونجحت في ضم أراضي جنوب أوكرانيا بما فيها القرم اللي فضلت
شوكة في جنب الإمبراطورية الروسية لحوالي ٣٠٠ سنة.
وده ساعدها تسحق ما تبقى من دولة القوزاق بلا رحمة بعد تأمينها للحدود الجنوبية، فضمت الجنود للجيش الروسية،
وأمرت بابتلاع البيروقراطية الروسية لكافة المؤسسات الأوكرانية لمحو ذكرى الحكم المستقل.
فأصبح شرق أوكرانيا خاضع للحكم الروسي بشكل تام.
وفي محاولة لتزييف التاريخ، والادعاء بوجود روسيا التاريخي في المنطقة طوال القرون السابقة، قامت بتغيير أسماء المدن
والشوارع في القرم لأسماء يونانية، لمحو كل ما حدث بين التاريخ اليوناني والواقع الروسي.
ولكنها رغم نجاحها العسكري كانت مولعة بحب الفن والعلوم.
انبهارها بعصر التنوير الفرنسي خلاها تتواصل مع الفيلسوف الفرنسي فولتير، وتشرف على بناء مدارس، ومسارح، وأكاديميات
على النموذج الأوروبي.
ولكن في ظل عصر الاستقرار والتقدم الروسي، بولندا كانت بتعاني أشد المعاناة.
خلال مجموعة من الثورات، والتمردات، والحروب الأهلية، تم تدمير بولندا، وتقسيمها على الدول المجاورة بشكل كامل.
خلال ثلاث تقسيمات متتالية سنة ١٧٧٢، و١٧٩٣، و١٧٩٥، روسيا، والنمسا، وألمانيا أو بروسيا، استحوذوا على بولندا بالكامل.

كاثرين أصبحت أقوى امرأة في أوروبا، إن لم تكن أقوى امرأة في العالم بلا منازع، لكنها رغم ذلك أصيبت بالذعر سنة ١٧٨٩. الثورة اندلعت في فرنسا، وأكلت الأخضر واليابس. إعدام لويس السادس عشر بالمقصلة سنة ١٧٩٣ على يد الثوار خلاها مقتنعة أن الشعوب لا يصلح معها إلا الحديد والنار. اقتناع شاركها فيه ضابط شاف نفسه قادر على إعادة النظام لفرنسا، وإعادتها للمجد: نابليون بونابارت.

[66](#) Universal ruler.

[67](#) Grand Duchy of Lithuania.

[68](#) Golden Horde.

[69](#) Property rights.

[70](#) Survive but not thrive.

[71](#) Khazars.

[72](#) Cossacks.

[73](#) Time of troubles.

[74](#) Collegium of little Russia.

نابليون بونابارت

«لقد وجدت تاج فرنسا في المزراب (75) فرفعته».

نابليون بونابرت

سنة ١٧٦٩ ولد نابليون في جزيرة كورسيكا على السواحل الإيطالية، الجزيرة باعتهما جنوة لفرنسا رغم رغبة سكانها في الاستقلال.

والد نابليون كان مع الثورة، ولكن مع انتصار الجيش الفرنسي رفض الانضمام لأقرانه من الثوار لشن حرب من الجبال، وقرر التعاون مع الحكام الجدد.

فدرس المحاماة، وتم انتخابه لمجلس المدينة، فأصبحت الأسرة جزء من النخبة وإن لم تكن تحظى بالثروة.

نابليون أو نابليو زي ما كانوا يبدلعوه، كان يحب القراءة، وسافر فرنسا عشان يدخل المدرسة.

هناك لكنته عرضته للتمنر من زملائه؛ لأنه بدأ يتعلم فرنساوي وهو عنده عشر سنين.

ولكن على عكس المتوقع، التمنر مخلهوش يتنصل من أصله، ولكن خلاه يحلم باستقلال الجزيرة، ويلوم والده على تخليه عن النضال من أجله.

وبفضل تفوقه وقراءته الواسعة، وبفضل مساعدة والده، حصل على منحة لدخول الكلية العسكرية، التي تخرج منها سنة ١٧٨٥، وأصبح ضابطاً في المدفعية في الجيش الفرنسي.

كورسيكا يا أم ولادك أهم!

التاريخ ينجح دائماً في إعادة أخطاء الآباء على يد الأبناء.

ولكن رغم الاعتياد على التكرار، في مايو سنة ١٧٨٩، عجلة التاريخ توقفت عن الدوران باندلاع واحدة من أهم الثورات في التاريخ: الثورة الفرنسية.

في سنوات الثورة الأولى نابليون كان في جزيرة كورسيكا، فتعرف على اليعقوبيين، أحد أشهر الفرق السياسية السرية الداعمة للثورة.

وده ساعد في تحوله من دعم الملكية في البداية في مواجهة الغوغاء، لدعم الحكومة الثورية بعد عودته لفرنسا سنة ١٧٩٣.

ومع زيادة نفوذ اليعقوبيين، وعلى رأسهم ماكسميليان روبسبير التي أصبح الحاكم الفعلي لفرنسا، نابليون ترقى في الجيش وأصبح من الضباط أصحاب الثقة بسبب قربه من أخوه أوغسطين.

ولكن الدوام لله وحده، المقصلة التي استخدمها روبسبير لتثبيت حكمه والقضاء على من أسماهم بأعداء الثورة، أعدم عليها هو وأخوه سنة ١٧٩٤، واتحط نابليون بسبب قربه منهم تحت الإقامة الجبرية في منزله.

ولكنه خرج بعد أسبوعين وقدر يسحق تمرد قامت بيه قوة ملكية ضد الحكومة الثورية، فاترقى لتاني مرة، وطلب منه بعدما دافع عن الثورة أنه يدافع عن فرنسا كلها.

فرنسا في حروب ضد القوى الأوروبية التي شعرت بالذعر من مشهد إعدام الملك وخافت من انتشار الثورة في أراضيها من سنة ١٧٩٢.

الجيش محتاج قائد قوي، ونابليون رغم صغر سنه عبقرى في الاستراتيجيات الحربية.

مثله الأعلى الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر، ودارس ومذاكر كبرى الحروب والمعارك.

فاعتمد على شبكة جواسيس قوية مكنته من معرفة تحركات أعدائه وسبقهم بخطوة، وفي نفس الوقت اعتمد على الهجوم الخاطف بدل تكتيكات المواجهة التقليدية، وشارك جنوده أرض المعركة ولم يكتفي بإدارتها عن بعد، مما أكسبه ثقتهم وحبهم.

كل ده خلاه يحقق سلسله من الانتصارات المتتالية على النمسا، اللي اضطرت توقع معاهدة سلام تنازلت فيها عن جزء كبير من الأرض الواقعة تحت سيطرتها فيما هو الآن إيطاليا لصالح فرنسا. الانتصار أسعد شعب متعطش للانتصار، بعد سنوات من عدم الاستقرار. اللجنة الخماسية الحاكمة منذ عام ١٧٩٥ قالوا له طب ما تكمل جميلك بقى وتغزو بريطانيا؟ نابليون قال لهم لا، رحم الله امرئ عرف قدر نفسه! صحيح الدولة منهكة من حرب انفصال الولايات المتحدة، لكن الأسطول البريطاني ما زال هو الأقوى في العالم. واقتراح كحل بديل غزو مصر لقطع خطوط التجارة البريطانية الهندية. الله!

وأنا مالي أنا يا لمبي!

وبالفعل سنة ١٧٩٨ بدأ الغزو الفرنسي لمصر.

نابليون هزم المماليك في معركة الأهرامات، قبل ما يتم هزيمة أسطوله على يد بريطانيا في معركة النيل. الحملة الفرنسية شملت مهندسين وعلماء وكان لها آثار كبيرة على مصر، من أهمها اكتشاف حجر رشيد، مفتاح لغز اللغة المصرية القديمة.

وزي ما كان قائد محنك أثبت أنه دبلوماسي بارع، فحاول يكسب المصريين عن طريق إعلانه اعتناق الإسلام، زي ما الإسكندر الأكبر أعلن نفسه فرعون من قبله.

وكأن الغزاة كلهم عارفين إن الدين هو أقصر طريق إلى قلب المصريين.

ولكن بينما هو يد جسور الوصال والمحبة في مصر، عينه كانت على فرنسا.

بنهاية سنة ١٧٩٩، فرنسا كانت بتعيش فترة حالكة السواد.

بعد عشر سنين من الثورة المجيدة، الدولة أصبحت في مرحلة شديدة الخطورة سياسيًا واقتصاديًا.

الحكومات المتتالية اللي فضلت الديمقراطية على الفاعلية، واتخذت شكل المجالس الانتخابية، فشلت في إيجاد حلول لإنهاء الفوضى ورفع مستوى معيشة المواطن الفرنسي.

أحد أعضاء لجنة المديرين الحاكمة قرر الانقلاب على زملائه، واستعان بنابليون لتنفيذ خطته.

وبالفعل، يوم ١٨ برومير، وهو شهر في النتيجة الثورية موازي لشهر نوفمبر، تم الانقلاب على حكومة المديرين، وتعيين بدلًا منهم حكومة قنصليين من ثلاثة أفراد.

نابليون كان القنصل الأول، وبعد فترة قصيرة أصبح القنصل الأوحده.

كلما استعانت القوى الديمقراطية بالجيش لعمل انقلاب، انقلب الجيش على الديمقراطية.

وطبعًا لتفادي حمى الثورة، الانقلاب لازم يتم بواجهة ثورية، فأمر نابليون بتشكيل لجنة لكتابة دستور الجمهورية

الجديدة، شارك فيها لفييف من ألمع الأساتذة والفقهلاء، ولكنه احتفظ لنفسه بمنصب رئيس التحرير، وأضاف سنة ١٨٠٢

تعديل بسيط، أعطى فيه الحق لنفسه بالبقاء في منصب القنصل الأول مدى الحياة.

وبعدها بستنتين، قال طب ولزومه إيه اللف والدوران؟ ونصب نفسه إمبراطور فرنسا.

وهكذا الثورة اللي شالت ملك، جابت إمبراطور.

ضابط حمى الثورة، ثم انقلب على الثورة.

إمبراطور مغرم بمظاهر العظمة، أعاد الأرستقراطية اللي قضت عليها الثورة، ووزع أراضي على أهله وحاشيته اللي شكلوا

قلب الأرستقراطية الجديدة.

إمبراطور أمسك فرنسا كلها في قبضة يده، ولكنه مؤمن أن فرنسا وحدها لا تكفي.

نابليون دخل في مجموعة من المعارك انتصر فيها واحدة تلو الثانية.

معارك أديرت بشكل مختلف تمامًا عما هو معتاد.

نابليون قسم جيشه لسبع وحدات صغيرة، كل وحدة كأنها جيش منفصل، بقائدها، وخطوط إمدادها، وفريقها الطبي. ده خلاه يقدر يتحرك بشكل أسرع، ويغطي مساحات أكبر، وللتأمين، كل وحدة كانت مبتعدش عن الوحدة اللي جنبها أكثر من مسافة مشي يوم واحد فقط، عشان لو تعرضت لكمين باقي الوحدات يلحقوها. فهزم جيوش النمسا، وروسيا، وبروسيا، ومفضلش قدامه غير بريطانيا.

ولكن كل دول كوم، وبريطانيا كوم تاني خالص!

المؤرخ بول كينيدي شبه الصراع البريطاني الفرنسي بصراع بين الفيل والحوت.

عسكرية نابليون في الحرب البرية مش هتنفعه في مواجهة البحرية البريطانية، بينما التفوق البحري البريطاني لن ينجح في وضع حد للانتصارات الفرنسية.

منذ نهاية القرن الثامن عشر وبريطانيا بتحاول تحشد تحالف أوروبي لهزيمة نابليون، أنتم حاربوا وإحنا هنمول، فيما يمكن اعتباره أولى حروب ال Fintech!

!Fight now, pay later

أو حارب الآن، وادفع لاحقًا.

فدفعت مبالغ مهولة تصل لمليار وستمئة وخمسين ألف جنيه إسترليني، وأصبحت على وشك الإفلاس، ومع ذلك انتهت كل محاولاتها بالفشل، وزيادة رقعة فرنسا على الخريطة.

فقررت عدم الاعتماد على الدول الأوروبية، والتركيز على تقوية خط دفاعها الأهم ضد الغزو، وهو الأسطول البحري. بينما نابليون كان مقتنع أنه لو نجح في الغزو، وحط رجله على أرض الجزيرة، هيتمكن من هزيمة بريطانيا وإخضاعها بكل سهولة.

المشكلة في عبور القناة الإنجليزية المحمية بحائط ناري من البحرية البريطانية.

نابليون عارف أن الأسطول البريطاني لا يعلى عليه، فتحالف مع الأسطول الإسباني في محاولة لزيادة فرص الانتصار، ولكن الأسطول البريطاني بقيادة نلسون نجح في تدمير الأسطولين في معركة ترافلجار التاريخية بجوار مضيق جبل طارق. فنابليون قرر اللجوء للحرب الاقتصادية كبديل عن المواجهة العسكرية.

ما دام أنتم جزيرة، يبقى الحصار هو الحل!

فبدأ ما يسمى بالنظام القاري (76). لمقاطعة بريطانيا اقتصاديًا، وعزلها عن أوروبا.

حليفه الأهم في الحصار كان قيصر روسيا ألكسندر الأول.

بعد هزيمته على يد نابليون مرتين سنة ١٨٠٥، و١٨٠٧، وقّع القيصر ألكسندر معاهدة تيلسيت للسلام مع فرنسا.

المعاهدة كانت أقرب لاتفاقية لتقسيم أوروبا بين الدولتين.

نابليون أحكم قبضته على غرب أوروبا بإعادة ترسيم الحدود، وتأسيس دول حليفة له زي وستفاليا فيما هو الآن شمال ألمانيا، بالإضافة لدوقية وارسو في بولندا.

فأضعف بذلك النمسا وبروسيا، وفي المقابل وعد روسيا بمساعدتها في حربها ضد الدولة العثمانية لاستعادة الأرض الأوروبية، وسمح لها بغزو السويد.

معاهدة شديدة الشبه بمعاهدة هتلر وستالين بعد أكثر من ١٣٠ سنة.

ألكسندر كان عارف أن قفص أوروبا لا يسمح بوجود أسدين، وبالتالي اعتبر المعاهدة مجرد وسيلة لكسب الوقت وتقوية الجيش استعدادًا لمواجهة أخرى أمام فرنسا قادمة لا محالة.

ولكنه اضطر يلتزم بشروطها خوفًا من إغضاب نابليون، اللي حط له عساكر فرنسيين على عتبة البيت في دوقية وارسو.

نابليون كان معجب بوحدة بولندية بس ده مش موضوعنا!

فكتب ألكسندر لوالدته المعترضة على المعاهدة وقال لها:

لا يوجد تحالف حقيقي مع فرنسا، هناك فقط ارتباط مؤقت ومصالح مع نابليون، لم يتوقف الصراع معه لقد تغير شكله فقط، وسنكون قادرين على التنفس بحرية لبعض الوقت، وخلال هذا الوقت الثمين سندعم قواتنا، ولهذا نحن بحاجة إلى العمل في سرية وعدم المجاهرة بشأن أسلحتنا واستعداداتنا.

وبالفعل التزم بنصوص المعاهدة وشارك في الحصار القاري وقاطع بريطانيا، المشكلة أن الحصار ممكن يكون ضر روسيا أكثر ما ضر بريطانيا نفسها.

بريطانيا هي الشريك التجاري الأهم لروسيا، المقاطعة خفضت حجم التجارة الخارجية الروسية من ١٢٠ مليون إلى ٨٣ مليون روبل، ورفعت معدل التضخم بشكل خطير.

فرنسا مش محتاجة خشب وخبز روسي بكميات كبيرة، ومش قادرة توفر قهوة وشاي وقصب سكر وأصباغ طبيعية زي بريطانيا.

فسنة ١٨١٠ روسيا بدأت في السماح بالتجارة مع السفن المحايدة، في محاولة حذرة لفك الحصار دون إغضاب الكرواسون الأكبر.

نابليون صاحب شبكة الجواسيس المتميزة راقب ما يحدث بتربق شديد، وفضل عدم الاندفاع للدخول في مواجهة عسكرية بسبب المسائل الاقتصادية.

لكن القشة اللي قسمت ظهر البعير كانت مسألة عائلية!

نابليون طلب الزواج من أخت القيصر الروسي كاترينا بافلوفنا.

ألكسندر قال له مش هنلاقي أحسن منك، إحنا بنشتري راجل!

ولكن للأسف كاترينا لسة صغيرة.

البنات لسة مخلصتش امتحانات الأمريكان، فاصبر عليها، وبإذن الله نفرح ببيكم في موفنيك العين السخنة قريب.

فنجح في التنصل من العرض، وجوزها دوق ألماني بعدها على طول.

وكتب لأخته يقولها يعتقد بونابرت أنني مجرد أحمق، لكن يضحك كثيرًا من يضحك أخيرًا، وقد كان!

روسيا بدأت في حشد قواتها على الحدود، نابليون قابل السفير الروسي وسأله الكلام ده معناه إيه؟ روسيا عايزة إيه بالضبط؟

خلي بالك، بداية حرب شيء سهل، ولكن إنهاؤها شيء في منتهى الصعوبة!

يا أهلاً بالمعارك يا حبيبي!

من سنة ١٨١٠ لسنة ١٨١٢ نابليون حضر أكبر قوة عسكرية في تاريخ أوروبا، وضرب بنصيحة مستشاريه اللي حذروه من غزو روسيا عرض الحائط.

ويخاف من إيه وهو معاه جيش مهول للقيام بمهمة أعتقد إنها لن تستمر طويلًا، مسافة السكة!

صحيح كان مدرك خطورة محاربة الروس في الشتاء، ولكنه كان واثق من تحقيق النصر قبل هبوط الثلج.

وفي مقولة معبرة قال: أنا أعرف ألكسندر، يومًا ما كان لدي تأثير عليه، وسيعود هذا التأثير، وإن لم يعد، فدع القدر يتحقق، ودع روسيا تُسحق تحت كرهى لإنجلترا!

ولكن روسيا مكنتش ناوية تُسحق، ولا ناوية تحارب أساسًا!

ألكسندر أدرك أن أفضل وسيلة لهزيمة نابليون هي الانسحاب التام من أمامه.

فاتبع سياسة الأرض المحروقة، كل ما نابليون يدخل مدينة، الجيش الروسي ينسحب ومعاه السكان، وقبل ما يمشوا يحرقوا كل ما يمكن للجيش الفرنسي استخدامه.

وكل ما الجيش يبعد عن قواعده، تنظيم الأمور اللوجستية المتعلقة بخطوط الإمداد يصبح أكثر تعقيدًا، خاصة في ظل عدم الحصول على أي موارد جديدة.

الجيش الفرنسي استمر في التقدم بلا مقاومة لحد ما دخل موسكو في سبتمبر، فلقى البلد كلها تحت الرماد.

الروس فضلوا حرق العاصمة على الاستسلام لفرنسا!

كل ده ونابليون مقتنع إنها مسألة وقت وألكسندر يعلن استسلامه، ومخدش باله إن الوقت مش في صالحه هو.

يوم ١٣ أكتوبر السماء الروسية بدأت تمطر ثلج!

نابليون أدرك لأول مرة عدم جدوى الاستمرار في مطاردة جيش مش عايز يحارب، وقرر الانسحاب، ففوجئ أن الفريسة الهاربة، الخيرة بفنون الحرب الشتوية، أصبحت مفترسة.

رغم هزيمته للجيش الروسي في المواجهة المنظمة الوحيدة اللي دخلها ضده في معركة بورودينو بعد مغادرة موسكو، الوضع اختلف بعد الأمر بالانسحاب.

الجنود بدأوا في الوقوع واحد ورا الثاني بسبب الجوع، والبرد، وهجمات الجيش الروسي الخاطفة اللي اتبع معاهم تكتيك حرب العصابات.

نابليون دخل روسيا بجيش قوامه يصل في بعض التقديرات إلى ٦٠٠ ألف شخص، وخرج منها بجيش لا يتعدى المائة ألف!

خسارة ساحقة بلا هزائم!

وكما هو معتاد، الضباع تجتمع على رائحة الدم.

وأوروبا لن تستريح من خطر نابليون غير بالتحالف للقضاء عليه.

سنة ١٨١٣ هُزم نابليون على يد تحالف مرعب من جيوش روسيا، والسويد، والنمسا، وبروسيا، في معركة لايبزيغ، فانسحب إلى فرنسا.

ولكن الحلفاء طاردوه، ونجحوا في دخول باريس سنة ١٨١٤، لينتهي بذلك حلم الإمبراطور.

نابليون أجبر على التنازل عن عرشه وهو في منتصف الأربعينيات، وطلب منه يختار مكان نفيه، فاختر جزيرة ألبا، جزيرة فرنسية غرب إيطاليا، جوها لطيف ودفاعاتها قوية.

نابليون تنازل عن حقه وحق نسله في الحكم، مقابل سيادته على الجزيرة، وإعطائه مبلغ لمساعدته على القيام بمتطلبات الحكم، تحت أعين ضابط بريطاني مكلف بمراقبته.

The emperor's babysitter!

نابليون سافر وقال لازم أهتم ببיתי، وأسرتي، والأحصنة، والأبقار.

زمن الشقاوة خلص خلاص، لا سني ولا لياقتي يسمحوا لي بغزو أوروبا دلوقتي!

خلوني أركز على تحصين الجزيرة.

فبنى جيش مكون من ٢٠٠٠ جندي، ٦٠٠ حارس شخصي، وقطع بحرية صغيرة، أثناء استقباله وفود فرنسية رفيعة.

الزيارات ذات الغطاء الودي والإنساني كانت السياسة في القلب منها.

نابليون عرف نية بريطانيا إبعاده عن أوروبا ونفيه للتجمع الخامس، وتحديدًا في جزيرة سانت هيلينا في جنوب المحيط الأطلسي، بالإضافة لإدراكه سخط أتباعه على ملك فرنسا الجديد، لويس الثامن عشر، اللي في نظر البعض مجرد دمية في يد بريطانيا.

نابليون شاف فرصة لا تعوّض، وقرر يتغدى بيهم قبل ما يتعشوا بيه.

وما قال لوالدته اللي سافرت معاه الجزيرة عن رغبته في العودة لفرنسا، قالت له:

اذهب يا بني وحقق مصيرك!

بعد سفر ضابط المراقبة لإبلاغ بريطانيا بحركة الإمبراطور المعزول، نابليون مضيعش وقت، وجهاز مجموعة من السفن فيهم

سفينة دهنها كأنها تابعة للأسطول البريطاني، واتحرك على فرنسا ومعه ١١٥٠ واحد من أتباعه. يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٥ شهد عودة الابن الضال لباريس. نابليون، اللي الكاتب الفرنسي بلزاك وصفه بأنه قادر على الحصول على إمبراطورية بمجرد أن يظهر قبعته، وصل فرنسا فأشعل الأجواء، وأعاد للأذهان مشاهد لم تحدث منذ سنة ١٧٨٩. الناس استقبلوه بالهتاف، وغنوا أناشيد ثورية في الشوارع. في كل شاعغ في بلادي، صوت الحغية بينادي، أووووووه. الملك شاف المشهد قال لا أورفور أنا يا شباب، وهرب من باريس، بينما تحالف بريطانيا، والنمسا، وروسيا، وبروسيا استعدوا للحرب. نابليون قرر يضرب ضربة استباقية قبل ما يستعدوا بشكل كافي، فغزا بلجيكا، وحقق انتصارات أولية، ولكنه سحق على يد الجيش البريطاني في معركة واترلو قريبًا من بروكسل. وهكذا بعد حملة قصيرة عرفت بحملة المائة يوم، نابليون أجبر على التنحي للمرة الثانية، وتم نفيه كما هو مخطط مسبقًا إلى جزيرة سانت هيلينا اللي عاش فيها ما تبقى من حياته إلى أن توفي سنة ١٨٢١ بعد حياة حافلة، كسب فيها كل شيء، وخسر كل شيء، خلال ٥١ سنة فقط. وانتهت بذلك واحدة من أهم الثورات في التاريخ، ولكن بعد أن أشعلت فتيل ثورة أخرى، ما زال العالم يعاني من توابعها إلى يومنا هذا: الثورة البلشفية.

[75](#) Gutter: ماسورة صرف المياه.

الثورة البلشفية

«كلمة ثورة⁽⁷⁷⁾ (باللغة الإنجليزية) هي كلمة مضحكة؛ لأنها تعني حرفياً دورة كاملة بمقدار ٣٦٠ درجة، أنك تنهي الثورة من حيث بدأت».

جون جرين
الضباط الروس الي شاركوا في الحرب ضد نابليون، على قد ما كانوا عايزين يهزموا فرنسا، على قد ما انبهروا بها، وتأثروا بأفكارها الثورية.
الضباط أثناء تجولهم في أوروبا شافوا لأول مرة المجالس النيابية، وسمعوا أفكار غير مسموح بها في الداخل عن الشورى والديمقراطية.

لما رجعوا بعضهم انغمس في جماعات سرية هدفها تطبيق المبادئ دي في روسيا، وإجبار القيصر على إقرار دستور روسي.
جماعات صغيرة ومتفرقة في انتظار فرصة للتحرك، والفرصة ظهرت مع وفاة القيصر يوم ١ ديسمبر سنة ١٨٢٥.
القيصر معندوش ولي عهد، وبالتالي وراثة التاج من نصيب أخوه قسطنطين.
المشكلة أن قسطنطين حب واحدة بولندية من عامة الشعب، فاتجوزها مقابل تخليه عن أحقيته في العرش، في مشهد شبيه بالي عمله عم الملك تشارلز الملك إدوارد الثامن في بريطانيا بعدها بقرون.
ده نقل التاج للأخ الثاني نيكولاس الأول، ولكن مجموعة من الضباط، والنبل، ومعاهم ٣٠٠٠ جندي، رفضوا الاعتراف بالقيصر الجديد.

فالقيصر عمل زي أي قيصر محترم، وقمع الانقلاب الي سمي بثورة ديسمبر في المهدي، وبعدها أمر بإعدام بعض المشاركين في ميدان عام، ونفى البعض الآخر في سيبيريا.
وبعد القضاء على التهديد الخارجي، والتمرد الداخلي، الدب الروسي بدأ في التوسع، والتوحش.
لضمان عدم قيام ثورات ومهردات مشابهة في المستقبل، القيصر تبنى أيديولوجية محكمة ربط فيها بين الحكم، والوطنية، والدين⁽⁷⁸⁾.

زي ما مارك زوكريج حاول يحمي فيسبوك من التفتت على يد الكونجرس، وجهاز حماية المنافسة الأمريكي، عن طريق مزج عمل التطبيقات المختلفة زي فيسبوك، وانستغرام، وواتساب، عن طريق عمل صندوق رسائل موحد كمثال، طبقاً لاستراتيجية شهيرة في إدارة الأعمال بتقول لو أردت حماية البيض، فاجعله أومليت!
القيصر أدرك أن الطريقة الأمثل لحماية حكمه هي جعل الحكم وجه آخر للأورثوذوكسية، وللوطنية، وبالتالي الخروج على الحاكم يصبح خروج على الكنيسة، وعلى الوطن.

القوات الروسية عبرت جبال القوقاز في الجنوب ودخلت في حرب طاحنة مع القبائل الي حاربوا للدفاع عن الأرض، والدين.
عدد كبير من سكان القوقاز مسلمين، حاربوا بجسارة ولكنهم خسروا في النهاية بعد إحكام روسيا قبضتها على الشيشان، وداغستان، وجورجيا، وأذربيجان، بالإضافة لتوسع موازي في منطقة البلقان.
وفي محاولة لاستغلال اضمحلال الإمبراطورية العثمانية، الي أطلق عليها لقب رجل أوروبا المريض، روسيا حطت عينها على الأرض الأوروبية للإمبراطورية وقررت استغلال الفرصة للاستحواذ عليها.
وكالعادة، تم إخفاء المطامع السياسية خلف قناع المسائل الدينية.
بعد السماح لفرنسا بالحصول على امتيازات للكنيسة الكاثوليكية في فلسطين، روسيا اعترضت وطالبت بحماية المسيحيين الأورثوذوكس، وفي نفس الوقت تحركت بقواتها جنوباً، واحتلت إمارات مولدوفيا، ووالاشيا، على نهر الدانوب.

الإمبراطورية العثمانية أدركت أن روسيا نارية لها على شر، وقررت تهاجم الأول. وفي أكتوبر سنة ١٨٥٣ أعلنت الحرب على روسيا، ولكن إمكانياتها كانت أقل بكثير من طموحاتها. روسيا استطاعت هزيمتها بسهولة، وتوقعت مشاركة حلفاء الماضي اللي وقفوا بجوارها أمام نابليون للقضاء على الوجود الإسلامي في أوروبا مرة واحدة وأخيرة، ولكنها فوجئت بتحالف فرنسا وبريطانيا مع العثمانيين، لمنح روسيا من السيطرة على القسطنطينية، وبالتالي السيطرة على ممر في غاية الأهمية في طريق التجارة البريطانية مع الهند. ده إلى جانب رغبة فرنسا في الثأر من هزيمتها السابقة.

الحرب اللي شارك فيها جنود من مصر، وتونس بعد طلب السلطان عبد المجيد الأول المساعدة من الخديوي عباس باشا الأول، والمشير أحمد باي بن مصطفى، انتهت بهزيمة روسيا، وتوقيعها على معاهدة باريس سنة ١٨٥٦. الهزيمة دمرت الجيش، وأنهكت الاقتصاد، وأجبرت روسيا على حل أسطولها البحري في ميناء سيفاستوبول على ساحل القرم. ولكن الأثر الأكبر للهزيمة كان كشف مدى تأخر روسيا عن القوى الأوروبية العظمى زي فرنسا وبريطانيا. الإمبراطور ألكسندر الثاني حط أمام عينه هدف النهوض بروسيا كأولوية قصوى. فأجرى إصلاحات ثورية كان أهمها على الإطلاق إلغاء نظام العمل بالسخرة في الأراضي الزراعية. ولكن لما تم اغتياله سنة ١٨٨١ على يد إرهابيين يساريين، ابنه ألكسندر الثالث اعتبر إصلاحاته هي السبب في وفاته. زي ما قال توماس شيلبي: «إذا رفعنا أرجلنا عن رقابهم سيهاجمونا!» فأطلق عنان البوليس السري اللي نجح في اختراق الجماعات السياسية المختلفة، وجرت في عهده اعتقالات، وإعدامات بالجملة.

فسيطر على المشهد السياسي الداخلي، ولكنه استمر في المعاناة من مشكلتين كل يوم كانوا بيكبروا أكثر من اليوم اللي قبله: بولندا، وأوكرانيا. الحركة الوطنية البولندية قامت بتمرد ضخم ضد الاحتلال الروسي في ثلاثينيات وستينيات القرن التاسع عشر، وفي كل مرة روسيا كانت بتتنجح في قمعه باستخدام العنف. التمرد البولندي خلى روسيا حريصة على عدم حدوث تمرد أوكراني. الحركة الوطنية في أوكرانيا ما تزال في المههد مقارنة ببولندا اللي لم يمر ١٠٠ عام على تقسيمها، فروسيا حاولت تمنع كل ما يمكن أن يشعل رغبتهم في الاستقلال. وفيما يتعلق بمسائل الهوية، ليس هناك أقوى من اللغة.

سنة ١٨٦٣ صدر مرسوم بمنع تدريس اللغة الأوكرانية، ومنع نشر الأدب الأوكراني، وفي نفس الوقت تدريس الجذور التاريخية لروسيا في كيبف روس، مع التأكيد على الوحدة التاريخية بين روسيا اللي أشار إليها بروسيا الكبرى، وروسيا البيضاء أو بيلاروسيا، وروسيا الصغرى (79)، وهي أوكرانيا.

ده بالإضافة لنزوح عدد كبير من الروس لشرق أوكرانيا، بسبب التطورات السياسية والاقتصادية في روسيا. إلغاء العمل بالسخرة في الأراضي الزراعية الروسية صدر بالتزامن مع قرار التحول إلى التصنيع، عن طريق استغلال الأرض الشاسعة في شرق أوكرانيا لإنشاء مصانع جديدة.

الفلاحين الأوكرانيين استمروا في زراعة أرضهم الخصبة، بينما الفلاحين الروس شافوا العمل في المصانع الأوكرانية فرصة ذهبية للتخلص من سيطرة أصحاب الأرض، اللي استمروا في الخضوع لهم حتى بعد انتهاء نظام العمل بالسخرة، لعدم امتلاكهم رأس المال، أو شبكة العلاقات اللازمة لتسويق منتجاتهم الزراعية.

فهاجروا شرق أوكرانيا، وتحديداً في منطقة الدونباس، بأعداد كبيرة، فبدأت الفجوة بين شرق وغرب أوكرانيا في الاتساع. واستمر الوضع كما هو عليه، حلة ضغط حرارتها بتزيد ببطء، ولكن بثبات.

رغبة في الاستقلال، في مواجهة قدرة أكبر على القمع.
لكن على عكس ما توقع الكرملين، الثورة لم تأت من أوكرانيا، ولكن من الداخل.
مع بداية القرن العشرين، الصين شهدت ما يسمى بثورة الملاكين (80).
حركة وطنية من ممارسي رياضة الملاكمة، وفنون الدفاع عن النفس، مناهضة للأسرة الحاكمة والامتيازات الأجنبية.
روسيا اللي سمحت لها الصين ببناء قاعدة عسكرية بحرية على ميناء آرثر بالقرب من شبه الجزيرة الكورية، حركت قواتها
لمنشوريا في الجنوب بحجة الدفاع عن القاعدة.
التحرك معجبش اليابان، صاحبة الطموح العسكري التوسعي، اللي حاطة عينها على كوريا ومنشوريا.
الساموراي قرر استغلال عنصر المفاجأة لضرب عنق الدب، فسنه ١٩٠٤ اليابان أعلنت الحرب على روسيا.
عشاق ال surprise attacks وال surprise parties.
الحرب اللي مفيهاش إثارة وتشويق متلزنماش!
روسيا كانت بتنظر لليابان كخصم ضعيف هتتغلب عليه بسهولة ويسر، فكانت النتيجة خسارة روسيا برّياً، وتدمير أسطولها
بحرياً.
الحرب انتهت بتوقيع معاهدة بورتسموث للسلام بوساطة الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت.
ولكن دي مكانتش نهاية الأحزان.
كما قال أستاذ التاريخ تيموثي شنايدر: «إذا أردت إصلاح الدولة فاحسر الحرب، وإذا أردت خسارة حرب فابدأ واحدة!»!
سنة ١٩٠٥ عمال مصانع الصلب في سانت بطرسبرغ خرجوا في مظاهرة حاشدة للمطالبة بتحسين ظروف العمل، والمزيد من
الحقوق السياسية.
الهبزيمه العسكرية تفقد الشعب الثقة في قدرة الأنظمة السياسية على تحقيق إنجازات اقتصادية، أو إصلاحات سياسية.
البوليس فتح النار عليهم وقتل ١٠٠ متظاهر، فالنار بدل ما تطفى انتشرت لباقي المدن والمحافظات، ووصلت للجيش.
بعض الجنود أعلنوا التمرد، أخطرهم كان على متن السفينة الحربية بوتكين.
البحارة تمردوا على الضباط، فقتلوهم وأعلنوا تولي قيادة السفينة بنفسهم.
القيصر نيكولاس الثاني، اللي والده ألكسندر الثالث كان بيبغض ضعفه لدرجة نعتة بلقب Girlie، حب يثبت أنه راجل قوي
ومبیتلويش ذراعه في البداية، لكن لما عرف أن التمرد وصل للجيش، أدرك أنه لا بد من تقديم تنازلات.
فأعلن عن كتابة دستور روسي لضمان الحقوق والحريات، بالإضافة لإنشاء مجلس نيابي باسم الدوما، وإن كان له الحق في
حله ومعارضة قوانينه.
التنازلات شملت تخفيف الرقابة على الصحف، وراحة القبضة الحديدية المتحكمة في كل ما يخص الحياة السياسية.
ومن وسط كل روسيا، الحركة الوطنية الأوكرانية كانت الأكثر استفادة من الإصلاحات؛ لأنها أعادت السماح بتدريس اللغة
ونشر الصحف والأعمال الأدبية الأوكرانية.
ولكنها حريات تم سحبها واحدة تلو الأخرى مع عودة الاستقرار.
القيصر اللي قال إنه لا يمكن يسمح بحكم قائم على الديمقراطية؛ لأنها مضره للشعب اللي أوكل إليه الرب مسئولية رعايته،
أول ما أحكم سيطرته، نكث بوعوده السابقة.
وعادت روسيا كما كانت، في وقت أوروبا كانت على وشك التغير إلى الأبد!
ولي عهد الإمبراطورية النمساوية المجرية فرانز فرديناند حب واحدة ألمانية اسمها صوفي من عامة الشعب وقرر يتجوزها.
المشكلة إنه ممنوع من الزواج من أي سيدة خارج أسرة هابسبورغ الحاكمة، أو باقي العائلات المالكة الأوروبية.
فرانز صمم على اختياره في مقابل حرمان سلالته من ولاية العهد من بعده، واتجوزها بالفعل ولكن الزواج لم يكن نهاية

المتاعب.

البروتوكول الملكي شديد الاهتمام بالألقاب ودرجة الصلة بالعرش، ففرانز كان يفضل السفر مع مراته خارج النمسا عشان يبقوا براحتهم.

سنة ١٩١٤ سافروا البوسنة، وركبوا عربية مفتوحة للاستمتاع بالأجواء الساحرة على الكورنيش، فتفاجئوا بغافريلو برينسيب، طالب صربي بوسني عنده ١٩ سنة، يرمي عليهم قنبلة يدوية!

عضو في جماعة اليد السوداء، اللي بتطالب بإنشاء دولة سلافية موحدة، اللي أصبحت يوغوسلافيا فيما بعد. القنبلة خبطت في العربية وردت للشارع فانفجرت في بعض المارة، فشلت في إصابة ولي العهد اللي راح زارهم في المستشفى، وبعد ما خرج تاه في الطريق، فوقف هو والسائق يسألوا على الطريق، فشافهم برينسيب وهو قاعد على قهوة فقال مبدهاش بقى دي علامة يا ماردا!

فأطلق النار عليه، وقتله، ليصبح أول ضحايا الحرب العالمية الأولى! الإمبراطورية النمساوية المجرية أعلنت الحرب على صربيا، فروسيا أعلنت الحرب دفاعاً عن أبناء العمومة والأورثوذكسية من السلافيين، فألمانيا حليفة الإمبراطورية النمساوية المجرية أعلنت الحرب على روسيا.

فرنسا حليفة روسيا استعدت للدفاع عنها، فألمانيا أعلنت الحرب على فرنسا، وبريطانيا الخائفة من زيادة القوة الألمانية، أعلنت الحرب على ألمانيا، بينما الدولة العثمانية المنهكة، حاولت تمنع اتفاقية تقسيم أرضها بين المنتصرين عن طريق المشاركة الفعالة، وأعلنت دخولها الحرب بجوار ألمانيا!

السنة الأولى لروسيا في الحرب كانت كارثية! رغم الانتصار على جيش النمسا والمجر، الهزيمة أمام ألمانيا كانت مدوية. الجنود الروس حاربوا بشجاعة، ولكنهم هزموا من خطوطهم الخلفية قبل ما يهزموا من العدو. فشل ذريع في إمدادهم بالسلاح، والذخيرة، والملابس العسكرية، لدرجة أن بعضهم كان يبلف قماش على رجله عشان مفيش جزم!

الجوع، والفشل الإداري، والتنظيمي، كانوا أسباب كافية لتفوق الماكينات الألمانية. سنة ١٩١٥ القيصر نيكولاس الثاني قرر إدارة الجبهة بنفسه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ففضى على القليل الباقي، وبدل ما يكون في أعين الناس بطل، أصبح رمزاً للهزيمة، وشماعة للفشل.

فشل ظهر في ساحات المعركة، بينما جذوره منتشرة في المجتمع بأكمله. رغم نجاح القيصر ومعاونيه في جعل روسيا خامس أكبر قوة صناعية في العالم، وأكبر دولة مصدرة للحبوب على مستوى العالم، إلا أن الفلاح والعامل الروسي لم ينعموا بثمار هذا الازدهار.

هجرة الفلاحين للمدن حولتهم لتعلمين بؤساء. المدن تكلفتها عالية، وغير نظيفة، واللي عايشين فيها بيعانوا من الزحام، والوحدة.

وفي نفس الوقت المدن بتوفر فرص للتعليم، وتبادل الأفكار، بوجود مسارح، ومقاهي، وجامعات، وتكتلات مهنية أدت لظهور منظمات حرفية زي النقابات والاتحادات العمالية.

منظمات معوضتت الفرد عن غياب دفء العائلة في الريف، ولكنها مكنت العمال والمهنيين من الحصول على قوة سياسية مهولة بسبب كثافتهم في مناطق بعينها، رغم قلة عددهم بالمقارنة بعدد السكان، اللي ما زال ثلاثة أرباعهم شغالين في الزراعة.

لكنها قوة سياسية لم تنجح في تحسين ظروفهم المعيشية السيئة، في ظل غرق القصر في الثراء والنعيم. بعد انشغال القيصر على الجبهة، الملكة ألكسندرا بدأت في الظهور على الساحة العامة، وتدخلها في إدارة شئون الدولة تسبب في إزعاج العديد من المواطنين، خاصة في ظل انتشار شائعات عن تأثرها براسبوتين، رجل الدين القروي اللي أصبح

أحد أهم الشخصيات في روسيا في خلال سنوات قليلة.

العائلة المالكة دائمة البحث عن رجال دين ووسطاء روحانيين، وعلى عكس اللي قبله، راسبوتين الفلاح اللي انضم لأحد الأديرة في شبابه واتشهر بسبب قوة جسده وشخصيته، مقالهمش اللي هو عايز يقوله، لكن قال لهم اللي هم عايزين يسمعوه، زي مثلاً نصيحته للقيصر بالتحلي بثقة أكبر في حكمه، فقرب منه واعتمد عليه بشكل كبير هو ومراته، لدرجة إنه أصبح له كلمة في التعيينات الوزارية.

كل ده أسهم في اتهام القصر بالولاء للألمان، خاصة في ظل قرابة زوجة القيصر الروسي، والقيصر الألماني، والاثنين أحفاد الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا.

اغتيال راسبوتين سنة ١٩١٦ كان علامة على وصول الغضب الشعبي إلى مرحلة التجرد على القصر، والتعدي على أحد أهم أفراد حاشيته، ولكن القيصر لم يبالي.

في يناير سنة ١٩١٧ سفير بريطانيا في روسيا سأله عن خطته لإعادة ثقة الشعب، فقال له أتقصد استعادتي أنا الثقة في شعبي، أم استعادتهم هم الثقة في؟

الانفصال عن الواقع لا يغير الواقع، اللي كل يوم في الحرب كان أسوأ من اللي قبله!

لمواكبة الحرب القيصر رفع الضرائب، وطبع نقود، فالتضخم قال له شكراً على حسن تعاونكم معنا، وارتفع بمعدلات خيالية بشكل خلى الفلاحين فضلوا الاحتفاظ بالمحصول بدلاً ما يبيعوه بثمن بخس.

كل ده أدى لمعاناة أكبر دولة مصدرة للحبوب في العالم من جوع شديد، أكل بطون العمال في المدن، والعساكر على الجبهة. وفي ظل غياب الرجال في الخنادق، الستات قاموا بالواجب.

يوم ٢٣ فبراير في سانت بطرسبرغ هو يوم ٨ مارس في الولايات المتحدة، بسبب اتباع روسيا للتقويم اليولياني، أو الحساب الشرقي المختلف عن التقويم الغريغوري بحوالي ١٣ يوم.

آلاف السيدات العاملات في مصانع النسيج، والأمهات، وربات البيوت، خرجوا لشوارع سانت بطرسبرغ للاعتراض على نقص العيش، والاحتفال باليوم العالمي للمرأة.

المظاهرات تحولت لإضراب شارك فيه أكثر من ٢٠٠ ألف عامل خرجوا في مسيرات طويلة من القرى إلى المدن ورفعوا هتاف: تسقط الحرب، وتسقط الحكومة القيصرية!

كرة الثلج كبرت بانضمام الطلاب، والموظفين، والمهنيين من أعضاء الطبقة المتوسطة، ولكنها تحولت لإعصار مدمر بانضمام الجنود.

أكثر من ١٧٠ ألف جندي شاركوا في الإضراب، وقبضوا على كبار الضباط، وهاجموا مراكز الشرطة، والمكاتب الحكومية. البلد كده هتروح في داهية!

العساكر بتموت على الجبهة، وبيتمردوا في الداخل!

أعضاء الدوما استغلوا الموقف، وطالبوا القيصر بالتناحي، وقالوا له إن تنحيه هو الطريق الوحيد لإنقاذ الجهد الحربي. القيصر اقتنع، وتنازل عن العرش لصالح أخوه.

المفاجأة أن أخوه رفض تولي المسؤولية، فانتهى بذلك عهد أسرة رومانوف بعد حوالي ٣٠٠ سنة من حكم روسيا! طبقاً لستيف سميث، مؤلف كتاب مقدمة قصيرة عن الثورة الروسية، فعلى عكس سنة ١٩٠٥ اللي قدر فيها القيصر يقاوم الثورة لمدة سنة كاملة قبل إعلانه عن مجموعة من الإصلاحات، ثورة سنة ١٩١٧ أسقطته خلال ١٢ يوم فقط لسبب رئيسي، وهو انحياز الجيش!

ولسد فراغ السلطة، أعلنت الدوما عن إنشاء حكومة مؤقتة.

هدف الحكومة الأول هو تحقيق النصر، بينما الجماهير العريضة هدفها الأساسي هو تحقيق السلام، وهنا ظهر البلشفيون كقوة طاغية على الساحة، بقيادة أحد أهم الشخصيات في القرن العشرين: فلاديمير لينين.

[77](#) Revolution.

[78](#) Orthodoxy, autocracy, and nationality.

[79](#) Little Russia.

[80](#) Boxer's rebellion.

فلاديمير لينين

«لقد وجهوا إلى روسيا أفظح الأسلحة، لقد نقلوا لينين في شاحنة مغلقة مثل بكتيريا الطاعون». ونستون تشرشل

سنة ١٨٧٠، ولد فلاديمير أوليانوف لعائلة متعلمة تنتمي للطبقة الوسطى، وعاش طفولة هادئة أظهر فيها حبًا للتعلم والقراءة، فطلع الأول على المدرسة في الثانوية العامة، ولكن حياته انقلبت رأسًا على عقب سنة ١٨٨٧. أخوه الكبير أعدم بسبب مشاركته في مؤامرة لاغتيال القيصر ألكسندر الثالث. ولكن بدل ما الصدمة تتسبب في نفوره من السياسة، إعدام أخوه خلاه ينغمس في السياسة بشكل كامل، فقرأ كتب عن السياسة، والثورة، والتاريخ، من ضمنهم كتاب «ما الذي يجب عمله؟»⁽⁸¹⁾. للكاتب نيكولاي تشيرنيشيفسكي، وأعجب فيه بشخصية راخمييف، الي عاش حياته كلها بشكل منضبط في سبيل الثورة، وقرر إنه عايز يوهب حياته للقضية زي الشخصية الي قرأ عنها.

الفكر بعد وقت قصير تحول لفعل، فاترفد من كلية الحقوق عقابًا له على نشاطه السياسي، ولكن الرد لم ينجح في إبعاده عن السياسة، أو التعلم، فاستمر في القراءة بنهم لحد ما قرأ كتاب «رأس المال» للفيلسوف الألماني كارل ماركس، فأعجب بالرؤية المادية للتاريخ القائمة على تحليل المجتمع عن طريق دراسة أدوات الإنتاج، ومعرفة المتحكمين فيها، وأعلن اعتناقه الشيوعية سنة ١٨٨٩، وأصبحت قضيته الأولى هي العمل على تحول روسيا لمجتمع شيوعي بلا طبقات، وبالتالي بلا دولة تعمل على حماية هرمه الطبقي.

وبعد فترة رجع الجامعة تاني، ونجح في التخرج واشتغل في المحاماة صباحًا، وفي تنظيم الشيوعيين مساءً فاتقبض عليه ودخل السجن سنة، وبعدها اتنفى لسيبيريا.

وهناك بدأ في الكتابة بغزارة باسم فلاديمير لينين، ويرجح أنه مشتق من نهر لينا في سيبيريا. وبعد ثلاث سنوات نجح في السفر لأوروبا، ليبدأ أهم وأخطر مرحلة في حياته كمفكر، وكاتب، وعضو حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي في المنفى.

الحزب عبارة عن تجمع لمجموعات مختلفة من الاشتراكيين على درجات مختلفة من اليسار، اتفقوا على الغاية، واختلفوا على الوسيلة.

هل الأولى التركيز على الاقتصاد أم السياسة؟ العدد أم الكفاءة؟

سنة ١٩٠٢ لينين نشر كتاب بنفس عنوان الكتاب الي غير حياته وهو مراهق: ما الذي يجب عمله؟ عرض فيه تصوره عن كيفية تحول روسيا إلى مجتمع اشتراكي، وقال إن الطريق الوحيد لفعل ذلك هو تأسيس حزب على درجة عالية من التنظيم من الثوار المحترفين.

حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي انقسم لمجموعتين، واحدة مقتنعة بفكر لينين، والثانية عازية تتوسع للحصول على أكبر عدد من الأعضاء.

وهنا ظهرت عبقرية لينين، الي روج لمجموعته على أنها مجموعة الأغلبية، أو البلاشفة، في مواجهة الأقلية، وهم المناشفة، رغم أن في الحقيقة البلاشفة هم الأقلية على الأقل بالعدد.

المجموعة انفصلت بشكل رسمي بتأسيس الحزب البلشفي سنة ١٩١٢، ولكنها فشلت في التأثير على المجتمع الروسي من المنفى، لحد ما الفرصة جت لحد عندهم مع بداية الحرب العالمية الأولى.

وفي عز توهج الهستيريا الوطنية الحاملة بهزيمة ألمانيا، سنة ١٩١٦ لينين نشر كتاب بعنوان الإمبريالية أعلى مراحل

الرأسمالية⁽⁸²⁾، يقول فيه إن الحرب سببها الرئيسي هو تنافس قوى الاستعمار على الأرض والأرباح، ودعى فيه للهزيمة العسكرية باعتبار أنها الطريقة الوحيدة التي هتسرع انتقال روسيا إلى مجتمع اشتراكي!

الكتاب الذي دعى فيه العساكر لتوجيه أسلحتهم تجاه أسيادهم الرأسماليين الذي ألقتهم للهلاك في الخنادق لخدمة مصالحهم المادية، تسبب في الهجوم عليه من اليسار الوطني.

ولكن لينين لم يتراجع، واستمر في الدعوة إلى ما يسمى بالانهازية الثورية، والدعوة انتشرت في أوساط اليسار الأوروبي المليء بالعملاء والمخبرين، لحد ما وصلت لآذان وزارة الخارجية الألمانية.

فقالوا الراجل ده صح صح وبيقول كلام صح صح.

إحنا كمان بندعم الانهزام الثوري الروسي، ونحب نساعدك ترجع روسيا عشان تنشر هذه الدعوة الجميلة، على أمل أنهم يرجوعه يضربوا الجهد الحربي الروسي من الداخل.

وهكذا، في أبريل سنة ١٩١٧، تم تهريب لينين في قطار مُحصن تحت حماية جنود ألماني من سويسرا إلى روسيا عن طريق السويد، ثم فنلندا.

لما وصل سانت بطرسبرغ الذي اتغير اسمها ذو الصبغة الألمانية لبتروغراد، تم استقباله استقبال الفاتحين، وأصبح أحد رموز الثورة الذي لم يشارك فيها بأي شكل من الأشكال!

ولكن لينين ملحقش يفرح برجوعه لأرض الوطن، ودخل في حالة من القلق الشديد بسبب تحول روسيا المفاجئ والسريع تجاه الديمقراطية!

الثورة بتروح مننا يا إخوانا!

لينين قال إن خلال شهور وأيام قليلة روسيا أصبحت الدولة الأكثر حرية في العالم، لدرجة أن بعض الجنود رفضوا القتال لمدة أطول من ٨ ساعات في اليوم زيهم زي العمال في المصانع!

السوفييتات أو المجالس الانتخابية ضمنوا مشاركة كافة التيارات السياسية بشكل ديمقراطي يضمن تمثيل جميع أفراد المجتمع، ومساواتهم في الصناديق.

الخطوة القادمة هي تنظيم الحكومة لانتخابات جمعية تأسيسية تتولى مهمة وضع الدستور، واختيار حكومة بشرعية انتخابية.

ولينين بدل ما يدعم التحول الديمقراطي، هاجمه بشدة، واعتبره علامة على ضياع فرصة تحول راديكالي مقابل إجراء بعض الإصلاحات الصورية، زي ما حصل سنة ١٩٠٥!

التاريخ مش هيسامحننا لو ضيعنا فرصة الوصول للسلطة!

فالحزب البلشفي هاجم الحكومة المؤقتة، وحرص الفلاحين على الحصول على الأرض، وطرد أصحابها، وفي نفس الوقت حرص العمال على السيطرة على المصانع وطرد المديرين والملاك.

ليه نلجأ للديمقراطية النيابية لما ممكن نمارس الديمقراطية المباشرة؟

ورفع شعار الأرض والعيش والسلام، فزادت شعبيته وسط كل من هم بلا أرض، ولا عيش، ولا سلام، واستمر في مهاجمة الحكومة بلا هوادة في انتظار فرصة القضاء عليها، والفرصة جت له بعد ثلاثة شهور.

في شهر يونيو، بعد ضغط من الحلفاء لشن هجوم قوي من الجبهة الشرقية، روسيا هاجمت ألمانيا، ولكنه كان هجوم بلا جدوى.

ألمانيا نجحت في صد القوات، والتفوق عليهم خلال أقل من ٤٨ ساعة!

الحكومة حشدت القوات المتبقية في بتروغراد، فالبلاشفة قالوا الحكومة عايزة تتخلص من الجنود المواليين للحزب لإحكام سيطرتهم على العاصمة بحجة الحرب.

يوم ٤ يوليو آلاف البحارة، والعمال على جزيرة كرونشتات الواقعة على بعد ٣٠ كم من بتروغراد في خليج فنلندا، احتشدوا أمام مقر الحزب البلشفي في انتظار الأوامر لاقحام مقر الحكومة، والاستحواذ على السلطة. لينين تردد، ولمدة ٣ أيام لم يصدر الأمر، فالأمن اشتبك مع المتظاهرين، وقتل بعضهم قبل ما يقتحم مقر الحزب للقبض على المتأمرين.

كيرينسكي رئيس الحكومة المؤقتة اتهم لينين إنه عميل للألمان، وأمر بالقبض عليه هو وأعوانه، لكن لينين كعادته قرأ المشهد بشكل سريع، وهرب على فنلندا.

كيرينسكي أصبح الرجل الأقوى في روسيا بلا منازع، باستثناء وزير الدفاع كورنيولوف. اللتين تحالفوا في البداية لوضع حد للفوضى وإعادة النظام بالذات داخل الجيش، ولكن بعد فترة قليلة بدأ كل واحد فيهم يحلم بالانفراد بالزعامة.

كورنيولوف انقلب على الحكومة، فكيرينسكي اللي كان بدأ يحط ضوابط فيما يخص حرية التجمع والتعبير والعمل السياسي، مبقاش قدامه حل غير الاستعانة بالسوفييتات لمنع قوات كورنيولوف من دخول العاصمة. فأفرج عن البلاشفة عشان يحموا الثورة من الديكتاتورية العسكرية، معلناً بداية فصل آخر من لعبة الكراسي الموسيقية السياسية.

لينين لبس باروكة، ورجع بتروغراد وهو متنكر زي الفنان أحمد عبد العزيز، وأعلن أن الوقت حان لاستحواذ البلاشفة على السلطة، وكلمة السر المرة دي هي اللجنة العسكرية الثورية، بقيادة ليون تروتسكي.

تروتسكي عضو سابق في الحزب المنشفي، اتقبض عليه في أحداث يوليو وانضم للبلاشفة وهو في السجن. لما خرج بدأ في تنظيم الجنود فيما يعرف باسم اللجنة العسكرية الثورية، لمقاومة محاولات كيرينسكي للتخلص من البلشفيين عن طريق نقلهم على الجبهة زي ما حصل قبل كده. اللجنة عددها زاد وقوتها أصبحت محل أنظار الجميع، تروتسكي طمنهم وقال لهم متقلقوش، اللجنة دي هدفها حماية السوفييتات وليس تهديدهم.

وواحدة واحدة بدأ في تعيين وتسليح عمال بلاشفة في منظمة موازية باسم الجيش الأحمر⁽⁸³⁾. وقبل موعد كونجرس السوفييتات الجامع لكل التيارات والفئات، الحكومة قفلت مطبعة تابعة للبلاشفة، فعرفوا أن كيرينسكي ناوي على غدر، وقرروا يتغدوا بيه قبل ما يتعشى بهم.

ليلة ٢٥ أكتوبر أعضاء اللجنة العسكرية الثورية، والجيش الأحمر، هجموا على مقر الحكومة المؤقتة في قصر الشتاء. كيرينسكي هرب، والقصر سقط في يد البلاشفة، اللي أصبحوا بين يوم وليلة الحكام الفعليين للعاصمة، بعد إحكام سيطرتهم على كافة المرافق الحيوية، والمكاتب الحكومية.

الانقلاب رغم عدم دمويته تسبب في سخط أعضاء كافة التيارات على الساحة السياسية بلا استثناء. في الكونجرس المنتظر الاشتراكيون الثوريون، والمناشفة، وهم الفصيلين الأكثر شعبية في اليسار، انسحبوا اعتراضاً على الانقلاب، فتروتسكي قال لهم:

أنتم مفلسون بؤساء، دوركم انتهى، عودوا إلى حيث ينبغي أن تكونوا، إلى مزبلة التاريخ! بينما صعد البلاشفة بقيادة لينين إلى القمة اللي بيحلم بيها، ومخدش باله أن الطريق الوحيد الممكن بعدها إلى الأسفل. الأولوية الآن هي إنهاء الحرب بأقصى سرعة للتفرغ للجبهة الداخلية، المشكلة أن الخطر الأكبر لم يأت كما هو متوقع من ألمانيا، وإنما من أوكرانيا.

الانفتاح السياسي اللي حصل في روسيا سنة ١٩١٧ تسبب في صحوة حركة التحرير الأوكرانية في كييف، في نفس الوقت اللي الحرب ساعدت على إحياء حركة التحرير الوطنية في أوكرانيا الغربية، الواقعة تحت سيطرة الإمبراطورية النمساوية المجرية.

الأوكرانيون اللي وحدهم حلم الاستقلال، وفرقتهم الخنادق، حاربوا بعض في جيوش الدولتين، ولكنهم في نفس الوقت استغلوا رغبة كل دولة لكسبهم لصفها للحصول على تنازلات سياسية لخدمة القضية الوطنية. في الشرق عودة الأحزاب والصحف المستقلة أدوا لطوفان من الأدبيات، والمنشورات المطالبة بإنشاء دولة مستقلة، ولكن أهم مكسب سياسي على الإطلاق كان إنشاء مجلس نيابي. المجلس صوت على استقلال أوكرانيا الجزئي، كدولة ذات حكم ذاتي خاضعة للدولة الروسية. الحكومة المؤقتة وافقت على المبدأ، ولكن كما هو معتاد الشيطان يكمن في التفاصيل. ما شروط الاستقلال؟ أيه وضع المناطق الشرقية ذات الكثافة الروسية العالية؟ ولذلك لم يحسم الأمر، ولم يتم التوصل لاتفاق.

ولكن بعد استيلاء البلاشفة على السلطة، المجلس رفض الاعتراف بسيادتهم على أوكرانيا، وأعلن إنشاء دولة مستقلة (84)، مع النية في الاحتفاظ بتحالف فيدرالي مع روسيا في شكلها الجديد، بعد كتابة الجمعية التأسيسية المنتظرة، لدستور العدل، والحرية، والديمقراطية المنتظر. البلاشفة ردوا بتأسيس حكومة تابعة لهم في أوكرانيا، مع إعلان أوكرانيا جمهورية سوفيتية خاضعة لروسيا، وبما أن لينين مؤمن أن الثورات تتحقق عبر فوهات البنادق، وليس دهان الأرصفة، هاجم أوكرانيا في يناير سنة ١٩١٨ لفرض الأمر الواقع بالقوة.

المجلس رد بإعلان استقلال أوكرانيا بالكامل. لا عايزين فيدرالية، ولا عايزين حكم ذاتي، كل اللي عايزينه منشوفش وشكم تاني! ولكن صوت الحق أخرس بلا قوة. يوم ٢٢ يناير، في نفس يوم إعلان الاستقلال، الجيش الأحمر احتل كييف. الدولة الأوكرانية الناشئة لجأت لألمانيا طلبًا للحماية، في وقت ألمانيا كانت في أمس الحاجة للتحالف مع أوكرانيا. سنة ١٩١٧ الولايات المتحدة أعلنت دخولها الحرب في صف الحلفاء، وشاركت بجيش مهيب قوامه مليون جندي، لسنة طالعين طازة من الفرن بلا إجهاد أو خسائر. ألمانيا بعدما كانت على وشك تحقيق النصر أصبحت في وضع لا تحسد عليه، مش بس من الناحية العسكرية ولكن أيضًا من الناحية اللوجستية.

هتجيب أكل منين يكفي العساكر؟ فوافقت على حماية أوكرانيا من الغزو الروسي مقابل تعهد أوكرانيا بشحن ملايين الأطنان من الحبوب اللازمة لتطوير الهجوم، والأهم لإطعام الشعب ومنع قيام ثورة داخلية زي ما حصل في روسيا! وبالفعل الجيش الألماني هزم البلاشفة وحرر كييف وأعاد المجلس للحكم. المجلس حاول يوفي بوعد له لألمانيا لكنه فشل بسبب عدم وجود حبوب أو قطارات كافية لشحن الكميات المهولة المطلوبة، وفي نفس الوقت أصدر قوانين اشتراكية متماشية مع روح الثورة، لتقسيم أراضي كبار الملاك على الفلاحين. ألمانيا قالت لا معلش مش وقت الشيخ إمام ده!

تقسيم الأرض وتغيير الملكية الزراعية معناه حدوث اضطرابات هتأثر على المحصول، وإحنا في عرض كل سنبله! فعزلت المجلس، وعينت بدلًا منه جنرال عسكري من نسل القوزاق: بافلو سكوروبادسكي. الاستعمار في الأغلب يجد صعوبة في التعامل مع الحكومات المنتخبة؛ لأن سياساتها في الأغلب بتتعارض مع مصالحه. ولذلك على مر التاريخ كان الاستعمار والديكتاتورية وجهان لعملة واحدة، ولم يكن هناك ديكتاتور أقوى من لينين. بعد الهزيمة في أوكرانيا، ومع تقدم القوات الألمانية، لينين اضطر لتوقيع معاهدة سلام منفصلة مع ألمانيا عرفت باسم

بريست ليتوفسك.

المعاهدة نصت على اعتراف روسيا باستقلال أوكرانيا، وجورجيا، وفنلندا، والتنازل عن أراضي بولندا، وليتوانيا، ولاتفيا، وإستونيا لصالح ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية، بالإضافة للتنازل عن بعض مناطق الجنوب لصالح الدولة العثمانية. روسيا خسرت أكثر من اثنين ونصف مليون كم مربع، و٣٤% من السكان، و٣٢% من الأرض الزراعية، و٥٤% من المناطق الصناعية، و٨٢% من مناجم الفحم، بالإضافة لما تيسر من حقول البترول ومناجم الحديد. كارثة بكل المقاييس!

تنازل مهين لم ينجح في إنهاء الخطر المهدد للحكومة البلشفية.

الضباط الغاضبين من الانسحاب تحالفوا مع الملكيين والمحافظين والمناهضين للبلاشفة وشكلوا ما عرف بالجيش الأبيض، ودخلوا في حرب أهلية طاحنة ضد الجيش الأحمر. الحلفاء دعموا الجيش الأبيض على أمل فتح جبهة ثانية ضد ألمانيا، ومن الوارد يكون دعمهم ضربة استباقية منهم تجاه خطر التمدد الشيوعي.

لينين أمر بإعدام القيصر وعائلته خوفاً من تحريره على يد الجيش الأبيض، ونقل العاصمة من بتروغراد الحدودية إلى موسكو خوفاً من غزو قوات الحلفاء.

ولكن مع هزيمة ألمانيا وتوقيع معاهدة فيرساي، ألغيت كل بنود معاهدة بريست ليتوفسك، فاستعادت روسيا أرضها، وهاجم الجيش الأحمر أوكرانيا لتاني مرة.

في الوقت ده أوكرانيو الغرب في النمسا والمجر استغلوا الحرب وأعلنوا قيام دولة مستقلة، فدخلوا في حرب مع بولندا اللي رجعت بعد أكثر من ١٠٠ سنة من التقسيم ورفضت التضحية بأي جزء من أرضها.

أما في أوكرانيا الشرقية فسقوط ألمانيا أدى لسقوط حكومة سكوروبادسكي، وعودة المجلس، وعودة خطر الجيش الأحمر معاه.

أوكرانيا أصبحت أحد أهم مسارح عمليات الحرب الأهلية الروسية، اللي تفوق فيها البلاشفة بسبب سيطرتهم على مناطق الوسط، اللي مكنتهم من الانتصار اللوجستي الضروري للانتصار العسكري.

ده بالإضافة لإجبار تروتسكي لكبار الضباط الروس على المشاركة في الجيش الأحمر عن طريق تهديدهم بعائلاتهم، مما مكنه من الوقوف في وجه المخضرمين في الجيش الأبيض.

وبعد ٣ سنوات شهدوا ٩ حكومات مختلفة في كييف، نجح البلاشفة في إخضاع أوكرانيا، وهزيمة الجيش الأبيض، ولكنه لم يكن نصرًا بلا ثمن.

الحرب غيرت لينين، وغيرت معاه روسيا إلى الأبد.

التغيير الأول كان على المستوى السياسي.

صحيح لينين من البداية بيدعو للاشتراكية وليس الديمقراطية، إلا إن البلاشفة بعد صعودهم للسلطة مهاجموش اليمين فقط لأدول هاجموا اليسار بردو، ورجعوا روسيا من حكم المجالس والديمقراطية، إلى حكم الحزب الواحد، والرجل الواحد، على الرغم من أن البلاشفة لم يكونوا الحزب الأكثر شعبية في روسيا على الإطلاق!

في انتخابات الجمعية التأسيسية، البلاشفة فازوا بأربعة وعشرين بالمئة من الأصوات، بينما فاز الاشتراكيون الثوريون بأربعين بالمئة.

ولكن هتعمل إيه الأصوات في وجه البنادق؟

في أول جلسة للجمعية التأسيسية المنتظرة، الحرس الأحمر اقتحم القاعة، وحل الجمعية رغم شرعيتها الانتخابية.

لينين تحول من تائر في المنفى إلى قيصر روسيا الجديد.

حاكم زاد من ميوله السلطوية شعوره بالبارانويا بعد تعرضه لمحاولة اغتيال سنة ١٩١٨ على يد فانيا كابلان، أحد أعضاء

حزب الاشتراكيين الثوريين.

بعد إلقائه خطاب في أحد مصانع موسكو كابلان ضربته بالنار مرتين، فشاء القدر أنه يتعافى من الإصابة، ولكنه لم يتعافى من الصدمة.

لا بد من القضاء على أعداء الثورة من الداخل!

فتم تأسيس أول جهاز بوليس سري في روسيا البلشفية، عرف باسم تشيكا، بقيادة البلشفي المرعب فيلكس دزيرجينسكي اللي قال: أنا لا أسعى إلى العدالة، نحن لسنا في حاجة إلى العدالة، إنها الحرب الآن وجهًا لوجه، معركة حتى النهاية. معركة حياة أو موت!

الجهاز بقيادته شن حملة رعب على كل معارضي البلاشفة سواء من اليسار أو اليمين. مئات الآلاف من القتلى والمعتقلين نجحوا في إثارة الرعب، ولكنهم لم ينجحوا في إنهاء التمردات بسبب التغييرات الاقتصادية العنيفة.

التغيير الثاني اللي مر به لينين كان على الساحة الاقتصادية.

الحرب الأهلية حطت ضغط مهول على الاقتصاد الروسي المنهك، فأعلن عن اتباع ما أسماه شيوعية الحرب.

بعد ما كان يشجع الفلاحين على الحصول على الأراضي، أجبرهم على التنازل عن فائض المحصول لصالح الجهد الحربي. الفلاحين حسوا بالخيانة، لدرجة أن بعضهم كتب بيان شديد اللهجة قالوا فيه: نحن الملايين من الفلاحين أعداؤنا الشيوعيون، يمضون دمائنا، ويقمعوننا كالعبيد!

أما العمال فبعد ما كان يشجعهم على السيطرة على المصانع وإدارتها بنفسهم، أمم المصانع كلها وعين مديرين لمراقبة العمال، وتأديبهم إذا لزم الأمر.

التأميم والاستيلاء على المحاصيل الزراعية أدى لانخفاض حاد في الإنتاجية، وأشعل سلسلة من التمردات القوية في شتى أنحاء البلاد، أكثرهم تعبيراً عن روسيا في عهد البلاشفة كان تمرد بحارة كرونشتات.

نفس الجنود، والموظفين، اللي كانوا على أتم الاستعداد للقتال من أجل البلاشفة سنة ١٩١٧، خرجوا في مظاهرة في مارس سنة ١٩٢١ للمطالبة بإنهاء سياسة شيوعية الحرب بسبب الدمار اللي تسببت فيه للمجتمع الروسي، بالإضافة لنقل السلطة إلى سوفيات منتخبة بشكل حر، ودعم حرية التعبير، والصحافة، والاجتماع.

في الوقت ده البلاشفة كان ممكن ينهوا شيوعية الحرب بعد ما شافوا بنفسهم مدى إخفاقها في تحقيق المرجو منها، تنازل بسيط يجنبهم الدخول في مواجهة مع البحارة، لكنهم كانوا ضد فكرة التنازل أياً كان السبب؛ لأن التنازل في نظرهم ضعف، والشعوب يجب أن تُحكم بالقوة لا بالتوافق.

بعد حوالي أسبوعين من القتال الدامي مع عشرات الآلاف من البحارة المسلحين المعتصمين في الجزيرة، تم قمع التمرد، وإعدام الآلاف منهم وسجن الباقين حتى يكونوا عبرة لمن يعتبر، روسيا ١٩٢١ ليست روسيا ١٩١٧، موضوع خدوا الأرض والمصانع ده كان شو إعلامي، دلوقتي النظام هو رأسمالية الدولة (85)، كلكم بتشتغلوا للحكومة، والحكومة بتشتغل عند الحزب!

ولكن من وسط كل التغييرات اللي حصلت، التغيير الأكبر كان في فكر لينين نفسه!

النظر من أعلى برج السلطة العاجي مختلفة تماماً عن النظر من أسفل الهرم الاجتماعي وسط الجماهير الكادحة.

سنة ١٩١٧ أحد العمال سأل لينين في تحدي إذا كان لسه مؤمن باللي قاله في كتاب الدولة والثورة، عن إمكانية تولي طباح أو حارس بسيط مهمة رئاسة الدولة.

لينين هاجمه وقال له طبعاً مؤمن، العملية أبسط مما تتخيل، أي عامل سيجيد إدارة أي وزارة في الدولة خلال بضعة أيام! جملة مرعبة تفضح مدى الجهل على رأس الثورة، ولكن لولا الجهل ما كانت الشجاعة.

وبعد سنوات من الاصطدام بالواقع، سنة ١٩٢٠ تعقيباً على نفس الموضوع، لينين تسائل بغضب شديد وقال: هل يعرف كل عامل حقاً كيف يدير دولة؟

الناس العمليون يعلمون أن هذه القصة خرافية!

كل ده خلى المجتمع يضعف، والحزب يقوى، لدرجة خلته السلم المفضل لكل الطامعين في الصعود، فأصبح كما قال أحد الشيوعيين القدامى يتكون من ١٠% من المثاليين المؤمنين بالفكرة، والمستعدين للموت من أجلها، و٩٠% من الطفيليين معدومي الضمير الذين التحقوا بالحزب للحصول على المناصب.

وبينما يعتمد لينين في حكمه على السلطة المعنوية كالزعيم القائد المبجل المعصوم من الخطأ، المنصب الأعلى داخل الهيكل الإداري للحزب هو السكرتير العام، اللي شغله أحد أهم شخصيات القرن العشرين في روسيا، والعالم بأكمله: جوزيف ستالين. على عكس لينين، وتروتسكي، ستالين ولد في جورجيا لأسرة فقيرة، وأب عنيف، وسكير، وغائب معظم الوقت. وده أسهم في تكوين نظرة تشاؤمية، مكيفيلية، نسبة لنيقولا مكيفيلي مؤلف كتاب الأمير، تجاه الطبيعة الإنسانية. الإنسان بالنسبة له كائن جحود، مخادع، كاذب، وانتهازي.

وعلى عكس لينين، وتروتسكي أيضاً، لم يكن مفكر أو محسوب من شلة المثقفين، لا بيروح صالونات ثقافية، ولا بينزل معرض الكتاب.

سر قوته الحقيقية في القدرة على التنظيم، والاهتمام الفائق بأدق التفاصيل، ساعده فيها ذاكرته الحديدية، اللي نمت عنده رغبة جارفة في الانتقام لأي إساءة؛ لأنه ميينساش!

لينين أعجب بكفاءته، وإخلاصه في العمل، فساعده على الترقى لحد ما عينه كسكرتير عام للحزب، فاستغل منصبه الجديد للإمساك بخيوط السلطة، فحول البيروقراطية لسلح فتاك.

مسئول التعيينات له سلطة الترقية أو الرصد، ومسئول التنظيم له القدرة على التلميع أو الإخفاء.

وبعد إصابة لينين بشلل نصفي في مايو سنة ١٩٢٢، نُزِع اللجام من ستالين، فبدأ مرحلة غير مسبوقه من التوسع، والتوحش. لينين حاول يفضل في الصورة ولكنه مقدرش، صحته ضعيفة، وحالته ساءت بعد إصابته بأزميتين قلبيةتين في ديسمبر، فاضطر يبعد عن الساحة، ولكنه استمر في المراقبة، فأدرك أنه خلق وحش كاسر محدش عارف يسيطر عليه!

في سلسلة كتابات عرفت باسم الشهادة (86)، لينين أدلى من على فراش المرض بملاحظاته على الحزب وستالين بعد أكثر من خمس سنين على الانقلاب البلشفي اللي أصبح يشار له بالثورة.

واعترف أن الحزب أصبح مهدد من الداخل بسبب الفساد، وأن ستالين فظ، وعصبي، ومتقلب، وأكد على ضرورة عزله من منصبه قبل فوات الأوان.

بينما امتدح تروتسكي، اللي أصبح بعد مرضه في نظر البعض ولي العهد المنتظر، وقال إن مشكلته الوحيدة ثقته الزيادة في النفس.

الكتابات دي كانت سرية، الله أعلم كان هيكشفها أمتى أو هييعتها ملين، لكن لما طيبه الخاص شافها، وأدرك أهميتها، بعثها لستالين.

ستالين قال له كده يا لولو؟ عايز تعزلني من منصبى؟

وقرر يعزله عن العالم كله.

ستالين حط لينين تحت مراقبة الفريق الطبي ٢٤ ساعة في اليوم، وأمرهم بإرسال تقرير يومي عن حالته الصحية.

كل يوم بيمر ولينين على فراش المرض بيخليه أقل تأثيراً، بينما ستالين بيزداد قوة، لدرجة إنه في مارس سنة ١٩٢٣ شتم زوجة لينين وسبها بأبشع الألفاظ، وكل اللي لينين قدر يعملها لما عرف اللي حصل هو إنه هدد بقطع علاقته بالسكرتير العام. تهديد مقدرش يكمله بسبب قوة السكرتير، وبسبب إصابته بجلطة بعدها بأقل من أسبوع أفقدته القدرة على النطق.

الرجل اللي سعد للقممة عن طريق الكلام، مبقاش قادر يقول ولا كلمة.
حالته استمرت في التدهور، فأصيب بشلل كامل، وتوفي في يناير سنة ١٩٢٤، ليبدأ بوفاته عصر مرير على روسيا، وعصر أمر
على أوكرانيا.

[81](#) What is to be done?

[82](#) Imperialism, the Highest State of Capitalism.

[83](#) The Red Army.

[84](#) Ukrainian National Republic.

[85](#) State capitalism.

[86](#) The Testament.

المجاعة قرار سياسي

«يريد الكولاك⁽⁸⁷⁾ سحق حكومتنا السوفيتية بيد المجاعة العظمى، وسوف نثني هذه اليد العظمى ونردها مرة أخرى على حلق الكولاك».

جوزيف ستالين

بعد الانتهاء من الحرب الأهلية، بدأ التفكير بجدية في مستقبل المناطق الحدودية زي أوكرانيا. ستالين اقترح ضم أوكرانيا لروسيا، ولكن لينين اعترض لأن الحركة الوطنية الأوكرانية في منتهى القوة، حتى وإن تم فرض السيطرة بقوة السلاح، فلا بد من تفاهم يؤدي لاستقرار طويل المدى.

فتم التوصل لفكرة إنشاء اتحاد من جمهوريات مستقلة، على أن تقوم روسيا بفرض كلمتها على الأطراف عن طريق الحزب الشيوعي.

وهكذا في ديسمبر سنة ١٩٢٢ تم توقيع معاهدة تأسيس اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، بمشاركة روسيا، وأوكرانيا، وبيلاروسيا، وبلاد ما وراء جبال القوقاز⁽⁸⁸⁾ في الجنوب، جورجيا، وأرمينيا، وأذربيجان.

كل دولة من دول فيها حزب شيوعي ممثل لرغبات روسيا ومنفذ لأوامرها، بينما روسيا نفسها مفياهاش حزب خاص بها كدولة، ولكن فيها المقر الرئيسي للحزب في الاتحاد كله، وده أعطى ثقل لأوكرانيا، صاحبة أكبر عدد سكان، وأكبر عدد أعضاء في الحزب.

خطة لينين اللي مرض وتوفي قبل ما ينفذها قائمة على احتواء النخبة الأوكرانية عن طريق تعيينهم في البيروقراطية الحكومية، وإغراقهم في الثقافة الروسية، بالتزامن مع السماح لهم بهامش آمن من الحرية، ولكن الخطة اختلفت تمامًا بعد سنوات قليلة من حكم ستالين.

سنة ١٩٢١ لينين أنهى سياسة شيوعية الحرب الاقتصادية، وأقر بدلاً منها السياسة الاقتصادية الجديدة اللي سمحت بقدر لا بأس به من الملكية الفردية.

ولكن في أواخر العشرينيات ستالين شك أن السياسة دي أدت لنقص إنتاج الحبوب، في وقت هو في أمس الحاجة فيه لزيادة الإنتاج الزراعي.

ستالين قرر تحويل الاتحاد السوفيتي لدولة عظمى بقوة تصنيعية جبارة، ولذلك محتاج يزود المحصول عشان يقدر يغذي المناطق الصناعية الجديدة.

فلغى السياسة الاقتصادية الجديدة بما شملته من ملكية خاصة للأراضي الزراعية، وأعلن إنشاء تعاونيات⁽⁸⁹⁾، أو أراضي شاسعة الفلاحين يزرعوها ولا يملكوها.

ستالين اللي يرأس دولة مساحتها حوالي سدس الكرة الأرضية، برر موقفه وقال إنه على عكس بريطانيا معندوش مستعمرات خارجية يقدر يستغل مواردها للتصنيع، ولذلك مضطر يعتمد على مستعمراته الداخلية، ولم يكن هناك مستعمرة أهم أو أكبر من أوكرانيا.

في البداية الفلاحين قاوموا قرار تأميم الأراضي وإنشاء التعاونيات بمنتهى القوة.

حالات متعددة من الهجوم المسلح على أعضاء الحزب الشيوعي، وحالات أخرى من محاولات الفلاحين الهرب من نظام السخرة الجديدة عن طريق المشي إلى بولندا في الغرب سيرًا على الأقدام!

ولكن في النهاية إرادة ستالين انتصرت، وبحلول عام ١٩٣٠ نجح في تأميم حوالي نصف أراضي أوكرانيا.

محصول السنة كان كبير بشكل أوحى بنجاح التعاونيات، رغم إن أحد أسباب زيادته هو الطقس الجيد.

فالحزب الشيوعي المركزي فرض كميات أكبر من الحبوب لتحصيلها من الفلاحين السنة اللي بعدها. المشكلة إن السنة اللي بعدها الجو فيها كان أسوأ، وبالتالي المحصول أصغر. مسئولو الحزب اللي كانوا بيضربوا أرقام المحاصيل في البداية لإرضاء أسيادهم في موسكو، لقوا إنهم أمام وضع كارثي. مفيش حبوب تكفي الكوتا، ولو بعثوا كل الحبوب لروسيا الفلاحين مش هيلاقوا حاجة ياكلوها. المسئولين المحليين للحزب طلبوا من موسكو خفض الكميات. الفلاحين هيموتوا من الجوع! روسيا رفضت الطلب، وستالين مسمعش لرجالته اللي المفروض يكونوا مصدر ثقته ونصحه، وقال اللي بيحصل ده نتيجة عملاء أجنب! بولندا بتحاربنا وبتخرب محاصيلنا! وبعدها حمل طبقة الكولاك، أو كبار المزارعين، مسئولية إفساد زمايلهم والتآمر ضد الحزب، بما أنهم أقرب للبرجوازية من الشيوعية. طب والعمل؟ اللي مش عارف يوفي كمية الحبوب اللي عليه يغطيها باللحمة! اذبحوا الأغنام والأبقار، المهم نأكل العمال في المصانع عشان الخطة الخمسية تنجح. المسئولين عدوا على بيت بيت يصادروا كل الأكل اللي فيه، ويسبوا رغيين عيش (90). لكل فرد يعيش عليهم الشهر كله! وهكذا بدأت واحدة من أسوأ الكوارث الانسانية في التاريخ، عرفت باسم الهولودومور، أو الموت عن طريق الجوع. أستاذ التاريخ بجامعة ييل تيموثي شنايدر بيقول إن المجاعات عبر التاريخ بتحصل نتيجة قرار سياسي، ليس بسبب قلة الطعام ولكن بسبب سوء توزيعه. وفي الحالة دي المجاعة كانت من صنع ستالين. الفلاحين من شدة الجوع كلوا الديدان والحيوانات الميتة على جانب الطريق، ومع الوقت أكلوا لحوم البشر، الأموات، والأحياء. بعض السيدات ربطوا ولادهم في أركان متفرقة في البيت عشان مياكلوش بعض! واللي حاول يهرب اتمنع. صدر قرار بمنع الفلاحين من مغادرة القرى، فلا عرفوا يسافروا خارج أوكرانيا، ولا حتى عرفوا يتسولوا داخل المدن. المجاعة مكنتش بسبب سوء تقدير أو جهل، مراسلات ستالين مع قادة الحزب في روسيا وأوكرانيا تثبت درايته التامة بحجم الكارثة، وتشير لرغبته في الاستمرار مش بس عشان الإنتاج الصناعي، ولكن لتأديب الفلاحين وضمان عدم حدوث أي تمرد في المستقبل. الجائع لا يثور، الجائع يموت. المجاعة تسببت في وفاة حوالي ٤ مليون فلاح من سنة ١٩٣١ ل ١٩٣٢ قتلوا بسبب ستالين، اللي أرقام الوفيات مختلوش يراجع نفسه، بالعكس، ستالين لم يتحمل المسئولية، وألقاها بالكامل على الحزب الشيوعي الأوكراني. حوالي ١٢٠ ألف عضو في الحزب الشيوعي تم التخلص منهم عن طريق السجن، أو النفي، أو القتل. فرصة رائعة للقضاء على ثورة الفلاحين، والمعارضة الشيوعية، والحركة الوطنية الأوكرانية، في ضربة واحدة! أساندة الجامعة، والكتّاب، والنخبة الثقافية الأوكرانية تم القضاء عليهم بالكامل. المحظوظ من الكتّاب اتنفى للجولاج، أو معسكرات العمل الإجبارية في سيبيريا، أما سيئ الحظ فانتحر، أو اتعدم. وهكذا بعد سنوات قليلة من الانفتاح، والازدهار، تم تصفية المجتمع الأوكراني من النخبة الوطنية، فعرفت فترة

الهولودومور وما بعدها باسم النهضة المعدومة، وزرعت بذرة العداة وعدم الثقة بين روسيا وأوكرانيا.
بذرة ثمارها هتطرح مع قيام الحرب العالمية الثانية.

[87](#) تعبير روسي أطلق على كبار الفلاحين من المتعلمين والأثرياء.

[88](#) Transcaucasia.

[89](#) Collectivization.

[90](#) Two loaves of bread.

الحرب العالمية الثانية

«أنا لم أخترع الفاشية، لقد استخرجتها من العقل الباطن للشعب الإيطالي».

بينيتو موسوليني

بعد خسارة الحرب الأهلية، عدد كبير من أعضاء الجيش الأبيض والمعارضين للبلشفة هربوا لفرنسا وألمانيا، وهناك أصبح لهم ثقل ووجود ملحوظ كممثلين عن المجتمع الروسي في المهجر، وبدأوا يروجوا أن الشيوعية مؤامرة يهودية، لاستغلال تزايد المشاعر المعادية لليهود في أوروبا.

صحيح تروتسكي ولد لعائلة يهودية، وجدة لينين لوالدته يهودية، لكن عدد كبير من الشيوعيين، وعلى رأسهم لينين، وتروتسكي، وستالين كانوا مؤمنين بنظرة ماركس للدين كأفيون للشعوب.

ماركس نفسه ولد لعائلة يهودية برجوازية، قبل ما ينقلب على الطبقة، والديانة، وينادي بثورة البروليتاريا في كتاب رأس المال، بينما صديقه إنجلز قاعد يبصر عليه من أرباح مصانع النسيج بتاعة والده!

لا أحد يثور بلا مصروف!

الرجل الاشتراكي الجديد طبقاً لستالين هو رجل ملحد، غير مقيد بتعاليم الدين اللي أسهمت في خضوعه للاستغلال الطبقي! ولكن المؤامرات أكثر جاذبية من الحقائق، فكرة ارتباط اليهودية بالشيوعية انتشرت في أذهان في فرنسا، وألمانيا، لحد ما وصلت لأدولف هتلر!

حتى هذا الوقت هتلر كان مقتنع إن اليهود همّا اللي اخترعوا الرأسمالية، وكان يلومهم لأن الرأسمالية في نظره أدت لخلق تنافس طبقي، بينما التنافس الصحي هو التنافس العرقي!

وبما أن ألمانيا لم تهزم على الجبهة الشرقية، في نظره الهزيمة لم تحدث بسبب دخول الولايات المتحدة الحرب، ولكن بسبب خيانة اليهود، ودعمهم للإنجليز!

الأفكار دي كبرت مع هتلر أثناء رحلة صعوده للسلطة، اللي أسهم فيها انقسام اليسار بين الشيوعيين، والاشتراكيين.

بعد إذن أحفاد كارل ماركس، حان وقت النازية!

وبالتزامن مع احتلال هتلر لغرب بولندا سنة ١٩٣٩، ستالين احتل شرق بولندا بحجة حماية الأقليات الأوكرانية!

في بداية الحرب، ستيان بانديرا، قائد في منظمة الأوكرانيين الوطنية في أوكرانيا الغربية الواقعة تحت الاحتلال البولندي، كان في السجن بتهمة القيام بعمليات إرهابية ضد بولندا.

سنة ١٩٤١ أثناء استعداد هتلر لغزو روسيا، المخابرات العسكرية الألمانية طلبت من بانديرا مساعدتها بتشكيل فرق قتالية أوكرانية للهجوم على المناطق الأوكرانية اللي ابتلعها الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٣٩.

أرض أوكرانية، وقعت تحت الاحتلال البولندي بعد الحرب العالمية الأولى، واحتلها الاتحاد السوفيتي مع بداية الحرب العالمية الثانية، وهحتلها ألمانيا مع انقلاب هتلر على ستالين.

بانديرا وكثير غيره من الأوكرانيين تفاءلوا بالاحتلال الألماني اللي نظروا إليه بشكل إيجابي بعد ما ذاقوا الجوع، والرعب على يد الاتحاد السوفيتي!

فشارك مع القوات الألمانية الغازية في احتلال مدينة ليفف، وأعلن ثاني يوم دخول المدينة عن إنشاء جمهورية أوكرانية مستقلة، متحالفة مع ألمانيا ضد الاتحاد السوفيتي!

ألمانيا النازية اللي بتعتبر السلافيين عرق أقل من الآريين قالت له إحنا هنهرج؟

مين دول اللي حلفاء؟

عايز بنت الباشا تتجوز ابن الجنائني؟

إحنا مش في فيلم رد قلبي!

دي ألمانيا النازية يا حبيبي!

فاعتقلوه هو وأعوانه، وقضى باقي سنوات الحرب في معسكر اعتقال جوار برلين.

بينما الأوكرانيين في روسيا وألمانيا كانوا محتلين من الكل، وحاربوا الكل!

ستالين اضطر يلعب على المشاعر الوطنية الأوكرانية لحشد الأوكرانيين وضمان ولاءهم في حربه ضد ألمانيا، فشارك في صفوف

الجيش الأحمر ٧ مليون أوكراني، وقتل أثناء الحرب ٧ مليون من أصل ٣٤ مليون أوكراني.

بينما هتلر تعامل مع الأوكرانيين على أنهم عمالة رخيصة، ورحل ٢ مليون منهم لمعسكرات العمل في ألمانيا.

وهكذا الأوكرانيين انقسموا لمجموعة بتحارب مع الروس في الشرق، ومجموعة ثانية في الغرب، وعلى رأسهم أعضاء منظمة

الأوكرانيين الوطنية، بتحارب الكل: ألمان وبولنديين وسوفيت!

ومع نهاية الحرب وانتصار ستالين، تم توحيد أوكرانيا تحت احتلال واحد، وأصبحت الحركة الوطنية الأوكرانية تحت رحمة

الاتحاد السوفيتي.

أول حاجة عملها ستالين بعد الحرب كانت تهجير ١٨٠ ألف أوكراني إلى سيبيريا عقاباً لهم على تعاونهم المزعم مع الألمان.

ولكن لحسن الحظ عهد الرعب والتهجير لم يستمر، من ناحية لأن ستالين كان مركز مع حدود الاتحاد السوفيتي الجديدة في

ألمانيا الشرقية، ومن ناحية ثانية لأنه مات سنة ١٩٥٣.

وموت الظالم عبادة.

فاز بصراع القصر، وتولى رئاسة الاتحاد بعد وفاة ستالين نيكيتا خروتشوف، رئيس الحزب الشيوعي الأوكراني اللي عاش في

أوكرانيا مع عائلته من وهو عنده ١٤ سنة.

أوكرانيا في عهده عاشت فترة من الازدهار، والاستقرار، وشهدت إنشاء مجموعة من المصانع في الشرق، من ضمنها أكبر

مصنع صواريخ في أوروبا، بالإضافة لمشاريع أخرى زي بناء السدود، وحفر المناجم.

المشاريع دي كانت محتاجة عدد كبير من العمال أغلبهم جم من روسيا، وباقي مناطق الاتحاد السوفيتي، فحصل مزج

ثقافي نتيجة للاختلاط السكاني، وانتعاش فكري بسبب إراحة خروتشوف لقبضة ستالين الحديدية في الداخل، وإن احتفظ بها

كحل فعال لمواجهة التمردات الخارجية، زي ما حصل في مظاهرات المجر سنة ١٩٥٦.

فظهرت منظمات مدنية غير حكومية لأول مرة زي نوادي النقاد، والكتاب، والشعراء، بالإضافة لمجموعة من النوادي شبابية،

من أهمهم على الإطلاق نادي المضحكين والمبدعين، أو ال (91) KVN، اللي هيصعد منه زيلينسكي لرئاسة أوكرانيا بعدها

بعشرات السنين.

أوكرانيا خلال سنوات قليلة أصبحت الشريكة الصغرى لروسيا في حكم الاتحاد، بحكم أن الحزب الشيوعي الأوكراني صاحب

أكبر كتلة تصويتية في اللجنة المركزية للحزب المسئولة عن اختيار القادة وعزلهم؛ لأن روسيا لا تملك حزب خاص بها.

التقارب الروسي الأوكراني وصل لأعلى درجاته سنة ١٩٥٤.

في الذكرى الثلاثمائة على توقيع معاهدة بيرياسلاف اللي ضمت أوكرانيا تحت حكم القيصر مقابل حماية دولة القوزاق،

خروتشوف فاجئ العالم بمنح أوكرانيا القرم!

شبه الجزيرة كانت بتعاني بعد الحرب بشكل ملحوظ بسبب سياسية تهجير سكانها على يد ستالين، اللي أمر بإخلائها من

التتار، اللي عاشوا عليها من قبل الغزو الروسي في القرن الثامن عشر بحوالي ٤٠٠ سنة!

القوات الروسية كانت بتعدم اللي بتشك في تعاونه مع ألمانيا، وتسبب جثته في الشارع لحد ما أهله يبجوا ياخدوه علشان

يدفنوه، فيعتقلوهم، ويرحلوهم إلى أوزبكستان.

الهدية كان لها ثلاثة أهداف:

الأول هو إظهار حجم الثقة الروسية في أوكرانيا بشكل يضمن الولاء، والامتثال الأوكراني لروسيا. الثاني هو إثبات الأحقية التاريخية لروسيا في شبه الجزيرة. سنة ١٩٢١ تم تدشين جمهورية القرم كجمهورية مستقلة داخل روسيا، ولكن ستالين بعد تهجير سكانها الأصليين لغى الحكم الذاتي، وابتلعها داخل روسيا بشكل كامل. منحها لأوكرانيا هيسهم في محو الذكرى أو على الأقل تخفيفها، وفي نفس الوقت هيئت أحقية روسيا التاريخية فيها. من يملك المنح، يملك المنع. الهدف الثالث والأهم هو أن القرم متصلة برياً بأوكرانيا، وتنميتها هتتم بشكل أسهل وأسرع إذا تم مدها بخطوط كهرباء، ويد عاملة من أوكرانيا. أوكرانيا قالت النبي قبل الهدية، وأخذت القرم، وأخذت معها مسئولية تنميتها. ولكن شهر العسل الروسي الأوكراني انتهى في عهد بريجنيف. ليونيد بريجنيف اتولد في أوكرانيا، وصعد للقامة بعد إجباره هو ومجموعة من قادة الحزب لخروتشوف على التنحي سنة ١٩٦٤. بريجنيف حس إن النفوذ الأوكراني وصل لمستوى خطير بقيادة رئيس الحزب الشيوعي الأوكراني بترو شيلبيست، فأمر بعزله سنة ١٩٧٢، وبدأ حملة تنكيل ضد النخبة المثقفة الأوكرانية، كللت بمنع تدريس اللغة الأوكرانية في المدارس. اللغة الأوكرانية فضلت ممنوعة لحد ما رجعت لغة التدريس الأولى في عهد غورباتشوف، اللي والدته، أوكرانية، وزوجته أوكرانية، ولغته الأم أوكرانية. غورباتشوف بعد ما أفرج عن اللغة، أفرج عن السجناء السياسيين الأوكرانيين، ودعم الحركة الوطنية الأوكرانية اللي لعبت دور المسمار الأخير في نعش الاتحاد السوفيتي، قبل ما تتحول لخنجر في ظهر بوريس يلتسن.

الكعكة النووية

«انهيار الاتحاد السوفيتي هو أكبر كارثة جيوسياسية في القرن العشرين».

فلايمير بوتين

في بداية التسعينيات يلتسن لم يكن الرجل الجديد الوحيد على الساحة، ففي سنة ١٩٩٢ تم انتخاب بيل كلينتون رئيساً للولايات المتحدة في مفاجأة سياسية مدوية.

جرت العادة في أغلب الانتخابات أن الأفضلية بتكون للرئيس الحالي (92)، ولكن في حالة جورج بوش، مشروعه انتهى بعد الفترة الرئاسية الأولى.

رغم زيادة شعبيته بعد فوزه الخاطف في حرب الخليج الأولى، فرفعه للضرائب خلاه هدف سهل للجميع. رجل الأعمال وابن تكساس البار روس بيروت نزل الانتخابات، وصرف ٨٠ مليون دولار من جيبه، فشق صف الجمهوريين، بينما الديمقراطيين خافين ينافسوا رئيس منتخب، باستثناء محافظ ولاية أركنساس بيل كلينتون. كلينتون عنده ٤٥ سنة، نفس سن جورج بوش الابن، صغر سنه شجعه يخوض المغامرة باعتبار إنه لو خسر فحماس الشباب هيشفع له، وممكن يجرب ثاني في المستقبل.

المفاجأة إن قطاع كبير أعجب برسالته الانتخابية: إنه الاقتصاد أيها الغبي! (93).

رسالة بسيطة ولكن في منتهى القوة أسهمت في فوزه بالانتخابات، ولكن من أول يوم له اصطدم بالواقع، وأدرك أنه لا يمكن إغفال السياسة الخارجية.

صحيح الحرب الباردة انتهت، وأمريكا أصبحت القطب الأوحده على وجه الكرة الأرضية، ولكن هركز على الاقتصاد إزاي وفي أكثر من ١٢٠٠ صاروخ نووي في أوكرانيا، اللي أصبحت بين يوم وليلة ثالث أكبر دولة نووية في العالم، وأسلحتها مصوبة على أمريكا؟

استكمالاً لسياسة الثعلب جيمس بيكر، يجب ضمان انتقال الرؤوس النووية إلى روسيا.

بعد شهور قليلة من انتخاب كلينتون، أستاذ العلوم السياسية جون ميرشايمر كتب مقال مؤثر في مجلة الشؤون الخارجية (94) يقول إن أوكرانيا لازم تحتفظ بالأسلحة النووية؛ لأنها الرادع الوحيد ضد تعرضها للغزو من روسيا. الحرب الروسية الأوكرانية، اللي اعتبرها لو حصلت هتكون خطوة أولى تجاه إعادة ضم روسيا لأوكرانيا، ومش هيمنع حدوثها غير السلاح النووي!

ولذلك من مصلحة أمريكا تشجيع أوكرانيا على الاحتفاظ بتربساتها النووية، مش الضغط عليها عشان تتخلص منها.

كلينتون مقتنعش بالكلام ده، حرب روسية أوكرانية أيه دي اللي تشتعل!

الدب الروسي خلاص بقى دبدوب!

ويلتسن صديق عزيز جدير بالدعم والثقة.

من أول يوم يلتسن قابل كلينتون وأعجب بطاقته وذكائه، بينما كلينتون أعجب بتعاون يلتسن واعتداله بالمقارنة برؤساء الاتحاد السوفيتي المرعبين ممن سبقوه.

فخدوا على بعض لدرجة أنهم بقوا بينادوا بعض بأساميهم على طول بدون ألقاب.

بوريس، وبيل.

تحت شعار قولي لي يا محاميجو!

العلاقة بينهم كانت غير مسبوقه بين رؤساء أقوى دولتين في العالم، ولكنها تسببت في إحراج كلينتون بسبب سكر يلتسن

المستمر.

زوج والدة كلينتون كان سكير وعنيف، لدرجة إنه في إحدى المرات ضربها بالنار. تيجي مستمعة دلوقتي من أتباع مدرسة I can fix him تقول لي معلش الرجل الحمش رزق! بقولك ضربها بالنار حضرتك مش بطل يفتح الستوريز بتاعتها على الإنستجرام! المهم في أحد الأيام، وكلينتون عنده ١٤ سنة، شافه وهو بيضربها فدافع عنها، وضربه بمضرب جولف. والدته أقرب إنسانة له في الدنيا، والموقف صادم لا ينسى، عشان كده مهازل يلتسن بالنسبة له كانت مجرد فكاهة غير مضرة.

زي إنه في إحدى المرات أثناء زيارته لواشنطن سكر فخرج بالليل من غير ما حد ياخذ باله، الأمن لقوه واقف في الشارع بيحاول يوقف تاكسي بالملابس الداخلية. وهاله هاله ع الفنانة!

بتعمل إيه يا ريس؟

مش وقت إعلان قطنيل ده!

قال لهم متخافوش يا رجالة، خراشو خراشو!

أنا رايح أجيب بيتزا وراجع ثاني على طول!

لما حكوا الموقف لكلينتون مفرقش معاه، وقال لهم رايح يجيب بيتزا، رايح يجيب فطيرة بالسجق، المهم إنه ديمقراطي رأسمالي، مش شيوعي سلطوي؛ ولذلك يجب دعمه، ودعم الديمقراطية في روسيا بكل قوة.

بينما أوكرانيا، برئاسة ليونيد كرافتشوك، رئيس البروباجاندا في الحزب الشيوعي الأوكراني وأول رئيس منتخب في تاريخها، كانت مترددة أنها تتخلى عن الصواريخ.

من ناحية جزء من الشعب أصبح ضد كل ما هو نووي بعد انفجار مفاعل تشيرنوبل سنة ١٩٨٦، اللي تسبب في زيادة نسبة الإصابة بالسرطان بين الأطفال بحوالي ٩٠% خلال خمس سنين فقط.

ومن ناحية ثانية أوكرانيا عارفة إنها من غير سلاح نووي هتبقى واقفة وحيدة في مهب الريح.

وروسيا، زي ما أثبت لها التاريخ، غدارة.

صحيح أكواد إطلاق الصواريخ دي كلها في روسيا، يعني وجودهم زي قلتهم في أوكرانيا، ولكن مجرد وجود رؤوس نووية في أوكرانيا يخلي روسيا تفكر مرتين قبل ما تهاجمها.

ورغم الجدل والحيرة، الاعتبارات الاقتصادية هي اللي حسمت الأمر في النهاية.

الرجل لا يفكر بعقله، ولا بقلبه، ولكن بمحفظته!

الاقتصاد الأوكراني في الوقت ده كان بيمر بفترة في منتهى الصعوبة.

نسبة تضخم أعلى من عشرة آلاف في المئة، يعني كيس الشيبسي اللي بجنيه، بقى بعشرة آلاف جنيه! وناتج قومي بيقل حوالي ٢٠% سنويًا.

بقاء الصواريخ مكلف مش بس مادياً، ولكن كمان سياسياً.

وكرافتشوك من ناحية مش عايز يزعل روسيا، اللي بتمد أوكرانيا بالبترول والغاز، ومن ناحية ثانية مش عايز يزعل أمريكا، اللي بيأمل إنها تساعد بالقرض والمعونات.

فكرافتشوك قال أمري لله، ووافق على تفكيك المنشآت النووية، ونقل الأسلحة إلى روسيا، والانضمام لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، مقابل تعهد الولايات المتحدة وروسيا بإمداد أوكرانيا بالوقود النووي لمفاعلاتها، بالإضافة لحوالي مليار دولار مساعدات من أمريكا.

سنة ١٩٩٤ الرئيس الثاني لأوكرانيا، ليونيد كوتشما، وقع مذكرة بودابست، والاتفاق شمل تعهد بريطانيا، وروسيا، والولايات

المتحدة بضمان سلامة الأراضي الأوكرانية، في إشارة لحمايتها من أي عدوان مستقبلي.
المشكلة إنه تعهد فارغ، بلا أي ضمانات، علق عليه كوتشما وقال لو روسيا دخلت القرم بكرة، محدش فيهم هيرفع حواجه!
طب وإيه اللي خلى الرئيس السابق لأكبر مصنع صواريخ في أوروبا يتنازل عن الردع النووي مقابل معاهدة غير ملزمة؟
الخوف من الانهيار الاقتصادي.

معدل انكماش الاقتصاد زاد، وأوكرانيا خسرت ربع الناتج القومي من سنة ١٩٩٣ لسنة ١٩٩٤!
لو الوضع استمر أوكرانيا هتخسر استقلالها لأول مرة في تاريخها لأسباب اقتصادية، وليست سياسية.
فرضخ للأمر الواقع، وسلمت أوكرانيا لروسيا درعها الوحيد، ومبقاش في ضمان لأمنها وسلامتها غير انضمامها لحلف الناتو.

[92](#) Incumbent.

[93](#) It's the economy stupid.

[94](#) Foreign Affairs.

حلف الناتو ٣

«لقد أذلناهم كثيراً».

الرئيس الفرنسي جاك شيراك

متحدثاً عن روسيا

في الوقت الذي كلبنتون كان رافض انضمام أوكرانيا للناتو خوفاً من إغضاب روسيا، وإضعاف يلتسن، نائب وزير الخارجية الأمريكي طلب من أوكرانيا السعي للانضمام للحلف من وراء الستار.

مثال آخر على صعوبة تلخيص «الموقف الأمريكي» في رأي واحد، وسذاجة محاولة تلخيص القوة في شخص واحد، أو مؤسسة واحدة.

هناك أكثر من لاعب، وأكثر من رأي، وأحياناً أكثر من مصلحة واحدة.

أوكرانيا مضيعتش وقت، وطلبت الانضمام للناتو، والاتحاد الأوروبي.

شوفوا أنتم أي حاجة هتعملوها إحنا جايين معاكم!

ولكن محدش خد طلبها على محمل الجدية لثلاث أسباب:

السبب الأول والمعتاد هو محدش عايز يزعل روسيا.

هناك اتفاق أوروبي أمريكي على ضرورة دعم يلتسن، ووقوف الناتو على عتبة البيت ممكن يضرب مشروعه السياسي في مقتل.

السبب الثاني هو وجود الأسطول الروسي في قاعدة سيفاستوبول البحرية في القرم.

بعد حل الاتحاد روسيا خسرت موانئها على بحر البلطيق، والبحر الأسود، وبحر قزوين، بعد استقلال الدول السوفيتية السابقة.

ميناء سيفاستوبول له أهمية استراتيجية عسكرية، وأهمية تاريخية سُجلت بدماء القتلى في الحرب الروسية العثمانية.

في يوليو سنة ١٩٩٣ البرلمان الروسي أصدر قرار باعتبار قاعدة سيفاستوبول جزء من الأراضي الروسية.

يلتسن قال إنه خجول من قرار البرلمان في محاولة لعدم إغضاب الأمريكان، ولكنه في الخفاء ضغط على كرافتشوك وقال له

إنه أمام خيارين ملهمش ثالث، يا يتنازل عن نصيب أوكرانيا في الأسطول السوفيتي، ويضمن لروسيا بقاء قواتها في القاعدة

العسكرية، يا يدفع فلوس الغاز الطبيعي اللي بياخده من روسيا، وهدده بقطع الغاز في حالة عدم السداد.

وفي ظل الأزمة الاقتصادية الطاحنة كرافتشوك اختار الغاز، وتنازل عن الأسطول.

ولاحقاً كوتشما مضى معاهدة سلام مع يلتسن، اعترفت بموجبها روسيا بحدود أوكرانيا، وأجرت أوكرانيا القاعدة العسكرية

لروسيا حتى سنة ٢٠١٧.

أما السبب الثالث فهو التركيز التام مع بولندا، لموقعها الجغرافي على حدود ألمانيا، ولوجود ناخبين من أصول بولندية في

أمريكا.

رئيس بولندا استغل سكر يلتسن في إحدى الليالي وطلع منه بتصريح أن انضمام بولندا للناتو لا يتعارض مع مصالح أي دولة

بما فيهم روسيا.

يلتسن بعد ما فاق رجع في كلامه، فرئيس بولندا قال انضمام بولندا لأي تحالف عسكري شأن داخلي، ومش من حق روسيا

التدخل فيه.

وخلف الكواليس، وصل مع يلتسن لاتفاق سري.

صفقة غير معلنة اشترى فيها عدم معارضة روسيا لانضمامه للناتو، مقابل بيع أوكرانيا.

أنت شاغل بالك ببولندا ليه؟
طول ما أوكرانيا مش في الناتو، حدودك في أمان.
ووعده بعدم التدخل ضد روسيا في أوكرانيا، إلا في حالة الغزو العسكري، مقابل عدم تدخل روسيا ضد بولندا في الناتو.
يلتسن أدرك أنه مش هيعرف يقف أمام الطوفان، فقرر الانضمام له.
ولتاني مرة بعد غورباتشوف، روسيا طلبت الانضمام لحلف الناتو!
يلتسن بعث خطاب رسمي لكلينتون، وقال له إن ضمان أمن واستقرار أوروبا لن يتحقق بانضمام بولندا، ولكن بتوسيع الناتو ليشمل أوروبا كلها.
وزير الخارجية الروسي أندريه كوزيريف قال لو الناتو هيتوسع، يبقى لازم روسيا تكون أول المنضمين!
وليه لأ؟
يلتسن رئيس مستنير، مختلف عن كل اللي قبله، روسيا في عهده أصبحت دولة رأسمالية، ديمقراطية، محبة للتعاون.
محدث تخيل أن القيصر الوديح، المسالم، على وشك قصف البرلمان!

الديمقراطية مصنع الطغاة

«الخاسرون في المواجهة السياسية سيتم وضعهم على الحائط وإطلاق النار عليهم، نحن نعرف أنفسنا، ونعلم أنه بمجرد أن نتنحى جانبًا، سوف تدمروننا، سوف تضعوننا على الحائط وتقتلوننا، ونحن لا نريد أن نصل إلى الحائط».

فلاديمير بوتين

نفس القصة هي هي بتتعاد.

المطالبين بالديمقراطية، بعد صعودهم للسلطة، انقلبوا على الديمقراطية.

في نهاية سنة ١٩٩١ البرلمان وافق على منح يلتسن سلطات استثنائية لتطبيق إصلاحاته الاقتصادية.

في زمن الشيوعية مدير الشركة كان أقرب لعمدة المدينة، بيدير عيادات، ونوادي، ومدارس، وشبكة خدمات اجتماعية ليس لها علاقة بالنشاط الإنتاجي، ولكنها ضرورية للعمال.

خدمات مجانية أسهمت في إزالة الفروق الطبقيّة بين المواطنين، باستثناء الأرستقراطيين الجدد من قادة الحزب. بعد سقوط الاتحاد، وخصخصة الشركات، مسؤولية إدارة الشبكات الاجتماعية تحولت من الشركات للدولة ومجالسها المحلية.

المشكلة أن الدولة فشلت في تحصيل ما يكفي من الضرائب، فانهارت شبكات الخدمات الاجتماعية بالكامل في وقت الشعب فيه أكثر ما يكون محتاج للحماية.

بسبب التضخم، وانكماش الاقتصاد، نصف السكان نزلوا تحت خط الفقر اللي يعرف بما قيمته حوالي ٢١ دولار في الشهر.

يلتسن وعد الشعب والبرلمان بتطبيق إصلاحات اقتصادية ضرورية، أسماها العلاج بالصدمة (95).

لكن الصدمة الحقيقية كانت فشله في وقف النزيف بعد سنة كاملة، زاد فيها حجم الانكماش السنوي للناتج القومي من ٥% ل ١٥%!

داعمي الإصلاحات صوتهم واطي، بينما الشيوعيين صوتهم عالي.

رايح تجيب لنا عيل صغير عنده ٣٥ سنة تمسكه رئيس وزراء؟

ده غيره في سنه لسة مفتحوش بيوت مش مسكوا دول!

البرلمان صبره نفذ، وقالوا له لا هنجدد لك السلطات الاستثنائية، ولا هنجدد الثقة في إيجور جايدار، الاقتصادي اللي ربنا ابتلانا بيه، وعينته رئيس وزراء، عشان الغرب يبجوه!

فيلستن قال لهم يا أهلاً بالمعارك!

وأنا بقى مش معترف بالدستور، فهكتب دستور جديد، واستفتي الشعب عليه!

ومن هنا لهنا وصلوا لحل وسط، البرلمان جدد السلطات الاستثنائية لأبريل ١٩٩٣ مقابل تعيين يلتسن لرئيس وزراء جديد.

ولكن في مارس قبل انتهاء المدة المتفق عليها، كونجرس نواب الشعب عدل الدستور وسحب سلطات من الرئيس.

كونجرس النواب (96) هو الغرفة العليا من البرلمان، يقدر يعزل الرئيس ويغير الدستور، بينما السوفيت الأعلى (97) هو

الغرفة السفلى، يقدر يكتب قوانين ويعدلها.

فيلتسن رد بإعلان نظام خاص، أنا بقى مش معترف بالبرلمان بتاعكم ده!

المحكمة الدستورية ومكتب النائب العام هاجموا قراره، أما نواب البرلمان قالوا له وماله، الجراءة حلوة، وصوتوا على عزله من الرئاسة.

البلد دخلت في أزمة دستورية بعد ١٦ شهر من الاستقلال، انتهت بانتصار يلتسن بعد فشل البرلمان في الحصول على ثلثي

الأصوات اللازمة للعزل، وبتنظيم يلتسن لاستفتاء شعبي، أيد فيه الأغلبية زيادة السلطة الرئاسية، وعمل انتخابات برلمانية مبكرة.

الشعب مش عايز ديمقراطية لمجرد الديمقراطية، لو الديمقراطية هتعتلنا عن أكل عيشنا، مش عايزينها! البرلمان معترفش بالهزيمة، والنواب قالوا ما دام مش عارفين نمشيك، هنرازيك! كل خطوة وكل قرار سياسي وكل قرار هندخل فيهم، من أول السياسة الخارجية، لحد تعيين رؤساء الحكومات المحلية. فيلتسن جاب آخره، وقرر التخلص من البرلمان اللي بقى بالنسبة له شوكة في الحلق! في سبتمبر سنة ١٩٩٣ يلتسن أمر بحل البرلمان بغرفتيه لحين الاستفتاء على الدستور، وانتخاب برلمان جديد من بعده. المشكلة أن الدستور الحالي، اللي الرئيس لا يملك القدرة على تعديله، ينص صراحة على عزل الرئيس بشكل فوري إذا حاول عزل أي جهة منتخبة، وعلى رأسها البرلمان. فالنواب اعتبروا يلتسن معزول، وعينوا النائب بتاعه، وبطل حرب أفغانستان، الجنرال ألكسندر روتسكوي كرئيس مؤقت إلى أن يتم انتخاب رئيس جديد.

وتوقعًا لمواجهة مع أنصار يلتسن من الجهات الأمنية، النواب ومعاهم مجموعة من الوزراء اعتصموا في مقر البرلمان المسمى بالبیت الأبيض، ودعوا أنصارهم للنزول دفاعًا عن الديمقراطية. يلتسن قطع عنهم التليفونات، والمياه، والكهرباء، وأمر قوات الأمن بحصار المبني. فجأة ظهرت مجموعات مسلحة داعمة للنواب اقتحمت كردون الشرطة، واشتبكت مع الضباط فقتل ٢٥ ضابط، و١٢٢ مدني، في مواجهة هي الأكثر دموية في موسكو من أيام الثورة البلشفية! المسلحين تغلبوا على قوات الأمن، واعتصموا في المبني، وقدروا يقتحموا مقر عمدة موسكو بالإضافة لمبني التلفزيون، ووقفوا البث لعدة ساعات.

فيلتسن انتهز الفرصة، وأمر الجيش بالتحرك لفض الاعتصام بالقوة، وإعادة النظام. الدبابات نزلت الشارع، وقصفت مبنى البرلمان في مشهد مرعب أذيع على كاميرات التلفزيون، فقتلوا مئة من المعتصمين، وأجبروا باقي النواب على إعلان استسلامهم. يلتسن سحق الثورة في مهدها، ونفذ قراره بحل البرلمان، ونظم استفتاء على الدستور الجديد، صوت فيه ٥٨% من الشعب، أو حوالي ثلثين الناخبين لصالح زيادة قوة الرئيس على حساب البرلمان، فتحول من رئيس ديمقراطي يخضع للمساءلة لرئيس فوق المحاسبة.

القيصر الجديد مضيعش وقت، واستغل قوته المكتسبة حديثًا لحل مجموعة من الأحزاب، ومنع عدد من الصحف على رأسها صحيفة برافدا، أو الحقيقة، الناطقة بلسان الحزب الشيوعي. ولما سئل في مقابلة صحفية عن تعليقه على سلطاته الجديدة اللي تفوق سلطة أقرانه من الرؤساء في دول أخرى زي أمريكا وفرنسا، قال ومستني إيه من شعب متعود على القياصرة والرؤساء؟

دولة أحزابها ناشئة، ومنظمتها وليدة، وزعمائهم لسه لم يظهرها بعد، طبيعي الناس في خلال ست شهور أو أقل يطالبوا بديكتاتور، ومش بعيد أبدًا كانوا يلاقوه داخل البرلمان اللي بيعارضني دلوقتي! ولكن على عكس الدعم الداخلي، مشهد ضرب البرلمان بالدبابات أثار الذعر في أوروبا. ومع ذلك لم ينجح في هز ثقة كول وكلينتون في صديقهم الحبوب ذو الخدود الممتلئة. بالذمة في حد بالخدود دي يبقى ديكتاتور؟

طول الأزمة الدستورية كول كان بيتصل بيه كل يوم. صباح الخير يا يويو، جوتن مورجن، يا رب تكون بخير، ممكن بعد إذك نحافظ على استقرار تاني أقوى دولة في العالم من أجل استقرار أوروبا؟

لو مفيهاش إساءة أدب يعني.
وقال كلينتون خلي بالك رغم كل عيوب يلتسن، لو مشي، القادم أسوأ.
زي ما قال الشاعر صلاح عبد الصبور: رعب أكبر من هذا سوف يجيء!
يلتسن اتصل بكلينتون عشان يطمئه، وقال له إن البرلمان كان مليون شيوعيين، وفاشين معادين للرأسمالية، والديمقراطية،
لكن دلوقتي خلاص مفيش حاجة هتوقف تحول روسيا للسوق الحر.
كلينتون قال له أنا عارف أنك عملت اللي كنت محتاج تعمله.
وبين نفسه مكنش عارف هيعمل إيه في الورطة اللي هو فيها!
بعد اللي عمله يلتسن، أوروبا كلها عايزة تدخل الناتو!

[95](#) Shock Therapy.

[96](#) Congress of People's Deputies.

[97](#) Supreme Soviet.

حلف الناتو ٤

«إذا لم تكن روسيا مستقرة، فإن بقية العالم سوف يعاني من البؤس».

بيل كلينتون

قرار يلتسن بضرب النار، خلى كلينتون بين نارين.

دخول روسيا الناتو بعد ضرب البرلمان أصبح مستحيل.

هناك إرث من عدم الثقة، وتخوف من توحش مستقبلي.

المشكلة أن الجنود الروس لسة مخرجوش من شرق ألمانيا، وبعض الدول السوفيتية السابقة، ولذلك ما زالت هناك حاجة

لإرضاء روسيا!

وفي نفس الوقت على الرغم من وجود أصوات مطالبة بضم دول شرق ووسط أوروبا للتحالف، فالواقع يقول إنهم غير

مستعدين لا سياسياً، ولا عسكرياً.

طبقاً لجهاز خدمة أبحاث الكونغرس، وهي مؤسسة فيدرالية غير حزبية تابعة للسلطة التشريعية داخل مكتبة الكونغرس،

بولندا غير جاهزة للانضمام للتحالف بسبب افتقادها للأسس القانونية التي بتتيح للسلطة المدنية مراقبة المؤسسة

العسكرية.

التقييم ده لما اتسرب رد فعل بولندا كان عنيف، تم رفد رئيس الأركان، وبدأ العمل على تعديل القوانين الحاكمة للعلاقات

المدنية العسكرية.

هنعمل أي حاجة بس خدونا معاكم!

بينما يلتسن مش بس عايز روسيا تدخل الناتو، ده شايف أنها لازم تبقى أول دولة تدخل الناتو!

وزارة الدفاع الأمريكية رفضت ضم أي دولة للتحالف تكون مجرد مستهلكة للأمن، وليست منتجة له، فاقترحوا مبادرة تخلي

عضوية الدول في نهاية المطاف، وليس بدايته، وسموها شركاء من أجل السلام (98).

المبادرة هدفها عمل تدريبات مشتركة لرفع كفاءة القوات، وتحديث أنظمة التسليح عشان تبقى ملائمة لأنظمة التحالف،

بدون وجود أي ضمانات للعضوية في النهاية.

نادي مفتوح لكل بدون أي التزامات، أو تعهدات.

لا في خطوط جديدة فاصلة بين الشرق والغرب، ولا في حرج من ضم الأعضاء السابقين في حلف وارسو، ولا في أي مشكلة من

ضم روسيا نفسها!

يلتسن قال لكلينتون إن ده حل عبقرى، هيعفيه من الحرج من انضمام دول حلف وارسو للناتو، بينما هو متأكد من

انضمام روسيا للتحالف، كلها مسألة وقت مش أكثر.

عايزك تهتمي بنفسك يا زينب عشان جايلنا ضيوف من الناتو انهردا!

ومش بس كده، ده طالب بوضع خاص لروسيا في التحالف باعتبارها دولة نووية، وعضو دائم في مجلس الأمن.

أنا اللواء شوقي يابني!

على آخر الزمن هتوقفوني في الطابور مع دول أنا كنت محتلتها؟

فين أيامك يا ستالين!

يلتسن تحمس لدرجة أنه بدأ يفكر لأول مرة في حدود روسيا الشرقية وليس الغربية.

يا ترى هيعمل أيه مع الصين بعد ما روسيا تنضم للناتو، وتبقى حدودها هي حدود التحالف في أقصى الشرق؟

حالة من اليوفوريا والتعاون غير المسبوق بين دول أوروبا وصلت لدرجة طلب دول محايدة تاريخياً زي سويسرا، ودول

أخرى رفضت الانضمام للئاتو سابقًا خوفًا من إغضاب روسيا، زي السويد وفنلندا، الانضمام للمبادرة!
ولكن من المثير للدهشة أن المعارضة الأكبر للمبادرة كانت داخل أمريكا نفسها.
الصقور في الإدارة الأمريكية شافوها نوع من أنواع المُمابعة، ليه نقدم تنازلات بعد ما أمريكا كسبت الحرب الباردة؟
بدل ما نخاف على زعل روسيا المفروض نخاف على أمن بولندا ودول شرق ووسط أوروبا، ونضمن لهم حرية الانضمام
للحلف العسكري اللي يختاروه.
بينما الجمهوريين اللي شمووا رائحة الدم بعد كشف استطلاعات الرأي عن عدم رضا أغلبية الأمريكيين عن السياسة الخارجية
لكلينتون، طالبوا بفتح باب العضوية للئاتو لكسب أصوات حوالي ٢٠ مليون أمريكي من أصول شرق أوروبية، عايشين في ١٤
ولاية بيشكلوا ٤٠% من أصوات المجمع الانتخابي (99).
في يناير سنة ١٩٩٤، في خطاب رسمي أمام رؤساء الدول الأعضاء في الئاتو، كلينتون عارض فكرة التوسع، وقال لهم هنكسب
إيه من دفع الخط الفاصل بين الشرق والغرب للشرق؟
المشكلة مش في موقع الخط، المشكلة في وجود خط من أساسه.
لو زقينا الخط يمين شوية، أوكرانيا الديمقراطية هتبقى على الجانب الخطأ من الخط.
بالإضافة أن المبادرة سهلت علينا التواصل مع أعضاء حلف وارسو بما فيهم روسيا بشكل غير مسبوق، فاتقوا الله بقی
وخلونا نعرف نشوف شغلنا!
ومكنش يعرف إنه هيغير موقفه ١٨٠ درجة قبل نهاية السنة.
في نوفمبر الحزب الجمهوري كسب انتخابات نصف الفترة، اللي بتحصل بعد الانتخابات الرئاسية بسنتين، وحصل على أغلبية
مجلس النواب، ومجلس الشيوخ، لأول مرة من أيام أيزنهاور.
حزب كلينتون خسر بعد شهر من وفاة والدته، في واحدة من أصعب سنوات حياته، لدرجة إنه قال: «شعرت أني مت بعد
سماع النتيجة!».
لكن الضربة القاضية جت له من روسيا في ديسمبر، بعد قرار يلتسن بغزو الشيشان.

[98](#) Partners for Peace.

[99](#) Electoral college.

حرب الشيشان الأولى

«شيء واحد فقط يصلح في مثل هذه الظروف، وهو الهجوم، يجب أن تضرب أولاً، وأن تضرب بقوة حتى لا يستطيع خصمك الوقوف على قدميه».

فلاديمير بوتين

الشيشان إقليم بأغلبية مسلمة في جنوب روسيا على الحدود مع أذربيجان، دخل في حرب شرسة مع روسيا في القرن الثامن عشر، بقيادة الإمام شامل، أحد أهم القادة العسكريين المسلمين في التاريخ الحديث، اللي وحّد الشيشان، وإقليم داغستان المجاور، وقاوم الجيش الروسي لحد هزيمته في منتصف القرن التاسع عشر، وضم الشيشان، وداغستان إلى الإمبراطورية الروسية الناشئة.

ولكن الاحتلال لا يعني الإخضاع.

الشيشان استمروا في الثورة على الحكم الروسي، واستغلوا الطبيعة الجبلية لصالحهم في مواجهة القوات النظامية، وده خلى مهارة القتال، والشجاعة، وحب الوطن، يُنسَجوا في صميم الثقافة الشيشانية.

في بداية القرن العشرين الإقليم حقق شهرة عالمية بعد كتابة ليو تولستوي عن الثورة الشيشانية في كتابه: الحج مراد. واتشهر أكثر مع بداية القرن الواحد والعشرين بتسمية كريستوفر نولان لأحد رجال العصابة في فيلم The Dark Knight باسم الشيشاني (100).

شهرة أكدها انضمام أبناء الإقليم لقوات النخبة في الجيش الروسي.

هيالقوا أحسن منهم فين؟

شعب يبوصف نفسه بالذئاب، وبيعلم الذكور ضرب النار من وهم مراهقين!

التدريب القتالي، وذكرى الحروب الطويلة، رغم الانضمام للجيش الروسي، حافظوا على الرغبة في الاستقلال، اللي اشتعلت سنة ١٩٤٤ لما ستالين أمر بإخلاء الإقليم عقاباً على هجومهم على الجيش الروسي، وتعاون بعضهم مع الجيش النازي اللي كان في نظرهم محتل ممكن يساعد في التخلص من محتل آخر.

نصف مليون شيشاني تم تهجيرهم قسراً إلى آسيا الوسطى بمنتهى القسوة، فمات ثلث سكان الإقليم اللي مرجعوش غير بعد ١٣ سنة بقرار من خروتشوف بعد وفاة ستالين.

رجعوا لقوا روس قاعدين في بيوتهم، خدوا شواهد قبور أهاليهم بنوا بها حوائط وأرصفة!

الجرح نرف في القلب، وحلم الاستقلال فضل بعيد المنال لحد أوائل التسعينيات.

بوريس يلتسن شجع الحركات المطالبة بالاستقلال عن الاتحاد، زي الشيشان، وتتارستان الغنية بالبترول، وياقوتيا الغنية بالذهب والألماس.

الشيشان اللي تمثل حوالي واحد في المئة من تعداد روسيا، دعمت يلتسن في انقلاب أغسطس سنة ١٩٩١ ولكنها خدت كلامه بجدية، وأعلنت الاستقلال عن الاتحاد السوفيتي في نوفمبر.

ضابط القوات الجوية السابق جوهر دوداييف استغل الفوضى، وأصبح رئيس للإقليم.

يلتسن حاول يبعث قوات عسكرية لفرض السيطرة، ولكن غورباتشوف، القائد الأعلى لجيش الاتحاد، في ظل الصراع بينه وبين يلتسن، رفض.

فيلتسن اكتفى بإرسال مجموعة من قوات الأمن، رجال دوداييف قبضوا عليهم في المطار.

فيلتسن قرر الانسحاب من المواجهة مؤقتاً لحد ما يتفرغ لها.

نخلص من غورباتشوف والاتحاد الأول، وبعد كده نبقى نشوف الشيشان.

وبالفعل لما الاتحاد سقط، ويلتسن أصبح الرجل الأول، قال لهم إيه يا شباب؟
هو أنا أي حاجة أقولها تصدقوها كده؟
الاستقلال ده شو إعلامي، عدة الشغل بتاعة الديمقراطية.
وبعدين أنتم فاكرين نفسكم أوكرانيا؟
أنتم جزء من روسيا لا يمكن التفریط فيه!
كل إقليم يستقل وأقعد أنا أحكم الرحاب!
في فبراير سنة ١٩٩٢ يلتسن حاول يعمل معاهدة فيدرالية تحكم العلاقة بين المركز والأقاليم، فرفضها إقليم الشيشان وتارستان.

هو إحنا خلصنا من الاتحاد الكبير عشان تعمل لنا اتحاد صغير؟
فقال وماله، بلاش معاهدة موحدة، نعمل معاهدة بالتفصيل مع كل إقليم.
تتارستان وقعت على المعاهدة وانتهت بذلك مشكلتها، أما الشيشان فيلتسن قرر يتبع معاهم أسلوب العصا الغليظة، المستخبية.

دوداييف رجل وطني، ولكن حكمه اتسم بالفساد وغياب القانون.
الجريمة زادت، وزاد معاها تجار الحرب (101)، في ظل عدم بناء مستشفى أو مدرسة واحدة.
لما قامت ضده بؤادر ثورة قمعها، ولما البرلمان الشيشاني فكر في سحب الثقة منه، حله.
تدهور الأوضاع الشيشانية سمّح في الأوساط الروسية.
يلتسن قال لا يمكن نتدخل عسكرياً، هيبقى في حمام دم، ومحدث هيسامحنا!
وفي الخفاء خلف قناع الحكمة وحرمة الدم تواصل مع القوات المعارضة لدوداييف، ودعمهم بالمال والسلاح، ووعدهم بمساندتهم بالدبابات والطائرات لعزله من الحكم.
مئات المقاتلين اتحركوا مدعومين ببعض القوات الروسية، ولكنهم فشلوا في التغلب على قوات دوداييف، اللي أسر العساكر الروس وعرضهم بشكل علني في مشهد أخرج يلتسن أمام العالم.
وزير الدفاع الروسي بافيل غراتشوف، اللي رفض الهجوم على المتظاهرين في انقلاب سنة ١٩٩١، والأمريكان حاولوا يرضوه بأي شكل لدرجة إنهم عرفوه على أرنولد شوارزنيجر قبل ما يضرب مبنى البرلمان بالدبابات سنة ١٩٩٣، قال له يا ريس متقلقش!

ياذن الله بليتزكريج (102)؛
العملية كلها محتاجة كتبية واحدة من عندنا، ومش هتاخذ أكثر من ساعتين!
الشعب الشيشاني معانا، لما هيشوفوا العساكر الروس ٧٠% منهم هينضموا لهم، بينما ٣٠% فقط هيقفوا على الحياد.
الهجوم هيركز على احتلال العاصمة غروزني، ولو سقطت العاصمة المقاومة كلها هتسقط معاها.
بعض أعضاء مجلس الأمن القومي اللي شاركوا في الحرب الأفغانية قالوا له ساعتين ده لما تبقى رايح تلعب بلاي ستيشن أنت وأصحابك!
العاصمة لما سقطت في أفغانستان المقاومة مسقطت، كل اللي حصل إنها انتقلت للجبال، ولو ده حصل في الشيشان ساعتها هما اللي هيصطادونا مش العكس!
كلامهم مآقنحش يلتسن رغم إن كل المؤشرات بتقول إن الجيش في أسوأ حالاته.
يلتسن ورث جيش الاتحاد السوفيتي العظيم بس على أصغر، وأفقر.
تقارير عديدة عن شدة معاناة الجنود من الجوع لدرجة أنهم بدأوا يزرعوا أرض مراكز التدريب عشان يلاقوا حاجة

ياكلوها.

قواعد عسكرية بلا تدفئة في برد الشتاء القارس بسبب عدم دفع فواتير الكهرباء.

ضباط من قوات النخبة بيشتغلوا Part-time كقتلة مأجورين لصالح عصابات الجريمة المنظمة، وضباط تانيين غلابة من القوات العادية بيأجروا العساكر بالسخرة في المشاريع اللي محتاجة يد عاملة زي البناء والزراعة عشان يجيبوا دخل للوحدة.

والكارثة الكبرى كانت في تقرير من سيبيريا بيتكلم عن إطعام الجنود علف الحيوانات بعد نفاذ كل المواد الغذائية الأخرى، وتقرير تاني من موسكو بيتكلم عن تسول جنود بعض الوحدات في الشوارع عشان ميموتوش من الجوع!

وزير الدفاع كان على علم بكل المهازل دي لدرجة إنه صرح أمام مجلس النواب الجديد قبل احتداد أزمة الشيشان وقال: لا يوجد جيش في العالم في وضع أسوأ من جيش روسيا!

ولكن سبحان الله نفس الوزير ده، إما بسبب الجهل، أو الغرور، أو الرغبة في التملق والإرضاء، بعدها بشهور قليلة أكد ليلتسن على قدرة الجيش على إسقاط جروزي في ساعتين.

أوقات يُكتم الحق لجور السلطان، وأوقات تانية يُكتم الحق لجور النَّفس.

والنَّفس أمارة بالسوء، ويلتسن أمر بغزو الشيشان في ديسمبر سنة ١٩٩٤.

في غزو عسكري رُوِّج له يلتسن على أنه عملية محدودة ستستمر لأيام أو أسابيع في أقصى تقدير، تم تجهيز قوة من عشرات الآلاف من الجنود، في أكبر تحرك عسكري على أرض روسية منذ الحرب العالمية الثانية.

ولكن من أول يوم للغزو ظهرت الكارثة.

السلاح قديم، والعساكر أغلبهم بيقضوا فترة التجنيد الإجباري وغير مدربين، والآليات صيانتها مهملة بشكل أدى لتوقف ثلث المدرعات وعربات نقل الجنود بعد ما خدوا منها قطع غيار عشان يصلحوا التلتين التانيين!

ولما وصلوا العاصمة، فوجئوا بقوة صغيرة قوامها تسع آلاف مقاتل فقط، أشد من الصخر.

الواحد منهم بألف!

مش بسبب القدرات الخارقة، ولكن بسبب معرفة الأرض، وارتفاع المعنويات بسبب دفاعهم عن الوطن، على عكس بعض الجنود الروس اللي رايعين غصب.

أرتال الدبابات منظرها مربع، ولكنها تفقد قدرتها على المناورة وتصبح هدف سهل في الأزقة والشوارع الضيقة.

الشيشان كانوا بيضربوا أول آلية، وآخر آلية في الرتل عشان يشلوه، وبعدها يصطادوا المنتصف زي العصافير.

صحيح المدرعة بتحمي من الرصاص، ولكنها تحد من مجال الرؤية، فبتخليها عرضة لضربات قاتلة من المسافة صفر.

الشيشان بقيادة رئيس الأركان المتمكن أصلاً مسخادوف، عملوا لهم كماين في كل حته، أول ما الروس يدخلوا شارع يلاقوه حته من جهنم!

قنص وزجاجات مولوتوف من الشبايك، وصواريخ وطلقات من كل جانب.

الجيش الروسي أدرك عدم جدوى الاشتباك عن قرب، فبدأ في قصف المدينة بشكل غاشم.

مدير مركز أبحاث علوم الطيران بيقول إن قادة الجيش استدعوه عشان يسألوه هل ممكن يوجهوا ضربة جوية لمقر دودايف توصل له في مخبئه تحت الأرض.

فقال لهم طبعاً ممكن عن طريق القنابل الذكية فائقة الدقة عالية التركيز.

المفاجأة إن مفيش ولا طائرة مشاركة في الحملة زُوِّدَت بقنابل ذكية؛ لأن الطيارين معندهم خبرة في استخدامها، ففضلوا إلقاء قنابل عادية، غير موجهة، بقوة تدميرية هائلة، أدت للسيطرة على العاصمة جروزي في مايو سنة ١٩٩٥ بعد مساواتها بالأرض، وقتل مائة ألف من المدنيين، وهروب أصلاً وقواته لأعالي الجبال.

يلتسن اشترى بالحرب سمعته كرجل قوي، قادر يحافظ على وحدة الوطن، وسلامة أراضيه، ودفع الثمن خسارة أوروبا إلى

الأبد.

حرب الشيشان أكدت مخاوف دول شرق ووسط أوروبا، الدب الروسي لا يؤمن؛ لأنه قادر على استخدام العنف في أي لحظة!

فرنسا شافت الغزو حركة هواة، تمت ببطش شديد، وغير ضروري.

بينما السفارة الأمريكية في موسكو بعثت برقية لوزارة الخارجية بتقول فيها إن الغزو كشف ضعف روسيا، وأظهر العيوب التراجيدية لأول رئيس منتخب في تاريخها.

في تغيير جذري عن موقفه السابق، كلينتون أعلن إن توسع الناتو وقبول أعضاء جدد أمر حتمي.

أوكرانيا فقدت أهميتها بعد تخليها عن الأسلحة النووية، بينما الناخبين من أصول بولندية أصبحوا أكثر أهمية مع قرب الانتخابات الرئاسية الأمريكية.

وما اتسأل إذا كان هيقدر يقنع يلتسن بعدم معارضة التوسع، بعد إعلانه عن غضبه من تحول الموقف الأمريكي، كلينتون قال الموضوع صعب، ولكن أعتقد إن روسيا ممكن نشترها، وقد كان.

مع بداية سنة ١٩٩٦، شعبية يلتسن كانت في الأرض!

بعد اغتيال دوداييف، مسخادوف قاد جنوده في حرب عصابات أنهكت الجيش الروسي، اللي بعض ضباطه كانوا بيرتكبوا أشبع الفظائع الصباح، ويخافوا يتمشوا في شوارع جروزي بالليل.

بعض الكتّاب في الصحف المعارضة، زي آنا بوليتكوفسكايا، سافروا الشيشان، وشافوا بعينهم المجازر اللي أرتكبت في حق المدنيين.

وشافوا الحالة المزرية للعساكر اللي عانوا من الجوع، وقلة التدريب، وسوء الإدارة.

وكتبوا مقالات عن جنود بيفكوا لمبات النور، وقطع غيار السيارات عشان يشتروا أكل.

وما الوضع ساء زيادة بدأوا في استبدال الأسلحة مقابل الطعام رغم معرفتهم إن السلاح ده هيتقتل بيه زميلهم، لكن هيعملوا إيه، الجوع كافر!

عشرات الآلاف توفوا في هجمات لا تتوقف من الشيشانيين لدرجة خلت عدد كبير من الروس يشكك في الانتصار المزعوم.

نسبة تأييد يلتسن وصلت ل ٣%، بينما رضا الشعب عن الديمقراطية ككل وصل ٧% فقط!

السخط على السلطة ظهر بشكل واضح في الانتخابات التشريعية، اللي فاز فيها الحزب الشيوعي بقيادة غينادي زيوغانوف بالأغلبية، بعد أقل من خمس سنوات على ثورة الشعب على الشيوعية!

رجال الأعمال والسياسيين الجدد حسوا بالذعر!

عودة الشيوعيين إلى السلطة معناها ضياع مكتسبات التحول الديمقراطي، وضياع نفوذهم، وثروتهم اللي جمعوها بسببه، ومش بعيد يدخلوهم السجن أو يقتلوهم!

يلتسن قال الشيوعيين لو كسبو هيعلقونا على العواميد!

فوزهم في الانتخابات التشريعية معناه إن كلها مسألة وقت ويفوزوا في الانتخابات الرئاسية المقرر تنظيمها سنة ١٩٩٦، وساعتها السلطة كلها هتبقى في أيديهم!

لا بد من الفوز بالانتخابات القادمة بأي طريقة، فيلتسن رغم متاعبه الصحية، أعلن رغبته في الترشح لفترة ثانية، طمعًا، أو خوفًا.

المشكلة في غياب الموارد اللازمة لشن حملة انتخابية، أو لعمل أي مبادرة تنموية بوجه عام.

الحكومة مش عارفة تدفع مرتبات الموظفين بسبب عجز الميزانية.

يلتسن طلب مساعدة كلينتون لهزيمة الخطر الشيوعي المترص على الأبواب.

فكلينتون عمل اتصالاته، وساعده في الحصول على قرض بقيمة عشرة مليار ومائتي مليون دولار من صندوق النقد الدولي.

قرض على عكس قروض صندوق النقد الدولي المعتادة، لم يلزمه بأي إصلاحات اقتصادية. يلتسن أصبح فجأة مرشح للرئاسة مدعوم بالإعلام الحكومي، ومعاه في جيبه عشرة مليار دولار يصرفهم زي ما هو عايز! فعمل جولة انتخابية وزع فيها هدايا على الناخبين يمين وشمال، من أول مراكز ثقافية، لحد خطوط تليفونات شخصية في المنازل السكنية. تراييزات بلياردو وبينج من أجل الجميع. فشعبيته بدأت في الصعود ببطء، ولكن بثبات. الرئيس الكريم رزق! ولكن الكرم ده أدى لنفاد الأموال أسرع مما يتخيل. غينادي زيوغانوف مرشح الحزب الشيوعي بيوعد الناخبين بالعودة لماضي مجيد، الاتحاد كان فيه قوة عظمى، بيصنع صواريخ بتطلع القمر، مش بيصنع مجرمين جابوا البلد الأرض. يلتسن كان مستعد يعمل أي حاجة عشان يكسب، حتى لو هيتحالف مع الشيطان. والشيطان في الحالة دي كان لابس بدلة، وبيتكلم إنجليزي. شيطان سعد بسرعة الصاروخ إلى قمة المجتمع الروسي، وأصبح قادرًا على صناعة القياصرة، أو إسقاطهم. شيطان غني، وجذاب، ومتعلم، اسمه الأوليغاري.

[100](#) The Chechen.

[101](#) War lords.

[102](#) الهجوم الصاعق لقوات ألمانيا النازية في الحرب العالمية الثانية

المَلَك الجدد

«كان لينين يهدف إلى إبادة الأثرياء، والثروة نفسها، وإنشاء نظام يحظر مجرد إمكانية أن يصبح المرء ثرياً، أولئك الذين أرادوا كسب المزيد من المال كانوا مساويين للمجرمين العاديين، لقد حان وقت التوقف عن العيش بحسب لينين! إن هدفنا الرئيسي هو الربح، الذي يتم الحصول عليه بطريقة قانونية بحتة، إلها هو المال، فهو وحده القادر على أن يقودنا إلى جعل الثروة أمر معتاد في حياتنا، لقد حان الوقت للتخلي عن المدينة الفاضلة، والاستسلام للعمل الذي سيجعلك ثرياً»
ميخائيل خودوركوفسكي

في محاولة لمساعدة يلتسن في وقف مد الشيوعيين، وفي نفس الوقت الخروج بأكبر مكاسب ممكنة، مجموعة المليارديرات الجدد، أو الأوليغاركي، اقترحوا على يلتسن برنامج اسمه القروض مقابل الأسهم ⁽¹⁰³⁾.

هيسلفوا الحكومة فلوس بضمان أسهم ملكيتها في الشركات العامة.
البنوك هتنظم مزاد علني على أسهم الحكومة، مقابل مبلغ هيعامل معاملة القرض لمدة سنة، وفي نهايتها لو الحكومة دفعته ترجع لها الملكية، ولو مدفعتوش تصبح الأسهم ملك المقرضين.
وهكذا بدأت واحدة من أكبر عمليات الاستيلاء على المال العام في التاريخ الحديث!
البنوك، ورجال الأعمال، والهيئة المسؤولة عن الأصول الحكومية، قسموا التورثة على أنفسهم، لضمان الحصول على أكبر عدد من الأسهم، بأقل سعر ممكن.

شركة نوريلسك الي بنتتج ٢٠% من إنتاج النيكل في العالم، بالإضافة ل ٤٠% من إنتاج البلاتينيوم، اتعرضت في المزاد ب ١٧٠ مليون دولار فقط!
البنك الي يبشرف على عملية البيع اشتراها ب ١٧٠ مليون و ١٠٠ ألف دولار بعد رفض عرض آخر ب ٣٥٥ مليون دولار لأسباب فنية!

بنك يبشرف على البيع، طبيعي إنه لو حب يشارك في المزاد هو الي هيشترى!
أما بوريس بيريزوفسكي استحوذ على حصة مسيطرة من عملاق النفط Sibneft ب ١٠٠ مليون و ٣٠٠ ألف دولار بعد عرضها للبيع ب ١٠٠ مليون دولار، ورفض عرض آخر لشرائها ب ١٧٥ مليون دولار، بحجة عدم صحة التوقيع على خطاب الضمان البنكي!

أما ميخائيل خودوركوفسكي الي عنده ٣٢ سنة استحوذ على ٧٨% من شركة Yukos oil، أحد أكبر شركات البترول في روسيا، مقابل حوالي ٣٠٩ مليون دولار فقط!

في المجمعل الحكومة نجحت في جمع ٨٠٠ مليون دولار مقابل رهن شركات تقدر بمليارات.
المبلغ أصغر من احتياجات روسيا، ومع ذلك الحكومة فشلت في تسديده بعد مرور السنة رغم صغره، فانتقلت ملكية الشركات لمجموعة صغيرة من رجال الأعمال أصبحوا يبتحكموا في نسبة كبيرة من الاقتصاد الروسي، عرفوا باسم الأوليغاركي.
مجموعة ملكت الاقتصاد، وبالتالي تحكمت في السياسة.

فبدأوا في تمويل الأحزاب، ودفعت الرشاوي والتبرعات لأعضاء البرلمان، ولما أدركوا إن مستقبلهم مرتبط ببقاء يلتسن في السلطة، دعموه بمبالغ ضخمة تقدر بحوالي ٢ مليار دولار، وخصصوا قنواتهم وصحفهم الخاصة للإشادة بالفائد وإنجازاته.

ومع ذلك، ورغم كل الدعم ده، الشيوعيين أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من عمل أكبر ريمونتادا في التاريخ!
بعد كل الصرف والدعاية، في نهاية الجولة الأولى يلتسن حصل على ٣٦% من الأصوات، مقابل ٣٢% لزيوغانوف، بينما بطل الحرب الأفغانية، الجنرال ألكسندر لبييد، أنهى الجولة في المركز الثالث بحوالي ١٥% من الأصوات.

رقم ضئيل بالنسبة لعدد المخالفات، وشكاوى التلاعب والتزوير!

ما هو مينفعش التقديرات تشير لبقاء نصف مليون شخص في الشيشان بعد القصف، وعدد أصوات الناخبين يكون مليون شخص، ٧٠% منهم ليلتسن، اللي الجولة الثانية بينه وبين لبييد أصعب، وأخطر! في حركة شطرنج بائسة ولكن ناجحة، يلتسن عين لبييد رئيس لمجلس الأمن القومي، وتحالف معاه، فكسب مؤيديه، وفاز بالجولة الثانية والأخيرة بعد حصوله على ٥٤% من الأصوات، مقابل ٤١% فقط لزيوغانوف. يلتسن ضمن استمراره كالرجل الأول لأربع سنوات قادمة، في دولة كان بيحكمها الحزب الشيوعي، وأصبح يحكمها الأغنياء، ولكنه ملحقش يفرح بالانتصار. قبل تنصيبه كرئيس جمهورية لفترة ثانية، قوات أصلان مسخادوف شنت هجوم مباغت على القوات الروسية في الشيشان، ونجحت في استعادة العاصمة جروزني! من ساعة زيادة القصف الجوي والمدفعي معدل الهجمات على القوات الروسية قل، بينما مؤشرات الفساد داخل قيادته زادت.

الصحفي ديميتري خولودوف اتهم وزير الدفاع باختلاس أموال وزارة الدفاع. غراتشوف سمعته ساءت لدرجة إنه بدأ يعرف بين الضباط باسم باشا مرسيدس، كناية عن سيارته الفارهة اللي اشتراهم من الفلوس اللي دفعتها ألمانيا للمساهمة في جلاء الجنود من ألمانيا الشرقية. في أحد الأيام خولودوف لقي حد مجهول بيكلمه وبيقول له إنه ساب له شنطة أدلة تهمه في محطة القطر، فراح خدها ورجع المكتب وأول ما فتحها الشنطة انفجرت في وشه، وقتلته. بعدها بسنين غراتشوف اعترف إنه طلب من أحد مرئوسيه التعامل مع خولودوف اللي وصفه بعدو الوطن في الداخل، وقال إنه كان فاكهه مجرد هيكسر رجليه مش هيفجره! وطبعًا لم يحاكم، والقضية لم تحل حتى يومنا هذا. بينما في الشيشان بعد اغتيال دوداييف، يلتسن زار القوات في شهر مايو وقال لهم الحرب انتهت، لقد انتصرتم! أدي آخرة البر!

وأمر بعودة عدد كبير من الجنود، على أن تبقى بعض القوات الخفيفة للأمن والنظام. أصلان مسخادوف كان عارف إنه مش هيهزم الاحتلال بالقوة، ولكن بالسياسة. كل الحروب بالنسبة له في نهاية المطاف أفعال سياسية. وعشان يعرف يتفاوض، لازم يعمل حدث درامي مززل، يجبر روسيا على العودة لطاولة المفاوضات، ومفيش حاجة درامية أكثر من استعادة العاصمة ليلة تنصيب الرئيس. مجموعة من ١٥٠٠ مقاتل تسللوا لجروزني في مجموعات صغيرة من ٢٥ فرد، واستغلوا عدم جرأة العساكر الروس على الوقوف في كمائن بعد المغرب، وشنوا هجوم غير متوقع، أدى لتحقيق نصر حاسم، وسريع، في منتهى الإحراج ليلتسن، اللي مبقاش عارف هيلاقها منين ولا منين. لبييد رافض للحرب الشيشانية من البداية، وشايف إن الحل في التفاوض، والأهم إنه اشترط على يلتسن تغيير وزير الدفاع للانضمام لحملة.

فسمع كلامه ورفد غراتشوف، ولكنه عينه كمستشار للشركة الروسية لتصدير الأسلحة مكافأة على الولاء طوال السنين اللي فاتت، طبقًا لمدرسة شهيرة في العلوم السياسية اسمها خد شلوت لقوق! يلتسن وكُل لبييد لحل الأزمة، فبدأ في التواصل مع مسخادوف، ونجحوا في توقيع اتفاقية خاسافيورت في أغسطس سنة ١٩٩٦.

الاتفاقية لم تشمل أي بنود حول وضع الشيشان الدستوري، لكنها ضمنت الحكم الذاتي للإقليم طول ما هيفضل جزء من روسيا.

أنتم متخرجوناش، وأنتم متغزوناش!
الاتفاقية شملت بذور اختلافات مستقبلية بسبب عدم الوضوح، ولكنها مع ذلك أنهت الأزمة، وحققت الدماء بسبب بعدها
عن مناقشة الاختلافات، طبقاً لمدرسة شهيرة في التفاوض أطلق عليها هنري كيسنجر اسم الغموض البناء⁽¹⁰⁴⁾.
نتفق دلوقتي، ونختلف بعدين!
وفي حالة الشيشان، الخلاف حصل أسرع مما كانوا يتخيلوا.
ولكن كل ده مشغلش بال يلتسن، اللي يوم ٥ نوفمبر توقف قلبه عن النبض لمدة ٦٨ دقيقة!

¹⁰³ Loans for shares.

¹⁰⁴ Constructive ambiguity.

إنها حقاً عائلة محترمة

«أجهزة الأمن دائماً في خدمة الماضي، مهمتهم الرئيسية هي وقف مرور الوقت، إنهم يبحثون باستمرار عن علامات كل ما هو جديد لأن المستقبل يسبقهم، وضدهم. إنهم يفعلون كل ما في وسعهم لمنع إلغائهم».

الشاعر ديمتري بيكوف

أثناء الحملة الانتخابية، يلتسن أصيب بأزمة قلبية، مش مرة واحدة، مرتين!

يمكن بسبب الضغط، ويمكن بسبب تقدم العمر، أو أسلوب الحياة غير الصحي.

يلتسن كان يشرب طول الوقت إما بسبب الاكتئاب، أو بسبب الألم.

وبما أن ضعف صحته كان كفيف بالقضاء على الحملة، تظاهر بالقوة أمام الإعلام، ولكنه مقدرش يتظاهر لفترة طويلة.

بعد ما استجمع كل ما تبقى له من قوة لحضور حفل التنصيب، خضع لعملية قلب طويلة في أمريكا استمرت سبع ساعات، الدكاترة ركبوا له فيها عدة دعائم لفتح شرايينه التاجية.

لما رجع روسيا كان ضعيف، وموسوس.

الضعف دائماً مبيجيش لوحده، بيحجب معاه عزلة، وشك.

المستشار الألماني هيلموت كول حكى لكلينتون إنه لما زاره قبل العملية في استراحة تبعد عن موسكو حوالي ١٠٠ ميل، رفض يتكلم في وجود مساعديه، وطلع الناس كلها من الأوضة ما عدا المترجم!

وده معناه عدم ثقته في أقرب الناس له!

كول بيحكى إنه له حق ميثقش في حد؛ لأنه من الواضح أن أوامره لم تعد نافذة.

وقال لكلينتون إنه أثناء حرب الشيشان طلب منه يوقف القصف الجوي، فافتتح ووقفه بالفعل، قبل ما يتفاجئ بعودته بعد أقل من ٢٤ ساعة، في علامة على فقدانه السيطرة على قادة الجيش.

الضعف ده خلى كول وكلينتون عازمين على توسع الناتو بأقصى سرعة قبل ما يلتسن يُعزل، أو يتوفى؛ لأن محدش عارف اللي هيبجي بعده هيعمل إيه.

الحي أبقى من الميت، ويلتسن في حكم الموتى!

المشكلة إن حاشيته المقربة، المعروفة باسم العائلة (1٥5)، والمكونة من بنته تاتيانا، وزوجها، ومجموعة من رجال الأعمال على رأسهم بوريس بيريزوفسكي، عارفين إنه لو حصل له حاجة، كلهم هيروحوا في داهية!

القروش تحوم حول كرسي الرئاسة أول ما تشم رائحة الدم، والمنافسين بدأوا في الصراع على التورثة من قبل ما تطبخ! الخطر تعدى الشيوعيين، ووصل لرجال الدولة.

مجموعة من المحافظين دعموا رئيس وزرائه السابق الطامح في الرئاسة، ووقعوا على بيان يطالب يلتسن بالاستقالة.

بينما النائب العام فتح تحقيق في إعطاء شركة مسئولة عن تجديد الكرملين رشاوي للعائلة، المحققين اقتحموا مقر الشركة في سويسرا، وأصبحوا على وشك عمل فضيحة مدوية، هتنتهي بالسجن المؤكد فور خروج يلتسن من القصر.

فبدأوا التفكير في خليفة اللي يضمن لهم الحماية، وقاد عملية البحث بوريس بيريزوفسكي.

بيريزوفسكي يهودي حاصل على الدكتوراة في الرياضيات.

مخه كبير، وطموحه أكبر.

فتح شركة استيراد وتصدير عربيات، تحولت لعملاق روسي بافتتاح سلسلة مراكز صيانة.

ومن العربيات دخل على البنوك، والبترو، والإعلام بحصوله على نسبة في القناة الأولى الحكومية، وهي الأعلى مشاهدة في روسيا.

زيه زي غيره من الأوليغاركي بيحب الفلوس زي عينيه، ولكنه بيحب يلعب سياسة، وبيشوف نفسه King Maker أو صانع الملك اللي بيتحكم في الخيوط من وراء الستار.
كمكافأة على دوره في الحملة الانتخابية يلتسن عينه نائب سكرتير مجلس الأمن القومي.
منصب ممكن يكون شرفي لكن بيريزوفسكي حوله لمنصب فعال بانغماسه في مفاوضات إنهاء حرب الشيشان.
ولكن مهمته الحالية أصعب من أي مهمة سابقة.
مين يقدر يضمن حماية يلتسن؟
والسؤال الأهم هو مين يقدر يحكم روسيا؟
ومكنش يتخيل إن البحث هينتهي بضابط سابق في الكي جي بي، اسمه فلاديمير بوتين.

الصعود إلى الهاوية

«بوتين في كل مكان، بوتين هو كل شيء»، بوتين مطلق،

بوتين لا غنى عنه».

ألكسندر دوغين

بيريزوفسكي قابل بوتين لأول مرة في لينينغراد وهو يقدم على ترخيص لفتح مركز صيانة.

وترخيص في اللغة الحكومية يعني رشاوي.

بيريزوفسكي عرض على بوتين رشوة، واتصدم لما رفضها!

واتصدم أكثر لما لقي مكتبه مفتوح للجميع، ولما سأله عن سر استعداده لمساعدة اللي يعرفه واللي معرفوش، قال له

محدث عارف اللي قدامه ده ممكن بكرة يبقى إيه!

فعلم في دماغه، وبدأ يزوره كل ما يكون في لينينغراد.

موظف صغير أه، يا دوب نائب عمدة وهو متعود يقعد مع رؤساء، ولكنه شخصية فريدة، ممكن يحتاج لها في المستقبل،

والمستقبل عادة بييجي أسرع مما نتخيل!

المشكلة إن سوبتشاك، وهو الرجل الأول في لينينغراد، عايش في الماضي.

معتمد على ماضيه الثوري ومواقفه السابقة، ومش مدرك إنهم وقود بيتحرق مع الوقت، ويتنسى مع الخذلان.

زيه زي يلتسن، ديمقراطي المظهر، ديكتاتوري الهوى.

خلال أزمة سنة ١٩٩٣ سوبتشاك ومعاه بوتين دعموا يلتسن على طول الخط؛ لأنهم عارفين إن النار تنتشر بسرعة فائقة،

مستنوش خروج المظاهرات في لينينغراد، وأمروا الأجهزة الأمنية بالقبض على مثيري الشغب في ضربة استباقية مكنتهم من

منع وصول الحالة الثورية للمدينة، وأكدت لبوتين أهمية الأجهزة الأمنية حتى في ظل الأنظمة الديمقراطية.

سوبتشاك حكم لينينغراد بنفس طريقة حكم يلتسن لروسيا.

حكم فردي يرى مراقبة المجلس التشريعي تضيع للوقت والجهد لا فائدة منه.

لما اشتكوا له من بوتين بسبب أزمة الغذاء في أوائل التسعينيات، أقنع يلتسن بحل المجلس وعدم انتخاب مجلس آخر لمدة

سنة كاملة عمل فيها كل اللي هو عايزه بدون أي مساءلة.

المشكلة إنه مقتنع بالديمقراطية بشكل نظري، ولكنه من داخله يمقتها، ويعمل على إضعافها بشكل عملي.

ولكن المشكلة الأكبر إنه شايف نفسه شخصية عالمية، كلها كام سنة ويتولى رئاسة إحدى أهم وأقوى الدول في العالم؛ ولذلك

مينفعلش يقضي وقته في حل مشاكل بسيطة زي التضخم والفقر والبطالة وما إلى ذلك، أو الدخول في صراعات تافهة مع

مجلس المدينة.

وما إنه بيحلم بتحويل لينينغراد لمركز تجاري عالمي، ومدينة سياحية على أعلى مستوى، محتاج يجذب مستثمرين، ويعرف

أحدث ما توصل إليه العالم، ويبني شبكة علاقات تنفعه في المستقبل.

فسافر على الأقل مرتين كل شهر، قابل فيهم مجموعة من القادة المنتشين بتخلص روسيا من الشيوعية، والدخول في أحضان

الرأسمالية.

منهم بيل كلينتون، ورئيس الوزراء البريطاني جون ماجور، والمستشار الألماني هيلموت كول، وبحث معهم سبل تحويل

مصانع الأسلحة الخاصة بوزارة الدفاع لهيئات هادفة للربح.

بوتين كان شريك دائم في الرحلات الخارجية، ومسئول عن استقبال الشخصيات المهمة في لينينغراد، ومن ضمنهم وزير

الخارجية السابق هنري كيسنجر، اللي لما سأله عن تاريخه رد عليه بخجل وقال له إنه كان ضابط في الكي جي بي، فكيسنجر

قال له ولا يهملك! ارفع راسك فوق، كل الرجال المحترمين بدأوا من المخبرات بما فيهم أنا شخصياً!
وهما إنه يعتبر نفسه زعيم عالمي، أعلن تنظيم ألعاب النوايا الحسنة أو Goodwill games سنة ١٩٩٤، ورغبته في استضافة
أولمبياد سنة ٢٠٠٤.

بيفكرني بسؤال شايف نفسك فين كمان خمس سنين؟
طب افضلوا فاتحين أنتم كمان خمس سنين وبعد كده نبقى نشوف!
بعد مقاطعة أمريكا لأولمبياد موسكو سنة ١٩٨٠ اعتراضاً على غزو الاتحاد السوفيتي لأفغانستان، الاتحاد وحلفاؤه قاطعوا
أولمبياد سنة ١٩٨٤ في لوس أنجلوس.
المنتج التلفزيوني تيد تيرنر زوج الممثلة جين فوندا أسس ألعاب النوايا الحسنة كنسخة مصغرة من الأولمبياد، هدفها تحسين
العلاقات بين البلدين عن طريق الرياضة.
ألعاب سنة ١٩٨٦ أقيمت في روسيا، وسنة ١٩٩٠ أقيمت في أمريكا، وسوبتشاك نجح في الفوز بتنظيمها في لينينغراد سنة
١٩٩٤.

وطبعاً الألعاب دي مش ببلاش!
وهما إن مفيش بند مخصص في الميزانية لتمويلها، خد من ميزانية تشغيل وصيانة المترو، وبدأ حملة نظافة شاملة لكل
شوارع ومباني المدينة، لإظهارها في أحسن شكل أمام الأجانب.
حوالي ٧٠ مليون دولار اتصرفوا على سفلة الشوارع، ودهان واجهات المباني، وتزيين المعالم الأثرية، وتجهيز الملاعب، في وقت
ثلاث أرباع سكان المدينة عايشين تحت خط الفقر!
صحيح عدد البضائع زاد، لكن عدد اللي يقدروا يشتروها قل.
مليون شخص من ضمن تعداد خمسة مليون كانوا شغالين في مصانع وزارة الدفاع، اللي بعد انهيار الاتحاد بعضها انكمش،
وبعضها وقف تماماً.

والنتيجة إن جهود سوبتشاك، رغم طموحه، باءت بالفشل، والمدينة حالها تحول من سيئ لأسوأ.
الكازينوهات هربت الأرباح، وأعلنت عن تكبدها خسائر ضخمة للتهرب من دفع الضرائب، أما الألعاب الرياضية فكانت
كارثة لوجيستية.

حمام السباحة ملوث، أما الإستاد المغطى اللي بيتلعب فيه الرياضات الشتوية زي هوكي الجليد، الثلج اللي فيه ملحش
يسقع، زي الفريزر كده لما تسيب بابه مفتوح، الثلج متعملش.

سلسلة من المشاكل التنظيمية أثبتت عدم استعداد المدينة لاستضافة دورة رمضانية مش ألعاب أولمبية!
العمدة فشل في كسب احترام الرأي العام العالمي، وفي نفس الوقت فشل في الاحتفاظ بثقة الرأي العام المحلي.
خاصة في ظل أبناء عن قيامه بالتجسس على مكاتب الصحفيين والسياسيين بما فيهم أعضاء جهازه المعاون في حكومة
المدينة!

سكان لينينغراد مفرقش معاهم دهان المباني في وقت عانوا فيه من معدلات غلاء، وبطالة، وجريمة غير مسبوقة.
هو شايف نفسه باراك أوباما، والناس شايفاه كابتن رضا عبد العال، وسنة ١٩٩٦ قرروا يعبروا عن شعورهم في الصناديق.
في انتخابات اختيار محافظ لينينغراد، سوبتشاك كان مقتنع إنه هيفوز بكل سهولة.
الراجل واثق إن كلها كام سنة وهيبقى رئيس روسيا كلها مش مجرد مدينة.
تاريخه النضالي كفيلاً لإعادة انتخابه، ودعمه السابق ليلتسن معناه إنه نازل الانتخابات وفي ظهره الكرملين، وزى ما المثل
بيقول:

اللي معاه الكرملين ميتضربش على بطنه!
ولكنه فوجئ بعدة مفاجآت، الأولى هي قصر ذاكرة الناخبين!

أحد البرامج الشهيرة استضافت سوبتشاك، وأعلنوا على الهواء عن استطلاع رأي يقول إن شعبيته لا تتعدى الـ ٦%!
العمدة الديمقراطي انفعل وساب الأستوديو في نصف المقابلة، وتاني يوم فريق عمل البرنامج فوجئ بإزالة البرنامج من التلفزيون!

ولما المنتج فكر يعمل مؤتمر صحفي لفضح الظلم، جت له مكاملة تهديد واضحة وصريحة: خاف على بنتك!
سوبتشاك مصدقش النسبة القليلة، فيما يدل على عدم تلقيه معلومات صادقة من معاونيه.
السياسات القمعية من الأعلى تؤدي إلى تقارير كاذبة من الأسفل!
ولكن الأرقام منطقية، الاقتصاد منهار، والسياسة فردية.
معلش يعني، ما هي لو بالتاريخ مكنش تشرشل خسر الانتخابات سنة ١٩٤٥ بعد الفوز بالحرب العالمية الثانية.
المفاجأة الثانية والأكبر كانت تخلي حليفه الأهم، بوريس يلتسن عنه، ودعمه لأحد نوابه السابقين، فلاديمير ياكوفليف، اللي قرر ينافسه.

صعود نجم سوبتشاك كان خطر يلتسن قرر التخلص منه.
لا هتبقى رئيس روسيا، ولا رئيس نادي الزمالك!
ولكن سوبتشاك لم يستسلم، وعين بوتين مديراً لحملة الانتخابية، اللي أطلق على المنافس لقب السباك.
مهمته الأولى كانت جمع تبرعات للحملة.
حملة ياكوفليف تلقت دعم كبير من موسكو، والوضع أصبح في منتهى الخطورة.
بوتين قرر يلجأ لسلاحه السري، اللي بيحضره بقاله سنين طويلة:
رجال الأعمال.

من بعد أزمة الغذاء، بوتين عين فيكتور زوبكوف كنائب له وده الشخص اللي كان أنقذه في أزمة الغذاء وعرفه على شبكة المورددين، ومن بعدها تولى مصلحة الضرائب في لينينغراد، رغم خلفيته الزراعية، ولكن كما هو معتاد الولاء أهم من الكفاءة.

والحقيقة إن أحياناً مجرد الأمانة، مع الوقت والتدريب، تؤدي للكفاءة.
بوتين تعاون مع صديقه، اللي أنقذ لينينغراد من مجاعة محققة، لعمل قاعدة بيانات لجميع الشركات العاملين في لينينغراد.
فعملوا ليستة أقوى من ليست فرق السيلز في شركات التسويق العقاري.
قاعدة بيانات الهدف منها ليس إجبارهم على اتباع القانون، ولكن استخدامها كورقة ضغط عند اللزوم، في حالة عدم اتباعهم القانون.

خلاصة سنين عمله في الكي جي بي يمكن تلخيصها في جملة واحدة: المعلومات قوة. (106).

زي ما قال الراحل بيتر بيليش، المعروف باسم الإصبع الصغير (107)، في مسلسل لعبة العروش (108).
بوتين أجبر كل الشركات لتسجيل بياناتها المالية في إدارة العلاقات الخارجية اللي يرأسها في مكتب العمدة، وعلى مدار السنوات بقى كاشف بطن المدينة الاقتصادي، رغم عدم الإبلاغ عن الجرائم اللي من أشهرها حالات التهرب من الضرائب.
ولكن مع قرب موعد الانتخابات، حان الوقت لاستغلال جبال المعلومات.
بوتين عمل اجتماع عزم فيه كبار رجال أعمال لينينغراد، وأوليغاري الغلابة، وطلب منهم دعم حملة سوبتشاك، زي ما جهاز المدينة وقف جنبهم، ولم يبخل عليهم بالدعم أو التراخيص.

رجال الأعمال رفضوا!

نراهن ليه على حسان خسران؟

بوتين أخرج بشدة، السمك اللي كان محتاجنا وهو صغير، كبروا وبقوا حيتان!

ولكن مش مشكلة، نسيبنا من الحيتان والقروش، ونركز مع السمك البلطي.
فعمل اجتماع آخر لأصحاب الشركات المتوسطة والصغيرة.
انزل يا ابني لملي العيال اللي في الرايز أب دول كلهم!
ولكن حتى دول مدفوش!
المفاجأة الكبرى بالنسبة له مصدرها كان أحد رجال المافيا.
الراجل بيدعم سوبتشاك، وتمرت فيه العشرة، فنظم اجتماع لنفس أصحاب الشركات الصغيرة والمتوسطة اللي رفضوا الدفع لبوتين، وخلي كل واحد فيهم يدفع ألفين دولار لدعم الحملة وهو ساكت!
بوتين اتعلم درس خطير:

القوة مش في المعلومات لأ، ده زي ما قالت سيرسي، القوة في القوة (109).
ولكن لا أحد يستطيع الاحتفاظ بالقوة إلى الأبد.
الشعب قال كلمته، والعمدة خسر الانتخابات.
وواضح إن المدينة محتاجة سباك أكثر من حاجتها لخبير في العلاقات الخارجية، في وقت شهد تدهور في الخدمات العامة وصل لدرجة تلوث مياه الشرب.
فخرج سوبتشاك من السلطة، وخادمه الوفي أصبح في الشارع بلا مستقبل أو وظيفة!
بوتين رفض الانضمام لفريق العمدة الجديد وفاءً للعمدة القديم.
فكر يفتح مكتب محاماة ويستغل شهادته، المشكلة إنه عمره ما أشتغل محامي، والمكتب هيجتاج سنين لحد ما يقف على رجليه.
بعد ما كان من أهم رجال المدينة أصبح ملوش مكان، لدرجة إنه فكر يشتغل مدرب جودو لكن مدربه أفنعه أن مكانته أكبر من الشغلانة دي.
لكنه مع الوقت فقد رفاهية الاختيار، محتاج شغلانة يصرف منها على نفسه وأسرته.
المشكلة إنه بيدور على شغل في وقت بيعاني فيه الشعب الروسي من زيادة معدلات البطالة.
الاتحاد السوفيتي رغم كل عيوبه لم يعرف البطالة مسبقاً.
البلد مفيهاش شغل، ومفيهاش فلوس، لدرجة أدت لانتشار الفساد في كل مكان.
الدولة أصبحت مجرد واجهة هشة، غير قادرة على تنفيذ القوانين، أو تقديم الخدمات.
في أحد الأيام وهو قاعد مع أسرته في بيت صيفي على إحدى البحيرات بجوار موسكو حصل ماس كهربائي ضخم أدى لحريق كبير.

عربية المطافي لما وصلت قالوا له معلش هنستنى لما الحريقة تهدى لأن العربية مفيهاش مياه!
بوتين قال لهم إحنا هنستنى لما البيت كله يولع؟ ما تمّلوا مياه من البحيرة!
فقالوا له ما هي دي المشكلة، معناش خرطوم!
طب مش كنتم كلمتوني وقتلتوا لي معلش في التليفون بدل ما تعبتوا نفسكم وجيتوا!
وفي وسط كل ده مكنش يعرف إنه على وشك تلقي مكاملة تليفون هتغير حياته!
أنا تولى تشوبايس أستاذ اقتصاد، وأحد أهم مهندسي برنامج الخصخصة في بداية التسعينيات.
عمل كمستشار اقتصادي لسوبتشاك قبل ما يلتحق بفريق يلتسن في الكرملين.
وهناك تعرض لانتقادات حادة بسبب فشل برنامج الخصخصة في إصلاح الاقتصاد ورفع مستوى معيشة المواطنين، بشكل أجبر يلتسن على إقالته من منصبه كنائب رئيس الوزراء، قبل ما يرجع يستعين به مرة ثانية سنة ١٩٩٥ لإنقاذ ما يمكن

إنقاذه.

فأسهم في تصميم برنامج القروض مقابل الأسهم، فكسب ثقة الأوليغاركي اللي طلبوا منه تولي رئاسة الحملة الانتخابية الثانية لبوريس يلتسن.

ما إحنا مدفعاش الفلوس دي كلها عشان نخسر!

دي مش انتخابات نادي الصيد!

وبعد فوز يلتسن تم تعيينه كرئيس للديوان الرئاسي (110)، لاستكمال إصلاحاته الاقتصادية.

وبما إنه العدو الأول لناس كثير شايفينه السبب الرئيسي في تدهور الاقتصاد، وبما إنه لا يحظى بثقة النواب أو الساسة، محتاج فريق معاون يثق فيه، والثقة عنوانها لينينغراد مصنع الرجال.

تشوبايس استعان بأليكسي كودرين، نائب العمدة للشئون المالية، وعينه كرئيس لجنة المراقبة المالية، جهة شبه هيئة الرقابة الإدارية، هدفها مكافحة الفساد من الداخل.

وعشان أليكسي يعرف يشوف شغله، لازم يكون مدعوم من هيئة الأصول الرئاسية المسئولية عن إدارة المنشآت المملوكة للدولة.

مش هنكشف التلاعب والتربح من الأصول غير لو ضامنين إدارة الأصول، فقرروا يستعينوا بنائب العمدة الثاني المسئول عن الشئون الخارجية، والاقتصادية، فلاديمير بوتين.

وهكذا، بسبب الثقة وليس الكفاءة، تم إحياء مستقبله السياسي من أول وجديد.

الكرملين يمكن النظر إليه كشركة عملاقة.

يملك مجموعة من الأصول المتنوعة زي الأراضي، والعقارات، والسفن، والطائرات، والمناجم، والشركات، بالإضافة لعدد من الحسابات البنكية بالخارج تقدر قيمتها بحوالي ٦٠٠ مليار دولار.

كل الأصول دي بدأت في الضياع بعد سقوط الاتحاد السوفيتي.

بعضها بسبب استحواذ حكومات الدول المستقلة حديثاً عليها، وبعضها بسبب سرقة القائمين عليها، عن طريق شبكة من الشركات الوهمية والمعاملات التجارية الزائفة.

تشوبايس مؤمن بالاقتصاد الحر، ومدرك لحدوث أخطاء في بداية التحول، ولكنه عازم على تصحيحها عن طريق محاربة الفساد.

وبوتين بعد العمل لمدة سبع شهور في إدارة الأصول، وبسبب اندفاع يلتسن اللي بدأت تظهر عليه أعراض البارانونيا وعدم الثقة، في الرfid والتعيين، تم تعيين أليكسي كودرين كنائب لوزير المالية، فحل محله بوتين في وظيفته السابقة، وأصبح مسئول عن جهاز الرقابة الإدارية.

مكتبه يتبع الرئيس مباشرة، وهدفه مراقبة، ومراجعة الجهاز الإداري لمكافحة الفساد، وحماية المال العام.

فأظهر كفاءة كعادته، وقدر يكشف قضايا فساد أدانت حوالي ٤٥٠ مسئول حكومي، فسمعته انتشرت كموظف شريف، ويعتمد عليه.

والحقيقة أن قوته الخارقة كانت في البعد عن المعارك السياسية، اللي تسببت في ضياع مستقبل كثيرين، سطوع نجمهم غرهم، فاتحرقوا بدري، وقعدوا في البيت.

ده بالإضافة إلى سعيه الدائم لإرضاء مديره.

مبيعملش مشاكل.

بيكشف الفساد، ويحول القضية لرئيس الوزراء، وهو حر بقى يحفظها أو يحولها للتحقيق.

وده أسهم في بعده عن الأضواء، وزيادة ثقة مديرينه لأنه على عكس ما جرت العادة في الكرملين، بيقوم بشغله من غير

دوشة، ومن غير ما يحاول يتسلق أو ينافسهم على مواقعهم. ميزة تخلي مديره يثق فيه، ويحتاجه أكثر من كتر ما بيعتمد عليه. ولكن مفيش حد كان محتاجه في الوقت ده أكثر من سوبتشاك. بعد خسارته للانتخابات سوبتشاك بقى منبوذ في الداخل والخارج. تصريحاته الصحفية، وهجومه المستمر على السياسيين خلوه يخسر حلفائه، خاصة بعد خروجه من السلطة، وفقده للحماية.

فواجه حملة شديدة بتتهمه بالفساد، والتربح من منصبه انتهت بالقبض عليه. ولكن أول ما دخل القسم قال إن صدره بيوجعه، وطلب يروح المستشفى لأنه يعاني من أزمة قلبية! لمدة شهر كامل سوبتشاك فضل في المستشفى بانتظار التحاليل الطبية. بوتين عرف اللي حصل لمديره، ومعلمه السابق، وراح زاره في المستشفى. وبعد أربع أيام، في ٧ نوفمبر، وهو أجازة رسمية في روسيا، والعيد السابق للثورة البلشفية بعد تغيير النتيجة الروسية لتوافق مع النتيجة الغربية، بوتين عمل اللي محدش يتخيله! باستخدام شبكة علاقاته الأمنية الواسعة، تم نقل سوبتشاك للمستشفى العسكري، ومن هناك طلع على المطار في عربية إسعاف وصلته لحد باب طائرة إخلاء طبي فنلندية، أجرها بوتين بنفسه. سوبتشاك اللي معداش على أمن أو جوازات ركب الطائرة وطلع على باريس في عملية هروب سينمائية، لولاها كان زمانه في السجن!

محدش اكتشف هروب سوبتشاك غير بعدها بثلاث أيام، فالخبر انتشر في الجرائد، ودور بوتين اتعرف. في دولة قانون كان المفروض يعاقب بالسجن، ولكن في دولة تعيش فترة أشبه بأفلام رعاة البقر، حيث القانون الوحيد للقوة، والفضيلة الغائبة هي الولاء، بوتين اتشهر كشخص شديد الوفاء، ومفيش حد كان بيقدّر الوفاء في الوقت ده أكثر من بوريس يلتسن.

الأزمة الاقتصادية اللي واجهت مجموعة من الدول الآسيوية سنة ١٩٩٧ تسببت في ركود اقتصادي أثر على أسعار البترول. البرميل تكلفة إنتاجه أصبحت أعلى من سعره، والاحتياطي النقدي انخفض بدرجة مرعبة. أما من الناحية السياسية فنواب البرلمان تحدوا يلتسن بشكل علني، وبدأوا في الاستعداد للتصويت على عزله، خاصة بعد الفشل العسكري في الشيشان.

المعاهدة كانت بصقة في وجه شعب منهك شاف بلده بتنهار اقتصاديًا، وسياسيًا، وعسكريًا. يلتسن خاف في وسط كل ده يحصل انقلاب عليه من أجهزة الأمن زي ما حصل سنة ١٩٩١. ولذلك محتاج شخص يثق فيه يضعه على رأس الجهاز، والشخص ده كان فلاديمير بوتين. أثناء عمل بوتين في الرقابة الإدارية، لفت انتباه يلتسن دقة ووضوح تقاريره. إلى جانب أنه على عكس باقي الموظفين اللي بيحاولوا يتقربوا منه لاستغلال مناصبهم، بوتين محاولش يقرب منه على الإطلاق.

العلاقة بينهم مجرد علاقة عمل بين رئيس ومرئوس. يلتسن اللي بينفر من التملق، والنفاق، كان هو اللي بيحاول يتكلم معاه من كتر ما هو قليل الكلام. وبعد ما شاف عملية تهريبه لمديره السابق، لم يهتم بعدم قانونيتها، وانبهر بشجاعته، وكفاءته في تنفيذها، وواتأكد أن الشخص ده جدير بالثقة، فعينه كرئيس لجهاز الإف إس بي، آخر تحديث (111). لجهاز ال كي جي بي. فأصبح رئيس جهاز كان بيحلم بالانضمام له من طفولته، فزاد من ولائه لمديره، رغم إن مديره كان على وشك السقوط.

مع بداية عام ١٩٩٩ النائب العام فتح تحقيق في اتهامات تخص يلتسن وعائلته.
الرئيس العجوز اللي بقى أغلب وقته عيان أو سكران حس إن الجبل بيلف حوالين رقبته.
الانتخابات فاضل عليها سنة ونصف، صحيح ممكن يترشح لفترة رئاسية ثالثة علمًا بأن الأولى كانت قبل الاستفتاء على الدستور اللي بينص على عدم الترشح لأكثر من فترتين، صحته ضعفت، ومبقاش قادر يستمر.
المشكلة أن البرلمان اللي فاز فيه الشيوعيين بالأغلبية أصبح خارج سيطرة الكرملين، والتحقيقات اللي فتحها النائب العام ممكن تؤدى لسجنه بعد خروجه من الرئاسة مباشرة!
فبقى عنده هدفين غاية في الأهمية:
الأول هو إقناع النائب العام بوقف التحقيقات، والثاني هو العمل على اختيار رئيس قادم يدين له بالولاء، ويضمن له الحماية.

المشكلة أن النائب العام رافض لأي تفاوض، ومصمم على الاستمرار.
ومكنش يعرف تكلفة ملاحقة رئيس يتمتع بحماية الأمن.
في إحدى ليالي شهر مارس سنة ١٩٩٩ التلفزيون الحكومي الروسي عرض شريط تسجيل لرجل معاه سيدتين في أوضاع مخلة.
الرجل ده اتضح أنه النائب العام!
الشريط اللي اتسجل، واتبعت للفتوات، وأعضاء البرلمان بمعرفة الإف أس بي، نموذج لما يسمى بمصيدة العسل، أو ال Honey trap.

خدعة قديمة للكي جي بي لابتزاز الأفراد، والسيطرة عليهم، عن طريق تصويرهم في وضع مخل جنسيًا.
الفضيحة مدوية، أول مرة في تاريخ روسيا يتم عرض شريط جنسي على الهواء.
فضيحة كفيفة بإنهاء مستقبل النائب العام، وإنهاء تحقيقاته، لكن المفاجأة أن البرلمان رفض استقالته، وتمسك ببقائه، باعتبار أن الابتزازات السياسية أخطر من الفضائح الجنسية.
النائب العام راجل زي الفل وشغله زي الفل، زي ما حضراتكم شايفين!
النائب استغل دعم النواب، فسحب الاستقالة وقرر البقاء في منصبه.
هنا بوتين تدخل لإنقاذ مديره من ورطة صعب يطلع منها، وأعلن كرئيس لجهاز الأمن أن التحريات أثبتت وجود شرائط تانية توضح استغلال أعضاء العصابات، والجريمة المنظمة، لسلوك النائب العام المشين للتأثير عليه، وعلى قراراته.
وهما أن القانون بيمنع تولى الشخص منصب عام أثناء التحقيق معاه، أعلن عزل النائب العام على أن يقوم نائبه بأعماله لحين الانتهاء التحقيقات.

بوريس يلتسن مبقاش مصدق نفسه!

بالسهولة دي؟

لثاني مرة بوتين يثبت تمتعه بالولاء، والكفاءة، والإصرار على حماية مديره مهما كان الثمن.

يلتسن أدرك أن هو ده الشخص الوحيد اللي ممكن يحميه بعد خروجه من السلطة.

ولما ناقش العائلة في إمكانية اختياره كخليفة، لقي دعم كبير من بيريزوفسكي.

بيريزوفسكي قابل بوتين بانتظام منذ انتقاله لموسكو.

وأعجب به لنفس الأسباب اللي عجبت يلتسن.

في عز انحدار شعبية يلتسن بالمقارنة برئيس الوزراء السابق، وخصمه الأكبر في الانتخابات الرئاسية القادمة، يفجيني برهماكوف، بيريزوفسكي نظم عيد ميلاد صغير لزوجته، وتوقع أن ناس كثير مش هتيجي خوفًا من أنهم يبانوا محسوبين على نظام قديم أوشك على السقوط.

في نص العيد ميلاد بيريزوفسكي فوجئ ببوتين داخل، وشايل بوكيه ورد.

قال له أنت جاي تثبت حضور بقى؟

قال له أيوه، بالضبط كده!

فأعجب بالشجاعة، والصراحة، والوضوح.

أنا حليفك، ومش هتخلى عنك في ضعفك، ولا هتتصل منك تملقاً في غيرك!

رغم أنه أصبح كبير ومعروف في دوائر صنع القرار بعد توليه رئاسة الإف إس بي لدرجة خلته محاط بالأعداء والمنتفعين هو كمان.

لما كان بيزوره في مكتبه في الإف إس بي كان بياخده ويتكلم معاه في قبو أحد المصاعد التالفة عشان محدش يسمعهم. حرصه على استمرار العلاقة أثار إعجاب بيريزوفسكي، رغم أنه شافه شخص عادي، يفتقد الكاريزما، وعناصر الإبهار المعتادة للشخصيات العامة.

ولكن مش مشكلة، إحنا عايزين رئيس جمهورية، مش لايف كوتش!

دعم بيريزوفسكي لبوتين اللي اعتبره تلميذه أسهم في إقناع يلتسن أنه الرجل المناسب.

ولكن هيقدمه للشعب إزاي؟

بوتين مش سياسي معروف ممكن يعتمد على شعبيته، ولا عضو في حزب ممكن يدعمه في الانتخابات.

الطريق الوحيد لتوليه السلطة طبقاً للدستور هي استقالة يلتسن أثناء توليه منصب رئاسة الوزراء، وساعتها هيكون رئيس مؤقت لحين إجراء انتخابات بعد ٩٠ يوم.

وقت قليل، ولكن يكفي لقلب الموازين، وقد كان.

في أغسطس سنة ١٩٩٩ يلتسن أعلن تعيين بوتين كرئيس للوزراء.

الخبر فاجئ أغلب الناس اللي بوتين بالنسبة لهم ما زال شخص جديد على الساحة.

ضابط سابق عنده ٤٦ سنة، صغير السن نسبياً، محدش خد خبر تعيينه بجدية.

كلها كام شهر، وبوريس يمشي بعد خسارة الانتخابات، وبوتين يمشي معاه.

ده لو استمر في منصبه ويلتسن مرفدوش قبل الانتخابات، زي الأربع رؤساء وزراء اللي قبله، اللي ردهم في سنة ونصف.

كل ده خلى بوتين أمام العديد من الاختبارات السياسية والاقتصادية، ولكن اختباره الأصعب كان في الشيشان.

[1٥6](#) Knowledge is power.

[1٥7](#) Little Finger.

[1٥8](#) Game of Thrones.

[1٥9](#) Power is power.

[11٥](#) Chief of staff.

[111](#) Software update.

حرب الشيشان الثانية

«في الماضي أظهرنا أننا ضعفاء، والضعفاء يُهزمون».

فلاديمير بوتين

رغم انسحاب الجيش الروسي من الشيشان، وانتهاء الحرب بشكل رسمي، البلد مرجعتش زي ما كانت، على الرغم من انتخاب مسخادوف كرئيس للإقليم.

شامل باسايف، القائد العسكري الأصغر، والأكثر راديكالية من مسخادوف، شن هجمات إرهابية على المدن الروسية المجاورة، وطالب بعودة النضال من أجل الاستقلال.

مسخادوف رغم شرعيته الانتخابية فشل في فرض النظام.

الاقتصاد انهار، وجرائم الخطف زادت لدرجة مرعبة.

في شهر مارس ١٩٩٩ تم خطف وقتل مبعوث روسيا في الشيشان في جريمة كانت بمثابة جرس إنذار في موسكو.

مسخادوف نفسه تعرض لعدة محاولات اغتيال، فأعلن حالة طوارئ وكانت دي بمثابة دعوة لأجهزة الأمن الروسية للتدخل، ولكنها لم تنجح في فرض السيطرة على الداخل، وبالأخص على قوات باسايف، اللي بدأت في اتخاذ طابع إسلامي، والمطالبة بإنشاء دولة خلافة إسلامية، بعد ما كان الهدف الجامع هو إنشاء دولة شيشانية مستقلة.

بعد قتل وتهجير الآلاف، الشباب الشيشاني تبنى أفكار أكثر راديكالية، والشيشان أصبحت مغناطيس للراديكاليين حول العالم، بما فيهم تنظيم القاعدة.

من أشهرهم السعودي سامر السويلم، الشهير باسم الأمير خطّاب، اللي حارب السوفييت في أفغانستان، وقابل أسامة بن لادن وعمل لصالح القاعدة في طاجيكستان، وأذربيجان، ويوغوسلافيا، قبل ما ينتقل لمحاربة الروس في الشيشان.

في البداية خطّاب دخل الشيشان متنكر كصحفي، وبدأ يمرن الشيشانيين ويمدهم بأموال وسلاح من القاعدة، لإعلان الجهاد وإقامة دولة إسلامية في القوقاز.

ده خلاهم شايقين مسخادوف عدو مهادن، يجب التخلص منه.

مرجح يكون سبب في العديد من محاولات الاغتيال اللي تعرض لها، ومؤكّد إنه كان سبب في نهايته سياسياً، ونهاية حلم الاستقلال.

في أغسطس سنة ١٩٩٩، قبل الإعلان عن تولي بوتين لمنصب رئيس الوزراء بيومين، ١٥٠٠ من الشيشانيين، والداغستانيين، والعرب المسلحين بقيادة خطّاب وباسايف، احتلوا ٣ قرى في إقليم داغستان المجاور، وأعلنوا عن إقامة إمارة داغستان الإسلامية.

بيدوا أنهم وقعوا في نفس الخطأ المعتاد للغزاة، وافتكروا أن السكان المسلمين هيرحبوا بيهم كفاتحين محررين، فتفاجأوا بالسكان كل واحد فيهم شايل سلاحه، ونازل يحاربهم دفاعاً عن أرضه.

الهجوم كان عذر ممتاز للقوات الروسية للتدخل والانتقام من هزيمة الحرب الأولى.

مسخادوف أدان الهجوم، وحاول يتفاوض مع موسكو، وطلب مهلة للقضاء على الإرهابيين، لكن بوتين رفض بشكل قاطع.

بوتين أعلن من بداية توليه رئاسة الوزراء عن تمسكه الكامل بوحدة روسيا، وعدم الاستعداد للتفريط في شبر من أراضيها.

هدفه هو استعادة الدولة لقوتها، وهيبته، ولذلك رفض التفاوض، أو مجرد السماح بوجود جماعات انفصالية مسلحة أمر مرفوض بالمرّة.

الهجوم توقعه قادة الجيش الروسي، فردوا عليه بشكل سريع ومباغت للمهاجمين اللي توقعوا ببطء رد فعل الدب.

الحزم، والطاقة النابعة من صغر السن، مختلفين عن الصورة المعتادة ليلتسن.

الشعب ألتف حول القائد الجديد، بينما المعارضة حذرت من الدخول في مواجهة خاسرة زي ما حصل من ٣ سنين. ولكن المرة دي مختلفة عن المرة اللي فاتت.

بوتين اتعلم الدرس، وعرف إنه مش هينتصر غير بالسيطرة على أرض المعركة، وعلى الأخبار اللي طالعة منها. الجيش الروسي هاجم الشيشان بقوة قوامها ٩٠ ألف جندي، حوالي ثلاث أضعاف حجم القوة اللي شاركت في الحرب الأولى. تقريباً نفس عدد الجنود اللي شارك في غزو أفغانستان، رغم الفرق الشاسع في الحجم، والإمكانيات. ولكن على عكس الحرب الأولى، الآليات كانت محاطة بالمشاة من الأجناب، ومؤمنة بالطائرات من الأعلى، فشكّلوا قوة كاسحة يصعب الوقوف أمامها.

وفي نفس الوقت مُنح دخول الصحفيين لضمان استمرار تأييد الحرب.

محدث هيطالب بوقف الانتهاكات لو محدش عرفها.

فعمل كل اللي يقدر عليه لفرض حصار معلوماتي على الإقليم، ومكنش يتخيل أن الحرب هتجيله لحد عنده!

يوم ٤ سبتمبر عربية مفخخة فجرت مبنى مكون من خمسة أدوار، ساكن فيه الجنود الروس مع أسرهم في داغستان.

المبنى اتساوى بالأرض، ومات بداخله حوالي ستين فرد.

وبعدها بخمسة أيام في منتصف الليل تم تفجير مبنى من تسعة أدوار، ولكن المرة دي في قلب العاصمة موسكو!

شدة الانفجار قسمت المبنى نصين، وتسببت في حالة من الهلع.

الحرب البعيدة الآن في العاصمة!

الانفجار تبعه انفجاران متتاليان بنفس الأسلوب، ونفس القوة، والبشاعة، أدوا لوفاة حوالي ٣٠٠ شخص منهم ستات، وأطفال.

بوتين كان في مؤتمر في نيوزيلندا قابل فيه الرئيس الأمريكي بيل كلينتون.

الرئيس الأمريكي المعتاد على التعالي الأخلاقي طلب منه توخي الحذر في الشيشان، اللي أصبحت مركز لانتهاكات حقوق الإنسان.

بوتين قال له روسيا تتعرض لهجوم إرهابي خسيس، زي اللي أمريكا اتعرضت له قبلها بسنة في تفجير السفارتين في كينيا، وتنزانيا، على يد تنظيم القاعدة.

وأكد له أن بن لادن وراء تفجيرات روسيا، زي ما كان وراء تفجيرات إفريقيا، ولذلك الهدف واحد، والعدو واحد.

عدو لا يمكن التفاوض معه، ولا بد من استئصاله، وقد كان.

بعد عودته لروسيا، بوتين أعلن عن عملية عسكرية واسعة في الشيشان لمحو الإرهابيين المجرمين، اللي وصفهم بحتالة الأرض، من على وجه الأرض.

الشعب وقع في حب القائد القوي، وشعبيته زادت بسرعة صاروخية.

الشعب متعطش للانتصار بعد سنوات الانحدار، وبوتين يقود حرب مشروعة للدفاع عن الوطن، ولكن اللي حصل في نهاية سبتمبر خلى البعض يتساءل عن جدوى الحرب، وأهدافها.

يوم ٢٢ سبتمبر سائق أوتوبيس في مدينة ريزان، في جنوب شرق موسكو، بص من الشباك لقي عربية لادا غربية راكنة قدام باب العمارة والسواق قاعد جواها، وقدامها واحدة ست واقفة وباين عليها القلق كأنها بتراقب الشارع.

وبعد دقائق خرج راجل بسرعة من مدخل العمارة، وركب العربية معها وتحركوا بسرعة.

السواق بعد موجة التفجيرات الأخيرة قلق من اللي شافه، فاتصل بالبوليس، ولما وصلوا تفاجأوا بوجود متفجرات داخل أكياس سكر، متصلة بجهاز تفجير ساعته مضبوطة على منتصف الليل.

تم إخلاء العمارة بالكامل.

السكان وقفوا في الشارع في انتظار خبراء المفرقعات، اللي أول ما وصلوا فصلوا الجهاز، وأجروا تحليل غازات على المتفجرات،

فاكتشفوا أنها مصنوعة من مادة الهيكسوجين العسكرية، اللي بتستخدم في الجيش فقط؛ لأن هو الوحيد القادر على تصنيعها.

نفس المادة تم العثور عليها في بقايا أحد التفجيرات في موسكو.

مئات من رجال الشرطة انتشروا في المدينة للقبض على الجناة، وبعد كام يوم لقوا اثنين تنطبق عليهم المواصفات اللي أدلى بها سائق الأوتوبيس اللي شافهم، ولما البوليس حدد مكان العربية اللادا، وقبض عليهم، أفرج عنهم بعد ما اكتشفوا أنهم ضباط في الإف إس بي!

وبعدها عامل في السنترال قاعد زهقان فقرر يتصنت على المكالمات، في مشهد شبيه باللي عمله الفنان محمود الجندي في فيلم اللعب مع الكبار مع الفنان عادل إمام، سمع مكالمة شدت انتباهه، شخصين بيتكلموا عن صعوبة الهروب من المدينة لوجود الشرطة المكثف على المداخل، والمخارج.

الموظف شك أن المكالمة لها علاقة بمحاولة التفجير فاتبع مصدرها، واكتشف أنها صادرة من رقم تابع للإف إس بي! الجرائد نشرت خبر فشل محاولة التفجير، وأشادت بيقظة جهاز الأمن، والسكان، لكن السكان مكنوش في حالة احتفال. السكان ومعهم الصحفيين، والمواطنين اللي عرفوا الخبر تسألوا إزاي ده حصل؟ المادة دي الإرهابيين عثروا عليها إزاي؟ وليه المشتبه فيهم كان معاهم كارنيهات إف إس بي؟

في محاولة يائسة للسيطرة على الموقف، الإف إس بي بقيادة نيكولاي باتروشييف خليفة بوتين في الجهاز نظم مؤتمر صحفي، وأعلن أن المادة اللي تم اكتشافها مكنتش متفجرات، والجهاز مكنش جهاز تفجير. ودي مش كولا، دي ميكا!

نيكولاي باتروشييف صديق مقرب لبوتين، وزميله من أيام لينينغراد، ومحدث عارف هل كان له يد خفية في استدعاء بوتين لموسكو، ولا بوتين اللي لعب دور في إحياء كارييره بطلبه ليلتسن تعيينه خليفة له في الإف إس بي بعد تعيينه كرئيس وزراء. المؤكد هو ثقة بوتين الكبيرة فيه، وولاءه العميق لبوتين.

علاقة وثيقة واجهت أول اختبار لها في الانفجارات!

فبعدها بكام يوم بتروشييف نظم مؤتمر ثاني، وأعلن إن اللي حصل ده كان تدريب للتعامل مع المتفجرات، واختبار يقظة السكان واستعدادات رجال الأمن، والحمد لله السكان وأجهزة الأمن عدوا الاختبار بنجاح.

الكلام عن التدريب أثار غضب السكان، ورجال الشرطة، اللي شافوا القنبلة بعينهم!

وبعدين الكلام المتناقض وغير المنطقي، خلى بعض الصحفيين في الجرائد المستقلة يتساءلوا عن علاقة الإف إس بي بالتفجيرات.

هل التفجيرات إرهاب ضد الدولة، أم إرهاب من الدولة؟

ولو من الدولة، هدفه إيه؟

تأجيل الانتخابات لبقاء يلتسن في السلطة؟ أم دعم الحرب على الشيشان؟

أسئلة مهمة، ولكنها تهمس ولا تجهر.

البلد في حالة حرب، ولا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

جريدة مستقلة نشرت تحقيق عن التفجيرات شمل شهادة أحد جنود الجيش الروسي، قال إنه كان مسئول عن حراسة أكياس سكر وصلت وحدته بعدد كبير.

لما فتح كيس هو وزميله، وحطوه في الشاي، لقوا طعمه بشع، فبلغوا قائد الوحدة اللي أمر بتحليل السكر، واكتشف أن اللي في الكيس مش سكر، ده مادة الهيكسوجين المتفجرة!

ليه كميات كبيرة من المتفجرات تكون مخزنة داخل أكياس سكر؟ وليه الأكياس دي مخزنة في وحدة عسكرية؟

ضابط إف إس بي شجاع اسمه ميخائيل تريباشكين صمم على فتح تحقيق، ولما شاف سكتش مرسوم لأحد المتهمين في

الانفجار الأول، أدرك أنها رسمة لضابط زميله!
ولما أعلن عن اكتشافه الخطير، تم تغيير السكتش الرسمي بواحد ثاني يخص مقاتل أفغاني، اتحكم عليه بالسجن لمدة أربع سنوات.

أسئلة كثير بلا إجابات كانت كافية لإلغاء العدد التالي من المجلة، بعد تعرضها لهجوم إلكتروني غير مسبوق.
ولكن رغم كل ده، طبقاً لماشا جيسن في كتابها رجل بلا وجه، الأغلبية الكاسحة من الشعب الروسي صدقوا الرواية الرسمية عن قيام الشيشانيين بالهجمات الإرهابية، إما لأنهم اقتنعوا بالبروباغاندا الحكومية في الحرب الأولى، أو لأنهم عارفين الفظائع اللي القوات الروسية ارتكبتها في الحرب الأولى!
وفي وسط كل ده، بوتين استمر في التألق.

زيادة الأجور والمعاشات رفعوا شعبيته للسماء، فتحول في خلال عدة أشهر من شخص مغمور، للرجل الأكثر شعبية في روسيا.

وبعد توقيع أكثر من ٢٤ محافظ على بيان بيطالب يلتسن المنهك، والمريض، والسكرير، بالتنحي، على أن يتولى بوتين السلطة حتى موعد الانتخابات، يلتسن أدرك أن الوقت مناسب لبداية الفصل الثالث، والأخير من المسرحية.

عودة الكي جي بي

«أنا الدولة، والدولة أنا» (112).

ملك فرنسا

لويس الرابع عشر

في ليلة رأس السنة عام ١٩٩٩، بوريس يلتسن ألقى خطاب تلفزيوني في الساعات الأخيرة من الألفية الثانية، أعلن فيه تنحيه عن رئاسة الجمهورية، وتولي بوتين المنصب لحين انتخاب رئيس جديد في مارس سنة ٢٠٠٠.

يلتسن أعلن عن رغبته في التنازل عن السلطة بشكل سلمي في سابقة تعد الأولى من نوعها في تاريخ روسيا الحديث، وقال إن البلد محتاجة تدخل الألفية الجديدة بوجه جديدة، وسياسيين جدد.

يلتسن دمع في نهاية خطابه، وقال أنا بطلب منكم تسامحوني على الأحلام اللي لم تحقق، والأشياء اللي كانت تبدو سهلة، ولكنها طلعت في منتهى الصعوبة.

كان نفسنا نسيب الماضي السلطوي المؤلم، ونقفز نحو المستقبل المضيء، حيث الديمقراطية، والرخاء، ولكن للأسف معرفناش. اعتراف صادم من شخص كان حبيب الجماهير قبل ما يصبح عدوهم، والمسئول الأول عن فشلهم.

شخص وقف وسطهم قبل ما يصبح على رأس السلطة اللي ناضل ضدها.

يلتسن غادر القصر للمرة الأخيرة، وقبل ما يمشي وقف، وحضن بوتين، وقاله خلي بالك من روسيا، في مشهد مؤثر لا ينقصه سوى أنغام الموسيقى التصويرية لفيلم مافيا، وصوت الفنان مدحت صالح وهو بيغني لا هتاخذ إيه ولا كام وليه.

من أول يوم على العرش، بوتين أدرك إنه محتاج يشتغل على شعبيته في ظل وجود منافسين محتملين أكبر سنًا، وأكثر خبرة، زي زيوغانوف رئيس الحزب الشيوعي العائد من تحت الأنقاض.

ولكنه في نفس الوقت قرر يبعد عن وسائل الحملات الانتخابية التقليدية، ويركز على أهم سلاح في روسيا الجديدة.

سلاح أقوى من الجيش، والشرطة، والكرملين: التلفزيون.

في الحرب العالمية الثانية، كل مدينة دخلها الجيش الأحمر، واستعادها من إيد الألمان، أول حاجة عملها كانت السيطرة على محطة الإذاعة.

بوتين أعلن إنه مش هيشارك في مناظرات، ولا هينظم مؤتمرات.

البلد محتاجة شغل، وكرئيس مسئول محتاج يركز في شغله.

فسافر لمدن مختلفة، وعقد اجتماعات مع المسؤولين كأنه يؤدي وظيفته بشكل عادي بدون أي اختلاف.

الاختلاف الوحيد أن كل الأنشطة دي كانت متصورة، وتذاع على القنوات الحكومية صبح وليل، في أضخم وأقوى حملة انتخابية في التاريخ.

كل اجتماع فرصة لإظهار قوته، وكل سفرية فرصة لإظهار حيويته.

الفرق واضح بينه وبين يلتسن.

التضاد بينهم زاد من شعبية بوتين، اللي الشعب شاف فيه الشباب بعد سنوات من حكم نادي المعاشات.

التركيز الكلي على بوتين في التلفزيون أسهم في زيادة شعبيته بشكل سريع خاصة بعد تولي صديق بيتسربرج القديم دميتري ميدفيديف مسئولية الحملة.

الكرملين تحت إشراف رئيس الحملة، وصديق لينينغراد السابق دميتري ميدفيديف، عمل على تشكيل صورة بوتين الذهنية في أعين الجماهير بحرص شديد، وفي نفس الوقت الهجوم على أي بديل محتمل يمتنهي القسوة.

الاجتياح المعنوي كان جزء كل اللي يجرؤ ل طرح نفسه كبديل لسلطة شرعيتها معتمدة على عدم وجود بدائل.

ورغم كل التحضيرات، مع اقتراب الانتخابات المقرر إقامتها سنة ٢٠٠٠، العائلة كان قدامها ٣ مهام صعبة لضمان فوز بوتين بالسلطة كخليفة ليلتسن:

إقناع أمريكا، وإقناع البرلمان، وثالثًا، وده الأقل أهمية، إقناع الناخبين، ده لو مفيهاش إساءة أدب يعني. كلينتون في الوقت ده كان ما زال يعاني من تداعيات فضيحة علاقته بالمتدربة السابقة بالبيت الأبيض مونیکا لوينسكي. بعد سيطرة الجمهوريين على الكونجرس اختلفوا على الميزانية فالحكومة مبقاش معاها فلوس، فاستعانوا بالمتدربين. مونیکا لوينسكي أبوها دكتور محترم، عرف بوسيلة معارفه يجييلها شغلانة غير مدفوعة الأجر في البيت الأبيض. ومن أول يوم قابلت فيه الرئيس المخضرم، دخلت معاه في علاقة عاطفية، ومع الوقت وبها أن الحيطان ليها ودان، الموضوع اتعرف فتم نقلها لوزارة الدفاع.

في وزارة الدفاع، ابنتت تتكلم مع واحدة زميلتها، وتفضفضلها:

هيلاري يا ستي منكدة عليه عيشته!

ومخادتش بالها أن اللي بتفضفض لها دي كانت شغالة مع أحد معاوي كلينتون السابقين، وبعد ما ساب البيت الأبيض، أصبح بيل كلينتون عدوها اللدود.

فقال لها: قولي واتكلمي ومتكتميش في قلبك يا حبيبتى!

والثانية ما شاء الله عليها حريصة، حكّت لها كل حاجة! فالست سربت علاقتها بكلينتون للصحافة. والموضوع كبر ودخلت فيه مباحث الإف بي آي والكونجرس والدنيا اتقلبت، والعالم كله مبقاش ليه حديث غير عن كلينتون ومونیکا.

في البداية الرئيس أنكر علاقته بمونیکا تمامًا، أقسم بالله ما أولادي.

ولكن التحقيقات توصلت لفستان ارتديته مونیکا في أحد لقاءاتهم، وتم تحليل الفستان من الطب الشرعي، فاكتشفوا وجود آثار من سيادة الرئيس على الفستان.

فالرئيس أنكر، ثم اعترف، ثم اعتذر ورفع شعار ما بلاش نتكلم في الماضي، الماضي ده كان كله جراح!

ولكن ماضي إيه؟ دا العالم كله مبيتكلمش غير عن فستان مونیکا ونتيجة تحليل فستان مونیکا.

لأ شوفولنا شرايط بقى زي بتاعة النائب العام عشان نتأكد بنفسنا!

الموضوع ده شكل ضغط كبير جدًا على كلينتون وأثر على سياساته الخارجية، والداخلية وممكن يكون خلاه مبقاش مهتم بتطورات الشأن الداخلي الروسي زي الأول.

لما عرف خبر تعيين بوتين كرئيس وزراء، حطه تحت النظر وحاول يجمع آراء عن نجم السياسة الروسية الجديد.

أثناء زيارته للبيت الأبيض، الزعيم الكازاخستاني نور سلطان نزارباييف، قال لكلينتون إن بوتين معندوش كاريزما، ولا سياسة خارجية، ولا سياسة اقتصادية، الشيء الوحيد اللي بيحدث لصالحه هو الحرب الشيشانية، وهي حرب في النهاية ضد ناسه، ضد الشعب الروسي!

كلينتون قرأ مقال رأي في جريدة النيويورك تايمز، كتبه بوتين، أو أغلب الظن كتبه أحد معاويه ونشره باسمه، بعنوان لماذا يجب علينا أن نتصرف (113).

المقال بيدافع فيه عن قرار روسيا بغزو الشيشان وبيصور العملية العسكرية كحرب على الإرهاب شديدة الشبه بالحرب الأمريكية على تنظيم القاعدة.

الهدف واحد، والعدو واحد.

جهد ملحوظ، وكلام منطقي كان ممكن يقنع كلينتون إنه شخص يمكن التعاون معه لو مكنش قابله بنفسه.

على عكس أغلب قادة العالم المهتمين بمقابلة رئيس أمريكا، وقضاء وقت معه كعلامة على الأهمية، بوتين لم يكن مهتم

إطلاقاً، ولم يظهر أي مشاعر دافئة تجاهه على عكس يلتسن الحريص على علاقته بنظيره الأمريكي من أول يوم له في الرئاسة. عاقل، وبيتعامل بذوق، ولكنه بارد بشكل مخيف.

وزاد الخوف ده لما يلتسن اتصل به وقال له إن بوتين هو المرشح القادم، أو بمعنى أدق، الرئيس القادم لروسيا. رجل غير شيوعي، ملتزم بمبادئ الاقتصاد الحر، وهيتمي الديمقراطية، والأهم إنه شخص يُعتمد عليه يقدر يتعاون معه في ما تبقى من ولايته.

المدهش إن كلينتون اقتنع بالكلام، ومخدش باله إن اختيار رئيس لخليفته، في دولة يفترض أنها ديمقراطية، هو أبعد ما يكون عن الديمقراطية!

وعلى قد ما دعم، أو على الأقل عدم معارضة رئيس الولايات المتحدة لاختيار يلتسن وعائلته شيء مبشر لإتمام عملية انتقال السلطة، إلا أنه غير كافي.

دعم البرلمان أهم ألف مرة؛ لأنه هيضمن النفوذ بعد الصعود.

البرلمان شوكة في عرش يلتسن محتاج يتخلص منها قبل ما يسلمه لبوتين.

شاف بوريس بيريوفسكي أن الحل هو تدشين حزب جديد باسم الاتحاد أو Unity.

حزب يتبع مدرسة الفنان طلعت زكريا: ضحك بلا هدف.

ده كان حزب بلا هدف أيضاً!

حزب بلا أيديولوجية، كل هدفه دعم الرئيس القادم، وضمان عدم معارضة السلطة التشريعية للسلطة التنفيذية.

الحزب رفع شعار ضرورة نبذ الخلافات، والاتحاد للعمل على بناء مستقبل الوطن.

شعار بسيط، وسطحي، وغير محدد، ولكنه كان كافي لجذب الملايين من الناخبين اللي تعبوا من السياسة، بعد عقود من منع السياسة.

الشمولية أبسط وأسهل على الفهم من التعددية، والرغبة في الاتحاد أقوى من الرغبة في الحفاظ على الحرية؛ لأن الحرية بعد ما كانت حلم أصبحت مرادفة للفوضى، رغم إن الحرية في الاختلاف في حد ذاتها ميزة اتحرموا منها سنين طويلة.

ولكن زي ما قال نجيب محفوظ، آفة حارتنا النسيان.

بالإضافة لآفة أخرى وهي عدم النظر إلى المستقبل.

الاهتمام بالحاضر، والانشغال بهوموم، خلى حزب الاتحاد يحقق فوز ساحق في الانتخابات التشريعية، ورقعة الشطرنج أصبحت جاهزة لتحرك الملك.

كده مبقاش فاضل غير إقناع الناخبين بالمرشح نفسه.

بوريس بيريوفسكي قرر إن الحل الأمثل هو الاستعانة بمجموعة من الكتاب والصحفيين لعمل مقابلات مع بوتين يصدر منها كتاب سيرة ذاتية للمرشح.

الكتاب اللي نزل بعنوان Ot pervogo litsa أو الرجل الأول، حمل العديد من القصص عن طفولة بوتين، وسنوات عمله في الكي جي بي.

كتاب استغله بوتين كرجل مخبرات سابق لتصدير صورة ذهنية عنه مش بس للشعب، ولكن كمان لأجهزة المخابرات حول العالم، اللي عارف إنهم هيحللوا الكتاب أول ما ينزل فقرة فقرة.

فقال مثلاً أن ما أسماه برهاب روسيا⁽¹¹⁴⁾. المنتشر في شرق أوروبا، ما هو إلا نتيجة للتدخل العسكري الروسي في المجر، وتشيكوسلوفاكيا، وألمانيا الشرقية.

أو بمعنى آخر: متخافوش، أنا مش جاي أحارب، ولا ناوي أعيد إمبراطورية!

بالإضافة لمجموعة من القصص عن شبابه وطفولته كل هدفها تصويره كرجل مغامر، لا يقبل الإهانة، ومستعد لعمل أي

شيء لردها، وعقاب من قام بها.

مغامرة تصل إلى حد التهور.

حكى في مرة عن يوم كان سابق فيه وجنحه مدرب الجودو بتاعه، لقي عربية نقل شايلة زرع، فقرب منها لدرجة أنهم كانوا هيتقلبوا بالعربية، لمجرد إنه كان عايز يمسه بيده.

قصص تانية عن خناقات في الشارع، هدفها إظهاره كشخص قوي متربي في شوارع لينينغراد، مش في المعادي!

أو بمعنى آخر أنا متهور، واللي فيكم هيتهور، هيتعور!

القانون رقم ١٧ في كتاب قواعد القوة الثماني وأربعين لجون غرين بيقول: كن غير متوقع!

الناس بتخاف من الشخص غير المتوقع اللي بيخالف الأماط، ويكسر القوالب.

ومفيش مخالفة للتوقعات في سيرته المهنية أكبر من تركه للكي جي بي وانضمامه للحركة الديمقراطية بالعمل مع سوبتشاك.

ولكن رغم إشادته بالديمقراطية، هاجمها بشكل غير مباشر عن طريق مهاجمة فترة التسعينيات في الاتحاد السوفيتي، اللي وصفها بفترة فقر، وفشل، وإهانة، زي فترة عشرينياتك بالضبط!

فلعب على وتر النوستالجيا، وحلم العودة للعصر الذهبي للاتحاد، رغم إنه لولا سقوط الاتحاد كان زمانه محافظ البحر الأحمر، وليس رئيس وزراء على أعتاب الرئاسة.

ولكن له حق يهاجم التسعينيات، أحد استطلاعات الرأي في نهاية سنة ١٩٩٩ وضحت أن الطلبين الأهم للناخبين من الرئيس الجديد هما إنهاء الأزمة الاقتصادية، وإعادة مكانة روسيا كقوة عظمى.

الحمد لله، محدش قال ديمقراطية!

اللي قرأ الكتاب شاف بوتين كشخص مضحي، غامر بحياته أثناء محاولته السيطرة على الجماهير لإنقاذ ملفات أسامي

العملاء في دريسدن، وغامر بمستقبله بالولاء التام لمديره أثناء انقلاب ١٩٩١.

أنا قوي، ولكن وفي.

متهور، ولكن ديمقراطي.

ومسك الختام، لما اتسأل عن عيوبه، قال الثقة في الناس بسهولة!

تحت شعار: مشكلتي إني طيبة وبحب الناس كلها!

سيرة في منتهى الجاذبية لأنها تشمل قصص موجهة لقطاعات مختلفة من الجماهير.

يعني لو تم التعامل مع المرشح كمنتج، واتعملت دراسة سوق لمعرفة الشرائح المختلفة للمستهلكين، فكل شريحة تم استهدافها بعناية فائقة، عن طريق رسم صورة لشخص متعدد الأوجه، كل واحد بيختار يشوف الوجه اللي يعجبه، ويريح ضميره.

.Target each market segment with a different value proposition

خش على كل شريحة بخواص ومميزات مختلفة.

وفي نفس الوقت، بوتين نجح في خلق حالة من الارتباك عن طريق إغراق الفضاء العام بالمعلومات المتناقضة، تصعب عملية فهمه وتوقع تصرفاته.

طبقاً لرئيس الموساد السابق يوسي كوهين، فعمل تحاليل نفسية للرؤساء من صميم عمل أجهزة المخابرات حول العالم؛ ولذلك ضابط تخصص في مكافحة التخابر الطبيعي يبقى عارف إزاي يروج المعلومات الضرورية لخلق الصورة اللي يختارها بنفسه.

شخص واحد فقط رفض الصورة اللي يتم ترويجها، وقرر إثبات كذبها: مارينا سالي، رئيسة لجنة الغذاء في مجلس مدينة لينينغراد.

أثناء أزمة الغذاء في بداية التسعينيات، مارينا سافرت برلين لاستيراد كميات من اللحوم.

مسئولة الشركة الألمانية رفضت مقابلتها لانشغالها بالتفاوض على توريد عشرات الأطنان من اللحوم لمدينة لينينغراد. سالي قالت هو إيه اللي بيحصل؟ إحنا مدينة لينينغراد! ورجعت المدينة مش فاهمة إيه اللي بيحصل، وفضلت علامة الاستفهام محيراها لحد سقوط الاتحاد، بعدها الحصول على الوثائق أصبح أسهل نسبياً، فقدرت تجمع خيوط القصة، واكتشفت إن اللي حصل مؤامرة لم تكن تتخيلها! في مايو سنة ١٩٩١ رئيس الوزراء السوفيتي فالنتين بافلوف أدى تصريح لشركة كونتيننت لعقد اتفاقيات تجارية دولية، تقوم بموجبها بتبادل الموارد الطبيعية بالاحتياجات الغذائية اللازمة للمدينة. الشركة فتحت خط ائتمان بقيمة تسعين مليون مارك في ألمانيا، واستوردت بالفعل ستين طن لحوم، ولكن باختلاف البسيط، اللحمة اتشحن على موسكو، وليس لينينغراد! مين اللي تفاوض مع الألمان ووقع عقد الاستيراد؟ فلاديمير بوتين.

وبالفحص والتدقيق مارينا اكتشفت توقيع بوتين لعقود مشابهة بقيمة تسعين مليون دولار، بشكل مباشر دون أي مناقصات أو إجراءات رسمية. عقود بلغت قيمتها ٩٢ مليون دولار، نسبة العمولة فيهم وصلت لأرقام فلكية تراوحت من ٢٥% ل ٥٠%! الصورة بدأت تتضح لسالي.

رئيس الوزراء المشارك في انقلاب أغسطس كان بيحضر له هو وأعوانه عن طريق تخزين كميات كبيرة من الطعام لإغراق الأسواق بعد انقلابهم على غورباتشوف، لإظهار مدى كفاءتهم، وسرعة قدرتهم على إنهاء الأزمة الاقتصادية الطاحنة. ومفيش أنسب من ضابط الكي جي بي السابق للقيام بالمهمة الخطيرة دي، ومفيش ضرر أثناء عمله على مصلحة الدولة العليا، يراعي مصالحته السفلى، عن طريق الترح من العقود باقتسام العمولة مع شركات وهمية، بينما البضاعة في طريقها بأمان إلى موسكو.

سالي كتبت تقرير من ٢٢ صفحة وأرسلته لسوبتشاك وطلبت منه ردف بوتين ومعاونيه. سوبتشاك لم يستجب، فبعثت شكوى ليلتسن مباشرة، لم يستجب أيضاً! على العكس، يلتسن حل مجلس المدينة بطلب من سوبتشاك اللي حمى بوتين من النائب العام اللي حفظ الشكوى وكأنها لم تكن.

ولكن ماري مستسلمتش، ولما شافت ترشح خصمها السابق لأهم منصب في الدولة، قررت التحرك، وكتبت مقال بعنوان بوتين رئيس أوليغاركية فاسدة.

حكمت فيه تفاصيل التحقيق واتهمت بوتين بالفساد والعمل لصالح قادة الانقلاب. المقال على عكس ما توقعته لم يحرك ساكن في ظل الاحتفاء بالنجم الجديد. ومع ذلك، نجح في فتح عدة تساؤلات مشروعة، أهمها هو هل يمكن ألا يكون للكي جي بي دور في صعود ابن الكي جي بي؟ في بداية التسعينيات، ومع قرب انهيار الاتحاد السوفيتي، رئيس الكي جي بي فلاديمير كريوتشكوف حط اختراق الحركة الديمقراطية الناشئة كأولوية قصوى للجهاز.

بوريس يلتسن، وسوبتشاك، وباقي قيادات الحركة اتحطوا تحت المراقبة ٢٤ ساعة في اليوم. تليفوناتهم، وتليفونات معارفهم سواء أهل أو أصدقاء أو حتى حلاقين كانوا تحت نظر الكي جي بي، اللي هدفه طبقاً لرئيسه أصبح خلق معارضة صناعية، ويمكن التلاعب بها. (115).

أحد زملاء بوتين السابقين اللي انشق عن الجهاز في أوائل التسعينيات، حكى لماشا جيسن عن مقابلة تمت بين بوتين ومدير إدارة مكافحة التجسس في الكي جي بي سنة ١٩٩٠ أثناء زيارته لبرلين.

مقابلة صعب يكون لها أي هدف ثاني غير إبلاغه بمهمته القادمة.

الموقف ده، بالإضافة لعدة مواقف أخرى أدلى بها مجموعة من المعاصرين، والزلاء القدامى، بيطرحوا قراءة مختلفة تمامًا للأحداث، عكس اللي روجها بوتين أثناء ترشحه.

بالشكل ده بوتين تم تعيينه في الجامعة مش عشان مفيش شغل ثاني، ولكن لمراقبة أستاذه القديم الصاعد على الساحة السياسية بقوة.

وفي الحالة دي سوبتشاك عينه في جهازه المعاون ليس رغبة في الاستفادة من خبراته على قد ما كان عايز يختار ضابط الاتصال الخاص به في الجهاز.

ما دام كده كده هيراقبوني، مفيش مانع أختار اللي يراقبني!

بالاستماع لشهادات بعض المعاصرين لانقلاب سنة ١٩٩١، ومن ضمنهم نائب العمدة السابق فياشيسلاف شيرباكوف، من الممكن رؤية بوتين، وسوبتشاك كمعاونين للانقلاب، وإن كان على مضم.

أو في أفضل الأحوال على الحياد، وليس في مقدمة صفوف المقاومة زي ما حاولوا يصوروا للمتابعين، والمؤرخين.

أثناء الانقلاب أعضاء من مجلس المدينة حاولوا يلقوا بيان تلفزيوني يهاجموا فيه الانقلاب ويطالبوا سكان لينينغراد بالخروج للدفاع عن الديمقراطية، سوبتشاك أمر الشرطة بمنع وصولهم للمبنى ففشلوا في إلقاء البيان.

وما وصل، اتفق مع الحاكم العسكري المشارك في الانقلاب على عدم مهاجمة المتظاهرين للمباني الحيوية بشرط عدم نشر القوات العسكرية في الشوارع، ولكن لما يلتسن أمره بعزل الحاكم العسكري وتعيين نائبه بدلاً منه، سوبتشاك رفض، ووافق في نفس الوقت.

ألقى بيان، وأعلن تعيين نائبه كحاكم عسكري أعلى، وهو منصب خيالي غير موجود، ولكنه امتنع عن عزل الحاكم العسكري، فضمن بقاءه في دائرة الرضا أيًا كانت نتيجة المواجهة.

العلامة الأكبر على الخيانة، واللعب على الجانبين، ظهرت عند اكتشاف نائبه شيرباكوف لجهاز تنصت فائق الصغر مزروع في الجاكت بتاعه، واعتبر ده دليل على وجود رجل تابع للانقلاب داخل مكتب العمدة!

تفاصيل صغيرة، ولكن معبرة، عن وجود نسخة مغايرة للتاريخ تم كتمانها بحرص.

تاريخ يثبت أن الكي جي بي فكرة، والأفكار لا تموت.

رغم فشل المقال في لفت أنظار الروس للخطر القادم المسمى فلاديمير بوتين، سالي ماستسلمتش، وقررت تستعين بصديق قديم، وهو الضابط السابق، والسياسي الحالي، سيرجي يوشنكوف.

أول ما دخلت مكتبه، لقت شخص قاعد مستنيها هناك.

شخص سيرجي لم يدعوه، ولكنه عرف تحركاتها، وقرر تحذيرها بشكل مباشر.

تحذير أثار الرعب في قلبها لدرجة أنها سافرت بلا رجعة لإحدى القرى النائية البعيدة عن موسكو خوفًا على ما تبقى من حياتها، ولم تفصح أبدًا عن هويته منذ ذلك اليوم.

غير مسموح لأي شخص بطرح نسخة أخرى للتاريخ، حتى ولو كان الشخص ده سوبتشاك!

سنة ١٩٩٩ مع صعود نجم تلميذه القديم، سوبتشاك رجع روسيا، ورجع له طموحه بلعب دور سياسي في الجمهورية الجديدة.

للأسف اصطدم بالواقع، والآثار غير الممكن تفاديها لمرور الوقت، بخسارته لانتخابات البرلمان، ولكنه شارك بعدها في حملة بوتين بكل قوة، اللي افتخر بعلاقته به، وبالذور اللي لعبه في حياته، وقال إنه ستالين الجديد، زعيم قادر على حكم روسيا بالطريقة الوحيدة اللي هتخلي الشعب يشتغل: القبضة الحديدية!

المشكلة إن كلامه كثير، وأحيانًا بيحكي قصص مختلفة عن النسخة الرسمية للحملة.

ولكن مين يقدر يكلمه وهو حبيب المرشح!

يوم ١٧ فبراير سنة ٢٠٠٠ بوتين طلب من سوبتشاك السفر لكالينينغراد، الجيب الروسي على بحر البلطيق بين بولندا وليتوانيا.

الطلب عاجل، لازم يسافر في نفس اليوم!

فأزعج زوجته اللي عارفة إنه لو سافر لوحده مش هيلتزم بتناول الأدوية في مواعيدها.

سوبتشاك سافر ومعه اثنين مساعدين وحراس شخصيين في نفس الوقت، وبعدها بثلاثة أيام، توفي في غرفة الفندق اللي قاعد فيه على أثر أزمة قلبية مفاجأة.

بوتين كان متأثر في جنازته، وقال إن وفاته فعل عنيف نتيجة للملاحقة الشرسة على مدار السنوات.

هل يقصد ده حرفياً، أم مجازياً؟

تم تشريح الجثة، وفتح تحقيق للتأكد من أسباب الوفاة أغلق بعد ٣ شهور.

المفاجأة إن بعد وفاته بأيام، المساعدين اللي كانوا معاه دخلوا المستشفى لعلاج أعراض تسمم خفيفة.

الصحفي الاستقصائي أركادي فاكسبيرج نشر كتاب بعدها بسنوات عن الاغتيالات السياسية التاريخية للكرملين بعنوان

السياسة السامة (116)، قال فيه إن أعراض التسمم اللي عانى منها مساعده سوبتشاك شديدة الشبه بالأعراض اللي بيعاني

منها أقارب الساسة اللي بيتعرضوا لاغتيال بالسم.

ورجح إنه قُتل عن طريق وضع السم حول مصباح الغرفة في الفندق، فكل ما يولعها السم يتبخر وينتشر بشكل محدش يقدر يكشفه.

طريقة شيطانية معروف عنها إنها طُوِّرت في الاتحاد السوفيتي، ولكن محدش عارف سر استخدامها ضد سوبتشاك، إن صحت النظرية!

وإن كانت احتمالية صدقها زادت بتفجير سيارة أركادي في موسكو بعد عدة أشهر من نشر الكتاب.

يجب كتّم كل صوت ناشز، وجذب كل صوت ناخب.

على الرغم من عدم وجود منافسة قوية، الكرملين محتاج يضمن تصويت عدد كافي من الناخبين؛ لأن لو العدد طلع أقل من ٥٠% الانتخابات هتكون باطلة.

في يوم الانتخابات تم حشد العمال من المصانع، والموظفين من الشركات، لنقلهم إلى مراكز التصويت، اللي بعض المراقبين لاحظوا وجود أنشطة مشبوهة داخلها، زي تصويت بعض الناخبين أكثر من مرة، وفي بعض الحالات التصويت نيابة عن عدم

الحاضرين، اللي بعضهم متوفين!

الحاج الله يرحمه موصيني قبل ما يموت صوته لبوتين!

رئيس يأخذك إلى الجنة!

ولكن رغم التجاوزات، بوتين بالفعل كان يتمتع بالشعبية الأكبر بين كل المرشحين، وقدر يفوز في ٨٤ منطقة انتخابية من أصل ٨٩، بعد تصويت قطاع عريض من الشعب لصالحه من كافة الأعمار، والمهن، والطبقات.

الشعب أنهك من الحرب، والتفكك، والأزمات.

بوتين بالنسبة له نهاية للثورة، وبداية للاستقرار.

قوة شخصيته خلته رمز للأمن، والأمان، وعدم معرفة تاريخه كان سبب للتفاؤل بمستقبله.

بوتين فاز بنسبة ٥٣% من الأصوات، بينما زيوغانوف فاز في المركز الثاني بحوالي ٣٠%، حفل تنصيب بوتين شهد حضور

غورباتشوف ومعه رئيس الكي جي بي السابق وقائد انقلاب سنة ١٩٩١ فلاديمير كريبوتشكوف، في رسالة للشعب باتحاد

روسيا كلها خلف الرئيس.

احتفاء شعبي أشبه باحتفال مجموعة من الخراف السعيدة بتسليم الذئب مفتاح الحظيرة.

على الرغم من الاحتفال بالانتقال السلمي للسلطة، عدم وجود معارض لبوتين، وسيطرته على الأمن، والإعلام، خلوا البعض يعتبر انتخابه بداية العودة للديكتاتورية، خاصة أن أول قرارات الرئيس الجديد كانت العفو عن الرئيس القديم، وإنهاء أي تحقيق يخصه هو وأسرته.

بالإضافة إلى تغيير العقيدة العسكرية الروسية من عقيدة عدم استخدام الأسلحة النووية إلا في حالة الدفاع عن النفس، إلى إمكانية استخدامها في حالة وجود خطر وجودي على الدولة، حتى وإن لم تتعرض للضرب أولاً. بوتين حب يطمئن الجميع، البعيد قبل القريب، وقال في تصريح مفاجئ أن التاريخ يثبت أن كل أنظمة الحكم الديكتاتورية إلى زوال، وأن النظام الوحيد الباقي هو الديمقراطية.

وقال إن اللي يتنبأوا بعودة الديكتاتورية هما اللي يبخلوا بيها، ولكنه حلم ملوش مكان في روسيا الحديثة.

وأنتهى تصريحه بجملة درامية وقال: The train has left.

القطر غادر المحطة، والزمن لا يمكن يرجع زي الأول، عملاً بمقولة الفنانة أم كلثوم: قول للزمان إرجع يا زمان!

اللي سمعوا التصريح بمن فيهم قادة العالم الغربي فرحوا، وتفاءلوا، ومحدث فيهم تخيل أن الزمن ممكن يرجع بالفعل، والمرة دي هيرجع أسوأ من الأول!

[112](#) Etat, c'est moi.

[113](#) Why We Must Act.

[114](#) Russophobia.

[115](#) Artificially manipulated opposition.

[116](#) Toxic Politics.

حماة الوطن جائعون

«كل جيش هو نسخة من المجتمع ويعاني من جميع أمراضه، عادةً في درجة حرارة أعلى».

ليون تروتسكي

حالة الانتشاء، والتفاؤل، اللي نتجت عن انتخاب بوتين لم تستمر طويلاً.

الواقع مختلف عن الصورة، والتلفزيون ممكن يجذب أصوات، ولكن صعب بيني وطن أنهكه الفساد. والفساد في حالة روسيا تعدى السرقة، والاختلاس، إلى الاستهتار، والإهمال.

زي العفن اللي بينمو، ويزدهر في الظلام.

في شهر أغسطس سنة ٢٠٠٠، أثناء قضائه العطلة الصيفية على شواطئ البحر الأسود الدافئة في مدينة سوتشي، تلقى بوتين خبراً مفرغاً عن غرق الغواصة النووية كورسك، أثناء القيام بمناورات بالقرب من القطب الشمالي.

الغواصة غرقت بعد انفجار طوربيد فشل في الإطلاق.

عطل هندسي يشهد على تردي الأوضاع.

بعض أفراد الطاقم ماتوا بشكل فوري، ولكن بعضهم قدر يلجأ لإحدى غرف العزل في انتظار إنقاذهم.

الغواصات عرضة للغرق، وبالتالي مصممة وكأنها مجموعة من الغرف المنفصلة، كل واحدة منعزلة عن الثانية عشان لو حصلت حادثة لا قدر الله، تكون هناك فرصة لإنقاذ باقي الطاقم عن طريق غواصة إنقاذ مخصصة.

الانفجار كان قوي لدرجة إنه سمع في الدول المجاورة، واتلقط من أجهزة استشعار الزلازل في النرويج، وولاية ألاسكا الأمريكية.

أمريكا، والنرويج، والسويد، وبريطانيا، عرضوا المساعدة لإنقاذ طاقم الغواصة اللي نزلت لقاع المحيط.

قادة الجيش الروسي رفضوا لأنهم خافوا الأجانب، وبالأخص الأمريكيان، يستحوذوا على الغواصة، ويعرفوا آخر ما توصلت إليه التكنولوجيا العسكرية الروسية.

الغواصة نووية يعني شغالة بوقود نووي، مش محتاجة تزود بالوقود كل شوية، وبالتالي قادرة على التخفي، والقيام بمهام بعيدة.

كل ده خلى خبر غرق فخر الصناعة الروسية ينتشر كالنار في الهشيم.

ونزلت عناوين في بعض الصحف المستقلة تهاجم بوتين اللي قاعد بيصيف، والعساكر بتغرق.

بوتين فضل ساكت، ومعلقش لمدة أربع أيام كاملين، كل يوم فيهم الهجوم عليه كان بيزيد عن اليوم اللي قبله.

الكرملين حاول يحتوي الموقف عن طريق الإشارة إلى أن الغواصة انفجرت بعد اصطدامها بغواصة ثانية، يرجح أنها أمريكية.

لكن سياسة التشبيت، وزرع المعلومات الكاذبة فشلت بشكل ذريع.

الشعب ممكن يتقبل الخطأ، ولكن صعب يتقبل الاختفاء.

وبعد ضغط من الدول المجاورة بوتين تجاهل اعتراض قادة الجيش، وسمح لبريطانيا بإرسال غواصة إنقاذ.

بعد تسع أيام من فشل روسيا في اتخاذ أي خطوة، الغواصة البريطانية وصلت للغواصة الغارقة، وفتحت الجزء السليم لتكتشف وفاة أفراد الطاقم بالكامل.

كارثة قومية، وفاجعة مكانتش في الحسبان.

شدة الهجوم خلت بوتين يدرك ضرورة التواصل مع الشعب، فطلع في مؤتمر صحفي أعلن عن فتح تحقيق في الحادث، وبعدها سافر للقاعدة العسكرية الشمالية اللي الغواصة بتتبعها لمقابلة أهالي الضحايا، وهناك تعرض لهجوم حاد بشكل

مباشر لأول مرة في حياته.

الأهالي المكلمة رفضوا تقبل الوعود الفارغة، والعبارات الرنانة.

أحد أفراد الطاقم بعث رسالة لوالدته يشتكي لها من وجود طوربيدات منتهية الصلاحية، واضح عليها علامات الصدأ، وقال لها الموت معنا على متن الغواصة!

وبوجه عام، رغم شعبية الجيش كمؤسسة، واحتفاظها باحترام المجتمع اللي بيحتفل كل سنة بذكرى انتصاره على الجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية، عدد كبير من الشباب بيتهرب من التجنيد الإجباري بكل الطرق الممكنة، لدرجة انتشار مقولة روسية بتقول الحياة كتاب، والتجنيد صفحتين مقطوعين منه!

للهورب من قبضة التجنيد الروس كانوا بيلجأوا للرشاوي، والهجرة، وإدعاء المرض؛ لأنهم عارفين أن فترة تجنيدهم هيقضوا أغلبها في خدمة الضباط مش خدمة البلد.

بعض الضباط استغلوا موارد القوات المسلحة، والعمالة الرخيصة بهدف التربح، فيما يمكن إطلاق عليه عسكرية ستارباكس، أو أنتبرونورشيبي اللواءات.

فانخفضت درجة الاستعداد القتالي.

إزاي هيحافظوا على الأرواح، ومفيش ثمن للأرواح؟

ومش معنى أن الناس مبتتكلمش، أنهم مش عارفين حقيقة البلد اللي عايشين فيها.

ولذلك أهالي الطاقم هاجموا بوتين بمنتهى الشراسة، ورفضوا محاولات احتواء الموقف.

بوتين حس بالخوف، ولكن مع زيادة الهجوم عليه خوفه تحول لغضب، فتخلى عن حرصه المعتاد، واتكلم بشفافية غير مسبوقه عن الوضع الصعب اللي البلد فيه.

لما سألوه عن سر عدم إرسال غواصة إنقاذ روسية بعد الحادثة مباشرة، قالهم إن البلد اللي استلمها معدش فيها حاجة!

روسيا لا تملك غواصات إنقاذ، زي ما عربية المطافي اللي راحت عشان تنقذه قبلها بسنوات مكنتش فيها خرطوم مياه! التجربة سابت علامة كبيرة، وأثرت في بوتين بشكل كبير، المشكلة من وجهة نظره مكنتش في الكارثة على قد ما كانت في

التناول الإعلامي للكارثة، لو محدش اتكلم عن المشكلة، يبقى مفيش مشكلة [\(117\)](#)!

الكارثة تسببت في انخفاض شعبية بوتين بشكل حاد، فصب كل غضبه على الإعلام.

في اجتماع مع بوريس بيريوفسكي مالك نسبة كبيرة في القناة الأولى، وهي القناة الأعلى مشاهدة في روسيا، اللي قدمت تغطية مكثفة عن الحادثة، بوتين اتهمه بتأجير مجموعة من العاهرات لتمثيل دور أمهات، وزوجات الضحايا، لتحريض الشعب ضده، وإضعاف صورته.

العقلية الأمنية اللي ياما جندت عملاء لإثارة البلبلة في الغرب، والدول المعادية، صعب تشوف احتجاج أو حركة اجتماعية، بدون تفكير في وجود شبهة تأمرية.

وبوتين المؤمن بضرورة وجود دولة قوية مش مستعد يتسامح مع أي مؤامرة لإضعافها، حتى لو المؤامرة دي مش موجودة غير في دماغه، وحتى لو كان أكبر أعداء الدولة هي الدولة نفسها.

وقد كان.

القبض على المهرجين

«روسيا لديها حليفان فقط؛ جيشها، وأسطولها».

القيصر ألكسندر الثالث

بعد أيام من كارثة الغواصة كورسك، قوات الأمن اقتحموا مقرات القنوات الإعلامية المستقلة. الأمن استحوذ على أجهزة الكمبيوتر، والملفات ووجه لمديرين، وملاك القنوات، تهم متعددة هدفها الحقيقي عدم تكرار التجاوز في حق الرئيس مرة ثانية.

واحدة واحدة الإعلام الي تحرر من قبضة الحزب الشيوعي رجع تاني تحت سيطرة الحكومة.

ممنوع التغريد خارج السرب، ممنوع التغريد عمومًا!

الرئيس الجديد متابع دثوب لبرامج التلفزيون، بيتفرج كل يوم عشان يعرف الناس بتقول إيه، ويتقال عليه إيه.

والبرنامج الأهم على الإطلاق هو برنامج العرائس، أو كوكلي.

تم إذاعة الحلقة الأولى من البرنامج سنة ١٩٩٥ على قناة NTV المستقلة، المملوكة للأوليغاركي فلاديمير جونسكي، ومن ساعتها وهو البرنامج الأكثر شعبية في روسيا كلها.

كل يوم أحد الساعة ١٠ مساء الشوارع بتفضى، والناس بتتقعد قدام التلفزيون تتفرج على عرائس قبيحة من اللاتكس، ييلعبوا دور الساسة الروس، في معالجة شبيهة ببرنامج The Spitting Image أو نسخة شبه الأصل البريطاني.

برنامج شبه برنامج باسم يوسف ولكن باستخدام العرائس وليس الممثلين.

البرنامج الأسبوعي الساخر تناول الأحداث السياسية بطريقة كوميدية، تسببت في إحراج يلتسن، اللي طلب في البداية تخفيف حدة الانتقاد قبل ما يتراجع عن الدخول في مواجهة علنية مع برنامج ساخر، استمراره كان أكبر دليل على حرية التعبير في روسيا الجديدة.

يلتسن قرر الترفع، وده أسهم في خفض درجة الاهتمام بالبرنامج في نهاية أيامه.

ما كل الناس بتنتقده، إلى جانب صعوبة عمل برنامج كوميدي في واقع فاق الخيال.

ولكن بعد انتخاب بوتين البرنامج كان أول من يتجرأ على انتقاده، فنسب المشاهدة زادت ووصلت لخمسين في المئة من الشعب الروسي!

ولكن بوتين مش يلتسن، وسقف الحرية السابق اتهد فوق دماغهم.

البرنامج بدأ هجومه أثناء الحملة الانتخابية.

عرض عروسة عملاقة ترمز لروسيا، وجنبها عروسة أصغر ترمز لبوتين، بتقول لعروسة جنبها أنا مش عارف أعمل معاها إيه؟ عمري ما اتعاملت مع واحدة بالحجم ده قبل كده!

فالعروسة بترد عليه، وبتقول له اعمل معاها نفس اللي عملناه كلنا معاها!

إعمل الصح!

في إشارة إلى أن روسيا كبيرة على بوتين، وإنه أغلب الظن هيغتصبها زي كل اللي قبله!

الكرملين حذر فريق البرنامج أنهم على وشك تجاوز الخط الأحمر، فبعد الانتخابات عرضوا حلقة ثانية أعلنوا بها شهادة وفاتهم إعلاميًا.

تم تصوير بوتين على أنه عفريت، أو قزم مسحور، طفل مشوه من صنع بيريزوفسكي، ويلتسن، سرحوا شعره بمشط التلفزيون السحري، فالناس اتسحروا وبقوا شايفينه حاجة عظيمة، وهو كلامه غير مفهوم، مبيقولش حاجة غير المقاطع اللي اتشهرت عنه وهو بيتوعد الإرهابيين في الشيشان، بطريقة شبيهة بنتنياهو وهو يقول هنسماش خماس!

الحلقة بتسخر من وعده بمحو الإرهابيين من على وجه الأرض، وتشير إليه في إحدى الفقرات باسم شيطان!
وفي نهاية الحلقة، السحر بيتكشف، والناس بتنقلب عليه بعد ما يكتشفوا إنه ضحك عليهم!
بوتين شاف الحلقة، وشعر بغضب شديد.
البرنامج اتوقف في رسالة من الكرملين بتقول إن الرئيس خط أحمر غير مسموح تجاوزه.



ليه السخرية اتمنعت رغم أن مفيش منها ضرر؟
لأنها مع الوقت ممكن تتسبب في ضرر.
في كتاب Strategy: A History لورنس فريدمان بيوضح أن في مجتمعات القرد، القرد الأقوى أو ال Alpha Male صعب
مواجهته بالقوة، ولكن من السهل مقاومته بالسخرية.
في حالة طغيان الزعيم، باقي القرد تسخر منه لإضعاف مكانته في المجموعة، اللي في النهاية بتتجمع، وبتواجهه، ويا إما
بتقتله، يا بتنفيه.
الكثرة تغلب الشجاعة، والمقاومة بتبدأ بنكتة!
وبوتين غير مستعد للسماح بأي نوع من أنواع المقاومة.
القنوات دي مملوكة لرجال أعمال، وسماحهم بانتقاده على الهواء، معناه احتمالية التآمر عليه في الخفاء، فقرر شن ضربة
استباقية على مركز القوة الأخطر، والأهم في روسيا الحديثة.
الأوليغاركي.
أثناء الحملة الانتخابية بوتين أعلن بشكل صريح أن أيام الأوليغاركي أصبحت معدودة.
لا بد من القضاء على هذه الطبقة الطفيلية، اللي لديها درجة عالية من الاستحقاق، والإيمان بأنها فوق القانون.
تصريحه لم يؤخذ على محمل الجدية.
كثير من الأوليغاركي اعتبروه امتداد ليلتسن، وبالتالي طبيعي يكون الراجل بتاعهم، ويحمي مصالحهم زيه زي اللي قبله.
بالإضافة إلى أن بعضهم اعتبره مجرد مرحلة مؤقتة، قائم بأعمال الرئيس أكثر منه رئيس.
هيقضي الأربع سنين، وبعد كده هيختاروا حد تاني يحكم نيابة عنهم.
وما دام يملكو المال اللازم للتأثير على الأحزاب، والقنوات، والصحف المتحكمين في الرأي العام، فبوتين هيفضل محتاجهم
للبقاء في السلطة زي ما هم محتاجين له.
الجرأة وصلت بيهم لدرجة أن أحد رجال الأعمال، يرجح أنه بوريس بيريزوفسكي، زاره في مقر الحكومة قبل الانتخابات،
وقاله بمنتهى الوضوح إن انتخابه المنتظر كرئيس هو نتيجة مباشرة لدعمهم، وأضاف إنه من غيرهم ولا حاجة، وبالتالي

محتاج يفتكر ده كويس بعد انتخابه، وميعرضش الإيد اللي أكلته!
بوتين مردش عليه، وقاله جملة واحدة كانت كفيلة بإثارة رعبه:
ما تيجي نشوف!؟

ترويض الضباع

«العملية الخاصة للاستيلاء

على أعلى مستويات السلطة كانت ناجحة».

فلاديمير بوتين

في الوقت اللي الأوليغاريكي توهموا فيه أنهم أقوى من بوتين بسبب أجنحة المال، والإعلام، بوتين اتخذ مجموعة من الخطوات الحاسمة لقص أجنحتهم.

وزي أي مروض أسود ماهر، اتبع معاهم طريقة من اثنين:

النعيم لمن خضع

والعصا لمن عصى!

كبير الأوليغاريكي بوريس بيريزوفسكي كان يبيلم بتشكيل حزب معارض، وحاول يتفق مع بوتين على مرشح يحل مكانه في انتخابات ٢٠٠٤.

ولكنه حس بتغيير سلبى بعد زيادة سلطات الأجهزة الأمنية بشكل أسرع مما تخيل، فقرر يهاجم بوتين باستخدام ممتلكاته الإعلامية في محاولة لإعادته إلى صوابه.

صحيفة Kommersant أو رجل الأعمال باللغة الروسية اللي بيملكها نشرت تقرير عن زيادة نفوذ الأجهزة الأمنية، وحذرت من حدوث تزواج بينها، وبين الحكومة.

أما قناة NTV، المغضوب عليها بسبب برنامج كوكلي، نشرت تقرير عن واقعة ريزان، وأثارت تساؤلات مريبة عن الدور المحتمل لأجهزة الأمن.

رد بوتين كان حاسم، وسريع.

تم اقتحام مقرات الشركات المالكة للقنوات الإعلامية، وفتح تحقيقات جنائية بتهم الاختلاس، والتهرب من الضرائب، لإظهار أن هدف الحملة هو مكافحة الفساد، وليس الاعتداء على حرية التعبير.

جوزنسكي صاحب القناة الأشرس في مهاجمة بوتين اتحبس بتهمة اختلاس ١٠ مليون دولار، بالتزامن مع اقتحام مقر أكبر شركة تصنيع سيارات في روسيا، المملوكة لبيريزوفسكي، بتهمة التهرب من الضرائب.

بيريزوفسكي فيما يبدو مفهمش الرسالة، ونشر خطاب موقع من مجموعة من رجال الأعمال لمطالبة بوتين بالحفاظ على الديمقراطية.

بوتين قال له من عينيا الجوز ومناخيري اللوز، هحافظ على الديمقراطية، وأحارب الفساد الكمان.

المدعي العام في موسكو فتح تحقيق في خصخصة عملاق التعدين نوريلسك نيكل.

شركة قيمتها ٥.١ مليار دولار اتباعت سنة ١٩٩٧ لمهندس مخطط الديون مقابل الأسهم، فلاديمير بوتانين، بـ ١٧٠ مليون دولار فقط!

فتح التحقيق، بغض النظر عن نتيجته، كان جرس إنذار للمليارديرات الجدد، اللي خافوا بوتين يأمم الممتلكات اللي حصلوا عليها في التسعينيات أيام الأوكازيون.

وما إنهم مش عارفين يكسروه، حاولوا يكسبوه، وسعوا لمقابلته.

وبالفعل في يوليو سنة ٢٠٠٠ تم عقد اجتماع بين بوتين، ومجموعة من أهم رجال الأعمال في غياب بيريزوفسكي، وجوزنسكي. الأوليغاريكي فوجئوا بوجود كاميرات تلفزيون في القاعة.

الاجتماع اللي اتعودوا يتم في الخفاء مع يلتسن، المرة دي مذاع على الهواء، في إشارة أن اللعب هيكون على المكشوف.

من أول دقيقة بوتين هاجم الحضور أمام الكاميرات بشراسة، لترسيخ صورته كرجل روسيا القوي في أذهان المشاهدين، وأكد أن التحقيقات المفتوحة تحقيقات جنائية ليس لها أي أهداف سلطوية.

وقالهم إنهم مسئولين عن الوضع الحرج اللي هما فيه؛ لأن لو عندهم مشكلة مع الدولة لازم يفتكروا إنهم أسهموا في تشكيل الدولة دي بفلوسهم، ونفوذهم، وبالتالي ملهمش أي حق يشتكوا من نظام هما أكثر ناس انتفعوا منه.

وقال مقولة روسية شهيرة: «إذا كان وجهك قبيح فلا فائدة من لوم المرأة!» (118).

ولكن بعد مغادرة طاقم التصوير، اتكلم معاهم بشكل أهدى، وأكثر صراحة.

وظمنهم إنه مش هيلغي قرارات الخصخصة، ولكنه في نفس الوقت مش هيسمح بتدخلهم في السياسة سواء بشكل مباشر عن طريق الأحزاب السياسية، أو غير مباشر عن طريق القنوات الإعلامية.

وبعدها بفترة، وللتأكيد على إنه مش ناوي يخوض حرب ضدهم، مد غصن زيتون بيد، بعد إمساك العصا باليد الأخرى، وعزمهم على حفل شواء ودي لإعادة المياه لمجاربيها.

الأوليغاركي تفاءلوا خيراً، ولكن لما عرفوا المكان قلبهم انقبض!

الحفلة مقامة في استراحة لستالين، في إحدى الغابات الموجودة على ضواحي موسكو، محدش دخلها من ساعة وفاته سنة ١٩٥٣.

هو أنا مقولتلکش يا ريس؟ مش أنا بقيت فيجان!

الأوليغاركي كانوا حاسين بالذعر، ولما مشيوا بعد الحفلة مكنوش مصدقين إنه معملش معاهم زي ما محمد علي باشا عمل مع المماليك في مذبحه القلعة.

وهكذا نجح بوتين في خفض سقف طموحهم من الرغبة في التأثير إلى الرغبة في العيش، وفي نفس الوقت فتح أبواب آمنة للخروج لمجموعة قرر التخلص منها.

فاشترى من جوزنسكي شركته الإعلامية في صفقة رفضها كان معناه السجن الحتمي، وفرض سيطرة تامة، وغير مسبوقه على الإعلام منذ حل الحزب الشيوعي في بداية التسعينيات.

ولكن لتاني مرة، الوحيد اللي استمر في عدم رؤية التغيير بعد انتخاب بوتين، واستمر في ضلالات القدرة على تحديه، كان بوريس بيريوفسكي.

بيريوفسكي في نظر الحاشية الجديدة مجرم إلى درجة الخيانة، بسبب علاقته القريبة من قادة الحركة الانفصالية في الشيشان، اللي مكنته من الوساطة في توقيع معاهدة السلام بين بوريس يلتسن وأصلان مسخادوف بعد حرب الشيشان الأولى.

وفي نظر بعض رجال الأمن تاجر حرب، تربح من الفوضى، والدم، واستفاد من المبالغ المهولة اللي اتدفعت لتحرير الرهائن اللي خطفها الشيشانيين بشكل دوري.

جرأته في تحدي بوتين، واقتناعه إنه في علاقة بين أطراف متساوية زودت من عداوة الأجهزة له، بالذات بعد ما أعلن عن وقوفه في صف المعارضة بشكل صريح.

في شهر أغسطس بعد انفجار قنبلة أدت لوفاة ٧، وإصابة ٩ في موسكو، بيريوفسكي قال إن الانفجارات هتستمر طول ما الحرب ضد الشيشان مستمرة.

انتقاد حرب الشيشان بالنسبة لبوتين خط أحمر غير مسموح بتجاوزه!

وبيريوفسكي تجاوز الخط، ودخل في عداوة بلا رجعة، بعد نشر قناته لتقرير عن انفجار الغواصة أظهر أهالي الضحايا وهما بيلوموا الحكومة، وبوتين على رأسها.

فأصبح من الضروري التخلص منه.

شهر أكتوبر تم اتهام بيريزوفسكي بتهريب مئات ملايين الدولارات خارج روسيا عن طريق إحدى شركات الطيران الحكومية التي يملك نسبة منها، وفي نوفمبر تم استدعاؤه للنيابة فعرف إنه لو راح، أغلب الظن مش هيخرج. فحجز أول تذكرة طيران، وطلع برة البلد، وقال إن النظام أجبره يختار إما يكون سجين سياسي، أو لاجئ سياسي، فاختر اللجوء.

وباع أسهمه في القناة لرومان أبراموفيتش، التي بدأ نجمه في الصعود كأحد رجال الأعمال المفضلين للكرملين. نفس الكلام حصل مع جوزنسكي التي سافر أول ما تم استدعاؤه للتحقيق. بينما كل رجال الأعمال التي فضلوا في روسيا رفعوا شعار السمع والطاعة. كلهم أصبحوا في قبضة بوتين باستثناء رجل واحد فقط. ملياردير من صناعة الكي جي بي، الأجهزة الأمنية خدته تحت جناحها قبل ما يتحول لشوكة في جنبها: ميخائيل خودوركوفسكي.

مع قرب انهيار الاتحاد السوفيتي، واتضح عدم قدرة الاقتصاد المركزي على منافسة الاقتصاد الحر، الكي جي بي حس بضرورة الاستعداد لما هو قادم.

احتكاكهم بالغرب خلال عملياتهم، وعملائهم في أوروبا، وأمريكا، أكد لهم أن النهاية وشيكة. الرأسمالية انتصرت، والشيوعية على وشك السقوط.

ولذلك محتاجين يستعدوا لاقتصاد السوق الحر، والتحول المرتقب.

في بداية الثمانينات أول تحرر اقتصادي كان في صورة إنشاء شركات مشتركة أو Joint Ventures بين الشركات الروسية، والشركات الأجنبية، لإنهاء احتكار الدولة للاقتصاد، والتجارة الخارجية.

ومع تولي رئيس الكي جي بي يوري أندروبوف قيادة الحزب، بدأ قسم مكافحة الجرائم الاقتصادية في الكي جي بي عمل تجارب هدفها إنشاء جيل جديد من رواد الأعمال للعمل خارج حدود الاقتصاد المركزي استعدادًا للتحويل للرأسمالية. حاجة كدة زي شارك تانك الغلابة.

البداية كانت في السوق السوداء.

في ظل النقص الحاد في البضائع، والمنتجات، قسم مكافحة الجرائم الاقتصادية في الكي جي بي، التي وظيفته مكافحة النشاط الرأسمالي، بدأ في غض البصر عن تجار السوق السوداء، والمهربين، في محاولة لسد احتياجات المواطنين.

مفيش حد يقدر يهرّب بضاعة من أوروبا، وبالأخص ألمانيا الشرقية، بدون موافقة أو على الأقل علم الأجهزة الأمنية، التي بتدور على جيل جديد يكون ركيزة لها في الاقتصاد الجديد.

وهما أن النشاط التجاري غير الرسمي فيه مخاطرة كبيرة، التي قاموا به بشكل كبير أبناء الأقليات التي ملهمش مستقبل في النظام الرسمي، زي الجورجيين، والشيشان، واليهود، ومن ضمنهم خودوركوفسكي.

ابن لأسرة يهودية فقيرة، عايشين في شقة مشتركة في شمال موسكو.

من صغره رفع شعار لينين الشهير:

Learn and learn and learn again.

تعلم وتعلم وتعلم مجددًا.

بدأ يشتغل وهو عنده ١٤ سنة، وأولى مغامراته في ريادة الأعمال كانت تنظيمه لحفلات لزمائله الطلاب في معهد مندليف لعلوم الكيمياء.

نشاطه لفت انتباه منظمة الكومسومول الشبابية التابعة للحزب الشيوعي، فدعوه للاشتراك في مبادرة جديدة هدفها إنشاء مراكز علمية للشباب، وهدفها أيضًا خلق مصدر دخل إضافي للمراكز البحثية الروسية، وتوفير طرق لتعلم البرمجة.

وهما أن الاقتصاد الروسي شيوعي لا يعترف بالأرباح، المؤسسات، والشركات المملوكة للدولة غير مسموح لها الاحتفاظ بأي

نقود أكثر من اللي المطلوبة لدفع المرتبات، والتكاليف.

أي عوائد إضافية بتروح لميزانية الدولة، وتسجل في ميزانية الشركة كوحدة محاسبة خيالية اسمها بيزناليتشيبي. يعني لو الشركة حققت مليون روبل أرباح، الفلوس تروح للدولة، ويسجل في ميزانية الشركة مليون بيزناليتشيبي. عملة افتراضية زي فلوس بنك الحظ، وجودها في الحساب غير مرتبط بوجود نقود موازية في حساب الشركة، وده خلق فرق في سعر الصرف.

رغم أن البيزناليتشيبي الواحدة تساوي روبل واحد، فعم دوستويفسكي صاحب السوبر ماركت مش هياخد بيزناليتشيبي مقابل كرتونة بيض.

ولذلك بسبب نقص الكاش، الروبل الأقل توافراً، أصبح أعلى بكثير.

الروبل الواحد وصل لحوالي عشرة بيزناليتشيبي.

ولكن مع بداية التحرر الاقتصادي في عهد غورباتشوف، أصبح بإمكان المؤسسات، والشركات تحويل البيزناليتشيبي لروبل بسهولة، فخلق ثروة غير مسبوقه في أيدي الرؤساء، والمديرين، أتاحت لهم الفرصة لعمل مبادرات زي مراكز الشباب العلمية اللي مكنت خودوركوفسكي، وشركاه، من التحكم في مبلغ ضخم يوازي ١٧٠ ألف روبل. في نفس الوقت تم السماح لأول مرة بإنشاء شركات خاصة مملوكة للمواطنين في القطاعات العاجزة عن تلبية احتياجات السوق، زي تجارة السلع الأساسية، وخدمات تصليح الأحذية، وغسل، وكي الملابس. وبعدها تم السماح للشركات الخاصة في العمل في تجارة المواد الخام، والثروات الطبيعية، كنز روسيا الأكبر، ومصدر ثرواتها الأهم.

خودوركوفسكي وشركاؤه اشتروا عملة صعبة من مصدري الأخشاب واستوردوا أجهزة كمبيوتر، وكل ده تحت عيون، وبناء على توجيهات الحكومة.

الاتحاد السوفيتي عليه عقوبات غربية لحرمانه من أحدث التكنولوجيا.

خودوركوفسكي هرب الأجهزة لروسيا بمساعدة الكي جي بي، وباستخدام شبكاته، فكون نواة ثروته المستقبلية.

توماس جراهام، عضو مجلس الأمن القومي الأمريكي المسئول عن روسيا، قال إن جيل رجال الأعمال الجدد لم يظهر من فراغ، وتلقوا مساعدات من الحكومة، وأجهزة الأمن.

المساعدة دي مكنتش دائماً لله وللوطن، أحياناً كانت محاولة من الأجهزة اللي تتمتع بفائض من الأموال، زي قسم الاستخبارات الخارجية في الكي جي بي، لتشغيل النقود، والحصول على أكبر عائد ممكن.

فضربوا أربع عصافير بحجر واحد:

١- خلقوا جيل جديد من العملاء للجهاز بشكل مباشر أو غير مباشر.

٢- وفروا بضاعة مهمة للاتحاد.

٣- زودوا من عوائد الجهاز مما أتاح القيام بعدد أكبر من العمليات.

٤- حصلوا على دخل إضافي عشان يأمنوا أنفسهم مما هو قادم.

عشرات من رواد الأعمال الجدد زي خودوركوفسكي بدأوا في تأسيس شركات خاصة للعمل في مجال السلع الاستهلاكية، والكمبيوتر.

الشركات الأقوى منهم كانت تخص الأقلية المحظوظة اللي تم السماح لها بتأسيس بنوك، وتجارة المواد الخام، والموارد الطبيعية.

في البداية الكي جي بي كان ماسك تجارة المواد الخام بقبضة من حديد، ولكن بعد السماح للشركات الخاصة بالمشاركة في نهاية الثمانينيات، تجارة المواد الخام أصبحت مصدر هوس للباحثين عن الثراء السريع.

مديرو المصانع الحكومية أسسوا شركات خاصة لتصدير المواد اللي بينتجوها زي الصلب، والنحاس، والسماذ، والألومنيوم.

السلعة الوحيدة التي فضلت تحت سيطرة الكي جي بي هي البترول. باقي السلع كلها أصبحت تعامل كملكية خاصة، رغم أنها ملكية عامة. طوفان من الاختلاس، والسرقعة، والتربح، سارع بانتهيار الاتحاد، وعجل بسقوط الحزب. كل ده أمام أعين أجهزة الأمن التي بقت عاملة زي الجهاز المناعي التي واقف يتفرج على جسد الاتحاد وهو يحتضر، ومش قادر ينقذه.

بينما خودوركوفاكي وأقرانه حاسين إن الحياة تُبعث في الاقتصاد الميت إكلينيكيًا من أول وجديد، وهما أن الشركات محتاجة تمويل، والبنوك الموجودة متعثرة.

خودوركوفاكي بمساعدة اليد الخفية للسوق، واليد الخفية لل كي جي بي، حصل على رخصة لتأسيس بنك Menatep بالشراكة مع مجموعة من داعميه القدامى من الضباط، ومديري المراكز البحثية. فتمكن من الحصول على سيولة غير مسبوقه للتوسع، والنمو.

وهما أن البنك يقدر يدي قروض أكبر من كمية المدخرات الموجودة فيه طبقًا للقوانين، بين يوم وليلة خودوركوفاكي بقى عنده قدرة على توفير قروض ضخمة لشركته، يعني مثلاً لو في ودائع بمليون دولار البنك ممكن يطلع قروض بأضعاف المبلغ ده على حسب هو ملزم يحتفظ بنسبة قد إيه من الفلوس داخل البنك، النسبة دي هتحدد هو يقدر يطلع قروض قد إيه بناءً على المدخرات المحتفظ بيها، يعني كمثال لو اللوائح والقوانين في البلد التي البنك فيها بتلزمه يحتفظ على الأقل بنسبة حد أدنى بنسبة ١٠% من أموال المودعين، ده معناه أن لو البنك فيه كاش مليون دولار، يقدر يدي قروض بعشرة مليون دولار في عملية تسمى Quantitative Easing، عملية مبنفكرش فيها لما نيجي نتكلم عن صناعة الأموال، عادة لما بنتكلم إن إحنا هنعمل فلوس، بنفكر في طباعة الأموال، لكن الطباعة تخص جزء الكاش التي ممكن يكون بيشكل حوالي ٦% من إجمالي النقد أو الأموال في العالم كله.

ولكن العملية الأكثر انتشارًا واستخدامًا في صناعة النقود هي ال Quantitative Easing، وهي لها علاقة بالقروض، كل ما الناس تحط مدخرات أكثر في البنك كل ما البنك يقدر يدي مدخرات أكثر، النقطة دي بديهية ومفهومة لكن التي دايمًا مش بناخد بالناس منه، أن المدخرات دي أقل بكثير من القروض التي طالعه؛ لأن أي بنك شغال في العالم شغال على افتراض إن عملاءه عمرهم ما هيطلبوا فلوسهم في نفس اللحظة، وإذا ده حصل فيما يسمى بالذعر المصرفي البنك ينهار. لأن ببساطة مش هيكون في فلوس تكفي طلبات العملاء كلهم لو قرروا يسحبوا فلوسهم في وقت واحد، ولذلك هذا النظام قائم على الثقة، نحن نعيش في بيت من ورق.

فالقروض التي خدها لشركاته من البنك بتاعه، مكنته من استيراد أجهزة كمبيوتر بكميات أكبر، وبعدها حصل من البنك المركزي الروسي على أولى رخص تجارة العملة الصعبة.

فبقى يشتري دولار بأقل من روبل واحد للدولار طبقًا للسعر الرسمي، وبعد كده يبيع الكمبيوتر بسعر صرف السوق السوداء، حوالي ٤٠ روبل للدولار الواحد، ويرجع يحول الروبل للدولار، ويبقى كسب مرتين، مرة من فرق سعر الكمبيوتر، ومرة من فرق سعر الدولار.

السماح بتجارة العملة أدى لخروج مليارات الدولارات من الاتحاد السوفيتي لحسابات خفية، ومؤمنة في الخارج. مع سهولة الحصول على الدولار في وقت زاد فيه الشعور بعدم الاستقرار اقتصاديًا، وسياسيًا، كل التي كان بيقدّر يغير فلوسه دولارات، ويحولهم خارج روسيا كان بيعمل كده.

وأكبر المستفيدين من التحويلات كانوا قادة الحزب الشيوعي، وضباط الكي جي بي أنفسهم، التي حولوا مبالغ طائلة عن طريق البنوك الجديدة، ومن ضمنهم بنك مينتاب.

لأنهم شافوا البلد بتتغير قدام عينيه، وحبوا يأمّنوا أنفسهم من غدر الزمان، وفي نفس الوقت شافوا الناس كلها بتكسب، وحبوا يكسبوا هما كمان.

وكله على حساب المواطن السوفيتي الغلبان!

سنة ١٩٨٩ التحول الاقتصادي خرج عن السيطرة، وبقي عامل زي العربية اللي مفيهاش فرامل، ومحتاجة حد يوقفها. في اقتراح هدفه وقف نزيف الأموال، والعملية الصعبة من خزينة الدولة، غورباتشوف اقترح وضع حد أقصى لمرتبات أصحاب الشركات الخاصة، أو الجمعيات التعاونية زي ما بيسميهم، بحوالي ١٠٠ روبل في اليوم، مع إلزامهم بوضع باقي الأرباح في حساب في أحد البنوك الحكومية.

الاقتراح قوبل برفض شديد من قادة الحزب الشيوعي نفسه لأنهم متربحين من الوضع الحالي. المائة روبل دول خليههم لك، ابقى هات بيهم سلطة بطاطس!

على الرغم من اقتناعهم أن البلد في حالة خطيرة، حب المكاسب الفردية تغلب على المصلحة الجماعية. أعضاء الحزب والكي جي بي انقسموا بين حرس قديم شايف الاتحاد السوفيتي بينهار، وبين جبهة تقدمية هدفها الاستعداد للمستقبل بدل من محاولة التمسك بالماضي.

الانقسام هو السبب الرئيسي في فشل الانقلاب على غورباتشوف، وهو السبب في دعم بعض أعضاء الجهاز لبوريس يلتسن اللي شافوا فيه شخص هيحافظ على مصالحهم، ومش هيحاول يرجع عجلة الزمن إلى الخلف. خودوركوفسكي وأقرانه من رجال الأعمال الجدد، اللي كانوا لسة سمك بلطي لم يتحول بعد لحييتان، دعموا يلتسن، وشاركوا في حملته الانتخابية.

أثناء التضخم غير المسبوق في بداية التسعينيات، سهولة حصولهم على العملة الصعبة أمنتهم من تبخر مدخراتهم زي ما حصل لأغلب المواطنين.

وفي مقابل دعمهم له في الانتخابات، يلتسن أصدر قرار بالسماح بإيداع عوائد الدولة في البنوك الخاصة المملوكة لأعضاء حاشيته، فتحكموا في سيولة أكبر مكنتهم من الدخول في مشاريع ضخمة دون الحاجة لمشاركة الدولة في الأرباح. ولكن كل ده كوم، واللي حصل بعد إعلان يلتسن عن مخطط الأسهم مقابل القروض كوم تاني خالص. رجال الأعمال الجدد كان عندهم ما يكفي من السيولة ورأس المال للتحكم في أهم وأكبر الشركات الحكومية، وعلى رأسهم شركات الطاقة.

خودوركوفسكي استحوذ على النسبة الأكبر في أسهم شركة البترول Yukos بحوالي ٣٠٠ مليون دولار، وأبراموفيتش استحوذ على شركة البترول Sibneft بحوالي ١٠٠ مليون دولار. ودول مجرد أمثلة للذكر وليس الحصر.

حوالي ٧ أشخاص من مالكي البنوك أصبحوا يمتلكوا ٥٠% من الثروة في روسيا! رجال الأعمال تحولوا من أداة في يد النظام، إلى يد متحكمة في النظام.

الكي جي بي اتفرج على وحش الأوليغاركي اللي خلقه وهو بيكبر، ويتوحش، ويخرج عن السيطرة. وحش أشرس، وأغنى، وأشهر من فيه هو ميخائيل خودوركوفسكي.

الصدام الأول بين الكي جي بي وخودوركوفسكي كان بسبب استحواده هو وأقرانه على شركات الطاقة؛ لأنه حرم الجهاز من عوائد التصدير.

الشركة كانت بتبيع للجهاز البترول بالسعر المحلي، فياخده ويصدره بالسعر العالمي، والفرق يمول به عملياته، وعملاءه. بعد حصول خودوركوفسكي على يوكوس أنشأ ذراع تجاري للتصدير خلاه في غنى عن شبكات الكي جي بي، اللي اعتمد عليها في بداية حياته.

وبدأ في تحويل الأرباح لحسابات خارجية تابعة لمجموعة مينايب المالكة لشركاته وبنوكه.

سنة ٢٠٠٢ امتلاكه لثلث أسهم المجموعة خلى ثروته تفوق سبعة مليار دولار، فأصبح أغنى رجل في روسيا بلا منازع في وقت ميزانية الدولة كلها كانت أقل من سبعين مليار دولار!

ثروة في نظر الأجهزة الأمنية غير مستحقة، ونفوذ يجب وضعه عند حده. إعلان عن ثروته كان محاولة لإرساء قيم الشفافية في سوق أغلب معاملاته بتتم في الظل، خوفاً من عيون الناس، وعيون الأمن.

خودوركوفسكي مقتنع أن ثروته نتيجة لعمله واجتهاده. رجل في المكان الصحيح، والوقت الصحيح، قدر يستغل الفرصة لبناء إمبراطورية شاسعة، قبل ما يتحول لأشد المنادين بالديمقراطية، والمدافعين عن السوق الحر. خودوركوفسكي أسس منظمة روسيا المفتوحة Open Russia على غرار منظمة Open Society للملياردير الشهير جورج سوروس.

منظمة هدفها نشر قيم الديمقراطية، عن طريق تدريب الصحفيين، وعمل معسكرات صيفية للشباب، إلى جانب أنشطة خيرية متعددة، شملت افتتاح مقاهي إنترنت في الأقاليم، ومدارس للفقراء، لدرجة أن بعض المصادر رجحت تمويله لـ ٨٠% من المنظمات الخيرية في روسيا. ومن باب الواجهة عين وزير الخارجية الأمريكي السابق هنري كيسنجر كعضو في مجلس إدارتها، وفي نفس الوقت عمل علاقات قوية مع رجال أعمال أمريكيين. فأرسل أول حملة بتزول من روسيا لميناء تكساس، ونادى بضرورة مد خط أنابيب مستقل من روسيا لأمريكا خارج سيطرة الدولة.

بوتين رفض بشكل قاطع. السيطرة على أنابيب البترول آخر ما تبقى من سيطرة الدولة على قطاع الطاقة، وورقة تضغط تقدر تستخدمها ضد الأوليغاركي لو خرجوا عن النص.

بينما خودوركوفسكي مش بس يحاول يكسب تجارياً، ولكن كمان بيحاول يأمن نفسه هو والبلد كلها سياسياً، باعتبار أن الدمج بين الاقتصاد الروسي، والاقتصاد الأمريكي هيمنع رجوع روسيا إلى الخلف بكل ما يتطلبه من حماية للمستثمرين، وحوكمة، وشفافية للشركات.

ولذلك بعد دمج شركته بشركة أبراموفيتش، وتأسيس العملاق YukosSibneft في صفقة قيمتها ٣٦ مليار دولار، طُرح جزء منها للبيع لإحدى شركات الطاقة الأمريكية.

إكسون موبيل، وشيفرون أعلنوا اهتمامهم، وبوتين أعلن عن غضبه!

بوتين كان موافق على التعاون مع شركات الطاقة الأمريكية في البداية؛ لأنه اعتبره باب خلفي للسيطرة على الشركات دي. شركة أمريكية عملاقة تحصل على نسبة في شركة روسية، وفي المقابل الشركة الروسية تحصل على حصة في الشركة الأمريكية، مما يعني زيادة تأثيره على سوق الطاقة الأمريكي والعالمي بشكل يسمح في المستقبل باستحواده على الشركة بالكامل إذا أتاحت الفرصة.

ده المنطق اللي خلاه يوافق على شراء عملاق الطاقة BP لنصف شركة TNK الروسية بقيمة ٦.٧ مليار دولار. لكن لما قابل الرئيس التنفيذي لإكسون موبيل، وقال له أنه ناوي يشتري حصة أغلبية متحكممة، بعد شراء حصة أقلية في شركة YukosSibneft، قرر منع عملية الاستحواذ بأي طريقة.

الخطة كانت شراء ٤٠% من الشركة مقابل ٢٥ مليار دولار، ثم رفع النسبة لـ ٥٠% زي ما حصل في صفقة BP، رغم أن صفقة BP كانت استثناء وأسهم في موافقة بوتين عليه أن رجل الأعمال ميخائيل فريدمان المتولي الشراكة من الجانب الروسي، ولأنه التام للكركمليين.

على عكس خودوركوفسكي اللي ابتدى يشوف نفسه أكبر من مجرد رجل أعمال، وأعلن أنه هيتقاعد من إدارة الشركة وهو عنده ٤٥ سنة، أو سنة ٢٠٠٧، قبل الانتخابات الرئاسية المحددة سنة ٢٠٠٨، في إشارة إلى أنه يستعد للترشح!

كل المواقف دي اتسجلت في ملف خودوركوفسكي، اللي افكر أن علاقته بالأمريكان هتحميه، وأن بوتين مش هيغامر بالدخول في مواجهة مع أغنى رجل في روسيا.

أي حركة غدر من الحكومة معناها فقدان ثقة المستثمرين الأجانب في السوق الروسي، في وقت الاقتصاد ما زال بحاجة إلى استثمارات.

ولكنه نسي إن زي ما هو الأغنى، بوتين هو الأقوى.

في فبراير سنة ٢٠٠٣ في اجتماع بوتين الدوري مع كبار رجال الأعمال، خودوركوفسكي طلب الكلمة وبدأ في عرض presentation بعنوان:

Corruption in Russia: A Break on Economic Growth.

الفساد في روسيا: فرامل على النمو الاقتصادي.

وقال إن تكلفة الفساد في روسيا وصلت لحوالي ١٠% من إجمالي الناتج القومي، نسبة مهولة تقدر بالمليارات، علمًا بأن عوائد الضرائب تشكل حوالي ٣٠%.

وكدليل على انتشار الفساد، قال إيه اللي يخلي حديثي التخرج يموتوا أنفسهم عشان يشتغلوا في مصلحة الضرائب، رغم أنهم لو دخلوا كلية هندسة، واشتغلوا مهندسين بتزول، هيكسبوا ما لا يقل عن أربع أضعاف مرتبهم في المصلحة؟ السبب الوحيد هو يقينهم أنهم هيعملوا أضعاف المرتب ده من الرشاوي، والعمولات، في اقتصاد أغلبه بيدور تحت الترابيزة.

وضرب مثال بصفقة استحواذ شركة Rosneft على إحدى شركات البترول الأصغر بقيمة ٦٠٠ مليون دولار، رغم أن قيمة الشركة الحقيقية لا تتعدى ٣٠٠ مليون دولار!

وأنهى كلامه بالتساؤل عن سر دفع ضعف السعر العادل للشركة، وعن الاستفادة من ال ٣٠٠ مليون دولار اللي اتدفعوا زيادة!

رجال الأعمال اللي قاعدين حوالياه أصيبوا بذهول من جرأته، خاصة أن الاجتماع مذاق على التلفزيون، بوتين ابتسم ابتسامة توحى بالهدوء، رغم أنه بيغلي من جواه من الغضب، ورد بمنتهى الهدوء، وقال له إن روزنفت قامت بالصفقة لأنها محتاجة تزود احتياطي البترول اللي عندها، وده من حق أي شركة تعمل كده.

شركة زي يوكوس مثلاً عندها احتياطي زيادة عن حاجتها الإنتاجية.

محتاجين نناقش إزاي يوكوس حصلت على الاحتياطي ده، ونتكلم عن نقط تانية مهمة زي التهرب من الضرائب.

جاي تكلمني عن الفساد، وأنت ابن الفساد؟

زي ما قال الفنان محمد صبحي:

تكلم يا ابن الشعب!

بتشتكي أن الضرائب اللي الدولة بتلمها قليلة، وأنت شخصياً بتتهرب من دفع الضرائب، حتى وإن كان بشكل قانوني عن طريق التحويلات الخارجية، والثغرات القانونية؟

طفح الكيل!

خودوركوفسكي كسب عداوة الرئيس، وبدأ العد التنازلي للتخلص منه مرة واحدة، وأخيرة.

بعد المواجهة قوات الأمن اقتحمت مقر شركة Yukos-sibneft.

عشرات الجنود، والضباط، شايلين مدافع رشاشة، ولايسين دروع واقية من الرصاص.

المنظر المرعب يوحى بمأمرية للقبض على أحد الإرهابيين مش مأمرية ضرائب!

بعض المقربين من الكرملين نصحوا خودوركوفسكي يسافر في أسرع وقت.

لو فضل في روسيا مصيره هو السجن المؤكد.

فرفض النصيحة، وقال إنه مستعد يحارب من أجل شركته.
من السهل الواحد يرحب بدخول حرب، وهو فاكر إن أمريكا هتقف في صفه.
ومن السهل برضه الواحد ينسى إن أمريكا أولويتها الدفاع عن مصالح مش أشخاص.
وبالفعل في أكتوبر سنة ٢٠٠٣ أثناء توقف طائرته الخاصة للتزود بالوقود، تم القبض على خودوركوفسكي بتهمة التهرب من
الضرائب، واترحل على سجن شديد الحراسة في موسكو.
خبر القبض عليه تسبب في زلزال عنيف للاقتصاد الروسي.
أغنى رجل في روسيا، وفي نظر البعض الأنجح، بعد ما كان على وشك بيع شركته ب ٢٥ مليار دولار، بعد سبع سنين من
شرائها ب ٣٠٠ مليون دولار فقط.

رجال الأعمال حسوا بالهلع!
اللي بيضرب في العراق بكرة هيضرب في الوراق، والقبض على خودوركوفسكي معناه إن مفيش حد فوق القانون، ومفيش
حد هيفلت من بوتين!
كالخراف المذعورة، اتحاد الصناعيين، ورواد الأعمال الروس، اللي يعتبر الكيان الناطق باسم الأوليغاري في روسيا، عقدوا
اجتماع طارئ ليلة القبض على خودوركوفسكي.
اجتماع لم يثمر عن أي شيء باستثناء خطاب مایع، ومحاييد إلى أقصى درجة، وقعوا عليه، وأرسلوه لبوتين لمطالبته بالتدخل،
والإفراج عنه.

يفرج عنه إيه؟ أومال مين اللي قبض عليه؟
فبوتين رد بشكل حاسم، وقال إنه مش هيسمح بعقد أي اجتماعات أو مفاوضات تخص مصير سجين قضيته في المحكمة.
لا يجوز التدخل في أحكام القضاء المستقل.
بعض رجال الأعمال حسوا بالغضب، والندم لمشاركتهم في صناعة وحش بقى قوي لدرجة إنه عض الأيد اللي اتمدت له،
ومعدش حد منهم يقدر يقاومه بأي شكل.

كل واحد فيهم مشغل عمرو دياب، وهو قاعد يعيط في العربية، وبمسح دموعه بالدولارات:
وادي الملاك البريء، أبو قلب طيب أوي، أدي اللي كان كل شيء، كسر لي قلبي القوي!
ولكن الأسواق المالية لا بتعترف بالملائكة ولا الشياطين.
ولا بعمر دياب الحقيقة!
الأسهم لا تنافق، ولا تُعتقل.

صحيح البورصة مش دائماً مقياس دقيق لقيمة الشركات، ولكنها مؤشر جيد لقياس مدى الثقة في الاقتصاد.
طبقاً لبول زاك، أستاذ الاقتصاد، وعلم النفس، ومؤسس مركز دراسات ال Neuroeconomics أو الاقتصاد العصبي في
جامعة كليرمونت للدراسات العليا في أمريكا، اختلاف درجة الشعور بالثقة بين المجتمعات في الدول المختلفة يؤثر على أداء
الاقتصاد بشكل مباشر.

الدولة اللي مواطنيها بيتثقوا في بعض، وفي مؤسسات الدولة، حجم المعاملات الاقتصادية بينهم أكبر، على عكس المجتمعات
اللي تنعدم فيها الثقة، كل واحد بيخاف على نفسه، وممتلكاته، وبالتالي المعاملات تقل، والاقتصاد ينكمش، رغم كل
المحفزات، والتسهيلات اللي ممكن تكون بتعالج الأعراض، وليس المرض نفسه.
القبض على خودوركوفسكي أدى لانهايار البورصة الروسية بشكل مرعب، خاصة بعد الاستحواذ على حصة خودوركوفسكي في
الشركة، البالغة حوالي ١٥ مليار دولار، بالإضافة لتجميد كافة ممتلكات، وأرصدة الشركة نفسها.
الخبر كان صاعقة كهربائية للأسواق المالية العالمية.

صفقة البيع المنتظرة داخل فيها بنوك عملاقة زي Citigroup وMorgan Stanley؛ اللي حسوا إنهم بيتعاملوا مع فلاديمير

لينين مش مع فلاديمير بوتين.
لا تحدثني عن الأرض، والخبز، والبندقية.
حدثني عن ستارباكس، والبيج تيستي كومبو لارج إكسترا فرايز مع الأوردرا!
بوتين تواصل معاهم بشكل شخصي، وأكد لهم إن اللي بيحصل ده مجرد تطبيق للقانون على رجل أعمال متهرب من الضرائب، ولا يعكس بأي حال من الأحوال أي تغير في فلسفة روسيا، أو تخليها عن السوق الحر.
وأكد لهم أن الاستحواذ على أسهم خودوركوفسكي، وتجميد الأرصدة هدفه ضمان وجود ما يكفي من الأصول أو ال Assets لتغطية الشركة لمسئوليتها أو ال Liabilities، والوفاء بديونها للحكومة، والبنوك.
البنوك اقتنعوا بكلامه، وقالوا أفلح إن صدق.
ولكن الكلام كان غير مقنع بالمرة لبعض الأصوات في أروقة السياسة الأمريكية، اللي بدأوا يدركوا الشخصية اللي بيتعاملوا معاهم بشكل خلاهم متأكدين إن عمره ما هيصدق.
فطالبوا بالضغط عليه سياسياً لوقف قطار السلطوية قبل مغادرة المحطة.
عضو مجلس الشيوخ جون ماكين، وجورج سوروس طالبوا بطرد روسيا من مجموعة ال GA المنتدى السياسي السنوي لكبرى الدول الصناعية اللي روسيا أصبحت عضواً فيه سنة ١٩٩٧، ولكن المطالب وقعت على أذان صماء.
من بعد ١١ سبتمبر مكافحة الإرهاب أصبحت الأولوية القصوى لأمريكا.
إدارة جورج بوش تعاونت مع الحكومة الروسية في المسائل الاستخباراتية، وكانت محتاجة إذن لها لاستخدام المجال الجوي، والأراضي الروسية، لنقل المعدات لقواتها في أفغانستان.
فمش هنضحي بكل ده عشان ننقذ رجل أعمال روسي، أغلب الظن إنه فاسد، وبنى ثروته خلال سنوات الفوضى، والفساد.
الإدارة الأمريكية تجاهلت الأصوات المنادية باتخاذ موقف حازم ضد روسيا، ودافعت عن بوتين، وقالت إنه حتى لو اللي بيعمله غير قانوني فهو متماشي مع روح القانون؛ لأنه عايز يفرض النظام، واحترام القانون بعد سنوات من عدم احترامه.
بوتين اللي مكنش شايل هم غير رد فعل أمريكا، وأتباعها من المجتمع الدولي، أول ما تأكد أن كل تركيزها مع بن لادن تنفس الصعداء، وركز في كيفية إنهاء المسرحية القانونية بحنكة، واحترافية.
ودي كانت بداية إحدى أغرب المحاكمات الهزلية في التاريخ الحديث.
على مدار ١١ شهر، خودوركوفسكي دخل قفص الاتهام كل يوم، وقعد ساعات طويلة يسمح الاتهامات الموجهة ضده في قاعة المحكمة في موسكو.
الاتهامات اللي أشرف على تحضيرها الكرملين شملت التهرب من الضرائب أثناء إدارته ليوكوس، ولكن ده اتهام سهل تخفيض عقوبته في حالة دفع المبالغ المستحقة.
محتاجين اتهام أقوى لإبعاده عن الساحة، وسجنه لفترة طويلة.
فشككوا في صحة استحواذه على مصنع سمد، ومركز بحثي في شمال روسيا، في أول صفقة استحواذ كبيرة لمجموعته البنكية سنة ١٩٩٤.
المحاميين بتوعه مبقوش مصدقين اللي بيسمعوه!
بالنسبة للضرائب، الشركة استغلت قوانين، وإعفاءات ضريبية كانت متاحة لها، ولشركات غيرها بهدف تحفيز الاستثمار.
فإزاي الحكومة تصدر قانون، وترجع تعاقب الشركة على اتباعه؟
أما بالنسبة لصفقة الاستحواذ على مصنع السمد، فدي صفقة كلها كام شهر، ويعدي على تاريخ إتمامها عشر سنين، وفي الحالة دي لا تصلح لإعادة النظر فيها في المحكمة.
وبالإضافة لعوار عدم الالتزام بالإجراءات القانونية، فالهزلة الأكبر هي انتفاء القوانين، وتطبيقها بأثر رجعي لحياكة الاتهامات لإدانتته بشكل مؤكد.

ولما أتيت لخودوروكوفسكي الفرصة للرد على الاتهامات، وقف في مشهد مهيب، وقال إن المتهم الحقيقي في القضية هي الحكومة، وأعضاء جهازها البيروقراطي، اللي بيحاولوا يحطوا إيديهم على شركته بأي طريقة، لزيادة مكاسبهم الشخصية، وليس الحفاظ على ممتلكات الدولة.

مسئولين نشروا إشاعات عن أهدافه السياسية لإثارة خوف الأجهزة الأمنية.

وقال أنا مسجون لأنهم عايزين الشركة، ولازم يبعدونني عشان يعرفوا ياخدوها!

ومع ذلك مقدروش يجمعوا غير قائمة اتهامات سخيفة، مفيهاش اتهام واحد صحيح.

وفي ختام حديثه قال بتأثر أنا مؤمن إن بلدي روسيا هتكون دولة عدل، وقانون، I have faith that my country Russia will be a country of justice and law، ولذلك فالمحكمة لازم تحكم بناء على العدل، والقانون، ومكنش يعرف إن الحكم صدر من قبل بداية المحاكمة.

القبض على خودوروكوفسكي في نظر البعض هجوم على الملكية الخاصة، والسوق الحر، ولكنه في الحقيقة هجوم على أجهزة العدالة، واستقلال القضاء.

في الوقت اللي بوتين بيأكد فيه على عدم تدخله في القضية، مكتبه كان في تواصل يومي مع القضاة للسيطرة على الحكم من قبل ما يعلن.

السيطرة السياسية والاقتصادية لن تتم إلا عن طريق السيطرة على القضاء، ولذلك النظام الجديد، أو بالأصح النظام القديم في وجهه الجديد، عازم على وضع المؤسسة القضائية داخل شبكته العنكبوتية، سواء بالترغيب، أو التهيب. بنت إيجور سيتشن نائب رئيس الديوان الرئاسي، وتلميذ بوتين المخلص اتجوزت ابن النائب العام، وأبوها تابع سير القضية بنفسه لضمان صدور الحكم المناسب للكرملين.

مطلوب توقيع أقصى عقوبة على خودوروكوفسكي لإبعاده عن الساحة، ثم توقيع أكبر غرامة ممكنة على الشركة بشكل يضمن تعثرها، وعدم قدرتها على السداد، فتعرض للبيع بشكل قانوني بعيدًا عن شبهة الاستحواذ بوضع اليد أو التأميم. وكل ده لازم يتم في أسرع وقت قبل مرور ١٠ سنوات على صفقة الاستحواذ على مصنع السماد.

فتم تخصيص مصحة سابقة تبعد حوالي ٥٠ كيلومتر عن العاصمة، عشان القضاة الثلاثة يقعدوا فيها لحد ما ينتهوا من صياغة الحكم، وفي نفس الوقت الكرملين اللي حطهم تحت المراقبة يضمن عدم أخذهم لأي رشوي من أصدقاء خودوروكوفسكي فاحشي الثراء.

أحد القضاة رفضت تروح المصحة فإيجور سيتشن تواصل مع رئيسة محكمة موسكو، وزوجة أحد ضباط الإف إس بي، أولجا ييجوروا، عشان تتدخل.

دي قضية أمن قومي، والوضع مش مستحمل أي غلطة.

أولجا ضغطت على زميلتها ودخلت معاهم في معسكر مغلق في المصحة إلى حين الانتهاء من إصدار الحكم، اللي وضحت لهم ضرورة اتفاهه مع العقوبة اللي طالبت بها النيابة.

القضاة عبروا عن استيائهم، وعن عدم قدرتهم على توقيع أقصى عقوبة، بسبب ضعف وعدم كفاية الأدلة، بالإضافة للعوار الإجرائي اللي طغى على المحاكمة من بدايتها.

فقال لهم الحكم اتحدد، والعقوبة اتعرفت، كل اللي مطلوب يعملوه هو صياغة الحكم، وليس التفكير فيه.

وبالفعل بعد قراءة حيثيات الحكم لمدة ١٢ يوم متواصلين في قاعة المحكمة، تم الحكم على خودوروكوفسكي بالسجن تسع سنوات وسط دهشة، وصدمة الحضور.

على قد ما كان واثق في عداء الكرملين، على قد ما كان واثق في عدالة القضاء.

ومتخيلش إنه ممكن يتأثر بالسلطة التنفيذية بهذا الشكل الفج في قضية لها توابع محلية، ودولية.

صدمته نابغة من ثقته إن علاقته بالبنوك، وشركات البترول الأمريكية هتنقذه، ومكنش يعرف إن الأمريكان هما أول ناس

باعوه.

بالتوازي مع الحكم على خودوركوفسكي بالسجن المحكمة حكمت على Yukos بدفع ٣,٤ مليار دولار ضرائب بأثر رجعي عن سنة ٢٠٠٠.

مبلغ مهول، وكافي لتعثر أي شركة.

الشركة ممكن تمر بمرحلة انعدام سيولة، أو illiquidity، معندناش كاش ندفع بس عندنا أصول ممكن نبيعها وبثمنها نسدد اللي علينا.

وممكن تمر بمرحلة أخطر وهي ال Insolvency أو التعثر، وفي الحالة دي الشركة التزاماتها بتتخطى أصولها، أو ال Liabilities بتكون أكبر من ال Assets، وفي الحالة دي الشركة بتعلن إفلاسها Bankruptcy، وبتبدأ في بيع الأصول لتغطية الالتزامات للموردين والدائنين، اللي لهم أفضلية وأسبقية على الملاك، اللي بيستنوا للآخر، وأغلب الظن مبيكونش فاضل حاجة ياخدها.

ولذلك لو الشركة حجم أصولها كبير زي يوكوس، فالحل الوحيد للاستحواذ عليها بشكل قانوني، وسعر قليل، هو إنقالها بالالتزامات لخفض قيمتها.

$$\text{Equity} = \text{TEV} - \text{Liabilities}$$

TEV: Total Enterprise Value

القيمة الإجمالية للشركة هي قيمة الأصول الحالية بالإضافة للدخل المتوقع الناتج عن الأصول دي في المستقبل.

بينما حقوق الملاك هي قيمة الشركة ناقص الالتزامات اللي عليها.

ولذلك فرض ٣,٤ مليار دولار معناه خفض السعر ب ٣,٤ مليار دولار.

محامين الشركة طالبوا بفك الحسابات المجمدة عشان يقدررو يدفعوا اللي عليهم.

صحيح المبلغ كبير، ولكن قيمة الشركة أكبر، خاصة أنها تشمل أصول غير سائلة، زي المبانى، والمصانع، ومحطات التكرير، بيعهم ممكن يخلق سيولة لتسوية الضرائب.

المحكمة رفضت الطلب، وأقرت عليهم ٣,٤ مليار دولار ضرائب بأثر رجعي لسنة ٢٠٠١.

الشركة قالت المبالغ المطلوبة دي مستحيلة!

بغض النظر عن صحة تطبيق القانون بأثر رجعي، فدفعت مبلغ زي ده كاش مستحيل.

فطلبوا من المحكمة جدولة السداد، مع الوعد بدفع ٨ مليار دولار على مدار ٣ سنين يقدررو يلماوا فيهم المبلغ.

المحكمة رفضت الطلب، ورفضت عرض الشركة بدفع الضرائب في صورة أسهم في الشركة، وأعلنت أن الحل الوحيد هو بيع الأصول، فعرضت وحدة الإنتاج الرئيسية للبيع.

الوحدة بتنتج ٦٠% من إنتاج الشركة.

كمية مهولة تفوق إنتاج ليبيا من البترول!

وأكيد مش هيقدر على ثمنها غير واحدة من الشركات الحكومية.

البنوك الأجنبية بدأت تعرب عن قلقها!

إيه اللي بيحصل ده يا عبد الناصر؟

بوتين قال اطمنوا يا جماعة، أنا عاشق للرأسمالية، والفراباتشينو.

ده مجرد إجراء روتيني لشركة متعثرة في سداد ديونها فلازم تباع أصولها.

الوحدة مش هتتباع غير بالسعر العادل اللي يحدده طرف ثالث محايد، وأعلن تكليف بنك دريسدن فرع موسكو للقيام بعملية التقييم.

رئيس البنك ماثياس وارنينج ضابط سابق في جهاز الشنازي، وأحد أقرب حلفاء بوتين، اللي يعرفه من أيام خدمته في ألمانيا

الشرقية.

الأخبار انتشرت عن نية البنك في تقييم الوحدة بمبلغ يتراوح من ١٥ ل ١٧ مليار دولار، وهو سعر عادل متطابق مع تقييم سابق.

الكرملين تدخل لفرض مجموعة جديدة من الضرائب بأثر رجعي، رفعوا إجمالي الضرائب على الشركة لحوالي ٢٤ مليار دولار، بالتزامن مع إعلان البنك عن تقييم الوحدة بحوالي ٨ مليار دولار، وطرحها للبيع في مزاد علني.

علاق الغاز الأوروبي، شركة جازبروم، أعلنت نيتها دخول المزاد.

خودوركوفسكي صرح من زنزانتة إن اللي يحصل ده سرقة علنية مش بس له، ولباقي المستثمرين، وللبنوك، والشركات اللي كانوا بيستعدوا لشرائها قبل القبض عليه.

بوتين حب يضمن دعم رأس المال الأجنبي، وراهن إن مهما رددوا من شعارات، في النهاية الحسابات التجارية هتتغلب على المثل العليا، والاعتبارات الأخلاقية.

فأعلن أن بعد الاستحواذ المنتظر جازبروم هتندمج مع شركة Rosneft لتأسيس واحدة من أكبر الشركات في العالم، باحتياطي أكبر من احتياطي إكسون موبيل بحوالي ٥ مرات، ويعد ثاني أكبر احتياطي لشركة في العالم بعد أرامكو السعودية.

ولكن على عكس أرامكو الشركة هتسمح بالاستثمار الأجنبي.

الخبر كان كفييل بمسح اسم خودوركوفسكي من النقاش العام، ومن الذاكرة كلها.

الحي أبقى من المييت، والأعمار بيد الله، والدولارات بيد بوتين.

بعد حرب العراق بعض الحكومات، وشركات الطاقة، دوروا على بديل لبتترول الشرق الأوسط، وروسيا بالنسبة لهم حل ممتاز.

بعد الإعلان تم تجهيز حزمة قروض عملاقة لجازبروم بحوالي ١٣ مليار دولار من عدد من الشركات، والبنوك، زي دويتشه بانك، وإكسون موبيل، وشيفرون، كخطوة أولى لتوفير السيولة اللازمة لعملية الاستحواذ، قبل الدخول بعدها كمستثمرين في الشركة بعد دمجها.

خودوركوفسكي حس بالخيانة، وأدرك لأول مرة حجم الورطة اللي هو فيها.

فاستعوض ربنا في القضاء الروسي، ولجأ للقضاء الأمريكي.

في خطوة غير متوقعة من الكرملين، فريق خودوركوفسكي قدم طلب لإعلان إفلاس شركة يوكوس في أحد محاكم هيوستن في ولاية تكساس الأمريكية.

أمريكا فيها قوانين حماية إفلاس، والقانون بيفرق بين ممتلكات الشخص، وممتلكات الشركات ذوات المسؤولية المحدودة Limited Liability Company.

إعلان الإفلاس أدى لإصدار قرار بوقف البيع لحين تعيين لجنة مختصة لتقييم الأصول.

صحيح المحكمة الأمريكية لا تملك أي صلاحية في الأراضي الروسية، لكنها تقدر تعاقب الشركات الأمريكية المشاركة في التمويل.

بالإضافة إلى أن الطلب تم تبريره بامتلاك المستثمرين الأجانب لحوالي ١٠% من الشركة، وبالتالي حماية ممتلكاتهم من اختصاص المحكمة.

فالممولين انسحبوا من الصفقة واحد ورا الثاني، والشركة اتكتب لها عمر جديد.

بوتين حس بغضب عارم، وقال إن القاضي اللي أصدر الحكم أغلب الظن ميعرفش روسيا فين على الخريطة!

بوتين فكر يوفر السيولة بنفسه من ميزانية الدولة بدون الحاجة للأجانب، ولكنه خاف المحكمة توقع عقوبات على جازبروم، اللي لها أصول، ومحطات، ومخازن، ومكاتب، وشبكات توزيع، في أمريكا، وأوروبا.

فتراجع عن فكرته، وهو بيتلع مرارة الهزيمة.

وفي يوم الميزاد العالم فوجئ بشركة اسمها مجموعة بايكال المالية بتقدم عرض وحيد للشراء. الشركة اللي تم تأسيسها من حوالي أسبوعين، وملهاش أي وجود باستثناء مكتب بسيط في إحدى المدن النائية، قدرت تستحوذ على أهم وحدة إنتاج في العالم بقيمة ٩.٣٧ مليار دولار. محدش عرف مين دول، ولا جابوا الفلوس منين، لحد ما باعوا الوحدة بعد أربع أيام فقط ل Rosneft برئاسة الجندي الوفي إيجور سيتشن.

وبقى من الواضح أن روزنفت رسييت عليها الصفقة لعدم امتلاكها لأي أصول سواء في أوروبا أو أمريكا، ساعتها العالم كله عرف مين وراء الصفقة، ومين وراء المحاكمة. خودوركوفسكي حاول يتمسك بالأمل الأخير. السكرات تصحبها الصحوات، فصمم يقاتل لآخر نفس. طعن في صحة الحكم، والقضية دخلت محكمة الاستئناف. فالكرملين استدعى أولجا يجوروفا بشكل يومي للضغط عليها لإنهاء القضية في أسرع وقت، وضمان عدم تغريد أحد من القضاة خارج السرب.

أولجا اللي زوجها اترقى لرتبة لواء تعهدت بإنهاء القضية بالشكل اللي يرضي الكرملين، وبعد تهديد أي قاضي أبدى أي اعتراض على سير القضية بحرمانه من امتيازات السكن، والعلاج، ونادي القضاة، ناهيك عن خطورة وضعه في خانة أعداء الوطن، وأعداء الكرملين، أولجا حكمت بتخفيف العقوبة من تسع لثمان سنين.

وتم ترحيل خودوركوفسكي على سجن شديد الحراسة في سيبيريا. بوتين شكر أولجا أثناء مقابلتها في الكرملين، وقال لها إنها لازم تشعر بالفخر لأن اللي عملته بطولة وطنية، أدت لعقاب مجرم الغرب كان بيستغله كوسيلة للتدخل في الشأن الروسي.

وانتهت بذلك محاكمة فارقة في تاريخ القضاء الروسي، اللي فقد جزء كبير من ثقته لدى رجل الشارع، بعد ثبوت خضوعه بما لا يدع مجال للشك تحت تأثير السلطة التنفيذية، وعودة ما يسمى بال Telephone law أو قانون التليفون، اللي الحكم فيه يصدر من الأعلى، وبيتقال للقاضي على التليفون، قبل ما ينطقه في المحكمة.

بعض القضاة رفضوا بيع ضمائرهم فكانت النتيجة طردهم من جنة الكرملين، وتشويه سمعتهم حتى لا يكون هناك جدوى من المقاومة.

زوج إحدى القاضيات في إحدى القضايا الحساسة فوجئ بضباط من جهاز الإف إس بي مستنيينه قدام بيته يوم عيد ميلاده، وخدوه معاهم لمحل عربيات فخم، وصمموا على شراء عربية باهظة الثمن، وقالوا له اعتبرها هدية عيد ميلادك، في حركة ليس هدفها الرشوة على قد ما هدفها نزع الثقة من الجميع.

الجيران عارفين زوجته بتشتغل إيه، وعارفين إنه لا يمكن يشتري العربية من مرتبه، ومهما حلف لهم محدش هيصدق إنها مش من الرشاوي.

اللي هيرفض السير في بركة الوحل هيجبر على التمرغ فيه. تكنيك فعال من الكي جي بي في ثوبه الجديد لأنه بيضمن كسر نفس المقاومة، وبيمنع وجود نماذج نزيهة قادرة على جمع الناس حولها.

السلطة الفاسدة تزعجها النزاهة.

{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ—إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ} [النمل: ٥٤].

ولذلك من المهم عدم وجود نقط بيضاء في نسيج المجتمع لعدم فضح السواد بالمقارنة. هكذا تستمر الثقة في السلطة كشر لا بد منه في ظل حالة مستوطنة من عدم وجود البدائل لأن أي بديل محتمل سواء كفر أو مؤسسة، خطر لا بد من القضاء عليه.

النتيجة أن المجتمع يصبح بلا رموز ملهمة، وبلا مؤسسات تحظى بالدعم، والثقة.
الرمز الوحيد هو الرئيس.

والرئيس في هذه الحالة ناوي يحكم إلى الأبد.

بوتين اتخذ مجموعة من الإجراءات هدفها إضعاف المحافظين.

المحليات مهد الديمقراطية الحقيقي.

طول ما في ممثلين منتخبين على مستوى قاعدي، سواء كان مجلس حي، أو مجلس إدارة عمارة، طول ما هيكون في تدريب على المشاركة المجتمعية، والاهتمام بالأحداث السياسية.

والمشاركة تؤدي إلى المساءلة، والنشاط الحزبي يبدأ من النشاط الطلابي.

الممثلين المحليين المنتخبين، على عكس نسبة كبيرة من أعضاء مجلس الشعب، لهم ثقل حقيقي في دوائرهم، ويمكن يشكلوا شوكة في حلقه، فحب يكسر الشوكة دي من بدري.

رجال الأعمال في السابق تحالفوا مع نواب البرلمان، والمحافظين، وهما أن بوتين مسيطر سيطرة تامة على البرلمان بعد عملية تدجين، وترهيب، واحتواء شامل للمعارضة، اللي أصبحت مجرد اسم على ورق، فالدعم المحتمل الوحيد لرجال الأعمال ممكن يبجي من المحافظين المنتخبين، اللي حصلوا بعد انتخابهم على مقاعد في البرلمان أمنت لهم حصانة من المساءلة الجنائية، وتأثير على ما يمكن طرحه من قوانين.

وبوتين كلاعب شطرنج ماهر، وقارئ جيد للملعب، قرر يقفل السكة دي تمامًا.

فأصدر قرار بإلغاء مقاعد المحافظين في البرلمان، مما أدى لإلغاء الحصانة، والسماح بعزلهم في حالة خضوعهم لتحقيقات جنائية.

بالإضافة لتقسيم روسيا لسبع أقاليم، وتعيين محافظين للأقاليم، أو سوبر محافظين، لخلق طبقة بينه وبينهم، أضعفت سلطتهم من غير ما يضطر يعزلهم.

وهكذا أصبح هو الأمر النهائي الوحيد في روسيا.

ولضمان عدم حدوث رد فعل عنيف من الأميركيان، أشرك شركات النفط الأمريكية في مشاريع الطاقة الروسية.

إكسون موبيل تعاونت مع روزنفط للتنقيب عن البترول في القطب الشمالي، والبحر الأسود، في مشروع بلغت قيمته أكثر من 3 مليار دولار، وفي نفس الوقت عين شركة Baker Botts للمحاماة في أمريكا لوقف قرار منع البيع.

الشركة أحد كبار مالكيها هو وزير الخارجية السابق جيمس بيكر، في دليل آخر أن حتى لو بوتين فقد بعض الجاذبية في نظر الغرب، الدولار صعب يفقد جاذبيته!

التعامل مع الحكومة الروسية بالنسبة للمكتب قرار أخلاقي بالمقارنة بتعاملهم السابق مع صدام حسين، والقذافي!

فقبلوا العرض، وأخذوا الفلوس، ونجحوا في إقناع القاضي بإلغاء قرار وقف البيع، بعد شهرين من بيع الشركة بالفعل!

وعلى الرغم من تأكيده أكثر من مرة أن قضية خودوركوفسكي قضية استثنائية، إلا أن نجاح الأجهزة الأمنية في القضاء على خودوركوفسكي، والاستحواذ على يوكوس بضربة واحدة، أثبت لهم إن السجن سلاح اقتصادي فعال، فبدأوا في استخدامه بكثرة.

سجن رجال الأعمال، وأصحاب الشركات، أصبح القاعدة، وليس الاستثناء.

تم القبض على الآلاف، ووضعهم في الحبس الاحتياطي بلا محاكمة للضغط عليهم للتنازل عن شركاتهم أو بيعها بأرخص الأسعار.

كل ده وشعبية بوتين لم تتأثر، بالعكس شعبيته دي زادت!

صعب الفقراء يثوروا بسبب القبض على الأثرياء.

ما دام غني يبقى حرامي ويستاهل اللي يرجي له!

حتى المستثمرين الأجانب استمروا في ال Wishful thinking أو التفكير بالتمني، وأنكروا وجود أي مشاكل.
لدرجة أن ويليام برودر، أكبر مستثمر أجنبي في روسيا، كتب مقال بعد القبض على خودوركوفسكي يشيد ببوتين، وتصميمه
على استعادة الدولة من قبضة الأوليغاركي.
الكل يحب القمع حتى يأتي دوره، ودوره جه بعد أقل من سنتين.

[118](#) It is no use blaming the mirror if you have an ugly face.

اغتيال الشرف

«في ظلم آخره الجنانين؟ في عدل بابه الظلم؟».

قصيدة صلاة الخوف

للشاعر محمود عزت

ويليام براودر حفيد رئيس الحزب الشيوعي الأمريكي السابق، درس ماجستير إدارة أعمال MBA في جامعة ستانفورد، واشتغل بعدها في بنك استثماري، ولفت انتباهه فرص الربح غير المسبوقة في أوكازيون الخصخصة في شرق أوروبا.

فجمع استثمارات بخمسة وعشرين مليون دولار، واشترى أسهم في الشركات المعروضة للبيع.

الفلوس اللي معاه مكنته من شراء نسب قليلة، ولكنها كافية لمراجعة الأوراق المالية، وكشف الفساد، وسوء الإدارة.

خطته بسيطة، نشترى أسهم في الشركات المعروضة بأقل من ثمنها، ونستغل سلطتنا القانونية كملك ونجبر مجلس الإدارة على إجراء إصلاحات إدارية، فنبقى كسبنا الربح، وحاربنا الفساد.

ويبقى كسب ثواب نشر الأسهم في روسيا زي ما جده الله يرحمه كان يحاول ينشر الشيوعية في أمريكا.

قبل صعود الأوليغاري، أوكازيون الخصخصة في روسيا بدأ بطرح الحكومة كوبونات خصخصة لاستبدالها بأسهم في الشركات المعروضة للبيع.

تم طباعة ١٥٠ مليون كوبون، كل كوبون بقيمة عشرين دولار، وكل مواطن له الحق في كوبون واحد، يضمن له المشاركة في مزادات على ٣٠% من الشركات الروسية.

الرقم زغلل في عيون براودر.

إجمالي قيمة الكوبونات ٣ مليار دولار، وده معناه إن اقتصاد روسيا كله بكل ما تملكه من موارد طبيعية قيمته لا تتعدى عشرة مليار، أو سدس قيمة شركة وول مارت الأمريكية!

ولكن في ظل دولة بلا بورصة، ومواطنين بلا أي خبرة في السوق الحرة، عدد كبير من اللي خدوا الكوبونات مكانوش عارفين قيمتها، ولا فاهمين فائدتها، فباعوها كاش بأقل من سعرها، أو بدلوها بزجاجات فودكا، وورق لحمة!

بينما المشتريين كانوا رواد الأعمال الجدد اللي تمكنا من توفير السيولة اللازمة لشراء الكوبونات، ومديرين الشركات والمصانع اللي اعتبروا أنفسهم أولى من غيرهم.

براودر اشترى كوبونات، وبدأ رحلته في مكافحة الفساد.

فدخل في مواجهات عنيفة مع مديرين مجموعة من أكبر الشركات في روسيا والعالم، زي عملاق الغاز الروسي جازبروم، اللي اكتشف فيها حالات تريح واختلاس بمليارات من الدولارات.

مواجهات استخدم فيها سلاح القضاء المحلي، والإعلام الغربي، فكسبهم واحدة وراء الثانية، وأصبح أحد أشهر وأغنى رجال روسيا.

الصندوق الاستثماري حقق مكاسب مهولة خلته أنجح صندوق استثماري في العالم لسنة ١٩٩٧ بعد نجاحه في تحويل ال ٢٥ مليون دولار إلى أكثر من مليار دولار خلال سنة واحدة فقط!

لم علينا الشركات الفاسدة يا رب!

حربه ضد الفساد لاقت إعجاب الكرملين، فدعوه أكثر من مرة لمشاركة اكتشافاته.

ولما دخل في مواجهة مع إدارة جازبروم، نتج عنها مجموعة مقالات في الصحف الغربية المهمة زي وول ستريت جورنال، بوتين تدخل بنفسه وعين فريق إداري جديد.

كل ده خلاه يثق في بوتين ويؤيد حربه على الأوليغاري، ويشيد بحبس خودوركوفسكي.

براودر أصبح أكبر مستثمر أجنبي في روسيا بمحفظة استثمارية بلغت قيمتها ٤.٥ مليار دولار. ولكنه كان على موعد مع الصدمة الكبرى أثناء عودته من إحدى الرحلات المعتادة للندن بعدها بستين. أول ما وصل المطار، تأشيرته اترفضت، ومنع من دخول روسيا اللي بيشتغل فيها بقاله ٩ سنين. رد فعله في البداية كان الإنكار.

أكد ده خطأ غير مقصود.

فاستعان بفريق جبار من المحامين والوسطاء، فهموه إن في الحقيقة، منعه من الدخول مقصود.

أنت غير مرحب ببيك في روسيا، خلاص مهمتك انتهت.

زمان كنت بتحارب الحرس القديم وبوتين كان في صفك، دلوقتي في حرس جديد، وبوتين في ظهرهم!

براودر أصيب بالذعر!

منعه من الدخول خطوة أولى للاستحواذ على الصندوق.

فتواصل مع سمسار بورصة صغير الحجم، العين مش عليه ولكنه جدير بالثقة، ووكله ببيع جميع ممتلكاته في صمت.

لو الأسهم طرحت للبيع بشكل علني، العرض هيزيد عن الطلب، وسعرها هيبقى في الأرض.

وبالفعل بعد عدة أشهر، نجح في الخروج بكامل أصوله من غير ولا حس ولا خبر، ومبقاش فاضل غير ثلاث شركات على

الورق بمكاتبهم وعقودهم من غير ولا مليون في البنك.

وكما توقع، قوات الأمن هجموا على مقرات شركات ومكاتب المحامين، وخذوا كل الأوراق والعقود.

اللي لم يتوقعه هو استيلائهم على الأختام الرسمية، اللي لها وضعية قانونية خاصة تتيح التصرف في الشركات بشكل كامل.

وبعد أيام قليلة، حصلت مجموعة من الأحداث المثيرة للريبة.

الأختام استخدمت لتغيير ملاك الشركات الثلاث لأشخاص مبهمين كل المعروف عنهم هو حصولهم على أحكام جنائية في

السابق.

والمحكمة حكمت بتعويضات على الشركات الثلاثة، حولت بأثر رجعي وضعها المالي من تحقيق ربح صافي بمليار دولار،

لخسارة بمليار دولار.

فملاك الشركة الجدد بعثوا طلب لاستعادة الضرائب اللي الثلاث شركات دفعوها السنة اللي فاتت بما أن الربح تحول

لخسارة.

وهنا كانت المفاجأة الكبرى اللي فهمته سر استبعاده وسرقة الأختام والقضايا المُعلبة.

مصلحة الضرائب وافقت على الطلب بسرعة قياسية، وصرفت للشركة مبلغ ٢٣٠ مليون دولار كاش في يوم واحد، في واحدة

من أكبر عمليات سرقة المال العام في التاريخ!

عملية محكمة شارك فيها ضباط، وقضاة، ووكلاء نيابة، وموظفين في مصلحة الضرائب.

براودر قال لا دي كده البلد رايحة في داهية!

ده تنظيم عصايي ينخر في جسد الدولة!

الرئيس لا يمكن يكون عارف وساكت على المسخرة دي!

مفيش رئيس من مصلحته أبدًا وجود بؤرة فساد بهذا الحجم والقوة في وسط السلطة.

فعمل ١٥ شكوى، وصمم يفضح هؤلاء المجرمين.

لسة مش شايف، أو مش عايز يشوف.

كرد على الشكاوي اللي اتقدمت والمحاضر اللي اتعملت، فالمحامين تلقوا بلاغات بأنهم متهمين في القضية اللي بيترافعوا فيها.

الغمامة اتشالت من على عيون براودر، وقرر أن الأولوية هي لحماية المحامين الروس.

هو أمريكي بريطاني، عاقبوه بالمنع من الدخول.

ولكن المحامين روس لا يمتلكوا درع الجوازات الأجنبية، ولذلك لو اتحبسوا هينكل بيهم. براودر عرض على الفريق المكون من سبع محامين السفر لبريطانيا والانضمام له في لندن. ستة وافقوا، وواحد بس اللي رفض.

محامي صغير السن، ثابت على المبادئ، عنده ٣٦ سنة، ومؤمن بقدسية القانون، اسمه سيرجي ماغنيتسكي. رد على براودر وقال له الأمن لا يملك أي سبب قانوني لحبسي، وحب يطمئه وقال له إحنا مش سنة ١٩٣٧ تحت حكم ستالين، ومكنش يعرف إن اختلاف السنوات لا يعني اختلاف الطريقة، وأن عهد بوتين ممكن يكون أصعب من ستالين بمراحل.

أصعب ليس بسبب شدة البطش، ولكن بسبب إخفائه. في نوعين من الشر.

نوع هيووزن وهيكدب في قراءة الميزان.

ونوع هيقول الوزن اللي على الشاشة، ولكن بعد ما يغير في الميزان نفسه.

الشر الأولاني أكثر فجورًا، ولكنه في نفس الوقت أكثر وضوحًا.

الشر الثاني بيان أخف لأنه أشيك، ولكنه أخطر لأنه مخفي، ومنتشر.

شيطان في كل مكان، ومع ذلك محدش قادر يشوفه.

في نوفمبر سنة ٢٠٠٨ تم القبض على ماغنيتسكي، وألقي في زنزانة شديدة البرودة، بشبابيك مكسرة، وحمام عبارة عن حفرة في الأرض، كانت بتفيض وتغرق الزنزانة كل فترة.

صحته تدهورت، فرفضوا علاجه رغم معاناته من ألم مبرح في البطن.

واستغلوا مرضه للضغط عليه للتنازل عن القضية اللي رفعها، فرفض.

فكانت النتيجة عقابه بحرمانه من رؤية زوجته ووالدته.

ورغم استمرار صحته في التدهور، ثباته على الرفض وإصراره على كشف الجناة لم يتزعزع.

هناك غصون تفضل الكسر على الانحناء.

في نوفمبر سنة ٢٠٠٩، تم نقل ماغنيتسكي لغرفة خالية وربطوه في جهاز التدفئة، وفوجئ بعدد كبير من قوات مكافحة الشغب داخلين عليه بالزني الكامل.

ماغنيتسكي المريض قال لهم أنا مش مجرم، أنا هنا عشان كشفت سرقة ملايين الدولارات من المال العام، وصممت على ملاحقة المسؤولين.

لكن صوته كان أوطى من صوت تكسير عظمه بعضيانهم الغليظة.

قُتل ماغنيتسكي من شدة الضرب، وقُتل معه ما تبقى من الشرف في روسيا الجديدة.

براودر تلقى خبر وفاته بأسى وحزن شديد.

أهله استلموا الجثمان وشافوا عليه آثار تعذيب مؤلمة، واستلموا معاه مذكراته اللي واطب على كتابتها بشكل يومي، وإدارة السجن لم تكتف لدرجة عدم التفكير في التخلص منها، وسلمتها لأهله مع ممتلكاته الضئيلة.

براودر أخذ على عاتقه مهمة معاينة القتلة بأي شكل ممكن، وتمكن بعد حملة دبلوماسية إعلامية جبارة من إقناع الكونغرس الأمريكي، والبرلمان الأوروبي، بفرض حزمة من العقوبات على كل من ثبت مشاركته في قتل ماغنيتسكي، أو

بارتكاب انتهاكات حقوق إنسان في روسيا، عن طريق تجميد أصولهم، وحرمانهم من التأشيرات لأمریکا وأوروبا.

قانون عارضته إدارة أوباما الحالم بإصلاح العلاقات الأمريكية الروسية، وحاول جون كيري منع التصويت عليه داخل مجلس الشيوخ، على أمل مكافئته بمقعد وزير الخارجية خلفًا لهيلاري كلينتون، في مثال آخر على أن أمريكا ليست رأي واحد، ولا

رجل واحد.

الكرمليين أنكر أي علاقة بما حدث، ورد على قانون منع السفر وتجميد الأصول بمنع تبني العائلات الأمريكية للأطفال الروس. رغم نجاح المنع في التأثير على المزاج العام لبعض الأميركيين بالسلب، عن طريق إضراره بأسر وأطفال كانوا يحملوا بحياة أسرية سعيدة، فإنه لم ينجح في منع إثارة العديد من الأسئلة. لا يمكن تكون سرفة بهذا الحجم، وجريمة حظت بهذا القدر من الاهتمام الإعلامي العالمي، ويكون الرئيس مش على علم بيها.

فهل عدم عقابه للجنة دليل على مشاركتهم، أو بمعنى أدق قيادتهم؟

طب ولو مشاركتهم هل مشارك غيرهم؟

والسؤال الأهم هو: كم تبلغ ثروة الرئيس؟

همسات في الشارع الروسي صوتها بدأ يعلو مع الوقت، ووصلت بعض التقديرات لرقم مرعب، وهو أربعين مليار دولار! رقم يخليه أغنى من هادية غالب!

محببه اعترضوا على الاتهام المصحف، وقالوا إن الرقم مبالغ فيه ولا يصدقه عقل.

إلى جانب أن براودر أجنبي، ادعى محاربة الفساد رغم تربحه منه، ولذلك حتى وإن كان اللي حصل معاه غير قانوني، فالمحصلة النهائية متماشية مع روح القانون، وهو حماية روسيا وممتلكاتها من التدخل الأجنبي.

واستمر الجدل بين الفريقين لحد ما حسمه سيرجي كوليسنيكوف بكشفه عن مشروع فلاديمير بوتين السري.

قصر رئاسي على ساحل البحر الأسود، تكلفته عدت المليار دولار.

أغنى رجل في العالم

وَوَضَرَ اللَّيْلُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتٌ فِرْعَوْنٌ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [التحریم: ۱۱].

في التسعينيات، سرجي كوليسنيكوف، الحاصل على الدكتوراة في الفيزياء العضوية، تحول من العلوم إلى ريادة الأعمال، وفتح شركة تجهيز عيادات واستيراد معدات طبية بالشراكة مع جهاز مدينة لينينغراد. وبعد خسارة سوبتشاك، اشترى أسهم الجهاز واستمر في العمل، فشركته كبرت، وكبرت معها ثروته. لما تولى بوتين الرئاسة، أحد معاونيه السابقين تواصل مع كوليسنيكوف، واقترح عليه فكرة لجمع تبرعات كبيرة لتجهيز المستشفيات الروسية بأحدث الأجهزة الطبية. وقال له إنه هيجمع التبرعات، وهيشترى بالجملة، فهاخذ خصم حوالي ۳۵%. الفلوس دي هيجطها في حساب في الخارج، على أن تستخدم للاستثمار في الاقتصاد الروسي، ويبقوا كده ضربوا عصفورين بحجر واحد.

كوليسنيكوف أعجب بالفكرة، صحيح الكذب على المتبرعين في حساب التكاليف أمر غير أخلاقي، ولكن ما دام في مصلحة روسيا، فالغاية تبرر الوسيلة.

أول تبرع كان بمبلغ ۲۰۳ مليون دولار، اشترى معدات ب ۱۴۰ مليون، وحط الباقي في البنك. نفس الكلام اكرر مع باقي التبرعات لحد ما الحساب البنكي عدى ال ۲۰۰ مليون دولار. ساعتها الوسيط أسس شركة باسم Rosinvest أو استثمار روسيا، مملوكة لشركة سويسرية، وتعمل من خلال شركة ثالثة، في متاهة عنكبوتية هدفها تصعيب مهمة تقصي سير الأموال والملكية. على أن تقسم أسهم الشركة المالكة بحيث يملك كوليسنيكوف ۲%، والوسيط ۲%، ووسيط آخر ۲% ثانيين، بينما بوتين يملك ال ۹۴% الباقين!

كوليسنيكوف حس إن في حاجة غلط، ولكن قال مش مشكلة دي مجرد إجراءات تعاقدية، المهم الفلوس تروح لروسيا في الآخر، ولم يدرك حجم الورطة الي قدامه لحد ما جاله الأمر بتخصيص الحساب بالكامل لصالح إنشاء قصر لبوتين على البحر الأسود.

القصر السري تكلفته الأولية كانت ۱۶ مليون دولار، ولكنها زادت بسبب التعديلات المستمرة. القصر عبارة عن مجمع عملاق من ۲۰ مبنى، مجهز بثلاث مهابط هليكوبتر، ويمكن الوصول إليه من خلال ثلاثة طرق، وبدخله كل ما يمكن تخيله: قاعة سينما، حمام سباحة مغطى، كازينو كامل، وملعب هوكي جليدا! فتكلفته وصلت سنة ۲۰۰۹ لمليار دولار!

كوليسنيكوف مقدرش يستمر في الإنكار، فهرب من روسيا، وخذ معاه أوراق ورسومات القصر، وطلب من شركة أمريكية مستقلة مراجعتها.

ولما أكدوا صحة الأوراق، كشفهم على الملأ في خطاب علني للرئيس ميدفيديف، الي تولى الرئاسة كمحلل بعد انقضاء الفترة الرئاسية الثانية لبوتين الي نزل رتبة وتولى رئاسة الوزراء.

الخطاب تسبب في فضيحة مدوية للكرملين الي أنكر ووجود أي علاقة لبوتين بالمشروع. ولكن مع انتشار الإنترنت الأسئلة حول القصر المجهول استمرت بين المتابعين الي بعضهم قدر يحصل على صور للقصر عن طريق القمر الصناعي، وبعضهم حاولوا يزوروه فمنعهم رجال أمن زيارتهم أوحى أنهم من الحراسات الخاصة. الإشاعات أحدثت بلبلة مسموعة، لدرجة إن المتحدث الرسمي للكرملين دميتري بيسكوف اضطر للاعتراف بوجود القصر،

ولكن نفي امتلاك بوتين له، وقال إن لا بوتين ولا الكرملين لهم أي علاقة بالمشروع. وأضاف أن الكرملين بحاجة لقاعات ومباني وقصور، ومش معنى أن بوتين يستخدمهم، أنهم ملك لبوتين! والسؤال هنا إن صدقت رواية كوليسنيكوف، هو ليه شخص ممكن يكون يملك كل شيء، يطلب المزيد؟ ماشا جيسن بتحكي موقفين ممكن يساعدوا على فهم الدوافع النفسية وراء السلوكيات غير المنطقية لشخص بهذه القوة والثراء.

الأول سنة ٢٠٠٥، أثناء استضافته لمجموعة من رجال الأعمال الأمريكيان، مالك فريق نيو إنجلاند باتريوتس لكرة القدم الأمريكية روبرت كرافت ورّاه خاتم البطولة اللي فريقه كسبها.

الخاتم المرصع بالألماس، بوتين أعجب به وهو يلبسه وقال له ده أنا ممكن أموت حد بيه من كثر ما هو ضخّم، وبعدها قلعه من إيده، وبحركة مفاجئة حطه في جيبه، وخرج من الغرفة.

الخبر تسبب في أزمة دبلوماسية بعد تسربه للصحف، لدرجة إن كرافت اضطر يقول إنه أهده لبوتين منعاً للإحراج.

الموقف الثاني حصل في نفس السنة أثناء زيارته كضيف شرف لأحد المتاحف في نيويورك.

إدارة المتحف عرضوا عليه نسخة من بندقية الكلاشنكوف الشهيرة مصنوعة من الزجاج ومليانة بالفودكا.

بندقية روسي، ومشروب روسي، فالرئيس الروسي أعجب بـ السوفينير اللي قيمته لا تتعدى الـ ٣٠٠ دولار، وأمر أحد حراسه بحمله للخارج، ومحدث قدر يقول له رايح فين ولا بتعمل إيه.

ماشا جيسن بتزجح أن السلوك ده سببه حاجة من اتنين، إما هوس السرقة - Kleptomania، أو الجشع - Pleonixia.

هوس السرقة هو الرغبة الملحة للسرقة بغض النظر عن الاحتياج المادي، بينما الجشع هو الرغبة في الاستيلاء على ما يملكه

الغير (119)؛ ولذلك سميت بمرض الطغاة؛ لأنهم الوحيدون القادرون على ممارستها من دون الخوف من توابعها

القانونية.

أيّ كان السبب، وأياً كانت الحقيقة، الشيء الوحيد المؤكد هو زيادة تدخل الدولة في الاقتصاد.

خلال عدة سنوات الشركات المملوكة للدولة نسبتها زادت من ٢٠% في نهاية التسعينيات، إلى أكثر من ٥٥% من حجم الاقتصاد الروسي.

ودي كانت بداية عصر عرف باسم الـ Kremlin inc أو شركة الكرملين، حيث أكبر شركة في المجتمع، هي الدولة نفسها.

وده في حد ذاته شكل اقتصادي له ما له، وعليه ما عليه.

لا كله مفيد، ولا كله مضر.

لكن الأكيد هو خطورة استخدام موارد الدولة لمكافحة الولاء، وخطورة وضع أهل الثقة مكان أهل الخبرة.

ولكنها خطورة مكنتش واضحة لبوتين اللي عيّن حوالي ٧٠% من قيادات الحكومة من الأعضاء السابقين للأجهزة الأمنية،

سواء الشرطة، أو الجيش، أو الـ كي جي بي، فضمن ولاءهم بعد ربط مصيرهم بمصيره، واستعد لخوض معركة الانتخابات

الرئاسية للمرة الثانية.

[119](#) The insatiable desire to have what rightfully belongs to others.

لماذا نحب الديكتاتورية؟

«نجينا من الشرير، ارحمنا من التجربة، المعركة المرة دي مش هينة، المعركة مرعبة».

محمود عزت

شعبية بوتين زادت بسبب حربه العلنية على الأوليغاري، وفاقته الـ ٧٠% في اللحظات الأخيرة قبل الانتخابات الرئاسية الثانية.

أغلب المعارضين فقدوا الرغبة أو القدرة على المعارضة بما فيهم زعماء الأحزاب، ولكن الانتخابات لا تصح دون وجود منافسين، والمسرحية لا تكتمل دون وجود مشاهدين.

الشيوعي المغمور نيكولاي خاريتونوف أعلن ترشحه ضد بوتين.

مشهد شبيه بمباراة بين البرازيل ضد أسمنت أسيوط

٢٧ - ٠

الكرملين بدأ حملة ضخمة لتشجيع الناخبين على الذهاب لصناديق الاقتراع.

أتوبيسات محملة بموظفي الحكومة اتحركوا لضمان وجود أغلبية كافية لإتمام النُّصاب القانوني، وكسب الشرعية الدولية للانتخابات، بينما بعض الناخبين امتنعوا عن المشاركة.

المشاهد اللي مش قادر يغير النص المسرحي كل اللي يقدر يعمله أنه يمتنع عن الذهاب.

مقاومة صامتة للمعترضين على ما يحدث، وفي نفس الوقت غير قادرين على تغييره.

وده بالنسبة للكرملين أمر مرفوض بشكل قاطع.

العرض لازم يكون كامل العدد!

فوضعت أصوات مزورة باسم ناخبين موتى في الصناديق، بالإضافة لتغيير بعض الأصوات بعد مغادرتهم اللجان لصالح بوتين،

اللي فاز في نهاية اليوم بنسبة فاقت الـ ٧١%

بينما خاريتونوف فاز بـ ١٣% فقط.

لو نازل انتخابات اتحاد طلبة كان جاب أكثر من كده!

في خطابه الأول بعد الفوز بوتين تعهد بالحفاظ على المكتسبات الديمقراطية، رغم إن انتخابه في نظر البعض شهادة وفاة

للمنظمة، وفي نفس الوقت شهادة ميلاد جديدة للكي جي بي، اللي أحكم قبضته على مفاصل الدولة، ووضع حذاءه

الثقيل على رقبة المجتمع، اللي عامل زي الفيل في السيرك، سجنه الحقيقي في دماغه.

هل ده معناه عدم تمتع بوتين بشعبية حقيقية؟

الحقيقة لأ.

بوتين صاحب الشعبية الأكبر في روسيا باكتساح، والانتخابات حتى وإن شهدت تجاوزات، عبرت بشكل كبير عن رغبات

الناخبين.

الطمع في رضا الحاكم، والخوف من بطشه ممكن يبرروا كثير من التملق بهدف التسلق، والصمت، وغض البصر لاتقاء شر

ولي الأمر والحفاظ على أكل العيش، ولكنهم لا يبرروا الدعم الحقيقي، والحب الصادق غير المشروط بمصلحة.

إزاي الشعب اللي عانى لعقود من الكي جي بي ينتخب ابن الكي جي بي للمرة الثانية؟

وإزاي البلد اللي عانت من غياب الديمقراطية، تختار عدو الديمقراطية، في انتخابات ديمقراطية؟

سنة ٢٠٠٢ أساتذة علم النفس ألكسندر هاسلم وستيفن رايخر بالتعاون مع البي بي سي أجروا تجربة مستوحاة من واحدة

من أشهر تجارب علم النفس:

Stanford Prison Experiment

اللي أجراها عالم النفس الأمريكي فيليب زيمباردو في جامعة ستانفورد سنة ١٩٧١. ٢٤ طالب جامعي تم اختيارهم بعناية، وتقسيمهم بشكل عشوائي لحراس ومساجين. التجربة هدفها الإجابة عن سؤال حير الفلاسفة على مدار التاريخ: الإنسان لما يتحط في مكان شرير، هل ينتصر الخير الداخلي، أم الشر الخارجي؟ الإجابة ممكن دراستها عن طريق مشاهدة تفاعل المساجين مع الحراس كمثال لمجموعتين يتشاركوا المكان، ويختلفوا في القوة.

الدراسة اللي كان مفروض تستمر لمدة أسبوعين تم إنهاؤها بعد ست أيام بسبب الانتهاكات البشعة في حق المساجين من الحراس، اللي هما في الأصل مجرد طلاب زيهم. التجربة لاقت شهرة مدوية بسبب نتائجها، وقوبلت بانتقادات عنيفة بسبب عدم أخلاقية تعريض المشاركين لانتهاكات، وأذى نفسي ممكن يستمر معاهم لفترة طويلة.

وكمان مع الوقت تم إثبات قصور استنتاجها أن المجموعات أو ال Groups شر مطلق لأنها تجبر الفرد على التخلي عن هويته الشخصية، ومعايير الأخلاقية في سبيل الانتماء للمجموعة. صحيح ده ممكن يحصل في بعض الأوقات، لكن أوقات تانية كتير المجموعات بتكون مصدر خير مش شر. زي المجموعات اللي تنشأ لمقاومة الاحتلال، أو المجموعات اللي تنشأ لفعل الأنشطة الخيرية، ولذلك مش شرط الهوية الجماعية تكون سلبية بالضرورة.

في حالة تجربة سجن ستانفورد، زيمباردو، اللي قام بدور رئيس الحراس وجه المشاركين في البداية، وقال لهم إن المساجين لازم يخضعوا لسيطرتهم الكاملة، وده معناه إن ممكن سلوكهم يختلف لو وجهوا بشكل مختلف. سنة ٢٠٠٢ تجربة سجن البي بي سي BBC prison experiment حاولت تعرف هيحصل إيه لو لم يتم توجيه الحراس بأي شكل من الأشكال؟

التجربة تصميمها مشابه لتجربة ستانفورد، مجموعة مساجين وحراس في مكان شبه السجن، ولكنه معبر عن أماكن تانية كتير فيها قوى غير متساوية Unequal power، زي المكتب، والمدرسة، والكتيبة. وراقبوا سلوك المشاركين عن طريق كاميرات خفية، بالإضافة لقياس لحالتهم النفسية عن طريق عمل اختبارات يومية، وأخذ عينات دورية من اللعاب لقياس نسبة الكورتيزول المعبر عن الضغط النفسي. رايخر وهاسلم كانوا متشوقين لرؤية المساجين هيتعاملوا مع بعض إزاي، هل هيتعاونوا؟ ولا كل واحد فيهم هيتعايش ويواجه السلطة لوحده؟

سنة ١٩٧٠ هوارد جيلز وجينيفر ويليامز نشروا دراسة عن رد فعل النساء تجاه التمييز اللي بيعانوا منه بسبب جنسهم Gender inequality، وقالوا إن الستات في البداية بيحاولوا يقللوا من مدى تأثير الجنس على الترقى في العمل ومش بيشفوا نفسهم أعضاء في أقلية مضطهدة، وبالتالي بيحاولوا ينجحوا بشكل فردي بدل من تبني قضايا المرأة بشكل جماعي. ولكن لما بيصطدموا بالحائط الزجاجي أو ال Glass ceiling، ويكتشفوا أن بالفعل الجنس ممكن يكون عائق كبير أمام طموحهم في ال social mobility أو الترقى الاجتماعي، They identify with the devalued group، بيبدأوا يشوفوا نفسهم كأعضاء في مجموعة واحدة غير مقدره مع باقي الستات اللي زيهم، ويبدأوا يفكروا، ويتحركوا بشكل جماعي. حين تصبح النجاة الفردية مستحيلة، النضال الجماعي يصبح الحل المنطقي الوحيد. ولكن النضال ده نتيجة مش حتمية.

الدراسة أظهرت أن العمل الجماعي أو ال collective action بيحصل فقط في أوقات عدم الاستقرار اللي بيشفوها كفرصة لتغيير الأمر الواقع ال status quo، وتحقيق مكاسب للمجموعة.

لكن لو الوضع الاجتماعي مستقر صعب يغامروا بالقيام بعمل ضده. ولذلك رايخر وهاسلم أثناء تصميمهم للتجربة سمحوا في البداية بما يسمى ال social permeability أو النفاذية الاجتماعية.

المساجين ممكن يترقوا لحراس عن طريق التعاون، وحسن السير والسلوك. الطاعة تؤدي إلى الترتي الاجتماعي.

فكما توقعوا، المساجين تمسكوا بهوياتهم الشخصية، وخلوا الأولوية لنجاتهم الفردية. ركزوا على كسب رضا الحراس، ومهتموش بالتعاون ما بينهم.

ولكن بعد وقف إمكانية الترتي من مساجين لحراس، النظام الاجتماعي اختلف بشكل جذري.

المساجين أدركوا هويتهم المشتركة كسجناء، وتعاونوا مع بعض ضد الحراس؛ لأن في الحالة دي العمل الجماعي يعلي من فرص النجاح.

وفي نفس الوقت التعاون أدى لتحسن صحتهم النفسية.

وعلى العكس منهم الحراس كانوا مفككين ومش طايقين أنفسهم.

مجموعة منهم شايفة ضرورة فرض النظام، ومجموعة تانية شايفة خطورة اللجوء للقوة.

المجموعة حُرمت بانقسامها من الانتماء لهوية مشتركة، وبالتالي تنظيمهم كان سيئ، والقيام بأعمال الحراسة أصبح مرهق نفسياً، وأدى لشعورهم بالإعياء أو ال burnout.

جبهة الحراس مفككة بينما السجناء ازدادوا وحدة، وبالتالي ازدادوا قوة.

وبعد ستة أيام فقط، المساجين انقلبوا على الحراس، وقدروا يهربوا، فانهار النظام الاجتماعي بالكامل داخل السجن.

المدهش في اللحظة دي عدم تدخل منظمي التجربة لوقفها.

المساجين والحراس السابقين ما زالوا بحاجة لإيجاد نظام اجتماعي جديد لتنظيم عيشتهم معاً في نفس المكان بعد فشل النظام القديم.

فقعدوا مع بعض وقرروا إن أنسب نظام اجتماعي هو المساواة المطلقة والحكم الذاتي من خلال تأسيس Commune أو مجتمع إيجاليتاري قائم على المساواة.

مش محتاجين نتقسم لسجناء وحراس، ومفيش داعي لوجود مجموعة تحتكر القوة.

هنقسم على بعض الواجبات، والمسئوليات، وهنعيش مع بعض في أمان وسلام، في نهاية رائعة تليق بفيلم من إنتاج ديزني. ولكنها لم تكن النهاية.

بلوت تويست!

في ظل عدم وجود جهة تنفيذ قانون، بعض الأعضاء قرروا عدم الالتزام بالقواعد، والامتناع عن أداء واجباتهم مما أدى للإضرار بالمجتمع ككل.

ما دام كلنا مسئولين، يبقى في الحقيقة محدش فينا مسئول.

ال diffusion of responsibility أو انتشار المسؤولية آفة المشاريع الجماعية، ومشاريع التخرج تحديداً!

بعض السجناء والحراس السابقين فقدوا إيمانهم بالنظام الاجتماعي الجديد، وحسوا بالاستياء من الفوضى، وعدم القدرة على فرض القواعد.

فترحموا على النظام القديم، وقرروا عمل انقلاب على باقي المجموعة لإعادة التفرقة الاجتماعية بين الحراس والمساجين.

ولكن المرة دي طالبوا الإدارة بتجهيزهم بمجموعة من نظارات الشمس والبيريهات أو أغطية الرأس السوداء كعلامة على سلطتهم الجديدة، اللي قرروا أنها هتعتمد على القمع والعنف إذا تطلب الأمر.

وهنا القائمين على التجربة توقعوا مقاومة الأعضاء اللي طالبوا بالمساواة، ولكن المفاجأة أن أشد المطالبين بالمساواة وقفوا

صامتتين تجاه الانقلاب وعودة السلطوية، سواء بشكل جماعي من خلال عدم رغبتهم في تشكيل ثقل موازي لمنع الانقلاب، أو بشكل فردي عن طريق إجاباتهم على الاختبارات اليومية التي أظهرت نزوحهم تجاه السلطوية، وزيادة تقبلهم لقادة أكثر حزمًا.

وفي اليوم الثامن قبل موعد الانقلاب رايخر وهاسلم أعلنوا وقف التجربة لتفادي حدوث انتهاكات شبيهة بما حدث في تجربة ستانفورد.

والسؤال هنا هو كيف تحول المنادون بالمساواة، والمطالبون بالديمقراطية، إلى أعضاء سلبيين أو متقبلين للديكتاتورية؟ الإجابة تكمن في فهم دور الأنظمة الاجتماعية.

الأفراد ينتموا لمجموعات وبيتبنوا أنظمة اجتماعية في محاولة لتحقيق أفكارهم ومبادئهم ومعتقداتهم على أرض الواقع Collective self-realization.

وفي حالة فشل النظام الاجتماعي في تحقيق هذه الأهداف، فالإنسان سيكون أكثر تقبلًا لأنواع مختلفة من الأنظمة، حتى وإن كانت مخالفة لمبادئه الأساسية.

لما الحراس فشلوا في فرض النظام أصبحوا أكثر استعدادًا لقبول التحول الديمقراطي، ولما الديمقراطيين فشلوا في تحقيق المساواة، وإقامة اللجنة الموعودة، تقبلوا عودة الديكتاتورية.

في مقال نشر سنة ٢٠٠٥ في جريدة The Scientific American بعنوان: The Psychology of Tyranny أو سيكولوجية الطغيان، رايخر وهاسلم قالوا: إن تحول المجموعات للسلطوية له سببان مهمان:

الأول هو وجود نزعة قمعية عند الأفراد ناتجة عن تشجيع القادة لاضطهاد عدو خارجي، وعن عدم معارضة الأفراد له في باقي المجموعة على كافة مستوياتهم.

يعني لو القائد يبكره اليهود أو المسلمين أو التوتسي، فالمسئولية هنا مش عليه لوحده، لكن كمان على باقي الأفراد اللي يساعدوا في إعادة توليد القهر سواء بالصمت أو التشجيع.

أما السبب الثاني للتحول للسلطوية هو فشل الديمقراطية.

الفوضى الناتجة عن الانفتاح السياسي المفاجئ بعد الثورة الألمانية في بداية القرن العشرين كانت أحد أهم أسباب صعود النازية للحكم بعد تجربة جمهورية فايمار الديمقراطية.

الغريق في بحر الحرية بيتعلق بقشاية الاستقرار.

وزي ما قال الاقتصادي الفائز بجائزة نوبل دانيال كانيمان، الخوف من الخسارة أو ال Loss Aversion دافع نفسي أقوى من الرغبة في المكسب، ولذلك حتى لو الوضع مش هيتحسن، المهم مبيقاش أسوأ.

أي حد يقدر يضمن بقاء الوضع كما هو عليه أفضل بكثير من الداعين إلى المغامرة بتغييره.

وده أحد أهم أسباب الانقلابات العسكرية بعد التجارب الديمقراطية؛ لأن المؤسسة العسكرية اللي عادة تحظى بثقة شعبية بسبب تضحياتها وتاريخها الوطني، مرتبطة ذهنيًا بالقوة والحزم والانضباط، ووجودها يمنح درجة من الاستقرار والأمان من الصعب توفيرهم من خلال المؤسسات الديمقراطية المدنية.

خاصة إذا كانت مؤسسات حديثة الولادة، وليس لها جذور تاريخية ممتدة في المجتمع.

ولا توجد جذور في المجتمع الروسي أعمق من جذور ال كي جي بي.

الدليل على صدق استنتاج رايخر وهاسلم في تفسير ما حدث في التجربة الروسية، هو المقال اللي نشره خودوركوفسكي من محبسه بعد إعادة انتخاب بوتين.

المقال كان مفاجأة من العيار الثقيل.

أحد أشد وأخطر معارضي بوتين السابقين، بدأ المقال بلوم رجال الأعمال على تفضيل الربح على القيمة، وشراء التأثير السياسي لحماية مصالحهم وإن كانت على حساب مصلحة المجتمع.

وقال إن الليبراليين في حالة استسلام للأمر الواقع رغم أنهم مسئولون عن خلقه؛ لأن الخضوع في جيناتهم، والدستور بالنسبة لهم مجرد وثيقة من السهل تجاهلها لخدمة السلطة.
وضرب مثال بالدور اللي لعبه في إعادة انتخاب يلتسن سنة ١٩٩٦.
وبعدا اتكلم عن الرجل اللي تسبب في سجنه وتفكيك شركته، وقال إن بوتين لا ليبرالي ولا ديمقراطي، ولكنه مع ذلك أكثر ليبرالية وديمقراطية من ٧٠% من الشعب الروسي.
وجوده مهم للحفاظ على المجتمع لحد ما يقدر يكون شعور أعلى بالوحدة والمساواة.
وأنتهى كلامه بالهجوم على المعارضة لهجومها على الرئيس، وقال حان الوقت للتوقف عن محاولة التشكيك في شرعيته.
سواء بنحبه أو مبنحبوش فالرئيس أكثر من مجرد شخص.
الرئاسة مؤسسة تضمن وحدة واستقرار الوطن.
وإذا سقطت هذه المؤسسة لا قدر الله فروسيا لن تنجو إذا مرت بفربراير ١٩١٧ آخر.
يقصد ثورة أخرى شبيهة بالثورة السابقة.
وختم بمقولة رنانة ومعبرة:

.The nation's history tells us that a bad government is better than no government at all

تاريخ الأمة يثبت أن وجود حكومة سيئة أفضل من عدم وجود حكومة على الإطلاق.
المقال شديد الشبه بنهاية رواية ١٩٨٤ لجورج أورويل، اللي فيها البطل وينستون بعد تمردده على الحزب، واكتشافه من قبل شرطة الأفكار، وتعذيبه في وزارة الحب Ministry of Love، بيعلن عن استسلامه وحبه للأخ الأكبر في واحدة من أقوى النهايات الأدبية في التاريخ.

But it was all right, everything was all right, the struggle was finished. He had won the victory over himself; He loved Big Brother

هل المقال هدفه استجداء عطف بوتين في محاولة لخفض العقوبة؟
يجوز.

هل نابع من مراجعات فكرية سببها مزيج من الخوف والإحباط وقلة الحيلة؟
وارد.

الأكيد إنه علامة ميلاد عصر جديد، وشهادة وفاة للمعارضة وللسياسة بوجه عام.
الأجواء هادئة؛ لأن المياها راكدة، والجثة هامدة.

وعند الاقتناع بعدم القدرة على التغيير السلمي رغم استمرار المعاناة من الوضع القائم، يبدأ البعض في الانسحاب، ويلتزم العزلة، ويبدأ البعض الآخر في اعتناق العنف وتبنيه كحل أخير.
الديمقراطية رغم مساوئها صمام أمان يعمل على تفريغ الضغط الزائد ليستمر المجتمع في التعايش بسلام، وفي غيابها يرتفع الضغط بشكل مستمر دون القدرة على التنفيس.
وتحت السطح الروسي الهادئ بعد إعادة انتخاب بوتين، نار مستعرة توشي بانفجار وشيك، والانفجار المرة دي قادم من الشيشان.

الجهاد ضد الجهاد

«عاجلاً أم آجلاً، سينتهي هذا المشهد الذي لا نهاية له، ثم سننتقم، بلا رحمة».

ألكسندر دوجين

بوتين اعتبر الحرب الثانية على الشيشان مواجهة شخصية لن تنتهي إلا بهزيمة ساحقة للمتمردين. فرفض أي اقتراح بالتفاوض لإنهاء الصراع زي ما حصل لإنهاء الحرب الأولى، واعتمد على القوة العسكرية المفرطة. العاصمة جروزني تم تدميرها بالكامل، والجيش الروسي فرض سيطرته على المدن والقرى. ولكنها كانت سيطرة صباحية مؤقتة، أول ما النهار يخلص الانفصاليين اللي هربوا في الجبال المحيطة يبدأوا في الهجوم على القوات المتمركزة.

الكمان الثابتة هدف مغري للهجمات الخاطفة.

وبما أنهم مش قادرين يمشطوا الجبال، كانوا يبقوموا بحملة اعتقالات واسعة لأهالي البلد لإجبارهم على الإرشاد عنهم.

حملة شملت تعذيب وانتهاكات ساعدت في الحفاظ على شعلة المقاومة بدلاً من إطفائها.

العنف يؤدي إلى العنف، والأرض اللي بتتسقي قمع بتطرح تطرف.

بوتين منع أي تغطية إعلامية مستقلة للحرب حفاظاً على الروح المعنوية.

إظهار الدمار الناتج عن الحرب الأولى أثار تعاطف بعض الروس مع القوات الشيشانية.

والإعلان عن عدد الضحايا أدى لتغيير الرأي العام من دعم الحرب للرغبة في إنهاؤها.

كل ده أضعف روسيا، وأسهم في توقيعها على معاهدة غير مفيدة، في الوقت اللي كان لازم الحرب تستمر حتى تحقيق أهدافها بالقضاء على الانفصاليين.

ولكن على الرغم من التعقيم الإعلامي، استطلاعات الرأي أظهرت انخفاض شعبية الحرب؛ لأن عدد كبير من الناس اقتنعوا بعدم القدرة على حسمها لطول مدتها.

وبوتين على الرغم من اهتمامه باستطلاعات الرأي وقياس نبض للشعب الروسي، فإنه فيما يخص الشيشان كان عنيد بشكل واضح، لدرجة إن بعض المقربين منه شكوا إنه صدق البروجاندا الإعلامية الرسمية، واقتنع إن الجيش انتصر رغم تعرضه لهجمات مستمرة، لدرجة إعلانه عن قرب انسحاب القوات الروسية من الشيشان سنة ٢٠٠١.

أحياناً الإنسان بيكذب الكذبة ويصدقها، ومش يفتكر منها غير بعد وقوع الكارثة، والكارثة حصلت أسرع مما يتخيل.

يوم ١٩ أغسطس سنة ٢٠٠١ طائرة هيليكوبتر من طراز Mi-٢٦، أكبر طائرة هيليكوبتر في العالم، كانت بتستعد للهبوط في القاعدة العسكرية الروسية الأكبر على أطراف جروزني.

الطائرة مصممة لحمل أطنان من المعدات بالإضافة لثمانين شخص، ولكن سنة ١٩٩٧ تم حظر نقلها للأشخاص، ليه تم حظر نقلها للأشخاص يرجح أن السبب متعلق بالأمن والسلامة ولكن ده مجرد ترجيح مع تخصيصها لنقل المعدات فقط.

اليوم ده الطائرة كانت شايلة ١٤٧ شخص من ضمنهم نساء زوجات الضباط، وطفل ابن ممرضة عسكرية واخداه معاها الوحدة.

في اللحظات الأخيرة قبل الهبوط تم إطلاق صاروخ على المحرك الأيمن، فانفجر وسط دعر الرقاب.

الطيارين فقدوا السيطرة، والطيارة تمكنت من الهبوط بأعجوبة خارج القاعدة.

لكن المصيبة أن القاعدة محاطة بحقل ألغام لمنع اقتحامها.

انفجار المحرك أدى لانهمار الوقود المشتعل داخل الطائرة فبقت حية من جهنم.

الركاب حاولوا يهربوا ويفتحوا الباب الخلفي لكنهم معروفوش، الانفجار عطل نظام التحكم الهيدروليكي.

مجموعة منهم قدرت تهرب وتخرج من الطائرة، وبدأوا في الجري تجاه القاعدة. فالألغام انفجروا واحد ورا الثاني، واللي مמתش من الحرق مات من الألغام. ١٢٧ شخص توفوا من ضمنهم الطفل وأمه في أسوأ حادثة طائرة هيليكوبتر في التاريخ. كارثة أكبر من كارثة الغواصة.

بوتين اتعلم الدرس وأعلن مباشرة عن إعفاء قائد القوات الجوية من منصبه لحين الانتهاء من التحقيق. قائد القوات الجوية سيرجي بافلوف اشتكى من سوء صيانة الطائرات، وبرر استخدام الطائرة لنقل الأفراد بأن حظر النقل ده في أوقات السلم، إنما البلد حالياً في حالة حرب، حتى لو الحكومة رافضة الاعتراف باستمرار المواجهة. لو الحرب خلصت، إيه سبب وفيات الجنود الروس المستمرة؟ فرفض لعب دور كبش الفداء لكارثة تعتبر عرض لمرض أكثر تعقيداً. فبوتين غضب وحس بضرورة تأديب جنرالاته. فاجتمع بمجموعة من كبار الضباط في لقاء مباشر على التلفزيون، ووجه لهم نقد لاذع بشكل أظهره كقائد حازم وقوي أمام أعين المتفرجين.

بوتين أجبر بافلوف على الاستقالة، وحول ١٩ قائد للتأديب في حركة نالت استحسان المواطنين المتعاطفين لمحاسبة المسؤولين. ولكنه ملحقش يتهنى بحسن الإدارة، وسرعة التصرف. في فيديو مرعب سجل العملية كلها، الرئيس الشيشاني السابق أصلان مسخادوف ظهر بجوار مجموعة من المسلحين أطلق عليهم لقب المجاهدين، ووراهم علم الشيشان الأخضر. ولكن تم استبدال الذئب، رمز الاستقلال على مدار عشر سنوات، بسيف وآية قرآنية، في علامة على أن الشيشان على وشك التحول إلى أفغانستان.

أثناء الغزو السوفيتي لأفغانستان، ظهرت العديد من المجموعات القتالية، كل منها بهدف ومصدر تمويل مختلف. محاربة الشيوعية للأديان خلت مقاومة الاتحاد السوفيتي بالنسبة للمجاهدين مسألة حياة أو موت، ومع ذلك فرغم اتحادهم على الهدف، صفوفهم كانت منقسمة، ورؤيتهم مختلفة. اللاجئيين اللي هربوا لباكستان تلقوا دعم من المخابرات الباكستانية لبسط نفوذها على الجارة، بينما مجاهدين الشرق من الشيعة تم دعمهم من إيران.

أما المجاهدين المقيمين داخل أفغانستان، زي أحمد شاه مسعود الملقب بأسد البانشير، وهو وادي شمال شرق العاصمة قريب من الحدود الباكستانية، بعضهم نجح في إلحاق أضرار بالغة بالسوفيت عن طريق اتباع منهج حرب العصابات، هجوم مباغت ثم انسحاب سريع للجبال.

تم تكليف وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA بدعم المجاهدين، بشكل مباشر وغير مباشر. مباشر عن طريق تمويل العمليات القتالية وإمدادهم بأسلحة سوفيتية عن طريق شرائها من مصر والصين. دعم وصل لحوالي ٧٠٠ مليون دولار سنوياً سنة ١٩٨٧، وكان من أقوى مظاهره صواريخ ستينجر الأمريكية المضادة للطائرات.

وغير مباشر عن طريق هيئة الولايات المتحدة للتنمية الدولية

USAID: United States Agency for International Development

اللي بتبني مدارس ومستشفيات للاجئين، وفي نفس الوقت تضمن وجود بنية تحتية مدنية ضرورية للمجاهدين. في مقولة معبرة أحد مستشاري الهيئة قال، الاتحاد السوفيتي يحاول إفراغ البحر لقتل السمك، وإحنا بنحاول نحافظ على البحر مليان!

الدعم المادي كان بالتوازي مع دعم إعلامي ومعنوي.

المجاهدين صوروا كمحاربين من أجل الحرية، أو Freedom fighters، استضاف بعضهم الرئيس ريجان في البيت الأبيض، وتم إهداء الجزء الثالث من فيلم رامبو إلى الشعب الأفغاني الشجاع اللي يقاتل بشجاعة أمام الدب الروسي المتوحش. ولكن الدب على وشك الاحتضار.

الغزو انتهى بهزيمة الاتحاد، ليس لتلقيه هزائم أكبر، ولكن لفشله في تحقيق أهدافه وهزيمة المجاهدين، وانسحابه بعد إدراك غورباتشوف ضرورة الخروج من المستنقع الأمريكي.

ولكن انتهاء الغزو لا يعني انتهاء الحرب.

بعد انسحاب القوات السوفيتية، سقطت الحكومة الأفغانية المدعومة من السوفيت، ودخل المجاهدون في حرب أهلية دموية للانفراد بالسلطة.

وفي وسط ما هم منهمكين في الصراع، ظهرت على الحدود الباكستانية قوة جديدة هدت بمحاربة الجميع.

قوة أسسها الملا عمر، مجاهد سابق ضد السوفييت، ومدرس شاف رؤيا اقتنع بسببها أن ربنا بيوكله مهمة إعادة الأمن والنظام، فاستعان سنة ١٩٩٤ بطلاب المدارس الدينية على الحدود الباكستانية لتأسيس أخطر حركة طلابية في التاريخ، عرفت باسم طالبان.

هل قرأ الملا عمر كتاب طاهر المعتز بالله الحركة الطلابية في الجامعة الأمريكية؟

أشك، مكنتش حصل الي حصل.

طالبان، أو الطلاب باللغة البشتونية إحدى اللغات الرسمية في أفغانستان، قدرت تهزم مجموعات المجاهدين المتناحرة، وتنفرد بالسلطة سنة ١٩٩٦ بعد السيطرة على العاصمة كابول.

الوحيد اللي نجح في المقاومة هو أسد البانشير أحمد شاه مسعود.

الملا عمر كان على علاقة وثيقة بنجم عالم الإرهاب الصاعد أسامة بن لادن.

أسامة الابن السابع عشر من ضمن اثنين وخمسين ابن وابنة لمحمد بن لادن، مهاجر يمني أسس شركة إنشاءات تحولت إلى إمبراطورية عملاقة بسبب اجتهاده، وقربه من العائلة المالكة.

بن لادن الابن درس إدارة أعمال في جامعة الملك عبد العزيز في جدة، ويرجح أنه درس هناك على يد محمد قطب أخو سيد قطب.

دراسته ممت الحس الديني بشكل خلاه يشوف الغزو الروسي لأفغانستان اعتداء على الإسلام.

فسافر هناك للمساعدة في تمويل المجاهدين عن طريق شبكة علاقاته، وثورته العائلية الضخمة، ومع الوقت أسس مجموعة مقاتلة صغيرة من العرب.

وعلى عكس ما هو متداول، المجاهدون العرب لم يكن لهم تأثير كبير على سير القتال في أفغانستان.

في كتاب:

٩/١١ The Looming Tower: Al Qaeda's Road to

الكاتب الأمريكي لورانس رايت يقول إن العرب كانوا عاملين مشاكل للمجاهدين الأفغان لأنهم بيعقوا في أخطاء كارثية بسبب نقص خبرتهم القتالية.

زي مثلاً نصبهم خيام بيضاء بتفضح مكانهم بسهولة وسط الصحراء.

وبن لادن مشاركش في عمليات كثيرة، ولكنه أسس سنة ١٩٨٨ منظمة عرفت باسم القاعدة، باعتبار أنها قاعدة للجهاد العالمي ضد أعداء المسلمين.

وبانتهاء الغزو، رجع للمملكة العربية السعودية منتشي بالانسحاب السوفيتي، وتم استقباله كبطل، فتضخم عنده الشعور بالأنا العليا، واقتنع أنه قائد عظيم من قادة الأمة الإسلامية المعاصرين.

بعد غزو صدام حسين للكويت عرض على المملكة الاستعانة بشبكة مقاتليه للدفاع عن أراضيها أمام التهديد العراقي

بالغزو.

البلد بتستعد للحرب وده بيقول لهم متخافوش أنا هجيب شلة النادي!

المملكة رفضت واستعانت بالقوات الأمريكية المهتمة بتأمين المنشآت البترولية، وضيقت عليه الخناق بعد ما أدركوا أنهم بيتعاملوا مع قنبلة موقوتة، فبن لادن قرر يسعى ورا أكل عيشه في حنة تانية، وسافر السودان.

وهناك أسس مركز قوي لتدريب المجاهدين الراغبين في قتال أمريكا، وأشاد بكل الهجمات الإرهابية اللي تعرضت لها، ومن ضمنها محاولة تفجير مبنى التجارة العالمي عن طريق وضع سيارة مفخخة في موقف السيارات سنة ١٩٩٣ ولكن الانفجار اللي حصل مآثرش على المبنى.

هجومه المستمر خلى المملكة تسحب جنسيته، وتجمد أصوله، وأجبرت السودان على طرده، فقرر الذهاب إلى أفغانستان سنة ١٩٩٦.

طالبان رحبت بالقاعدة وشافتها كحليف، وهناك بن لادن أصدر فتوى بضرورة شن حرب مقدسة ضد الولايات المتحدة، اللي بتسرق الموارد الطبيعية للمسلمين، وتحتل أراضيهم المقدسة، وتدعم حكومات موالية لمصالحها. وكالعادة، الكلام أدى لأفعال.

سنة ١٩٩٨ القاعدة نفذت تفجيرين في سفارتين للولايات المتحدة في نيروبي في كينيا، ودار السلام في تنزانيا، أدوا لمقتل ٢٢٤ شخص.

الولايات المتحدة ردت بقصف مواقع يشتبه أنها تخص القاعدة في أفغانستان، وبدأت تلتفت للخطر اللي بتمثله المنظمة بعد إصدار بن لادن فتوى تانية بينادي فيها بضرورة الجهاد ضد «التحالف الصليبي اليهودي» بقيادة أمريكا، حتى لو شمل ذلك قتل المدنيين!

وهما إنه دارس إدارة أعمال وفاهم تسويق، ملقاش أفضل من مناطق الصراع اللي فيها مسلمين لتجنيد الأعضاء الجدد، ولم يكن هناك صراع أسخن من الشيشان.

بعد بداية الحرب الثانية سنة ١٩٩٩ بعض الجماعات المسلحة المعتنقة للسلفية الجهادية، اللي شايفة الجهاد فرض عين على كل مسلم، سافرت الشيشان لقتال العدو الغاشم المعتدي على أراضي المسلمين.

بعضهم كان على علاقة بمنظمات إرهابية دولية زي القاعدة، ضمنت لهم إمداد مستمر بالمقاتلين، والمال، والسلاح.

بوتين أدرك إن الحل الأمثل هو القضاء عليهم من الداخل، بدل من محاولة التغلب عليهم من الخارج.

محتاج شخص حكيم من الممكن التفاهم معاه يحظى بثقة المقاتلين الشيشان يقود الصراع ضد المتطرفين، والشخص ده كان أحمد قاديروف.

قاديروف اتولد في عهد ستالين المرعب اللي شهد تنكيل، وتهجير قسري لأهالي الشيشان.

درس الزراعة والبناء قبل التفرغ للعلوم الدينية، فدرس في أوزبكستان، والأردن، وعمان قبل العودة للشيشان سنة ١٩٩١ بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

أثناء الحرب الشيشانية الأولى تولى منصب مفتي الشيشان، وأطلق فتوى شهيرة بضرورة الجهاد ضد روسيا، فالمقاتلين بدأوا في الوفود من كل حذب وصوب.

ولكن مع الوقت، ومع زيادة عدد المجاهدين، هدف القتال تحول من الدفاع الوطني عن الشيشان إلى إقامة دولة إسلامية. الصراع الوطني حاول استغلال النزعة الدينية، ولكن كالعادة النزعة الدينية هي اللي استغلت النزاع الوطني لإقامة دولة على أسس دينية.

قاديروف أدرك خطورة التحول اللي بيحصل قدام عينيه، ولكنه أدرك في نفس الوقت عدم قدرته على إيقافه بمفرده، في نفس الوقت اللي الكرملين كان بيبحث فيه عن حليف.

وفي صفقة فاستية مريرة أحمد قاديروف أصبح رجل الكرملين الأول.

وتم تعيينه كحاكم للشيشان، وبدأ في تجنيد مسلحين يدينوا له بالولاء بشكل شخصي. فأسس قوات خاصة بقيادة ابنه رمضان المعروف عنه القسوة، والقتال بلا رحمة. سمعة خلته مثير لرعب الأقباب قبل الأعداء، ومكنته من إحاق خسائر مهولة بالجماعات المتشددة. ورغم أن والده أصبح في نظر البعض خائن للقضية بعد تحالفه مع الكرملين. ولكنه كان مؤمناً بصحة قراره، واختياره الأقل ضرراً بين شرين. الانتصار الحاسم في الشيشان أصبح قاب قوسين أو أدنى. ولكن بما أن المواجهة المباشرة تؤدي لهزيمة مؤكدة وسريعة. وبما أن الانتصارات الصغيرة لا يتم تغطيتها إعلامياً، وبالتالي لا ينتج عنها أي أثر يذكر في تشكيل الرأي العام. فالحل الوحيد لإنهاء الحرب في نظر المجاهدين والانفصاليين، وسحب القوات الروسية من الشيشان، هو نقل المواجهة من الشيشان إلى موسكو، وقد كان. في أبريل سنة ٢٠٠٢ بوتين أعلن انتهاء العملية العسكرية في الشيشان. روسيا انتصرت في الحرب، وجه مَعَاد عودة العساكر لبيوتهم، مع الاحتفاظ بقوات قليلة في الشيشان لحفظ الأمن. ولكن يوم ٢٣ أكتوبر أثناء عرض المسرحية الغنائية Nord Ost المستوحاة من رواية The Two Captains اللي بتحكي عن بطولة الشعب الروسي أثناء حصار لينينغراد في الحرب العالمية الثانية، الممثلين فوجئوا برجل مقنّع بيمشي على خشبة المسرح. الجمهور افترقه جزء من العرض لحد ما رفع الكلاشنكوف وأطلق النار في الهواء، وفي نفس الوقت مجموعة من المثلثين والمقنّعين انتشروا ووقفوا على المداخل، بينما مجموعة من السيدات لابسين حجاب أسود عليه كلمات باللغة العربية انتشروا وسط الجمهور. كل واحدة منهم لابسة حزام ناسف، وماسكة مسدس في إيدها. المسلحين هددوا بتفجير المسرح بالكامل لو الشرطة حاولت اقتحامه، أو أي حد من الرهائن حاول يقاوم. المجموعة المكونة من ٢٢ رجل و١٩ سيدة بقيادة المقاتل الشيشاني موفسار باراييف سيطروا بشكل كامل على المسرح اللي على بعد حوالي ٥ كم فقط من الكرملين، وطلبوا من الحضور اللي بلغ عددهم أكثر من ٩٠٠ شخص من ضمنهم أجناب وأطفال أنهم يكلموا أحبابهم ويبلغوهم أنهم هيموتوا لو لم يتم وقف الحرب في الشيشان! احتجاج الرهائن تم وبوتين قاعد في مكتبه بيشتغل لساعات متأخرة كما جرت العادة. عايز يخلص الشغل اللي وراه قبل ما يسافر في رحلة ممتدة هيقابل فيها الرئيس الأمريكي جورج بوش. لما الخبر وصله دخل في حالة من القلق ممزوجة بالغضب. احتجاج رهائن تم على بعد عدة كيلومترات من الكرملين دليل على فشل القوات المسلحة في الشيشان، وفشل أجهزة الأمن في موسكو. لازم ينهي الأزمة في أسرع وقت ممكن. فاجتمع بنيكولا باتروشييف مدير الإف إس بي، وأمره بتجهيز القوات الخاصة لاقتحام المسرح. رئيس الوزراء ميخائيل كاسيانوف اعترض، وقال إن الاقتحام هيوذي لوفيات. بوتين قال له إحنا هنكفر، الأعمار بيد الله! وأمره بالسفر بدلاً منه عشان يبعدة عن غرفة العمليات. وبالفعل تم تجهيز ٣ فرق من القوات الخاصة، وأمرهم بعدم التفاوض نهائياً مع المختطفين إلا بهدف كسب الوقت إلى أن يتم الاقتحام. ومكنش يعرف إن المفاوضات بدأت بالفعل. بعد إذاعة الخبر القنوات التلفزيونية اتجهت إلى موقع الحدث، وبدأت بث مباشر.

مئات المواطنين تجمعوا أمام المسرح ومن ضمنهم سياسيين وصحفيين وأعضاء أحزاب معارضة بعضهم حاول الدخول في محاولة لتهدة الموقف، من ضمنهم رئيس حزب يابلوكو المعارض للحرب على الشيشان جريجوري يافلنسيكي. المختطفين سمحوا ليافلنسيكي بالدخول بسبب موقف حزبه المعلن وبعد حديثه معهم، لما خرج أعلن عن صدمته من صغر سنهم.

أغلب المختطفين صغار السن بدرجة ملفتة.

شباب، ومراهقين في عمر الزهور، يرتكبوا العمل الإرهابي الأكبر في العاصمة.

أغلب الظن أن كثير منهم متعلموش، ومدخلوش مدارس، ولا عمرهم سافروا خارج الشيشان اللي مشافوش فيها غير الحرب والدمار.

يافلنسيكي كمان لاحظ أن أفراد المجموعة لا تبدو عليها نزعات انتحارية، ودي كانت ملاحظة مشتركة لأغلب اللي تم السماح لهم بالدخول.

وبالرغم إن طلبهم بإنهاء الحرب، وسحب القوات الروسية خلال سبعة أيام شبه مستحيل، إلا أن احتمال تنفيذهم لتهديدهم بعد التعامل معاهم يكاد يكون مستحيل، خاصة بعد إفراجهم عن ٣٩ رهينة أغلبهم أطفال.

ولكن مع بداية اليوم الثاني الوضع اختلف تمامًا.

الرهائن شعروا بإجهاد شديد بسبب الجوع والعطش، وخافوا على حياتهم بعد إطلاق النار على ٣ حاولوا يدخلوا المسرح بدون إذن من ضمنهم ضابط في الإف إس بي.

قتل ٣ في يوم واحد أكد للرهائن إن حياتهم في خطر حقيقي كبير، وفي نفس الوقت أثبت لأجهزة الأمن عدم جدوى التفاوض.

ما دام في كل الأحوال في خسائر يبقى من الأفضل الاقتحام.

ومع ذلك عدد من الوسطاء استمروا في محاولة مستميتة للتواصل مع القادة في الشيشان، والمختطفين في المسرح لتفادي حدوث مجزرة مؤكدة، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ومن ضمنهم الصحفية الشهيرة أنا بوليتكوفسكايا.

أنا اتولدت في أمريكا كابنة لدبلوماسيين سوفيت في الأمم المتحدة، واشتهرت بكتابة تقارير مميزة عن الحرب في الشيشان. تغطيتها متزنة ومتعاطفة مع كل الأطراف اللي بتعاني، سواء كانوا مقاتلين شيشان، أو عساكر روس، أو مدنيين، ولكنها أزعجت قادة الجيش الروسي اللي اعتبرتهم مسئولين عن جرائم حرب، وانتهاكات إنسانية.

أنا حملت بوتين المسئولية بشكل خاص بسبب عناده وإصراره على إنهاء النزاع بالقوة.

لما عرفت خبر احتجاز الرهائن اتجهت للمسرح، وأول ما المقاتلين شافوها سمحوا لها بالدخول، ووافقوا على طلبها بإدخال كراتين عصير للرهائن اللي هيموتوا من العطش.

وعلى الرغم من البداية السيئة لليوم الأمور استقرت مع الوقت إلى حد ما.

الإفراج عن مجموعة ثانية من الرهائن مع الوعد بالإفراج عن الرهائن الأجانب في اليوم التالي كان سبب قوي للتفاوض.

المختطفين يبدو إنهم بدأوا في الاستماع لصوت العقل، بينما بوتين لا يسمع إلا صوت القوة.

الساعة خمسة صباحًا القوات الخاصة بدأوا في اقتحام المسرح، وبما إنهم خايفين من التفجيرات، فالأولوية لقتل المسلحين وليس القبض عليهم.

ولتفادي الدخول في معركة إطلاق نار ممكن تنتهي بحمام دم، سربوا للمسرح غاز مخدر مشتق من الفنتانيل عن طريق فتحات التهوية.

المختطفين بدأوا في النوم واحد ورا الثاني، ولكن بعضهم مكنش في القاعة الرئيسية، لما حسوا إن في حاجة غريبة وشافوا غاز طالع من تحت المسرح دخلوا في معركة حامية مع قوات الأمن اللي نجحت بعد ساعة من القضاء عليهم جميعًا دون استثناء.

انتصار مبهز ويدعو للفخر لكنه سرعان ما تحول لكارثة.
بعد انتهاء عملية الاقتحام وقتل المسلحين ووضع جثثهم أمام المسرح، بدأت عملية إخراج الرهائن التي أغلبهم فاقدى الوعي بسبب الغاز.
وهنا ظهرت الكارثة غير المتوقعة.
بسبب استنشاق الغاز في حالة إجهاد، عدد من الرهائن توفوا بالاختناق، وأصبح عدد كبير منهم بين الحياة والموت.
عربات الإسعاف التي وصلت للمسرح مجهزة بمعدات معالجة الجروح والصدمات.
محدث بلغهم باستخدام المخدر، وبالتالي غير مجهزين للتعامل معاه.
حالة من الاضطراب والفوضى عمت المكان، بينما أجساد الرهائن المنهكة أمام المسرح في حالة تزايد مستمر.
بعد إعلان قوات الأمن عن استخدام غاز مشتق من مخدر الفتانيل، تم توزيع أمصال على فرق الإسعاف للمساعدة في الإفاقة.

المشكلة إن عدد الأمصال أقل من عدد المصابين، ومحدث عارف أيه الجرعة المطلوبة.
ساعة ونصف قضاها الرهائن في الشارع قبل التحرك للمستشفى، فأنتهى الأمر بوفاة ١٣٠ رهينة!
أحد الأطباء علق على الكارثة وقال:

It wasn't an evil plot; it was just a soviet mess

لم تكن مؤامرة شريرة، كانت فقط فوضى سوفيتية.
إشارة إلى استمرار الإهمال، وسوء التنظيم، والاستهتار بأرواح المواطنين منذ أيام الاتحاد السوفيتي.
سقط الاتحاد، واستمرت السلوكيات التي أدت لسقوطه.

بعد انتهاء الأزمة بوتين ألقى خطاب تلفزيوني حول فيه الكارثة إلى انتصار عظيم.
قوات الأمن نجحت في إنقاذ مئات الأرواح من يد الإرهابيين الحثالة.
ولكنه مقدرش يتجاهل الخسائر وقال مقدرناش ننقد الجميع، أرجوكم سامحونا.

We were unable to save everyone, please forgive us

إعادة الصياغة أو ال Reframing نجحت في خروجه من الأزمة كبطل منقذ، فتلقى التهاني من القادة المحليين والدوليين، وزادت شعبيته وشعبية الحرب الشيشانية بشكل ملحوظ.
ولكن ظهرت في الخلفية أصوات خافتة بتشكك في السردية الرسمية.
همسات تشير لتورط أجهزة الأمن في الهجوم بشكل أو بآخر.

طبقاً لمصدر سري تحدث مع مراسلة جريدة ال Financial Times في روسيا Catherine Belton، ونشرت اللقاء في كتاب:

Putin's People: How the KGB Took Back Russia and then Took on the West

الهجوم كان من تدبير مدير الإف إس بي نيكولاي باتروشيف، التي حس بتدني شعبية الحرب فقرّر تدبير محاكاة هجوم إرهابي يعيد الدعم الشعبي للحرب، وفي نفس الوقت يزيد من شعبية الرئيس، التي هي قدر ينهي الأزمة دون أي خسائر.
باتروشيف اقترح على بوتين تدبير مجموعة للقيام بدور خلية إرهابية معاهم متفجرات غير حقيقية، هيتم في النهاية نقلهم بسلام لتركيا تحت إشراف الإف إس بي، بعد استطاعة الرئيس إجبارهم على تحرير الرهائن من غير نقطة دم واحدة.
طبقاً للمصدر، الخطة فشلت بعد قتلهم للمدنيين والضباط التي حاولوا دخول المسرح.

الموضوع قلب جد وبقي في دم، ومبقاش من الواضح مين ممكن الثقة فيه.

فتمت الاستعانة بإيجور سيتشن، نائب رئيس الديوان وأحد أقرب معاوني بوتين من أيام لينينغراد.

سيتشن اقترح استخدام غاز مخدر لشل حركة الإرهابيين، ولكنه لما اتصل بأحد قادة سلاح الحرب الكيماوية حذره إن الغاز اللي في العادي لا يؤدي إلى الوفاة قديم، وممكن يكون منتهي الصلاحية.

فسيتمنن قرر استخدام عشر أضعاف الجرعة العادية لضمان فاعليته مما أدى لاختناق الرهائن، بينما الممثلين تم التعامل معهم على أنهم مجموعة إرهابية حقيقية، فقتلوا جميعًا.

القصة غريبة، وفي نفس الوقت مرعبة لدرجة تجعل من السهل استبعادها، وعدم أخذها على محمل الجد، خاصة بعد نفي متحدث البرلمان وتأكيدده على أنها قصة لا أساس لها من الصحة، لكن تقرير النيابة اللي صدر بعد سنة من الحادثة خلى من الصعب استبعاد النظرية بشكل كامل.

التقرير اللي لم ينشر سوى في صحيفة Kommersant أو رجل الأعمال، بيقول إن بعد البحث والمعاينة تم اكتشاف أن القنابل داخل المسرح قنابل غير حقيقية بما فيها الأحزمة الناسفة، بالإضافة لخلو أجهزة التفجير أو ال Detonators من البطاريات.

التقرير أكد جزء من رواية المصدر، وطرح عدة أسئلة مهمة.

الغاز بياخد من خمس لعشر دقائق عشان مفعوله يظهر، ليه في الوقت ده الإرهابيين مفجروش المكان بعد ملاحظتهم لغاز بيتسرب داخل المسرح؟

ده يرجح إن نية التفجير لم تكن موجودة من البداية.

وبما أن عدد كبير من الإرهابيين تم تخديره بالفعل، ليه بعد الاقتحام تم تصفيتهم جميعًا، حتى غير الواعين منهم، برصاص في الرأس؟

مش من الأفضل التحقيق معهم ومعرفة مصادر تمويلهم وتفصيل تشغيلهم؟

ليه تم رفض فتح تحقيق مستقل في الحادث رغم مطالبة أهالي الضحايا؟

والسؤال الأهم فوق كل ده يخص قائد العملية موفسار باراييف.

طبقًا لمصادر حكومية، تم القبض على موفسار قبل العملية بشهرين، بالإضافة إلى إن واحدة من السيدات المشاركات في العملية اللي عرفوا باسم الأرامل السوداء Black Widows باعتبارهم أرامل وأخوات وبنات المقاتلين الشيشان، تم القبض عليها قبل العملية طبقًا لشهادة والدتها، اللي فوجئت برؤيتها على شاشة التلفزيون.

فإزاي اتقبض عليهم وبعد كده خرجوا؟

هل ممكن يكونوا هربوا؟

وهل يعقل يكونوا اتهربوا؟

أسئلة بلا إجابات أعادت للأذهان تفجير المباني قبل الحرب، وانتخابات بوتين، أسئلة قرر الإجابة عليها ضابط الإف إس بي السابق ألكسندر ليتفينينكو.

ليتفينينكو ظهر على الساحة لأول مرة سنة ١٩٩٨ بعد تنظيم مؤتمر صحفي مع ثلاثة ضباط آخرين في الإف إس بي، أعلنوا فيه تلقيهم أوامر باغتيال الأوليغاركي بورييس بيريزوفسكي، ونادوا فيه بتطهير الجهاز من الفساد.

المؤتمر خلاه من أصحاب الثقة المقربين لبورييس بيريزوفسكي، اللي حاول يعرفه على بوتين بعد توليه الجهاز.

ولكنه في نفس الوقت حطه على قائمة مثيري المتاعب لبوتين، اللي شاف قربه من بيريزوفسكي مشكلة وليس ميزة.

مشكلة يجب التخلص منها لأنه مهما كانت علاقته الحالية ببيريزوفسكي، فالزمن قلاب.

ووجود أيادي معاونة للأوليغاركي داخل جهاز الأمن أمر غير مسموح به بالمره.

فتم القبض على ليتفينينكو بعد مقابلة بوتين بتهمة استخدام القوة مع أحد المتهمين أثناء القبض عليه من ٣ سنوات.

فهم الرسالة، وأول ما أفرج عنه هرب لتركيا، وقرر يوهب ما تبقى من حياته لمحاربة فساد الجهاز اللي اترى بداخله، فعرض خدماته على السفارة الأمريكية، ولكنهم رفضوه.

هيعملوا أيه بضابط سابق هارب؟

المشكلة إنه بذهابه للسفارة كشف نفسه أمام أعين العملاء الروس اللي بيراقبونها ليل ونهار، فسافر لندن وطلب اللجوء.

وهناك لما بوتين أصبح رئيس وزراء بدأ يحقق في سلسلة الانفجارات المفاجئة، فتوصل لمجموعة من الأدلة التي خلته يدرك أن التي حصل مؤامرة على أعلى مستوى.

أحد نواب البرلمان بعث له محضر جلسة يوم ١٣ سبتمبر، قال فيها المتحدث، أو رئيس المجلس إنه وصل له أنباء عاجلة عن تفجير مبنى سكني في فولجودونسك.

المفاجأة أن المبنى كان سليم، وتم تفجيره بعدها بثلاثة أيام!

ليتفينينكو جمع الأدلة ونشرها في كتاب بعنوان تفجير روسيا: الإرهاب من الداخل.

Blowing Up Russia: Terror from Within

كتاب أصبح بسببه مغضوب عليه من الكرملين إلى الأبد.

بعد خروج بيريزوفسكي من جنة الكرملين بسبب أكله من شجرة المعارضة المحرمة، سافر لندن، وبدأ يدعم ليتفينينكو في جهوده لكشف ومحاربة فساد الأرستقراطية الروسية الجديدة.

بعد اقتحام المسرح سنة ٢٠٠٢ ليتفينينكو استعان بأحمد زكايف، أحد أعضاء الحكومة الشيشانية بعد انتهاء الحرب الأولى، وبدأوا في مراجعة الأدلة.

أثناء تفريغ كاميرات المراقبة اكتشفوا نجاح أحد المشاركين في العملية في الهرب من المسرح قبل اقتحامه.

وبالتدقيق اكتشفوا أن الشخص ده هو خانباش تيركيباييف، صحفي شكوا في تعاونه مع الشرطة، قابله ليتفينينكو بعدها بسنة في إحدى جلسات البرلمان الأوروبي، التي شارك فيها ضمن بعثة نظمتها الحكومة الروسية، كممثل عن الشيشان!

في أبريل ليتفينينكو أرسل المعلومات لعضو البرلمان وصديق مارينا سالي -عضوة مجلس مدينة لينينغراد السابقة- سيرجي يوشينكوف، المشارك في لجنة التحقيق البرلمانية في حصار المسرح.

يوشينكوف اتضرب بالنار، وقتل في وضح النهار بعدها بأسبوعين.

ولكنه قبل ما يموت، بعث الأدلة لأهم صحفية استقصائية في موسكو، آنا بوليتكوفسكايا.

آنا راجعت الأدلة وقدرت توصل لخانباش تيركيباييف، التي شافته بنفسها لما دخلت المسرح مع المسلحين، واتعرفت عليه لما شافت صورته كأحد ممثلي الشيشان في المؤتمرات الدولية.

تيركيباييف وافق على مقابلتها، واتكلم بفخر عن قدرته على تهريب المسلحين عبر كمائن الشيشان لحد ما وصلوا المسرح في موسكو، ولما سألته عن طبيعة عمله، قالها إنه يشتغل مع أجهزة الأمن الروسية، وأكد إن السبب الوحيد لعدم تفجير المسرح هو عدم وجود متفجرات.

كلامه موافق لنتيجة التحقيقات، ولكنه لا يمكن الوثوق فيه.

بوليتكوفسكايا عرفت إنه غير صادق من أول دقيقة.

الأم الأربعينية ذات الشعر الرمادي، والنظارات الطبية، حدسها الصحفي الثاقب بيقول لها إن الشخص التي قدامها بيكذب كثير، ومع ذلك كثير من كلامه حقيقي!

الأدلة بتقول إنه كان مشارك في العملية لأنها شافته بعينها.

وبتقول إنه الوحيد التي عاش من ضمن المشاركين، وقدر يخرج من المسرح أثناء الهجوم ويكمل حياته بمنتهى الحرية، لدرجة مشاركته في مؤتمرات دولية!

بعد مقابلة تيركيباييف الأسئلة زادت مقلتش، ولكنها أسئلة بعكس المرات السابقة لم تحدث أي ضجيج.

أسئلة ضاعت وسط زحام التسبيح بعظمة الرئيس بوتين والتغني بحكمته.

وعادت طبول الحرب تدق بعلو وحماس.

أعلان مسخادوف الرئيس الشيشاني المنتخب قبل الحرب أذان الحادث، وأعلن من خلال أحد معارفه المشاركين في مؤتمر عن الشيشان في الدمارك أنه مستعد للتفاوض مع بوتين من أجل السلام دون أي شروط.

بوتين رفض بشكل قاطع، وأعلن إلغاء انسحاب القوات الروسية. بالإضافة لإصدار طلب القبض على المتحدث باسم مسخادوف في الدمارك باعتباره شريك في تدبير الحادث. الشرطة الدماركية نفذت الأمر وقبضت عليه بالفعل، ولكنها رفضت تسليمه لروسيا بعد اكتشافها فبركة أدلة إدانته وبطلان اتهامه.

رفض مباحثات السلام، وفبركة الأدلة القضائية لم ينالوا من سمعة روسيا. وفشل الأمن في رصد جماعة إرهابية مسلحة على بعد مرمى حجر من الكرملين لم يؤدي إلى محاسبة المسؤولين، بالعكس تم زيادة مخصصات الأجهزة الأمنية في الميزانية الجديدة.

والأهم من كل ده هو نجاح بوتين في ربط حرب روسيا على الإرهاب في الشيشان، بحرب أمريكا على الإرهاب في أفغانستان. بعد ظهور أمير المجاهدين الشيشان شامل باسايف وتحمله مسئولية الحادث بعدها بأسابيع، مسئول رفيع في الخارجية الأمريكية صرح بأن السياسة الأمريكية أصبحت أقرب من أي وقت مضى للسياسة الروسية، وأن الهجوم أضعف القضية الشيشانية.

مع غياب التعاطف الدولي للجيش الروسي تصرف بحرية مطلقة. الاعتقال، والاختفاء القسري، والإعدام الميداني أصبحوا سمة يومية في الأراضي الشيشانية. ولإضفاء شرعية قانونية، تم عمل استفتاء على دستور جديد ينص صراحة على تبعية الشيشان لروسيا، وبعدها تم تنظيم أول انتخابات رئاسية بعد الحرب فاز بها أحمد قاديروف، اللي رغم ولاءه لموسكو، استمر في المطالبة بوقف الانتهاكات الحقوقية للقوات الروسية.

موسكو لم تأخذ مطالبه على محمل الجد، بالعكس روجت لهم كدليل على استقلاله وعدم تبعيته. والحقيقة أن مهادنته لروسيا لم تنسيه اهتمامه بالشيشان. يجب لم الشمل وحقن الدماء.

ابنه رمضان حاول يتواصل مع أعوان مسخادوف، لجس النبض حول إمكانية الصلح بين الإخوة المتناحرين. محاولة وقفت ضدها المخابرات الروسية طبقاً له هو شخصياً، وأصبحت من الماضي بعد اغتيال والده أحمد قديروف بقنبلة وُضعت تحت كرسيه أثناء مشاهدته احتفالات يوم النصر في شهر مايو ٢٠٠٤، بعد سبع شهور من توليه الرئاسة. لا صلح مع الدماء، ولا زعيم سوى قديروف الابن، اللي بقى كل هدفه الانتقام من قتلة أبوه. بينما الانفصاليين هدفهم إثبات أنه لا يمكن إبقاء الوضع كما هو عليه.

الإرهاب يرى الحل في مزيد من الإرهاب.

ومفيش حاجة هتثير رعب الروس أكثر من مهاجمة أطفالهم.

أول يوم في السنة الدراسية يعتبر عيد في روسيا.

الأولاد بيجيبيو ورد للمدرسين، والبنات بيلبسوا فساتين، والأهالي بيوصلوا ولادهم وسط مظاهر احتفالية مبهجة.

يوم ١ سبتمبر سنة ٢٠٠٤ الساعة تسعة وعشر دقائق صباحاً، الطلاب والمدرسين والأهالي المجتمعين أمام بوابة أحد المدارس في مدينة بيسلان فوجئوا بعشرات المسلحين راكبين عربيات شرطة وقفوا أمام المدرسة، وبدأوا في إطلاق النار على أفراد الشرطة الموجودين للتأمين.

المسلحين الأكثر عدداً وعتاداً قتلوا أفراد الشرطة بسهولة، وبعدها أمروا الطلاب والأهالي والمدرسين بدخول المدرسة وقفلوا البوابات وراهم.

وأول ما دخلوا بدأوا في إخراج أكياس ذخيرة كانوا مخبئونها تحت البلاط أثناء تجديد المدرسة في الصيف، وأمروا الموجودين بالتجمع في قاعة الألعاب الرياضية الكبيرة، ولغموا المدرسة كلها بالمتفجرات، وعلقوها على حبل مربوط في حلقتين كرة السلة من كل طرف.

الإرهابيين ذاكروا كويس اللي حصل في مسرح موسكو، ففخخوا المداخل والمخارج لمنع عمليات الاقتحام، وجابوا معاهم أقمعة عشان لو حد حب يرش غاز يبقوا جاهزين.

الخبر وصل الكرملين وبوظ عليه فرحته بفوز بوتين بالانتخابات.

الإرهابيين نجحوا في احتجاز ١١٠٠ شخص ضمنهم سيدات وأطفال، وطالبوا بالانسحاب الفوري من الشيشان، مع إعلان الاستقلال.

القوات الروسية تمركزت أمام المدرسة بانتظار أمر الاقتحام، ولكن عدد الرهائن الكبير خلى القيادات مترددين في اتخاذ قرار زي ده.

الرهائن مُنعوا من الأكل والشرب، لدرجة أن الأطفال كلوا الورد اللي كانوا جايينه للمدرسين من شدة الجوع، واتحايلوا على المختطفين عشان يسمحوا لهم يشربوا بول بعض من شدة العطش.

يومين من الجحيم انتهت بوصول أهل الخير من الوسطاء للرئيس السابق أصلان مسخادوف عشان يبجي يتفاوض بنفسه على تحرير الرهائن.

مسخادوف وافق، ولكن بعد حوالي ساعتين من إعلان موافقته، الرهائن سمعوا صوت انفجار مهول في المدرسة.

قوات الأمن بدأت عملية اقتحام مفاجأة، فحولوا المكان خلال ثواني إلى جحيم.

طلقات النار، وصواريخ، وقذائف دبابات طائرة في كل حته.

الرهائن العطشى من الأطفال قتلوا بالرصاص، أو الحرق، أو الخنق، في مشهد أبوكاليبتي سقط فيه المئات.

اليوم الدامي انتهى بقتل الإرهابيين، ومعاهم ٣٣٠ رهينة، أكثر من نصفهم أطفال.

التحقيقات أثبتت أن المواجهة بدأت بهجوم الدبابات على المبنى.

والمفاجأة الأكبر هي إبلاغ أحد المجهولين عن هجوم إرهابي محتمل قبل حدوثه بأربع ساعات!

مثلث خطير من التقاعس الأمني، والفسل الإداري، والاستهتار بالأرواح.

وعلى عكس الأزمة السابقة، الشعب المرة دي صب غضبه بالكامل على بوتين!

وتم اتهامه بخرق العقد الاجتماعي بين السلطة والشعب.

عمَّال بتمنع حريات مقابل الأمن، دلوقتي لا أمن ولا حريات؟

صورة الرجل القوي اللي قعد بينها سنين طويلة اهتزت بشدة، القبضة خلخلت، فقرر إحكامها بشكل أقوى من أي وقت سابق.

بعد ١٠ أيام من الهجوم الإرهابي، بوتين أصدر قرار بإلغاء انتخاب المحافظين، أحد أهم المكتسبات الديمقراطية الباقية منذ إصلاحات غورباتشوف، وبرر قراره بأن الإرهابيين انفصاليين عايزين يضعفوا الدولة ويقسموها، ولذلك الطريقة الوحيدة لضمان عدم تكرار الحادث في المستقبل هو تقوية السلطة المركزية.

القرار أثار موجة اعتراضات نددت بالعودة لممارسات الحزب الشيوعي، ولكنها فشلت في إثناؤه عن موقفه.

وبعد القضاء على آخر ما تبقى من فترة الانفتاح الديمقراطي، وضمان عدم وقوعها في يد العدو الداخلي، تفرغ للمواجهة الكبرى مع العدو الخارجي.

وصرح أن الهجوم على روسيا قام به الغرب، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

حلف الناتو ه

«دعوني أفهم هذا الأمر بشكل جيد: كل ما سيحصل عليه الروس من هذه الصفقة الكبرى التي نعرضها عليهم هو مجرد التأكيد بأننا لن نضع معدّاتنا العسكرية في أيدي حلفائهم السابقين الذين سيصبحون الآن حلفاء لنا، إلا إذا استيقظنا ذات صباح وقررنا تغيير رأينا؟»

سيحصل الروس على فرصة للجلوس في نفس الغرفة مع الناتو، ولكن لن يكون لديهم أي قدرة على منعنا من القيام بأي شيء لا يتفقون معه، ويمكنهم فقط تسجيل عدم موافقتهم بالخروج من الغرفة؟».

بيل كلينتون

مبادرة شركاء من أجل السلام Partners for Peace واجهت أول تحدي لها بعد تفكك يوغوسلافيا. يوغوسلافيا، أو أرض السلاف الجنوبيين، دولة أسست بعد سقوط الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وأعيد تأسيسها مرة ثانية بنهاية الحرب العالمية الثانية، ولكن حلم الوحدة انهار بانتهاء الاتحاد السوفيتي. الدولة الكبرى المكونة من ست دول، وهي: صربيا، ومونتينيغرو، والبوسنة والهرسك، ومقدونيا، وسلوفينيا، وكرواتيا، بدأ أعضاؤها في المطالبة بالاستقلال بالتزامن مع الحركات الديمقراطية في شرق أوروبا. الصرب زيهم زي الروس في الاتحاد السوفيتي، هم الأكثر عدداً، والأكثر قوة. تحت قيادة رجل الحزب الشيوعي السابق سلوبودان ميلوسوفيتش، صربيا حاولت تمنع الدولة من التفكك بالإقناع، ولما فشلت لجأت للقوة.

في يونيو سنة ١٩٩١ سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة أعلنوا الاستقلال، فصربيا أعلنت الحرب على سلوفينيا، ولكنها فوجئت ببسالة قوات الدولة الصغيرة ودرجة الاستعداد العالية للدفاع، فقررت الانسحاب حفظاً على ماء الوجه. الأقليات الصربية المتوزعة في باقي الدول اعترضوا على الاستقلال، ودخلوا في حرب أهلية طاحنة استمرت لسنوات طويلة، ودعموا فيها الجيش الصربي بكل قوة. العنف ظهر بشكل مخيف في المدن التي فيها اختلافات دينية وعرقية، زي سربيتسا البوسنية التي مات فيها أكثر من ٨٠٠٠ شخص في إبادة عرقية مرعبة.

وهو رقم ليس للتقليل ولكن للتقريب والتوضيح، أقل من نصف القتلى في غزة بعد شهرين من بداية حرب ٢٠٢٣. مشهد الإبادة العرقية في رواندا سنة ١٩٩٤، خلى العالم يراقب اللي يحصل في إفريقيا وهو متوقع إنه هيشوف كارثة إنسانية مشفهاش من أيام الحرب العالمية الثانية.

ألمانيا لوحدها استقبلت منذ بداية الصراع حوالي ٤٠٠ ألف لاجئ من دول يوغوسلافيا السابقة. الناتو بالتعاون مع روسيا قرر التدخل في منطقة خارج حدود التحالف لأول مرة منذ إنشائه. ١٥٠٠ جندي روسي شاركوا بجوار جنود أوكرانيين، وأمريكيين، بالإضافة لعدد من الجنسيات المختلفة أعضاء مبادرة شركاء من أجل السلام، لوقف العنف الصربي.

التدخل بدأ بفرض حظر طيران، وتطور مع استمرار العنف لقصف المنشآت العسكرية، والقوات الصربية. التجربة أثبتت نجاح المبادرة التي قدرت تجمع أعداء سابقين في مهمة إنسانية مشتركة، ولكنها تسببت في إثارة دعر المواطنين الروس القريبين من السلاف عرقاً، وديناً.

ومع ذلك الضغط استمر على إدارة كلينتون، سواء في الداخل أو الخارج، للسماح بقبول أعضاء جدد. كلينتون عارف إن روسيا فقدت أي قدرة على عرقلة التمدد بعد انسحاب قواتها من دول شرق ووسط أوروبا، ولكنه مع ذلك كان يحاول جاهداً عدم إغضاب يلتسن، اللي مفيش حاجة هتزعله أكثر من انضمام دول البلطيق، فكلينتون استغل

عدم وجود طريقة لسحب عضوية الدولة بعد انضمامها، وقال إنه صحيح في بعض الجمهوريين عايزين يضموا عدد أكبر من الأعضاء، لكن من الأفضل توخي الحذر، على أن يتم البدء في إجراءات ضم بولندا، والمجر، والتشيك. ألمانيا رحبت بالخبر، بعد ما كانت في وش المدفع دلوقتي بولندا هي اللي على الواجبة. بينما لوبي الصناعات العسكرية في أمريكا عاش إحدى أجمل ليالي حياته.

اتحاد الصناعات الجوية رجح وجود سوق يقدر بعشرة مليار دولار لتسليح الأعضاء الجدد بالطائرات المقاتلة فقط! ولتخفيض نفقات شراء وتحديث الأسلحة، هيتم السماح لهم باستخدام بعض المعدات القديمة اللي ورثوها من الاتحاد السوفيتي.

هنتحالف مع العدو، وهنحاربك بسلاحك!

يلتسن حس بغضب شديد.

ثلاث دول مرة واحدة؟

دي خيانة!

هاقول لروسيا إيه؟

كلينتون قال له صل على النبي يا راجل، مثنى وثلاث ورباع!

هتقول لهم روسيا دولة عظيمة، هتكون عضوة في منظمة الـ G7 للدول السبع الأقوى اقتصادياً في العالم، اللي هيبقوا G8 إن شاء الله بانضمام روسيا.

وهتقول لهم كمان إن روسيا أصبحت عضوة في منظمة التجارة العالمية، إلى جانب أي وكل منظمة أخرى ذات حيثية، أهمهم على الإطلاق منظمة باسم مجلس التحالف الروسي المشترك.

Joint Russia Nato Council

يلتسن عايز معاملة خاصة مش زي باقي الدول باعتبار إن اللي معاه سلاح الناس بتحترمه في الشارع، وده معاه أكبر ترسانة نووية في العالم!

أمريكا اخترعت هذه المنظمة وأوحت له إن لها طبيعة خاصة، من غير ما تلزم نفسها بأي شروط.

الميثاق المؤسس للمنظمة قال إن في ظل الظروف الحالية، لا توجد نية، أو خطة، أو سبب، لنشر أسلحة نووية أو قوات كبيرة في أراضي دول الأعضاء الجدد في التحالف.

يلتسن وافق وكلينتون مبقاش مصدق، معقول روسيا وافقت على الكلام ده؟

هو في أي حاجة اسمها لا توجد نية؟

طب ولو وجدت نية، أين المسؤولية القانونية؟

تدهور صحة يلتسن خلاله مضيعش ما تبقى من جهد في معارضة أمر واقع هيحصل هيحصل، وفي نفس الوقت خلت أمريكا وألمانيا عازمين على الخروج بأكبر مكاسب ممكنة قبل خروجه من السلطة، أو خروجه من الدنيا.

واللي ساعده على كده ترووجه للمجلس كانتصار لروسيا.

يلتسن قال إن الاتفاق يلزم التحالف بالحصول على موافقة روسيا قبل أي توسع مستقبلي، رغم إنه في الحقيقة لا يلزم أمريكا سوى بعقد اجتماع شهري!

واللي ساعده على تمرير التوسع داخلياً هو تحسن الحالة العامة للروس.

عدد العربيات تضاعف ثلاث مرات في موسكو من سنة ١٩٨٩ لأواخر التسعينيات، وعدد الروس اللي يقدرُوا يسافروا يقضوا عطلاتهم في الخارج زاد.

لا تحدثني عن الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، حدثني عن التكييفات واللونج ويك إند.

وفي الحقيقة رغم صحة كل الأسباب السابقة، فالسبب الرئيسي لعدم معارضة يلتسن للتوسع بشكل أكبر هو احتياجه

للأموال.

ملعون أبوك يا فقر حاوجني للأندال، ذليت عزيز النفس عشان قليل المال!

وزي ما كلينتون توقع، مليارات المنح، والقروض، والمساعدات، لينوا الحديد، وقربوا البعيد.

يلتسن قال له أنا خايف يا بيبي الفلوس دي تتفهم إني باخد رشوة عشان أقبل توسع التحالف!

كلينتون اللي لسة خارج من فضيحة مونيكا قال له يا راجل استغفر الله!

ده النبي قبل الهدية!

لا يوجد أي رشوة سياسية في هذه الحزمة الاقتصادية!

إحنا كل هدفنا المواطن الروسي ربنا يكرمه ويعرف يسافر الغردقة.

الأمر فضلت مستقرة، والأعضاء الجدد انضموا للتحالف سنة ١٩٩٩، ولكن اللي حصل في كوسوفو غير كل شيء.

إقليم كوسوفو في صربيا عامل زي إقليم الشيشان في روسيا، جزء داخلي من الدولة انفصاله أصعب عليها من خروج دول

أخرى من التحالف.

كوسوفو أصبحت جزء من صربيا سنة ١٩١٢، وبالتبعية أصبحت جزء من يوغوسلافيا سنة ١٩١٨.

الصرب اللي شكلوا ٥% من سكان الإقليم اعتبروه قلب دولتهم، أو قدس صربيا، رغم إن ٩٥% من السكان ألبان مسلمين؛

لأن ذكرى خسارة الإقليم للدولة العثمانية من حوالي ٥٠٠ سنة بعد هزيمة الجيش الصربي ما زالت حاضرة في الذاكرة

الجمعية بقوة، ويتم تدريسها للطلاب في المدارس.

ولذلك في الثمانينيات لما طالب الإقليم، اللي يتمتع بالحكم الذاتي، بمزيد من الحرية السياسية، صربيا رفضت بحزم.

سلوبودان ميلوسوفيتش لغى الحكم الذاتي، وفرض السيطرة المباشرة.

ومع موجة الاستقلال اللي ضربت يوغوسلافيا في بداية التسعينيات، كوسوفو أعلنت استقلالها هي كمان، ولكن محدش

اهتم!

ميلوسوفيتش ومعاه المجتمع الدولي مشغولين بسلوفينيا، والبوسنة، وكرواتيا.

ولكن أول ما فشل في إخضاعهم بالقوة، تفرغ لكوسوفو.

منظمة جيش التحرير الكوسوفي بدأت حرب عصابات ضد الشرطة الصربية، فالجيش تدخل، وبسبب الاختلافات العرقية

والدينية، سرعان ما تحول العنف إلى إبادة عرقية شاملة للمسلمين الألبان.

وعلى عكس المرات السابقة، وبما أن الحرب المرة دي داخل حدوده، وليس لدعم قوات انفصالية خارجية زي ما حصل في

الحرب الأهلية، ميلوسوفيتش راهن أن الناتو مش هيهاجمه تاني من غير موافقة مجلس الأمن، وهو شيء لن يحدث في

وجود روسيا السلافية الأرثوذكسية.

كلينتون قال بدل ما نحط يلتسن في مأزق، ونجبره يختار بين فعل ما هو صحيح، وما هو شعبي، التحالف يجب أن يتحرك

بدون قرار من مجلس الأمن.

مش معقول كل ما تحصل مشكلة هنقدم على موافقة؟

سابقة معبرة عن تحول أمريكا لشرطي العالم الجديد والوحيد.

شرطي مقتنع أن وظيفته تنفيذ القانون، ويرى نفسه فوق القانون.

وبالفعل في مارس سنة ١٩٩٩، بالتشاور مع وزارتي الخارجية والدفاع، ورئيس وزراء بريطانيا توني بليز، والرئيس الفرنسي جاك

شيراك، كلينتون قرر بدء عملية قصف جوي غير محدد المدة من التحالف لصربيا لحين قبول ميلوسوفيتش وقف العمليات

العسكرية، وعودة اللاجئين، ونشر قوات دولية لحفظ السلام.

الفكرة من القصف المستمر هو عدم إعطاء الفرصة لروسيا والصين لإصدار قرار من مجلس الأمن لوقف الهجوم، وعدم

السماح للتحالف نفسه بالتفكك.

طول ما العربية ماشية محدش هيفتح الباب وينزل!
وده نفس اللي بيعمله تينياهو في قصف غزة، طول ما القصف شغال الحكومة في أمان.
يلتسن حس بغضب شديد، لما سمع أنباء القصف المحتمل اتصل بكلينتون وفضل يتكلم بانفعال لمدة ١٢ دقيقة كاملين، لما
رفض يتراجع عن موقفه في نهايتهم قفل السكة في وشه!
بتعمل إيه يا راجل! دي هيلاري معملتهاش!
يلتسن كان مذعور من فكرة استخدام التحالف للقوة في حالات غير دفاعية ولا تخص Article ٥ الشهير عن أن الهجوم على
عضو يعني الهجوم على باقي الأعضاء كلهم!
فحاول يقنع كلينتون بالتراجع عن قراره مرة ثانية، فبعث له برقية قال له فيها لو انفجرت كوسوفو، النار هتمتد للمنطقة
كلها!
ولكن كلينتون صمم، خاصة بعد رفض ميلوسوفيتش وقف إطلاق النار، وهكذا بدأت قوات الناتو في قصف العاصمة
بيلجراد.

القصف أصاب الروس بحالة من الرعب!
الفرق الوحيد بين روسيا وصربيا هو أن روسيا القوة النووية.
كان ممكن يكونوا مكانهم لولا ستر ربنا، وجهود الرفيق ستالين رحمة الله عليه.
المواطنين في سيبيريا بدأوا في سؤال المسؤولين الحكوميين عن كيفية التصرف في حالة التعرض لقصف جوي من قوات الناتو.
معارضين يلتسن قالوا:

!Belgrade today, Moscow tomorrow

اللي بيضرب في العراق، بكرة هيضرب في الوراق!
المعارضة شملت كافة أطياف المجتمع، بما فيهم المتعلمين، والموالين للغرب.
٩٣% من الشعب الروسي غير راضين عن أفعال الناتو!
كل ده خلى يلتسن يدرك ضرورة إنهاء الحملة في أسرع وقت.
وبعد ما يأس من إقناع كلينتون، حاول يقنع ميلوسوفيتش أن مفيش أمامه حل غير الاستسلام.
وقال له كده الملك مات!

أو Checkmate اللي أصلها بالفارسي شاه مات!

ميلوسوفيتش اقتنع، وفي يونيو أعلن وقف العمليات العسكرية ضد كوسوفو، فتوقف القصف اللي شارك فيه ألف طائرة
قاموا ب ٣٨ ألف مهمة قتالية، وبدأت عملية دخول قوات حفظ السلام الدولية.
بعد لعب دور محوري في استسلام ميلوسوفيتش، روسيا توقعت إنها هتشارك في حفظ السلام، وانتظرت تخصيص أرض
لوجود قواتها.

الناتو خاف الأرض المخصصة لروسيا تتحول مع الوقت لبؤرة صربية داخل الأراضي الكوسوفية، فرفض التخصيص.
وهنا روسيا أدركت ضرورة فرض أمر واقع على الأرض.

واضح إنهم نسيوا إحنا مين، ومحتاجين نفكرهم!

مع بداية أول أيام السلام في ١١ يونيو سنة ١٩٩٩، ٢٥٠ جندي مظلات روسي تحركوا باتجاه مطار بريشتينا الدولي في عاصمة
كوسوفو.

العساكر كانوا في القاعدة العسكرية في البوسنة لحفظ السلام، جالهم أمر بالسيطرة على المطار قبل وصول قوات التحالف.
وبالفعل وصلوا قبلهم، وسيطروا على المطار، ولكن لما قوات التحالف وصلوا العالم أصبح قاب قوسين أو أدنى من أول
مواجهة عسكرية مباشرة بين أمريكا وروسيا في التاريخ!

القائد الأعلى لقوات التحالف لما عرف خبر وصول القوات الروسية، افترق إن روسيا بتستعد لغزو كوسوفو وإنقاذ حليفها القديم، فأمر القوات المتمركزة أمام المطار باقتحامه، والسيطرة عليه أيًا كان الثمن.

العساكر البريطانيين، ومن ضمنهم المغني الشهير جيمس بلانت، رفضوا الانصياع للأوامر.

هيسمع كلامه إزاي، ده الراجل بتاع: Goodbye my lover, goodbye my friend

الجنود واقعين تحت قيادة الجنرال مايكل جاكسون.

دي مش فرقة رياحة تحارب دي فرقة رياحة تغني في موسم الرياض.

لما شاف رفضهم دعمهم، وقال للقائد الأعلى للتحالف: لن أبدأ حرب عالمية تالثة!

فاستقروا على اتباع ما يسمى بال Waiting Strategy أو استراتيجية الانتظار.

حاصروا المطار، وطلبوا من الدول المحيطة زي المجر، ورومانيا، وبلغاريا، غلق المجال الجوي أمام الطائرات الروسية.

وهما أنهم بيحلما بالانضمام للناو كلهم وافقوا، وخلال أيام قليلة الأكل اللي مع القوات الروسية في المطار خلص، واضطروا يسمحوا لقوات التحالف بدخول المطار مقابل فك الحصار.

لإنقاذ ماء وجه الطرفين، وبتدخل من رئيس أركان الجيش الأمريكي شخصيًا، تم السماح للقوات الروسية بالوجود في كوسوفو، ولكن دون إعطائها مساحة خاصة.

اتفاقية أنقذت العالم من كارثة محققة، ولكنها لم تنقذ العلاقة بين يلتسن وكلينتون.

كلينتون حاول استرضاء صديقه القديم، وقال له مينفعش نخلي مشكلة واحدة تنسينا كل التقدم اللي أحرزناه في العلاقات الروسية الأمريكية طول السنين اللي فاتت.

يلتسن قال له في الحقيقة العلاقة لا يمكن ترجع زي الأول، لا بين روسيا وأمريكا، ولا بيني وبينك.

وقال له إنه مش هيقدر يقنع الشعب الروسي إن الناو هدفه السلام في أوروبا بعد ما شافوه بنفسهم كأداة هجوم.

يلتسن شعر بخذلان كبير يصل إلى درجة الخيانة.

فوقف العمل على مجلس التحالف الروسي المشترك، ولم يصدق على معاهدات الحد من انتشار الأسلحة النووية، اللي طبقًا لصحيفة نيويورك تايمز تم إعادة تصويبها على الدول أعضاء الناو.

طبقًا لتقرير صادر من ال CIA لإعادة اهتمام روسيا بترسانتها النووية نابع من الشعور بوجود خطورة كبيرة من تحالف الناو، وإدراك ضعف كفاءة القوات الروسية التقليدية، والافتناع أن المواجهة القادمة بين روسيا والناو ستقع على أرض روسية!

بوتين اللي تولى رئاسة الوزراء في نفس سنة اقتحام مطار بريشتينا كان بيراقب كل اللي بيحصل باهتمام شديد، وطلع من الموقف بعدة استنتاجات، أهمها هو ضرورة فرض واقع جديد على الأرض عن طريق السرعة، والقوة، والمفاجأة.

درس أتأكد من صحته بعد الحرب الشيشانية، اللي الغرب هاجمه فيها، ولكن لم يحرك ساكن لوقفه، فعرف إن الغرب بيقول، والي بيقول مبيعلمش.

والرغبة في الفعل، والقدرة على اتخاذ القرار، هي السلاح الاستراتيجي الأهم لروسيا.

سلاح أقوى من الأسلحة النووية، هيعتمد عليه ما تبقى من حياته.

عودة الابن الضال

«لقد نظرت إلى الرجل في عينيه، ووجدته واضحًا جدًا، وجديرًا بالثقة، لقد أجرينا حوارًا جيدًا للغاية، وتمكنتُ من التعرف على روحه».

جورج بوش الابن

متحدثًا عن فلاديمير بوتين

بعد تنحي يلتسن، كلينتون أدرك النعمة اللي كان فيها.

أول ما عرف خبر التنحي المفاجئ، اتصل ببوتين، وانتظر ٢٦ ساعة لحد ما رد عليه.

وفي زيارته الأخيرة لروسيا قابل يلتسن، وقال له بوتين مش زيك، الديمقراطية مش في قلبه.

ملاحظة لم يكن لها أي أهمية؛ لأنه غادر البيت الأبيض في بداية الألفية الجديدة، بعد انتخاب جورج بوش الابن، استلم البيت الأبيض من الأب، وسلمه للابن.

الطب يورث، والقضاء يورث، والشركات تورث، جت على قرمط اللي لا يورث؟

واللي حصل في أمريكا شبه اللي حصل في روسيا.

البلد رجعت لأصحابها، ابن بوش رجع للبيت الأبيض، وابن الكي جي بي رجع للكرملين.

أول يوم اتقابلوا فيه حسوا بكيمياء كبيرة بينهم، لدرجة إن بوش اتسأل بعدها في مؤتمر صحفي إذا كانت أمريكا تقدر تثق في روسيا برئاسة بوتين، فرد وقال إنه اتكلم مع بوتين ولقى إنه شخص واضح وصريح، ولما بص في عينه حس إنه كون فكرة عن روحه.

إجابة تليق بسؤال أم لابنها عن خطيبته.

السود عيونه ... يا ولا.

بوتين إما تفاؤلاً باختلاف بوش عن كلينتون، وإما مكرًا ودهاءً، قدر يظهر صورة جذابة لبوش ويكسب ثقته.

الدب غير جاهز للدخول في صراع مع راعي البقر بوضعه الحالي؛ ولذلك لطفه الشديد مع بوش ممكن فهمه كرجبة في المصالحة، أو مجرد المهادنة.

الرئيسين تبادلوا الزيارات، وبوتين حب يستفيد من درجة القرب الشبيهة بقرب يلتسن من كلينتون في بداية رئاسته وأعلن رغبته في الانضمام للناو.

وتفائل بوجود العديد من الأولويات المشتركة لأمريكا وروسيا على رأسها الحرب على الإرهاب، اللي كان على وشك تنفيذ أحد أكبر المفاجآت في التاريخ الحديث.

في نهاية أغسطس سنة ٢٠٠١ اتنين صحفيين بجوازات سفر بلجيكية طلبوا مقابلة أحمد شاه مسعود في أفغانستان كجزء من عملهم على فيلم وثائقي.

مسعود كان مشغول ومقدرش يقابلهم، قواته هما الوحيدين اللي صمدوا أمام طالبان، ففضلوا مستنيينه لمدة عشر أيام. في يوم ٩ سبتمبر قدروا يقابلوه أخيرًا.

الصحفي قعد أمامه وبدأ في سؤاله عن بن لادن، بينما المصور ضبط الكاميرا، وعلى وشه ابتسامة خبيثة.

مسعود ملحقش يرد.

الكاميرا انفجرت، فمات ومات معاه اتنين من تنظيم القاعدة نفذوا عملية اغتياله بأمر مباشر من بن لادن.

اغتيال مسعود هدية كبيرة من القاعدة لطالبان اللي بقى لها سنين مش عارفة تهزمه.

هدية توحى بقرب تنفيذ القاعدة لهجوم كبير محتاج لحماية طالبان بعده.

الخبر سمع في موسكو، فبوتين كلم بوش وقال له خلي بالك، المخابرات الروسية رصدت حركة غربية في أفغانستان. بن لادن ناوي على شر، اغتيال مسعود معناه إن في حاجة كبيرة على وشك الحدوث، حاجة بيخططوا ليها من فترة طويلة. بعدها بيومين العالم صحي على خبر اختطاف أربع طائرات في أمريكا، وارتطامهم ببرجى مركز التجارة العالمي، والبنтажون، بالإضافة لطائرة رابعة تحطمت بعد محاولة الركاب السيطرة عليها.

الطائرات كانت متوجهة من الساحل الشرقي للساحل الغربي، الإرهابيين اختاروهم بعناية عشان يكونوا ملايين بالوقود وجاهزين للتحويل لكرة من الجحيم.

الارتطام بالأبراج حولهم لفوهة بركانية.

الارتطام فصل البرجين لجزء أعلى معزول عن العالم، وجزء أسفل، وقع عليه آلاف الليترات من الوقود المشتعل.

الموظفين في الأدوار العليا فضلوا القفز من النوافذ على الموت حرقاً، فماتوا وقتلوا معاهم عدد كبير من اللي بيحاولوا يهربوا. وبعدها بساعتين البرجين انهاروا، وبانهيارهم اتغير النظام العالمي إلى الأبد.

أكثر من ٣٠٠٠ شخص ماتوا في أسوأ هجوم إرهابي في تاريخ أمريكا.

بوتين كان أول رئيس يتصل ببوش، وعرض عليه مساعدته بكل ما يملك في حربه على الإرهاب.

أخيراً أصبح هناك عدو مشترك لروسيا وأمريكا وهو الإسلام الراديكالي.

أخيراً أمريكا هتشوف العلاقة بين الإرهاب في أفغانستان، والإرهاب في الشيشان.

في مؤتمر صحفي في بلجيكا بوتين قال إن الإرهاب نوع خطير من البكتيريا هدفها السيطرة على جسد المريض وتدميره.

وأضاف إن الإرهاب يستغل المؤسسات، والمفاهيم الغربية، زي حقوق الإنسان، والحرية، والديمقراطية، ليس حباً فيهم ولكن رغبة في القضاء عليهم؛ لأن الهدف النهائي للإرهاب هو الإبادة.

ولكن في نفس الوقت اللي هاجم فيه الإرهاب، هاجم الإدارة الأمريكية لعندها وعدم كفاءتها.

أمريكا غلظت لما دعمت المجاهدين ضد الاتحاد السوفيتي، وأسهمت في خلق رجال في منتهى الخطورة زي بن لادن، وغلظت تاني لما مسمعتش كلامه.

ياما قال الشيشان وأفغانستان وجهان لعملة واحدة، ومحدث سمع كلامه.

ده إلى جانب عدم اتخاذ تحذيره لبوش قبل الهجوم بيومين بجدية.

ومع ذلك، ها أنا أمد يدي لنمضي معاً في حربنا على الإرهاب، والديمقراطية.

يعني أيهما أقرب.

بوتين زار واشنطن، وسمح لأمريكا باستخدام المجال الجوي الروسي للهجوم على أفغانستان بعد رفض طالبان تسليم بن لادن، وتحججها بعدم وجود أدلة لإثبات إدانته.

الولايات المتحدة قصفت أفغانستان، فسقطت طالبان قبل نهاية السنة، لتبدأ ٢٠ عام من الغزو.

الدعم الإعلامي، والاستخباراتي، بالنسبة لبوتين ثمن رخيص لاستعادة مكانة روسيا كقوة عظمى، واعتراف أمريكا بمناطق نفوذها السوفيتية السابقة في شرق أوروبا.

بالإضافة لوقف التمدد السرطاني لحلف الناتو.

ولكن الثمن ده أمريكا مكنتش مستعدة تدفعه.

أول شكر وصل لبوتين على دعمه كان قرار جورج بوش بالانسحاب من اتفاقية حذر الدفاع ضد الصواريخ الباليستية.

الرؤوس النووية بحاجة لصواريخ بالستية لحملها، وهي صواريخ عابرة للقارات، بها نظام تحكم، وقادرة على إصابة هدف على بعد آلاف الكيلومترات.

وجود أنظمة دفاعية لاعتراض الصواريخ الباليستية هو السبب الرئيسي لسعي كل من أمريكا وروسيا للحصول على أكبر عدد من الصواريخ المجهزة برؤوس نووية عشان تقدر تخترق الدفاعات في حالة المواجهة.

أمريكا وروسيا مضوا على اتفاقيات لوقف سباق التسلح، والتخلص من جزء من الترسانة النووية، بسبب تعهدهم بعدم وضع أنظمة دفاع ضد الصواريخ الباليستية على حدود كل دولة.
لو أنا ضامن إني لو ضربت صاروخ واحد هيصيب، مفيش داعي أحتفظ بألف.
بوتين مردش على انسحاب أمريكا من المعاهدة اللي وقعت عليها في بداية السبعينيات، ولكنه مقدرش يسكت بعد غزو العراق.

في شهر مارس سنة ٢٠٠٣ أمريكا غزت العراق بحجة وجود أسلحة دمار شامل، رغم معرفتها بوجود أسلحة نووية في إسرائيل من الستينيات.
طبقاً لمدرسة شهيرة في السياسة الدولية:

!He may be a son of a bitch but he is our son of a bitch

الغزو بدأ دون موافقة من مجلس الأمن أو الأمم المتحدة في تكرار لقصف صربيا، وتأكيد على استحقاق أمريكا المستمتعة بمكانتها الجديدة في عالم أحادي القطب.
هو فيه إيه؟ ما تحترمونا شوية يا جماعة!

بوتين كان متأكد من عدم وجود أسلحة دمار شامل، وبعد فشل القوات الأمريكية في العثور على أي أسلحة كيميائية أو بيولوجية، تم تداول تعليق له في الأوساط الدبلوماسية وهو بيقول:

!Pity about the weapons of mass destruction, I would have found some

شيء مؤسف والله موضوع أسلحة الدمار الشامل ده، لو أنا كنت لقيت شوية!

يعني فشل في المخابرات، وفشل في التغطية على الفشل؟

غزو العراق زاد من المسافة بينه وبين بوش، اللي بدأ يسمع كلام غريب من وزيرة الخارجية وخبيرة الشئون الروسية كونداليزا رايس.

بوتين كان بيحترمها لمعرفتها واهتمامها بروسيا، وكان دائم التودد لها بجملة أنتي تعرفينا.

خبرته في الكي جي بي علمته كيفية كسب اللي قدامه حتى لو كان خصمه.

وفي نفس الوقت اللي بيتودد لها لضمان وجود صوت حليف داخل الإدارة الأمريكية، كان بيهاجمها ويقول لها أنتم عندكم نوعين فراخ، نوع صالح بتاكلوه، ونوع فاسد بتصدروه!

واتهمها بغزو العراق لاعتمادهم عليه في البترول، رغم إنهم بيستوردوه من السعودية.

مجموعة من نظريات المؤامرة، زاد اقتناعه بيها بعد التمدد الأكبر للنااتو.

تمدد من قوته أطلق عليه اسم الانفجار العظيم (120).

في الوقت اللي بوتين افتكر إنه نجح في وقف تمدد النااتو بعد الموافقة على إعادة إنشاء مجلس مشترك خاص بينه وبين روسيا، فوجئ بإعلان النااتو عن قبول سبع أعضاء جدد مرة واحدة سنة ٢٠٠٤: ليتوانيا، لاتفيا، إستونيا، بلغاريا، ورومانيا، وسلوفاكيا، وسلوفينيا.

طب ومضيقين على نفسكم كده ليه؟ اتفضلوا تعالوا اقعدوا معنا في الصالون!

الإهانة زادت بانضمام إستونيا، وليتوانيا، ولاتفيا، وسلوفينيا، وسلوفاكيا للاتحاد الأوروبي في نفس سنة انضمامهم للنااتو.

يعني تبقى لسه مفركش إمبراح وتروح تخطب النهاردة!

أوروبا كلها دخلت جروب الواتساب، وبوتين الوحيد اللي واقف برة!

دائرة بتضيق عليه، حس إنها هتقفل على رقبتة باندلاع الثورة في أوكرانيا.

الثورة البرتقالية

«لقد ناضلنا في هذه المعركة من أجل قضية الحرية، ومن أجل السلام في العالم، إن أمتنا وتحالفنا فخوران بهذا الإنجاز، ومع ذلك، أنتم، أعضاء جيش الولايات المتحدة، من حققتموه، إن شجاعتكم واستعدادكم لمواجهة الخطر من أجل بلدكم ومن أجل بعضكم البعض، جعلت هذا اليوم ممكناً، بفضلكم أصبحت أمتنا أكثر أمناً، بسببكم سقط الطاغية، وتحرر العراق».

جورج بوش الابن

رغم توقيعها لمعاهدة صداقة مع بيلتسن سنة ١٩٩٧، الرئيس الأوكراني ليونيد كوتشما اشتكى لكلينتون إن روسيا تظهر وجه بريء في العلن، بينما تحاول إخضاع أوكرانيا في الخفاء!

روسيا وقفت مد أوكرانيا بالكهرباء عبر خطوط شبكة التوزيع المركزية المشتركة، عشان تزود اعتمادها على الغاز الروسي، اللي رفعت سعره، وضغطت على أوكرانيا لسداد فواتيرها المتأخرة.

مش عايزين ديمقراطية، خدوا ديمقراطية!

وفي ظل وضع اقتصادي صعب، وعجز في الميزانية، أوكرانيا اضطرت لوقف حوالي نصف مصانعها.

كل ده كان جزء من خطة روسيا للاحتفاظ بالقاعدة العسكرية في سيفاستوبول، والاستحواذ على الأسطول البحري السوفيتي، مع السماح لأوكرانيا بالاحتفاظ ب ١٨% فقط.

كل ده خلى كوتشما يصمم على السعي لضم أوكرانيا لأوروبا اقتصادياً، وسياسياً، بأي ثمن.

ولكن بما أنها صاحبة ثاني أعلى معدل فساد في أوروبا بعد روسيا طبقاً لمنظمة الشفافية الدولية، لازم يبدأ الإصلاح من الداخل.

أبسط وأصدق مؤشر لمعرفة مدى انتشار الفساد في الدولة هو شرطة المرور.

ومفيش حد في أوكرانيا كلها مدفوش رشاي، أو ميعرفش حد دفع رشاي، عشان يعدي.

كوتشما قرر الاستعانة بأصحاب الخبرة، فعين رئيس البنك المركزي صغير السن المدعوم من صندوق النقد الدولي فيكتور يوشينكو كرئيس وزراء، ومعاه يوليا تيموشينكو، الرئيسة السابقة لشركة United Energy Systems of Ukraine المسئولة

عن استيراد الغاز من روسيا، والمعروفة بلقب أميرة الغاز (121). كنانة رئيس وزراء.

وفي خلال سنة، الحكومة نجحت في زيادة الدخل من الضرائب، ودفع الرواتب والمعاشات المتأخرة، وزيادة صادرات المعادن مما أسهم في نمو الاقتصاد وانتعاشه لأول مرة منذ سنوات طويلة.

كوتشما ثقته في نفسه زادت، والديكتاتورية حليت في عينيه.

فنظم استفتاء على مجموعة تعديلات هدفها زيادة قوة الرئيس، وإضعاف سلطة البرلمان.

زي قسمه لغرفتين بدلاً من واحدة فقط، والسماح للرئيس بحل البرلمان في حالة فشله في تشكيل حكومة بعد شهر من انتخابه.

أكثر من ٨٣% من الناخبين وافقوا على التعديلات.

الشعب يا مش فاهم، يا مش مهتم بتأثير التعديلات على الديمقراطية.

ومع ذلك كوتشما لم يفرح بانتصاره.

نواب البرلمان معترفوش بنتيجة الاستفتاء، ودخلوا في مواجهة سياسة عنيفة، اشتعلت بظهور فضيحة كبرى من بطولة رئيس الجمهورية.

في نوفمبر سنة ٢٠٠٠ رئيس الحزب الاشتراكي ورئيس البرلمان السابق ألكسندر موروز، كشف عن تسجيلات لرئيس الجمهورية في مكتبه، وهو بيتكلم عن عمليات خصخصة شركات القطاع العام بشكل يؤكد وجود فساد، وترجح، وتقييم.

التسجيلات التي سربت عن طريق حارسه الشخصي، أخطرها على الإطلاق كان وهو بيكلم وزير الداخلية، ويطلب منه التخلص من الصحفي المعارض هيورهي جونجاتزي. الصحفي اختفى شهر سبتمبر، وعثر على جثمانه بلا رأس في إحدى الغابات شهر نوفمبر، والتسجيل دليل على اغتياله بأمر من الرئيس! كوتشما أنكر أمره باغتيال جونجاتزي، وقال إن كل اللي طلبه من وزير الداخلية زي ما طلع في التسجيل هو خطفه ونفيه خارج البلد.

وزير الداخلية ملحقش ينكر، مات في ظروف غامضة وسجلت جريمة انتحار بعد ما ضرب نفسه بطلقتين! الفضيحة تسببت في انفجار موجة عارمة من المظاهرات تطالب بتنحي كوتشما، انضم لها إلى جانب المعارضة مسئولين من الحكومة على رأسهم نائبة رئيس الوزراء يوليا تيموشينكو. في نفس الوقت صدرت انتقادات حادة لكوتشما من الحكومات الغربية. اتحاد أوروبي إيه اللي عايز أوكرانيا تدخله وأنت بتغتال الصحفيين؟ وده مش أي صحفي، ده صحفي في راديو الحرية الممول من أمريكا. كوتشما رد داخلياً بعزل رئيس الوزراء يوشينكو اللي نط من المركب وتنصل من الرئيس استعداداً لحمته الانتخابية القادمة، وقبض على تيموشينكو.

بالإضافة لتغيير دفة السياسة الخارجية الأوكرانية. تخلى عن حلمه بالانضمام للناتو والاتحاد الأوروبي، وبدأ في التقرب إلى روسيا كحاضنة بديلة للجنة الأوروبية، وأزال هدف الانضمام للناتو من العقيدة العسكرية الأوكرانية. التحقيقات أثبتت أمر وزير الداخلية باغتيال الصحفي، ووضحت علاقة الحارس بقيادة أجهزة الأمن الأوكرانية، وتعاونه فيما بعد مع أجهزة الأمن الروسية.

محدث عارف الظروف التفصيلية المحيطة بالفضيحة، ولا كيفية تسجيل حارس كوتشما الشخصي للمحادثات. الشيء الوحيد الأكيد أن المستفيد الأكبر من الفضيحة هو فلاديمير بوتين، اللي أدرك إن أوكرانيا يجب أن تبقى في الفلك الروسي مهما كان الثمن، والثمن هيدفع غالي في انتخابات الرئاسة الأوكرانية سنة ٢٠٠٤. الدستور الأوكراني يسمح بالترشح لفترتين متتاليتين فقط.

كوتشما فكر يعمل من سيبريا ويترشح للمرة الثالثة باعتبار إن أول مرة كانت قبل الدستور الجديد، وبالتالي متحسبش، ولكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، وعمل زي يلتسن، وبدأ في البحث عن خليفة يحميه من الملاحقة القضائية، وملقاش أحسن من فيكتور يانوكوفيتش، رجل الكرمليين اللي رفع شعار ضرورة العودة إلى الجذور، واستعادة أمجاد الماضي. شعار مختلف ١٨٠ درجة مع حملة رئيس الوزراء السابق فيكتور يوشينكو الراغب في مواصلة السعي لتحقيق الحلم الأوروبي.

بوتين قرر إنه مش هيقف يتفرج من بعيد، محتاج يتدخل لضمان النتيجة. فأمر رجل الكرمليين في كييف، رئيس الديوان الرئاسي لكوتشما، فيكتور ميدفيدشوك، بدعم يانوكوفيتش بكل قوة. وبعث له مجموعة من المستشارين السياسيين اللي اكتسبوا خبرة في حملة يلتسن ١٩٩٦ وبوتين ٢٠٠٠ لتشكيل الرأي العام الأوكراني لصالح يانوكوفيتش، والعودة إلى أحضان روسيا.

وفي الخفاء، أمر معاونيه باستخدام سلاحهم السري. سلاح قال عليه معاوية بن أبي سفيان: لله جنود من عسل! يوم ٥ سبتمبر تم دعوة يوشينكو على العشاء في كييف من مجموعة شملت نائب رئيس جهاز الأمن الأوكراني فولوديمير ساتسيوك.

بعد العشاء يوشينكو أظهر أعراض تسمم شديد، فتم نقله لمعهد سموم شهير في فيينا، الأطباء فيه عملوا تحاليل أثبتت وجود سم TCDD Dioxin بمعدل أعلى ألف مرة من معدله الطبيعي.

وبما إن السم طوره الكي جي بي في زمن الاتحاد السوفيتي، أصاب الاتهام أشارت إلى روسيا. ساتسيوك اللي معاه جنسية روسية هرب على روسيا، ويوشينكو خف ورجع أوكرانيا، وقرر يستمر في الحملة رغم تشوه وجهه بالكامل، فالانتخابات ولعت!

لون حملته البرتقالي انتشر في الشوارع، والناخبين بدأوا يشوفوا الاختيار اللي قدامهم بين عالم الفساد والاعتقالات، وعالم الحرية والديمقراطية.

بعد جولة ساخنة، الانتخابات أسفرت عن تعادل يوشينكو ويانوكوفيتش بحصول كل منهم على ٣٩% من الأصوات، على أن يتم إجراء جولة إعادة في نهاية نوفمبر.

حكومة كوتشما حست بالخطر، لا بد من ضمان انتصار يانوكوفيتش قبل الرحيل! الحملة الدعائية تحولت لحرب كلامية ساخنة.

يانوكوفيتش اتهم يوشينكو أنه نازي، رغم أن والده اتسجن في معسكر أوشفيتز وحارب النازيين مع الجيش الأحمر، ووالدته غامرت بحياتها لإخفاء اليهود وإنقاذهم في الحرب العالمية الثانية.

البلد مرت بحالة من الغليان السياسي أُنذر بانفجار حتمي يوم الانتخابات.

الأوتوبيسات حملت موظفين وناخبين بالجملة للتصويت ليانوكوفيتش، اللي المراقبين رصدوا حشو صناديق الاقتراع باسمه في مراكز إقليم الدونباس في الشرق.

بالإضافة لتوثيق عمليات شراء للأصوات، والتصويت بالحبر السري اللي بيختفي من على ورقة التصويت أول ما الناخب يمشي، وبعدها أعضاء الحملة يملوها بمعرفتهم.

ورغم كل ده، استطلاعات الرأي على بوابات اللجان (122) أكدت تفوق يوشينكو بحوالي ١١%.

لكن المفاجأة كانت إعلان فوز يانوكوفيتش بفرق ٣%!

آلاف المتظاهرين خرجوا للاعتراض على النتيجة، وتجمعوا في ميدان الميدان، أشهر ميادين كييف، وأكثرها ازدحامًا، بسبب وجود محطة مترو، ومول تجاري تحت الأرض.

المتظاهرين رفعوا الأعلام البرتقالية وطالبوا بإلغاء النتيجة المعاكسة لكل التوقعات.

في وسط كل ده تم تسريب محادثات لأعضاء حملة يانوكوفيتش بيعترفوا فيها بالتلاعب بسيرفرات اللجنة الانتخابية لتغيير النتيجة اللي بعثوها لكييف!

عدد المتظاهرين زاد، والمظاهرات تحولت لاعتصامات وإضرابات عمالية، وانتشرت من الميدان في كييف لباقي أوكرانيا، ولكن مش كل المظاهرات كانوا مع يوشينكو.

في القرم، والمدن الشرقية زي لوهانسك، ودونيتسك، المتظاهرين خرجوا في مظاهرات مضادة، بعضها طالب بالاستقلال عن كييف!

يانوكوفيتش طلب من كوتشما فض المظاهرات بالقوة، لكن كوتشما رفض يعمل زي ما يلسن عمل سنة ١٩٩٣، واقتنع بضرورة التنازل، خاصة بعد رفض بعض الضباط الهجوم على الميدان، واستقالة عدد من الإعلاميين على الهواء.

وبعد أسبوعين من التوتر والترقب، المحكمة الدستورية العليا أمرت بإلغاء النتيجة، وإعادة الانتخابات.

المرة دي مكنش في فرصة للتزوير، يوشينكو كسب بعد حصوله على ٥٢%، مقابل ٤٥% ليانوكوفيتش.

انتصر الميدان، والخبر انتشر في الصحف العالمية.

جورج بوش قال مخاطبًا الأوكرانيين: الشعب الأمريكي يحترم اختياركم الشجاع للحرية، وسيقف معكم.

تصريح أكد لبوتين إن اللي حصل في الميدان أجندة أمريكية لتغيير الأنظمة تحت غطاء نشر الديمقراطية، وكلها مسألة وقت وهيجوا ينشروا الديمقراطية عنده في موسكو.

بوتين أدرك أن الخطة الأمريكية تعتمد على شقين: الشباب، والاقتصاد.

لمنع اندلاع مظاهرات شبيهة في روسيا، لا بد من تأسيس منظمات شبابية هدفها الاحتواء، والتلقين.⁽¹²³⁾

منظمات شبيهة بمنظمات الاتحاد السوفيتي والرايخ الثالث للشباب ممن هم دون سن التجنيد.

فتم تأسيس حركة الشباب الديمقراطي المناهض للفاشية، اللي عرفت باسم ناشي، أو بتاعتنا.

بمعنى أن أي حد ضدنا يبقى ضد روسيا.

الحركة نظمت معسكرات صيفية، وحفلات حضرها مئات الآلاف من الشباب الروسي، شباب تحرشوا بشكل دوري بقيادة المعارضة وسفراء الدول الأجنبية المعادية زي سفير بريطانيا أنثوني برينتون اللي كانوا بيروحوا وراه المؤتمرات، والندوات لمهاجمته كل ما يتكلم.

سنة ٢٠٠٦ مستشار الكرملين جليب بافلوفسكي لخص الهدف غير المعلن للمنظمة لما هاجم أعضاءها في تجمع للتعلم

السياسي.⁽¹²⁴⁾ لأنهم على حد قوله يفتقدوا للشراسة.

وقال لهم يجب أن تكونوا مستعدين لفض المظاهرات الفاشية بالقوة، وأن تمنعوا أي محاولة للانقلاب على الدستور.

اوعوا تكونوا فاكرين البلد سايبية، البلد فيها حكومة، حكومة من حديد، والحكومة دي هي أنا!

وبعد تطعيم الشباب بمصل الوطنية المضاد لعدوى الديمقراطية، حان موعد تحصين الاقتصاد من أحد أهم مؤسسات الاستعمار الحديث: صندوق النقد الدولي.

¹²¹ Gas Princess.

¹²² Exit polls.

¹²³ Indoctrination.

¹²⁴ Political education event.

دكتور بوتين

«اجعل خطتك مظلمة ولا يمكن اختراقها أثناء الليل، وعندما تتحرك كن كالصاعقة».

من كتاب فن الحرب

لصن تزو

في كتاب انهيار حضارة: دروس لروسيا الحديثة (125) رئيس الوزراء السابق يا جور جايدار قال أن انهيار الاتحاد السوفيتي يثبت أن القوة العسكرية لا تستطيع ضمان السيادة إذا فقدت الدولة استقلالها المالي. إزاي دولة تبقى صاحبة إرادة مستقلة وفي حد ثاني هو اللي بيحاسب على المشاريع؟ لا يوجد استقلال سياسي دون استقلال اقتصادي.

والاستقلال في نظر بوتين يتلخص في سداد الديون، وتكوين احتياطي استراتيجي لحماية روسيا من تقلبات الاقتصاد العالمي. فكرة تكوين احتياطي للدولة مش فكرة جديدة، أول واحد نفذها كان القيصر بيتر العظيم لضمان وجود ما يكفي من الموارد لتغطية متطلبات توسعته العسكرية.

في نظر بوتين عدم وجود احتياطي للدولة كان أحد أهم أسباب سقوط حكم آل رومانوف سنة ١٩١٧، درس لاحظه ستالين فأمر سنة ١٩٣١ بضمان تغطية احتياجات الاتحاد السوفيتي الصناعية والغذائية من الداخل. الاكتفاء الذاتي مسألة حياة أو موت في ظل وجود دول معادية من كل جانب، ولولاه مكش الاتحاد قدر يصمد أمام الغزو الألماني في الحرب العالمية الثانية.

ولكن زي ما نفذ الاحتياطي في نهاية عهد آل رومانوف، نفذ الاحتياطي في آخر أيام الاتحاد السوفيتي.

في يوليو سنة ٢٠٠١ بوتين أمر بتأسيس هيئة روس ريزيرف (126) لإدارة الاحتياطي الفيدرالي برئاسة أحد زملائه القدامى في الكي جي بي.

الهيئة ركزت في البداية على تكوين احتياطي عيني، فبنت منشآت ضخمة، ومخازن عملاقة، في شتى أنحاء روسيا، جمعوها فيها كل اللي ممكن تحتاحه البلد من غذاء، ودواء، وملابس، ووقود، لما لا يقل عن ثلاثة أشهر. موارد بلغت قيمتها سنة ٢٠٠٦ حوالي ١٠٠ مليار دولار.

ولكن في عصر ما يسمى بال financialization of the economy أو تحويل النقود لأصول قادرة على جلب مزيد من النقود، لا بد من احتياطي نقدي.

Cash is king!

ارتفاع أسعار البترول أدى لزيادة طلب الشركات المنتجة للمعدات الصناعية، فقطاع الصناعة اشتغل، والموظفين عددهم زاد ومرتباتهم عليت، فالقطاع التجاري اشتغل، وشد معاه الإنشاءات والعقارات.

كور بلياردو كل ما واحدة فيهم تتحرك تخبط في اللي جنبها فتتحرك هي كمان.

بوتين استغل ارتفاع إيرادات البترول بسبب زيادة أسعاره في دفع دين روسيا الخارجي.

روسيا اللي سنة ١٩٩٨ تخلفت عن سداد ديونها المحلية بعد انهيار الروبل، وفقدته ثلثي قيمته في خلال ثلاثة أسابيع، سنة ٢٠٠٦ نجحت في سداد دينها الخارجي بالكامل.

الاحتياطي النقدي الروسي في يناير سنة ٢٠٠٠ كان ٨.٥ مليار دولار، رقم خطير بالنسبة لدولة في حجم روسيا، ولكن سنة ٢٠٠٧ وصل لأكثر من ٦٠٠ مليار دولار!

إنجاز كبير بعض المحللين شافوه مرتبط بموضوع رسالته اللي حصل بسببها على درجة الدراسات العليا في الاقتصاد من معهد

بيترسبرغ للتعدين.

شهادة الدراسات العليا الموازية للدكتوراه، التي حصل عليها بوتين سنة ١٩٩٧، أثارت عاصفة من الجدل بعد فوزه بالانتخابات، ووضعها على الموقع الرسمي للرئاسة، لعدة أسباب.

الأول هو عدم حضوره لأي محاضرات في المعهد والاكتفاء بتسليم رسالة بعنوان التخطيط الاستراتيجي لإعادة إنتاج قاعدة الموارد المعدنية لمنطقة ما في ظل ظروف تكوين علاقات السوق (منطقة سانت بطرسبرغ) (127).

الثاني هو صعوبة الحصول على نسخ من الرسالة دي رغم أنها المفروض متاحة للإطلاع كجزء من مكتبة المعهد. الثالث هو حصول إيجور سيتشن الرئيس التنفيذي لروزنفط ورئيس مصلحة الضرائب فيكتور زوبكوف على نفس الدرجة العلمية في نفس التوقيت.

السبب الرابع والأهم هو تعيين رئيس المعهد والمشراف على الرسائل الثلاثة، فلاديمير ليتفينينكو، كرئيس لحملة بوتين الانتخابية في سانت بطرسبرغ، وكعضو مجلس إدارة في شركة فوس أجرو، أحد أكبر منتجي سماد الفوسفات في العالم. عضوية أدت لحصوله على أسهم قيمتها تزيد عن المليار دولار.

كل ده خلى كثير من المحللين يشكوا أن بوتين هو اللي كتب الرسالة، ولكن ليتفينينكو دافع عن طالبه السابق، وأكد أنه قدم رسالة مرموقة طبقاً لمعايير البحث العلمي، رغم تأكيد بنته أن هو اللي كتبها!

في كتاب The Man Without a Face ماشا جيسن بتقول إن محدش عارف على وجه الدقة ظروف كتابة الرسالة ولا دور بوتين في كتابتها، وبتوضح إن الرسالة أقرب لماجيستر إدارة أعمال MBA مش دكتوراه، والسبب في اللبسة هو عدم وجود درجة موازية بشكل واضح في أنظمة التعليم الأخرى.

ولكن المؤكد هو اقتناعه بالفكرة الرئيسية اللي ذكرت فيها، واعتماده عليها طوال سنوات رئاسته، وهي التخطيط الاستراتيجي.

الرسالة اعتمدت بشكل رئيسي، ونقلت مقاطع بأكملها دون ذكر مصدرها (128). من كتاب التخطيط الاستراتيجي والسياسة Strategic Planning and Policy لأستاذي إدارة الأعمال بجامعة بيتسبرغ الأمريكية، وليام كينج، وديفيد كلياند.

الكتاب اللي يرجح أن بوتين قرأه لأول مرة أثناء دراسته في معهد الراية الحمراء المرموق، أحد أهم مراكز تدريب ضباط الكي جي بي، بيقول إن التخطيط الاستراتيجي ليس محاولة التفكير على المدى الطويل كما يظن البعض، وإنما القدرة على التعامل مع بيئة متغيرة، عن طريق الاستعداد لكل ما يمكن حدوثه.

بمعنى آخر، التخطيط الاستراتيجي هو التخطيط للطوارئ، وكل ما هو غير متوقع (129)، مش بالضرورة يكون تخطيط طويل المدى.

وإدارة الشركة شبيهة بإدارة الدولة، في كلا الحالتين يجب وضع قائمة بترتيب الأولويات، والعمل عليها بشكل ممنهج، ومرتب.

وده ممكن يكون اللي خلى بوتين يركز في بداية حكمه على تقوية الجبهة الداخلية عن طريق محاربة الانفصاليين وسداد الديون.

ولما نجح في تحقيق الهدف الأول، انتقل للهدف الثاني، وهو وقف الزحف الغربي على روسيا، اقتصادياً، وثقافياً، وعسكرياً. هدف مش هيحققه غير بالدخول في مواجهة مباشرة.

وزي ما الغرب وصلوا لساحته الخلفية في أوكرانيا، المرة دي هيهاجمهم في عقر دارهم.

في عاصمة الإمبراطورية البريطانية القديمة، التي لا تغيب عنها الشمس، لندن!

[1:6](#) Rosrezerv.

[1:7](#) Strategic Planning of the Reproduction of the Mineral Resource Base of a Region under Conditions of the Formation of Market Relations (St. Petersburg and Leningrad oblast).

[1:8](#) Academic plagiarism.

[1:9](#) Planning for contingencies and the unexpected.

شاي بالبولونيوم

«إذا لم يكن هناك رجل، لا توجد مشكلة».

جوزيف ستالين

يوم السبت ٧ أكتوبر سنة ٢٠٠٦ في عيد ميلاد بوتين الرابع والخمسين، تم اغتيال الصحفية آنا بوليتكوفسكايا أثناء رجوعها للمنزل.

أول ما دخلت العمارة، وركبت الأسانسير، أطلق عليها النار فقتلت على الفور. عملية اغتيال القائمين عليها لم يهتموا بإخفائها أو التظاهر كأنها عملية سرقة أو حتى حادثة سير. ألكسندر ليتفينينكو لما عرف الخبر كتب على الإنترنت أنها اغتيلت بأمر من بوتين. نظرية لاقت انتشار كبير لدرجة أنه لما زار ميركل في ألمانيا بعدها بثلاث أيام فوجئ بعشرات المتظاهرين في انتظاره رافعين لافتات مكتوب عليها القتلة غير مرحب بهم هنا.

بوتين نفى إصداره الأمر باغتيالها، وصرح في مؤتمر صحفي أنها صحيح كانت ضد الحكومة، ولكنها كانت محدودة التأثير. كام واحد يعني يبقرا لها؟

صحفية شهرتها في الغرب أكبر من شهرتها في روسيا، وفاتها تسبب في أذى للحكومة الروسية أكثر من أي من مقالاتها. وجهة نظر لا تخلو من المنطق، وكان ممكن ترفع عنه الحرج الدولي، لو لم يشهد العالم الي حصل بعدها بأقل من شهر. يوم ١ نوفمبر ألكسندر ليتفينينكو حس بتعب شديد، فراح المستشفى، وقال للدكاترة إنه تسمم على يد عملاء روس. الدكاترة قالوا شكل التعب أثر على دماغه، ولما صمم أمروا بعرضه على أخصائي نفسي. فسكت خالص، واستمرت حالته في التدهور من سيء لأسوأ. أم رهيب حرمه من الأكل والشرب، ففقد وزنه، وفقد شعره. بعد عشرة أيام مراته أصيبت بانهيار عصبي، جوزها بيروح منها والدكاترة مش مصدقينه، لحد ما دكتور أورام شافه وقال إن حالته تدل على تعرضه للإشعاع!

فعملوا تحليل سموم، واكتشفوا كميات كبيرة من الثاليوم، معدن ثقيل استخدم كسم فئران قبل منعه لخطورته في الغرب. الدكاترة أدوا له مصل مضاد أدى لتحسن حالته، والبوليس فتح تحقيق في تسميمه اللي أصبح قضية رأي عام، خلت بريطانيا كلها تتابع محاولة اغتيال الجاسوس الروسي السابق. ولكن فجأة ليتفينينكو دخل في كوما، واضح أن الأطباء بيعالجوا مرض خاطئ. الدكاترة كانوا هيتجننوا، لحد ما اكتشفوا أنه لم يسمم بالثاليوم، ولكن بالبولونيوم! اكتشاف مهم ولكن غير مؤثر، توفي بعده ليتفينينكو بساعات قليلة.

البولونيوم موجود في الطبيعة بكميات قليلة وغير مضر. يصدر نتيجة التحلل الإشعاعي لليورانيوم، وممكن تصنيعه عن طريق ضرب نواة المعادن الأثقل بالنيوترونات لتفكيكها. اكتشفته ماري كيوري سنة ١٨٩٨، وعرفته برمز Po كناية عن وطنها بولندا، وتوقفت أمريكا وبريطانيا عن إنتاجه بشكل صناعي لاستخدامه في منع تراكم الشحنات الاستاتيكية في ماكينات لف الأوراق في السبعينيات. المكان الوحيد اللي لسه ينتجه بكميات كبيرة هو منشأة نووية في مدينة ساروف الروسية، على بعد ٧٢٤ ميل جنوب شرق موسكو.

واستخدامه في الاغتيالات نابع من نقطتين لهم علاقة بخواصه الفيزيائية. الأولى هي أنه غير مضر إلا في حالة تناوله؛ لأنه يحرق الأعضاء من الداخل، ولكن يمكن حمله بكميات صغيرة دون خطورة

على صحة حامله.

والثانية هي عدم إصدار لأشعة جاما عند التحلل، وبالتالي لا يمكن كشفه باستخدام بعض عدادات جايجر المعتادة لقياس الأشعة.

ومع ذلك، لا يوجد جريمة كاملة.

البولونيوم يصعب كشفه بالعدادات العادية، ففرص إنقاذ المصاب بتقل، ولكن باستخدام عدادات أكثر تطوراً من الممكن كشفه، ورسم خط سير كامل للعملية؛ لأنه يترك أثر إشعاعي أينما وجد.

تحقيقات سكوتلاند يارد أثبتت وفات ليتفينينكو بعد تناول كوب شاي بالبولونيوم أثناء اجتماعه باثنين روس، منهم أندري لوجوفي، مسئول الأمن لشريك بيريزوفسكي السابق، في فندق مايفير في لندن.

الشرطة البريطانية اتهمت الاثنين بقتل لينفينينكو وطلبت استلامه من روسيا، لكن الكرملين رفض، وأنكر أي علاقة بالقضية، وفي نفس الوقت تم تعيين لوجوفي كعضو في البرلمان لمنحه حصانة من التحقيق والترحيل.

بالإضافة إلى أن الكمية المستخدمة في العملية، وهي ٢٦.٥ ميكروجرام، أعلى من الكميات الموجودة بشكل طبيعي، ولا يمكن تصنيعها إلا في روسيا.

الاغتيال أحدث شرخ في العلاقات الروسية الغربية، ولكنه لم يكن الاغتيال الأول بالبولونيوم، ولن يكون الاغتيال الأخير. وإذا ذكر البولونيوم، ذكر ياسر عرفات.

اغتيال ياسر عرفات

«إذا حاول أحد أن يقتلك، قم واقتله أولاً».

التلمود البابلي

ياسر عرفات من نسل عائلة الحسيني، وقريب أمين الحسيني مفتي القدس وأحد رموز الثورة الفلسطينية التي امتدت من عام ١٩٣٦ لعام ١٩٣٩.

ولد في القاهرة سنة ١٩٢٩ لتاجر ميسور الحال، ودرس هندسة مدنية في جامعة الملك فؤاد قبل أن تصبح جامعة القاهرة. تطوع للمشاركة في حرب ١٩٤٨، ورأس اتحاد الطلاب الفلسطينيين، ودخل السجن مع جماعة الإخوان المسلمين بعد محاولة اغتيال عبد الناصر في حادثة المنشية (130).

وهي حادثة شكك في صحتها الرئيس الراحل محمد نجيب في كتابه كنت رئيسًا لمصر، وإن كانت جزء موثق في تاريخ مصر الحديث.

لم ينضم عرفات للجماعة، ولكنه تعاطف معها، فاتسجن مع أعضائها قبل ما يخرج ويشارك مع الجيش المصري في حرب ١٩٥٦ أمام العدوان الثلاثي.

وبعد الحرب سافر الكويت وأسس شركة مقاولات، وهناك اتعرف على خليل الوزير، المعروف بأبو جهاد، وصالح خلف، المعروف بأبو إياد.

وأسسوا حركة التحرير الفلسطينية المعروفة باسم فتح، وهو اختصار معكوس لأحرفها الأولى، عشان متبقاش حتف.

الملافظ سعد إحنا جايين نحارب مش جايين نعزي!

المنظمة قادت المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي من الخارج، وأقامت في الأردن، قبل ما يتم طردها على يد الملك حسين إلى لبنان، ثم إجبارهم على الرحيل إلى تونس بعد الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان سنة ١٩٨٢.

وبعد اندلاع الانتفاضة الأولى سنة ١٩٨٧، نفس السنة التي شهدت تأسيس حركة المقاومة الإسلامية حماس في غزة، استغلت الاهتمام الدولي للتفاوض على إقامة دولة فلسطينية مستقلة.

وبالفعل بعد مفاوضات سرية في العاصمة النرويجية أوسلو، تم الإعلان عن اتفاقية تاريخية، اعترفت فيها فتح بإسرائيل، وتعدت بموجبها إسرائيل بإقامة دولة مستقلة للفلسطينيين.

هدف بعيد المدى أولى خطواته تأسيس سلطة فلسطينية، تدير بصورة أقرب للحكم الذاتي الأجزاء غير المهولة بالمستوطنات في الضفة الغربية وغزة.

سلطة يسمح لها تأسيس جهاز أمني يقوم بالتنسيق والعمل جنبًا لجنب مع إسرائيل، مقابل التخلي عن الكفاح المسلح ضد إسرائيل.

عرفات أصبح أول رئيس للسلطة الفلسطينية، إلى جانب رئاسته لفتح، ورئاسته لمنظمة التحرير الفلسطينية، وهي مظلة تشمل فتح وعدد الفصائل الفلسطينية الأخرى، ولم تشمل حماس، التي رفضت التفاوض ورفضت الاعتراف بإسرائيل.

موقف تغير بعد ذلك، لكن في وقتها تم لوم حماس عليه واتهامها بشق الصف الوطني.

موقف برره قائدها، ومؤسسها القعيد الذي أجبر على النزوح مع والدته إلى غزة سنة ١٩٤٨، الشيخ أحمد ياسين، بأن حلم التحرير أصبح مطلب استقلال، وتم التنازل عن استعادة الأرض مقابل الحصول على إمكانية تنظيم المرور على يد شرطي فلسطيني!

وعلى الرغم من فوز عرفات بجائزة نوبل للسلام، بعد تخلي فتح عن السلاح، بينما أصبح الشيخ ياسين هو الراديكالي الجديد، إلا أن أجهزة الأمن الإسرائيلية احتفظت بعرفات على رأس قائمة الاغتيالات.

في كتاب

Rise and Kill First: The Secret History of Israel's Targeted Assassinations

قم واقتل أولاً، التاريخ السري للاغتيالات الإسرائيلية.

الصحفي الاستقصائي الإسرائيلي رونين بيرجمان يقول إن إسرائيل استخدمت سلاح الاغتيالات أكثر من أي دولة غربية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

ومحاولة اغتيال عرفات، صاحب الاسم الحركي رأس السمكة، هي الأطول، والأصعب في تاريخ الأجهزة الأمنية الإسرائيلية.

اغتياله أصبح أولوية قصوى لإسرائيل بعد رئاسته لمنظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٦٨.

أحد الضباط في البحرية الإسرائيلية اتفرج على فيلم The Manchurian Candidate إنتاج سنة ١٩٦٢، وقرر يقلده.

فجابوا سجين فلسطيني، ونوموه مغناطيسيًا بهدف اغتيال عرفات في الأردن.

الشباب تجاوب معاهم، وأول ما أطلقوه عشان يقوم بمهمته، سلم نفسه للشرطة الأردنية، وقال لهم الأغبياء كانوا فاكريني منوم مغناطيسيًا، وأنا تظاهرت بالاستجابة عشان يخرجوني.

وات أبوت يور فيرست أوسكارز!

المحاولات استمرت واستمر معاهما الفشل لحد ما وزير الدفاع أرييل شارون قرر إسقاط طائرة مدنية، وقتل مئات الركاب في سبيل التخلص من عرفات.

اثنين عملاء فلسطينيين بلغوا الموساد بسفر عرفات على متن طائرة متجهة من أثينا للقاهرة يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٨٢.

الخطة الجهنمية لم تنفذ بسبب تردد قادة سلاح الطيران، قبل ما الموساد يبلغهم إن اللي تم رصده في أثينا هو فتحي عرفات، شقيق ياسر عرفات.

فتحي طبيب أطفال، ومؤسس الهلال الأحمر الفلسطيني، معاه ٣٠ طفل من مصابين مذبحه مخيمات اللاجئين في صبرا وشاتيلا لعلاجهم في القاهرة.

فالعلمية اتلغت، واستمرت المطاردة بلا نتيجة، لحد ما شارون وصل لقمة الحكومة بعد انتخابه كرئيس للوزراء سنة ٢٠٠١.

إسرائيل سمحت بتأسيس المجمع الإسلامي في غزة، وهو النسخة السابقة من حماس، سنة ١٩٧٣، لإضعاف فتح وتقسيم الجبهة الفلسطينية، عملاً بمقولة «فَرَّقْ تَسُدْ».

فتح اليسارية لن يضرها أفضل من منظمة يمينية.

منظمة رفعت شعار محاربة الكفار والملحددين، وأعلنت عن عدم عداوة اليهود لأنهم أهل كتاب.

غضت إسرائيل البصر عن نموها وزيادة شعبيتها، ولم تحاول منع طرق تمويلها، إلى أن تحولت إلى حماس سنة ١٩٨٧، وتبنت العمل المسلح ضد إسرائيل.

ساعتها الحكومة الإسرائيلية أعلنت الحرب على الوحش اللي أسهمت في صناعته، زي ما أمريكا أسهمت في صناعة المجاهدين الأفغان، ولامت السلطة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات على عدم السيطرة على حماس.

شارون وضع ياسر عرفات تحت الإقامة الجبرية في منزله في رام الله سنة ٢٠٠٢، بينما وضع ياسر عرفات الشيخ أحمد ياسين تحت الإقامة الجبرية في منزله في غزة لإجباره على وقف سلسلة التفجيرات الانتحارية.

وبدأت الهمسات تنتشر حول نية شارون إتمام المهمة اللي بدأها سنة ١٩٨٢ باغتيال ياسر عرفات.

سنة ٢٠٠٤ الإدارة الأمريكية وصل لها تحذيرات عن كلام شارون المتكرر حول ضرورة التخلص من عرفات.

جدل مستمر حول الطريقة الأفضل، هل النفي؟ أم التصفية؟

طلقة في الرأس؟ أم صاروخ في المقر؟

جورج بوش قابل شارون وقال له بمنتهى الوضوح عندي معلومات عن نيتك لاغتيال ياسر عرفات، وعزيزك توعدني إنك مش هتقتله.

شارون قال له أنا فاهم وجهة نظرك سيادة الرئيس.
بوش قال له متعملش فيها عمرو موسى وجاوب على سؤالي!
شارون استمر في تجنب الرد بإجابة واضحة لحد ما رضح في النهاية، ووعده بعدم المساس بعرفات.
ولكن الوعود الصهيونية رخيصة.
يوم ٢٢ مارس سنة ٢٠٠٤، الشيخ أحمد ياسين خرج لأداء صلاة الفجر في الجامع.
وهو راجع تم إطلاق ٣ صواريخ عليه هو ومرافقيه، فقتل هو وسبعة من اللي معاه بشكل فوري.
اغتيال شيخ قعيد بصواريخ طائرات أثار موجة من الغضب في الشارع العربي.
ولكنه غضب غير فعال، ولم ينجح في إثراء شارون عما هو قادم.
رهما يكون كل اللي نجح فيه هو إقناعه بضرورة التخفي والبعد عن القتل المباشر.
في شهر أكتوبر ياسر عرفات الموضوع تحت الإقامة الجبرية من إسرائيل لمدة سنة ونصف، حس بألم شديد في بطنه بعد تناول العشاء.
الأطباء فشلوا في علاجه، لحد ما إسرائيل سمحت بسفره لتلقي العلاج في فرنسا، فتوفي في باريس بعد ١٣ يوم من بداية المرض الغامض.
الأطباء الفرنسيين أعلنوا وفاته نتيجة الإصابة بجلطة دموية، ولكن تعب المفاجئ خلى أنصاره يقتنعوا بوجود شبهة تسمم على يد إسرائيل.
زوجته سها رفضت تشريح جثته، واستمر الغموض يحيط بطروف وفاته لحد سنة ٢٠١١.
صحفي في قناة الجزيرة تواصل مع السيدة سها وطلب منها إعطائه أي أدلة لها علاقة بوفاة عرفات للتحقيق في صحة نظرية اغتياله.
فأعطته شنطة فيها متعلقات عرفات الشخصية، اللي خدها معاه باريس.
فرشة أسنان، وملابس داخلية، بعثها الصحفي معمل الفيزياء الإشعاعية في لوزان في سويسرا، فاكشفت آثار للبولونيوم!
على أثر الاكتشاف تم استخراج الجثمان لأخذ عينات منه في نوفمبر سنة ٢٠١٢، فلقوا نسب بولونيوم أعلى ١٨ مرة من المعدل الطبيعي!
التقرير قال إن علمًا بأن النسب الموجودة مرَّ عليها ٨ سنين من الوفاة، فالنتائج تدعم، باعتدال، نظرية تسميمه.
وباعتدال هنا بسبب طول المدة وعدم وجود دليل جنائي.
القصة تم عرضها بالكامل في فيلم وثائقي بعنوان «مَن قتل ياسر عرفات»، ولكنها فشلت في إقناع السلطات الفرنسية بإعادة فتح التحقيق في وفاته.
ومع ذلك، بالنظر إلى الأدلة، تنتفي الحاجة لتحقيق.
الحقيقة واضحة وملتهبة زي الشمس.
القتل بالسم لا يختلف عن القتل بالصواريخ، والاغتيالات سلاح سياسي مهم منذ فجر التاريخ.
السم سلاح صامت وفعال منذ فجر التاريخ.
أداة رئيسية في حروب الظلام، ولكن المواجهة بين الشرق والغرب كانت على وشك الخروج إلى النور سنة ٢٠٠٨.

شكك فيها الرئيس الراحل محمد نجيب في كتابه كنت رئيسًا لمصر 130

غزو جورجيا

«رهما تكون قادرًا على إسكات رجل واحد، لكن ضجيج الاحتجاج في جميع أنحاء العالم سوف يتردد صده في أذنيك يا سيد بوتين، حتى نهاية حياتك، ليغفر لكم الله على ما فعلتموه، ليس لي فقط، بل لروسيا الحبيبة وشعبها».

ألكسندر ليتفينينكو

سنة ٢٠٠٨ بوتين كان على موعد مع قرار في منتهى الأهمية: يترشح لفترة رئاسية ثالثة، ولا يلتزم بالدستور اليي يمنع الترشح لأكثر من فترتين؟

حالة من الترقب دخلها المجتمع الروسي، ومع اقتراب موعد الحسم، الروس لاحظوا محاولات لتلميع رئيس جهاز الإف إس بي وأحد أقرب رجال بوتين نيكولاي باتروشيف.

ظهور لوقت أطول في الأخبار، بالإضافة لإنتاج فيلم وثائقي عن حياته، خلى العديد من المتابعين يشوفوه على أنه ولي العهد المنتظر.

وبعد طول انتظار، بوتين أعلن عدم ترشحه للانتخابات، عشان يحافظ على القانون والدستور أدرك أنه محتاج مُحلّل للسلطة، حد يعمل دور الواد سيد الشغال ويتجوز الرئاسة دورة وبعد كدة يرجعها له تاني وطبعًا محدش يقدر يقول مش هطلق؛ ولذلك أعلن عن دعمه ترشح تلميذه الوفي ديمتري ميدفيديف للرئاسة، وتعيينه لباتروشيف كرئيس لمجلس الأمن القومي، فيما يمكن وصفه بركلة إلى الأعلى.

ميدفيديف له سجل حافل في السياسة الروسية، شمل رئاسته لعملاق الغاز جازبروم، ثم رئاسة الديوان في الكرملين، قبل ما يتم تعيينه كنائب لرئيس الوزراء.

ولكن يرجح إن أهم أسباب لاختيار ميدفيديف، إلى جانب الولاء والطاعة، هو قصر القامة.

ميدفيديف من الشخصيات القليلة اليي لما بوتين يوقف جنبه بيبان طويل.

طوله أقل من ١٧٠ سم، وخضوعه لبوتين بلا حدود.

فاز بالرئاسة بسهولة بدعم من الكرملين، وعين بوتين كرئيس للوزراء، وبدأ في ممارسة وظيفته كأشهر محلل في التاريخ.

ومع ذلك، عدد كبير من الروس تفاءلوا بوجوده، وتمنوا لو كان انتخابه بداية النهاية للقيصر القديم.

محدش توقع إن القيصر لسة بيبدا، وأن العالم على وشك رؤية الجانب المرعب لملك الظلام، بعد قراره بغزو جورجيا سنة ٢٠٠٨.

أثناء فترة التوسع الاستعماري الروسية، تم ضم جورجيا للإمبراطورية سنة ١٨٠٠.

الجورجيون فضلوا يحلموا بالاستقلال لحد ما جت لهم الفرصة أثناء الحرب الأهلية الروسية في بداية القرن العشرين، فأعلنوا استقلالهم ولكن ملحقوش يفرحوا بيه.

القوات البلشفية نجحت في قمع الحركة الانفصالية بقيادة ستالين، وفضلت جورجيا تحت حكم روسيا لحين إعلان استقلالها للمرة الثانية مع نهاية الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١.

الاستقلال أدى لحدوث حرب أهلية بين الأقليات الأبخازية، المتمركزة في مناطق أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية الموالية لروسيا، والحكومة الجورجية الراغبة في الاستقلال.

روسيا اتخذت موقف حيادي على العلن، ودعمت الانفصاليين ماليًا وعسكريًا في الخفاء، إلى أن تم توقيع اتفاق لوقف إطلاق النار، مع الحصول على حكم ذاتي في الإقليم تحت حماية قوات حفظ سلام مشتركة من روسيا، وجورجيا، وأوسيتيا الجنوبية.

ومن ساعتها وروسيا تستخدم التجارة، والقوات الانفصالية ذات الهوى الروسي، للضغط على الحكومة في تبليسي، وضمان

عدم خروجها من بيت الطاعة.

الرئيس الجورجي إدوارد شيفردنادزه بذل جهداً للحفاظ على التوازن الحرج مع روسيا منذ توليه الرئاسة سنة ١٩٩٥. بعد اندلاع الحرب الشيشانية اتبع تعليمات الكرملين وحاول منع إمداد الشيشان بالمقاتلين والسلاح من خلال جورجيا، وعمل كل اللي يقدر عليه لمنع استفزاز الدب بأي شكل. ولكنه كان على موعد مع القدر سنة ٢٠٠٣.

في شهر نوفمبر آلاف المتظاهرين خرجوا لشوارع تبليسي اعتراضاً على إجراء انتخابات برلمانية مزورة. المتظاهرين بقيادة ميخائيل ساكاشفيلي، المتعلم في أمريكا والراغب في إلحاق جورجيا بالركب الغربي، اقتحموا مبنى البرلمان وهما ماسكين ورود حمراء في أيديهم تعبيراً عن سلميتهم. الأستاذ جاي يخطب مش يتظاهر!

شيفردنادزه استقال بعد ٢٠ يوم، وصعد بعده ساكاشفيلي للسلطة على ظهر ثورة عرفت باسم ثورة الورد. علق جورج بوش على الثورة وقال: لأنكم تحركتم، أصبحت جورجيا اليوم حرة وذات سيادة، ومنازة الحرية لهذه المنطقة، والعالم بأكمله.

وده خلى بوتين يشك إن اللي حصل من صنع ال CIA.

واحد إكسترا ديمقراطية مع الأورد لو سمحت!

واتأكد من ظنونه بإعلان ساكاشفيلي رغبتة في انضمام جورجيا للناتو والاتحاد الأوروبي.

وعلى عكس شيفردنادزه، ساكاشفيلي حاول يرضي واشنطن بكل الطرق.

فبعث ألفين جندي من أصل ثلاثين ألف للمشاركة في حرب العراق، واتبع مبدأ العصا لمن عصا مع الانفصاليين.

كل ده أثار غضب بوتين، لكن الضربة الكبرى بالنسبة له كانت إعلان الناتو في مؤتمر بوخارست بالموافقة المبدئية على ضم جورجيا وأوكرانيا للحالف في المستقبل.

جورج بوش ضغط بكل قوة لضمهم بشكل فوري، لكن أنجيلا ميركل عارضته بحزم خوفاً من إغضاب روسيا، فأنتهى الأمر بوعد إيجاي، ولكنه مبهم، بلا تاريخ أو خطوات.

بوتين بقى عامل زي القنبلة اللي ناقصها شرارة، والشرارة كانت بهجوم القوات الجورجية على الانفصاليين في أواخر صيف ٢٠٠٨.

عقاباً لساكاشفيلي على العصيان، بوتين أطلق عنان الانفصاليين في جورجيا، فبدأوا في مهاجمة الحكومة.

ساكاشفيلي اللي حس لأول مرة إن له ظهر بعد إعلان الموافقة على انضمام جورجيا للناتو، قرر يستغل الموقف ويظهر كبطل شجاع لا يخشى في الحق لومة لائم.

وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس حذرت من إنه يأخذ تصريحات الدعم والتشجيع من أوروبا وأمريكا على أنها ضوء أخضر للدخول في مواجهة خاسرة ضد روسيا!

وقالت له الكلام حاجة والفعل حاجة تانية خالص.

روسيا هتحاول تجر جورجيا لحرب لو دخلها مفيش حد من الناتو هيتحرك ويدافع عنه، طبقاً لمدرسة شهيرة في السياسة الدولية وهي: ساعة الجد، ملقتش حد!

ساكاشفيلي ضرب بكلامها عرض الحائط، وفي يوم ٧ أغسطس القوات الجورجية دخلت عاصمة أوسيتيا الجنوبية، وأثناء الهجوم تم الاشتباك مع قوات حفظ السلام الروسية، وقتل اثنين من الجنود!

بوتين قال بس كده، غلط وأنا مستتبه يغلط، وأمر القوات الروسية بغزو جورجيا.

ميدفيديف كان في إجازة، بينما جورج بوش كان في حفل افتتاح أولمبياد بكين لما عرف من أحد مساعديه إن القوات الروسية تتحرك تجاه تبليسي.

فبص جنبه لقي بوتين، اللي حضر كرئيس وزراء روسيا، قاعد على بعد كرسيين قاعد عليهم مراته ومملك كمبوديا. فقال لهم بعد إذن حضراتكم عشان في حرب عالمية ثالثة هتولع دلوقتي، وقعد جنبه فأثار فضول الحضور. بوش عارف إن كل حركة مراقبة من الكاميرات، ومذاعة على الهواء مباشرة، فاتكلم بمنتهى الهدوء والاحترام وقال له فيما معناه: بتعمل إيه الله يخرب بيتك؟!!

لو مسحبتش الجنود هتخسر كثير عن طريق عزل روسيا عن المجتمع الدولي! فبوتين رد وقال له ساكاشفيلي مجرم حرب، وهو اللي استفز روسيا! بوش قال له ما أنا قوت لك إن دمه حامي! قال له يعني هو أنا اللي مدرب يوجا؟ أنا كمان دمي حامي! كل واحد فيهم بيغلي، ويحاول جاهدًا ميعملش فضيحة وسط الاحتفال، بينما الرئيس الصيني بيدعي إن اليوم يعدي على خير.

زقوا معايا اليوم ياخوانا! بوش رد بنقل الجنود الجورجيين من العراق إلى جورجيا، بالإضافة لإيصال مساعدات جوية للعاصمة، وافتكر إن وجود قوات أمريكية في تبليسي هيردع بوتين من مهاجمتها. لكن بوتين لا يبالي، الزحف العسكري الروسي استمر زي السكينة في الجاتوه. دولة جيشها قوامه لا يتعدى الثلاثين ألف جندي، في مواجهة ستين ألف جندي مدعومين بواحدة من أقوى القوات الجوية في العالم.

تبليسي حاولت تستجدي العطف العالمي عن طريق كشف آثار الدمار الناتج عن الغزو عن طريق استخدام سلاح الإنترنت، فردت روسيا بسلسلة هجمات سيبرانية على عدة مواقع من ضمنهم موقع وزارة الخارجية، ورئيس الجمهورية ذات نفسه اللي تم استبدال صورته بصورة لأدولف هتلر. تطوير القدرات السيبرانية الروسية كان من أهم أهداف بوتين بعد توليه الرئاسة، وظهرت ثماره لأول مرة خلال الهجوم على البنية التحتية الرقمية لجورجيا.

بينما أمريكا رغم كل الغضب والتهديد والوعيد فشلت في ردع الهجوم. بوش قال صراحة أنا دخلت حربين ومش هدخل الثالثة، بالذات أمام روسيا! وبوتين لم يكتفي بعدم تحمل مسؤولية الحرب، ولكن ألقاها على بوش، اللي لامه على عدم إقناع ساكاشفيلي بحماقة أفعاله! وبعد خمس أيام فقط، تم وقف إطلاق النار، وإنهاء الحرب بهزيمة مروعة لجورجيا، بعد مقتل ٨٥٠ فرد، ونزوح أكثر من ٣٥ ألف جورجي.

أرقام مرعبة، بس لو بصينا لأرقام الحرب الأخيرة على غزة (131). بعد معركة طوفان الأقصى هتحس كأنها عاركة في خمارة، لكن هدم الكعبة أهون عند الله من قتل نفس واحدة بغير حق. وبوتين في نظر نفسه دائماً وأبداً على حق.

بعد وقف إطلاق النار، وقبل نهاية الشهر، روسيا اعترفت بأبخازيا وأوسيتيا الجنوبية كدول مستقلة، ردًا على اعتراف الغرب باستقلال كوسوفو في شهر فبراير سنة ٢٠٠٨ رغم أنف صربيا، الحليف التاريخي لروسيا.

المجتمع الدولي رفض اتباع روسيا والاعتراف بهم كدول مستقلة، ولكن قوة الاعتراف لا توازي قوة البندقية على الأرض. روسيا أصبحت مسئولة عن حماية دولتين يشكلوا خمس مساحة جورجيا، اللي أصبحت تحت رحمة جارتها الشمالية، واتدمر حلمها بالانضمام للناتو بغير رجعة.

وبينما العالم كله مركز على محاولة بوتين منع عجلة التاريخ من الدوران في شرق أوروبا، لم يتوقع أحد أن تهب رياح التغيير

في الشرق الأوسط.

صف دومينو طويل من الثورات، سقطت أول قطعة منه بصفح بائع خضروات ومصادرة مصدر رزقه في مدينة سيدي بوزيد التونسية.

بائع صعبت عليه نفسه، فولع في نفسه، وسقط النظام في تونس، ومصر، وليبيا، قبل أن يقع الدور على موسكو.

[131](#) حرب أكتوبر سنة ٢٠٢٣

الربيع الروسي

«لسنا بحاجة إلى ثورة كبيرة، نحن بحاجة إلى روسيا عظيمة».

فلاديمير بوتين

بعد سقوط بن علي، الثورة انتقلت إلى مصر.

بوتين اتفرج على أمريكا وهي تتخلى عن حليفها المعتدل حسني مبارك، وشاف أوباما وهو يقول إن أمريكا تقف خلف الديمقراطية وحقوق الإنسان في مصر والعالم بأكمله.

أديله واحد إكسترا ديمقراطية تاني مع الأورد!

وتابع بوتين أحداث ١٨ يوم من المظاهرات المستمرة من ٢٥ يناير إلى أن تنحى مبارك يوم ١١ فبراير، وهو متأكد أن وراء الأعداد الغفيرة دعم مالي، ومخابراتي، ودبلوماسي، وربما أيضًا عسكري للمتظاهرين ومن يدعمهم من أجهزة الدولة. ولكن كله كوم، واللي في حصل في ليبيا كوم تاني.

الجيش الليبي على عكس القوات المسلحة في مصر وتونس لجأ للعنف ضد المتظاهرين.

القذافي هدد المحتجين في خطاب تلفزيوني إنه هيعلمن الزحف المقدس، وهيقوم بتطهير ليبيا هو والملايين اللي معاه شبر شبر، بيت بيت، دار دار، زنقة زنقة، فرد فرد، حتى تتطهر البلد من الدنس والأنجاس!

وأضاف أنا معي الملايين، ومعني الله الذي نصرني على القوى العظمى الكبرى!

في خطاب أكد على عدم نيته في التنحي بشكل سلمي.

الإدارة الأمريكية لوقف المجازر ضد المدنيين.

أوباما أوكل نائبه جوزيف بايدن مهمة إقناع روسيا بعدم معارضة التدخل العسكري في مجلس الأمن.

أوباما حاول يفتح صفحة بيضاء مع روسيا بعد انتخابه كرئيس للولايات المتحدة سنة ٢٠٠٨.

وبما أنه عارف إن بوتين هو الرئيس الحقيقي، قابله في استراحته خارج موسكو، وأول ما سأله سؤال في أول عشر ثواني، بوتين دخل في مونولوج استمر لمدة ٤٥ دقيقة عن المظالم اللي اتعرضت لها روسيا على يد الولايات المتحدة الأمريكية.

فأوباما قرر توكيل بايدن، وهو عضو مجلس شيوخ لأكثر من أربعين سنة، ورئيس لجنة السياسة الخارجية، بإدارة الملف الروسي.

وعلى عكس بوش اللي انههر ببوتين في أول لقاء، بايدن قال لبوتين أنا باصص في عينيك، وأعتقد إنك رجل بلا روح!

فبوتين، اللي بيحترم القوة والصرامة، قاله كده إحنا فاهمين بعض، وبدأوا في التفاهم.

ونجحوا في الاتفاق على بعض النقاط لصالح أمريكا زي الموافقة على استخدام المجال الجوي الروسي لإمداد القوات الأمريكية في أفغانستان.

ولكنه لعب على وتر حساس أثناء خطابه أمام طلاب جامعة موسكو، بطلبه منهم عدم التنازل فيما يخص القيم الديمقراطية!

ولذلك بعدها بسنتين لما بايدن سافر روسيا وطلب من ميدفيديف الموافقة على شن حملة عسكرية ضد ليبيا، بوتين رفض، وقال له إن حماية المتظاهرين مجرد غطاء لتغيير النظام، والتخلص من القذافي.

بينما بايدن طمنه وقاله نحن لا نسعى لتغيير النظام.

هنحمس المدنيين وشمشي على طول.

ميدفيديف اقتنع، وفي حركة غير متوقعة، خالف رأي بوتين، وأعطى الضوء الأخضر.

بعض المحللين شافوا اللي عمله خطوة تأهيلية للترشح لفترة رئاسية ثانية تحت شعار التحديث والتقرب من الغرب.

ولكن المفاجأة أن بعد قصف الناتو لأهداف عسكرية في ليبيا، أمريكا أعلنت أن القذافي لازم يمشي!
ميدفيديف حس بالخيانة، بينما بوتين شبه الهجوم على ليبيا بالحملات الصليبية!
القذافي اللي حكم ليبيا لأكثر من أربعين سنة، منذ قيامه بانقلاب عسكري سنة ١٩٦٩ وهو لسة ملازم أول عنده ٢٧ سنة، سقط بعد شهور قليلة من خروج المظاهرات، اللي تحولت لحرب أهلية طاحنة.
وفي أكتوبر، تم العثور عليه مختبئ في إحدى المواسير وفي يده سلاحه، قبل أن يتم قتله بعد تصوير مشهد القبض عليه من الثوار.

بوتين حس بالذعر بعد مشاهدة الفيديو، اللي فضل يتفرج عليه أكثر من مرة!
معقول أسد إفريقيا يستخبي كأنه أحد المهربين، ويقتل على يد رعاياه من المواطنين؟
لفترة طويلة بوتين مكنش بيتكلم غير عن اللي حصل للقذافي.
مشهد لحظاته الأخيرة اتحفر في ذاكرته، وزاد من شعوره بالقلق تجاه حكمه، خاصة وهو يستعد للعودة للرئاسة.
روسيا بتولع، المرة دي حرفياً.

في الصيف حرائق الغابات انتشرت في أطراف موسكو ووسط روسيا بشكل أنهك المطافئ، خاصة في الأقاليم.
الروس استخدموا وسائل التواصل الاجتماعي، ومن ضمنها موقع Vkontakte أو VK.com الروسي لتنظيم وتنسيق جهود الإطفاء المدنية ومساعدة المتضررين.
بينما الكرملين رد على الأزمة بتصوير بوتين كرجل مطافئ يشارك بنفسه في مكافحة الحريق.
الرد كان مخيب للأمال، ولكن شعور الإحباط الحقيقي للبعض كان بإعلان بوتين في سبتمبر نيته الترشح للانتخابات الرئاسية في ٢٠١٢.

وهما أن الدستور اتعدل لجعل فترة الرئاسة ٦ سنوات بدل ٤، وهما إنه لو اترشح هيكسب، ولو كسب هينزل فترة ثانية، ده معناه بقائه في منصبه لسنة ٢٠٢٤ على الأقل!
صغار السن الحاملين بالتغيير أصيبوا بحالة من الغم.
حالة ممكن وصفها بال Putin Fatigue، أو الإرهاق من كثرة التعرض لنفس البراند أو العلامة التجارية.
أحلى سنوات حياتنا هنقضها تحت حكم الراجل ده؟
دي كده زهرة خشخاش مش زهرة شباب!

ناس كثير حسبت هيبقى عندها كام سنة لما يمشي في ٢٠٢٤، ده لو مشي في ٢٠٢٤، ولو عاشوا ل ٢٠٢٤!
والغم كشعور على قد ما هو كئيب، على قد ما هو حميد؛ لأنه يؤدي إلى اليأس، واليأس يؤدي للاستسلام وعدم محاولة تغيير الأمر الواقع.

ولكن بعد إعلان نتيجة الانتخابات البرلمانية في ديسمبر سنة ٢٠١١، كل هذا اليأس تحول إلى غضب!
الانتخابات البرلمانية في نهاية السنة هي أهم مؤشر للانتخابات الرئاسية بداية السنة اللي بعدها.
عدد كبير من الشباب والطبقة الوسطى من المهنيين شاركوا في العرس الديمقراطي، وصوتوا لأحزاب المعارضة الحفرية رغم معرفتهم بالنتيجة مسبقاً، لمجرد إظهار رفضهم لاستمرار حكم بوتين.

الانتخابات لم تخلو من حشو الصناديق، وحشد الموظفين، واستخدام الحبر السري، وما إلى ذلك من المخالفات المعتادة.
ولكن على عكس الانتخابات السابقة، المخالفات المرة دي أذيعت على الهواء مباشرة، عن طريق آلاف المشاركات على وسائل التواصل الاجتماعي.

أي حد معاه تليفون وباقه إنترنت قدر يوثق جزء من الانتهاكات اللي شافها بنفسه في اللجان.
حالة من الزخم والتفاعل الواسع على الإنترنت، زاد منها انتشار المدونات السياسية، اللي شكلت فضاء اجتماعي بديل للإعلام الرسمي.

ورغم كل ده، النتيجة أعلنت فوز حزب روسيا الموحدة⁽¹³²⁾. المدعوم من الكرملين بالمركز الأول بحصوله على ٤٩% من الأصوات.

رقم أقل من اللي توقعه الكرملين، وأكثر من اللي يستحقه الحزب في نظر الشباب. دعوات التظاهر انتشرت في وسائل التواصل الاجتماعي، وبعضهم طلب من المشاركين ارتداء شارة بيضاء، فتحولت لرمز المعارضة.

حوالي مائة ألف متظاهر خرجوا للشوارع واتجمعوا أمام الكرملين في تحدي واضح للقيصر، بعضهم رافع صورة بوتين بشنب هتلر، وبعضهم شايلين أعلام الشيوعية الحمراء، وبعضهم لا شايل صورة، ولا رافع شعار، ولا مهتم بالسياسة، كل اللي عارفه أن مستقبله مش هيتحسن غير بالتغيير.

رد فعل بوتين في البداية كان السخرية من المتظاهرين، اللي قال إنه أول ما شافهم افتكر الشارات البيضاء أوقية ذكرية، وأنهم لابسينها كنوع من أنواع التوعية بمرض الأيدز.

السخرية سلاح استخدمه بوتين ضد خصومه بنجاح طوال فترة حكمه، ولكن المرة دي العدد مش في صالحه، والتكنولوجيا أتاحت لأول مرة انتشار أصوات أخرى غير الإعلام الرسمي.

أصوات حسّها الفكاهي أقوى، وقدرتها على الإبداع أكبر. لما سخر منهم، سخروا منه، ونشروا صورة مفبركة له وهو لابس واقى ذكرى على صدره، انتشرت كالنار في الهشيم، وأحدثت شرخًا في القبضة الحديدية، اللي ممكن تكتم أنفاس، ولكن صعب تمنع سخرية. في تصريحاته الصحفية بوتين حب يفكر المتظاهرين بإنجازاته السابقة، افتكروا أنا لما استلمت السلطة البلد كانت فين، ودلوقتي بقت فين.

ولكن بينما هو رافع شعار افتكروا اللي فات، المتظاهرين قالوا له اللي فات مات. لو معندكش غير إنجازات الماضي، سيب مساحة للي يقدر يتعامل مع تحديات الحاضر. فقال لهم لا معلش، أنا مش جاك قديم هترموه في الدولار! ده أنا بيه ابن بيه!

أنا رئيس قدمت كثير، ولسه عندي كثير أقدمه. ولا إثبات وجهة نظره قارن نفسه برؤساء آخرين زي روزفلت اللي تولى رئاسة أمريكا أربع فترات متتالية، حضر فيهم أحداث فائقة الخطورة زي الكساد الكبير، والحرب العالمية الثانية، ومجيش سيرة تشرشل، اللي بعد ما قاد بريطانيا للنصر العظيم، الشعب طالب بدم جديد، فخر انتخابات سنة ١٩٤٥!

المتظاهرين لم يقتنعوا بما رأوه حججًا واهية، ومحاولات مستميتة للاحتفاظ بالسلطة، رغم انتهاء فترة صلاحية النظام. والمدهش أن المتظاهرين في الشارع مختلفين عن الصورة النمطية للمتظاهرين عبر التاريخ، بالذات في روسيا، اللي طالما كان وقود ثوراتها الفلاحيين الجائعين، والجنود الغاضبين. المرة دي المتظاهرين أغلبهم ينتمي للطبقة الوسطى، مهندسين، وأطباء، ومحامين، وموظفين شركات، وبنوك، وطلاب، وأساتذة جامعة.

طبقة وسطى متعلمة، لم تكن لتظهر وتنتعش، لولا نجاح بوتين الاقتصادي! للأسف الشديد الكل بيسأل الديكتاتور عمل إيه، ومحدث بيسأل الديكتاتور عامل إيه؟ الطبقة الوسطى، من وجهة نظر الحاكم، طبقة سخيفة جدًا! لا هما فقراء قوي، فبيجروا على أكل عيشهم، ولا هما أغنياء قوي، فخايفين على مصالحتهم! طبقة هجينة أغنى من الفقراء، وأفقر من الأغنياء، تقع في المنتصف بين الاتنين فأصبح لها بسبب موقعها تطلعات ومخاوف.

طبقة أصبحت في عصر العولمة طبقة مطلعة على العالم الخارجي، اللي بتقرا أخباره، وبتتفرج على أفلامه، وبتزوره للعمل والأجازات، فأصبح عندها توقعات، وشعرت بدرجة من الاستحقاق، أن تُعامل بنفس الدرجة من الإنسانية، وتحظى بنفس مستوى الحياة الكريمة في وطنها الأم، ونسيوا إنهم لولا ما تحقق في الوطن مكنوش لا سافروا ولا عرفوا من الأساس! بوتين حس بغضب بسبب الإنكار وعدم الامتنان.

هي دي شكرًا اللي بتقولها ليًا؟ هو ده جزاء الرخاء؟

قاعدين في مكاتب مكيفة بعد ما جدوكم كانوا بيضربوا بالكراييج وهما شغالين في أراضي النبلاء ومش عاجبكم عيشتكم؟ هو كل واحد فيكم هيروح يتفسح في أوروبا أسبوعين هيرجع يعمل فيها كريستين لاغارد ويقولي صندوق النقد الدولي؟ المشكلة إن صعب إقناع جيل بإنجازات الماضي وهو لم يعيش صعوبات الماضي.

المشكلة الأكبر إن عدد كبير من المتظاهرين أعضاء الدائرة المصغرة للسلطة.

عدد كبير من المتظاهرين إما موظفين حكوميين، أو موظفين في شركات مملوكة للأوليغاركي المخلصين.

ده إلى جانب عدد من العاملين مع الكرملين بشكل مباشر.

ميدفيديف أثناء مشاهدته للمظاهرات شاف عدد من معاونيه، ولكن المفاجأة الأكبر كانت بانضمام رموز للمظاهرات بشكل أعلن انهيار التحالف القديم، وحل العقد الاجتماعي المبرم مع السلطة.

كسينيا سوبتشاك، ابنة أناتولي سوبتشاك، انضمت للمظاهرات في مفاجأة مدوية، بسبب علاقة عائلتها التاريخية ببوتين.

كسينيا شخصية إعلامية مشهورة، المتظاهرين رحبوا بوجودها وسطهم وطلبوا منها التحدث، ففاجئت الجميع بهجومها على النظام، وبعد فترة فاجئتهم أكثر بمواعدة أحد زعماء المظاهرات.

مع فشل الوقت في إخماد الحركة بوتين بدأ يحس بالقلق، فاتبع مجموعة من التكتيكات المعتادة لعزل المظاهرات وتدمير مصداقيتهم.

فاتهمهم بأنهم مجموعة هجينة ليس لها أي قيمة من الأقليات، والمعارضة المحترفة اللي أكل عيشها وشهرتها من المظاهرات، والعملاء الأجانب.

الأسير السابق في حرب فيتنام، وعضو مجلس الشيوخ الأمريكي، والمرشح الرئاسي السابق جون ماكين علق على المظاهرات، وقال يبدو أن الربيع العربي وصل روسيا.

بوتين رد وقال إن يديه ملطخة بدماء المدنيين، ولامه على اغتيال القذافي.

وأضاف إنه أثناء أسره في فيتنام وضع في الحبس الانفرادي داخل حفرة صغيرة، وطبيعي إن أي حد يحصل له كده هيتجنن! أما وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون صرحت بأن الانتخابات البرلمانية كانت غير عادلة، وغير نزيهة.

بوتين اعتبر ده دليل على محاولة أمريكا التدخل في الشأن الداخلي الروسي، وقال إن هي اللي أدت الإشارة للمتظاهرين بتصريحها للنزول للشارع.

كلينتون ردت بأن حقوق الإنسان جزء من الهوية الأمريكية، وأن مش هي لوحدها اللي أعلنت عن تحفظاتها على انتخابات مليئة بالانتهاكات.

وأضافت أن الولايات المتحدة تدعم حقوق وتطلعات الشعب الروسي في تحقيق التقدم والحصول على مستقبل أفضل.

بوتين قال لا ده أنتِ تيجي تمسكي الشيشة بقى!

وقال على التلفزيون الروسي أن المتظاهرين مدفوع لهم فلوس من أمريكا عشان ينزلوا الشارع، وأن تزوير الانتخابات حجة معتادة للمعارضة في كل زمان ومكان!

المتظاهرين ردوا عليه برفع لافتات مكتوب عليها: هيلاري، ما زلت في انتظار أموالك!

بوتين حس بالقلق، لدرجة إنه صرح أنه ممكن بخلاف المرات السابقة ميقدرش يعدي نسبة الخمسين في المئة من الجولة الأولى، ويضطر يدخل الإعادة.

وصرح بأن المعارضة لها وقتها، ومن حق أي حد مش عاجبه الوضع إنه يعبر عن رأيه في الانتخابات، ولكن بعد الانتخابات سيتحرك القطار، واللي هيحاول يقف قصاده هيتداس عليه!

الثائر الروسي الحق يثور ليهدم الفساد ثم يهدأ ليبنى الأمجاد.

ولكن لما المظاهرات استمرت، وأدرك إنه فشل في الاحتواء، قرر المواجهة.

الخطوة الأولى هي أضعاف شرعيتهم بعمل ثقل مضاد لهم.

زي ما في ناس مش عايزة بوتين، في ناس بتحب بوتين وبتتظاهر لدعمه.

الكرملين نظم أوتوبيسات لشحن موظفي الحكومة لميادين مؤيدة.

وهما أن المتظاهرين أصبح لهم رمز وهو الشارات البيضاء، اللي انتشرت في كل مكان وبالذات في العاصمة، المؤيدين محتاجين رمز هم كمان، ومفيش رمز أفضل من سانت جورج.

سانت جورج هو القديس الأشهر في روسيا، صورته على حصانه بعد هزيمة التنين لها رمزية كبيرة في قلوب الروس، فالحكام استخدموا اسمه في عمل القلادات والتكريمات العسكرية، من أول كاترين العظيمة لحد ستالين، اللي استخدم اللون البرتقالي واللون الأسود، ألوان النار والدخان، لعمل قلادة الانتصار على ألمانيا بنهاية الحرب العالمية الثانية.

وفي سنة ٢٠٠٥ أعضاء المنظمة الشبابية ناشي وزعوا شارات سوداء وبيضاء باسم سانت جورج في الذكرى الستين للانتصار في الحرب، لتذكر أبطالها وضحاياها.

الشارات انتشرت كالنار في الهشيم، والناس علقوها بفخر في كل مكان.

في كتاب Contagious: Why Things Catch On اللي ترجم للعربية باسم مُعدي: السبب وراء تفشي الأشياء، أستاذ التسويق بجامعة بنسلفانيا جونا بيرجر يقول إن أحد أهم الأسباب وراء انتشار الشيء هو ال Physical presence أو وجوده بشكل مادي مرئي أمام الناس.

القريب من العين قريب من القلب، والناس دايماً فاكراً اللي شايفاه.

ولذلك كل سنة بعدها في نفس الميعاد تم توزيع الشارات، اللي أصبحت رمزاً للوطنية، والتضحية، والفداء.

وفي المظاهرات اللي استمرت لبدية سنة ٢٠١٢، جيش بوتين ارتدى شارات سانت جورج في إشارة أنهم وطنيين، بينما المتظاهرين الآخرين عملاء.

وفي نفس الوقت اللي حاول فيه الكرملين خلق موجة ثانية، عمل كل اللي يقدر عليه لتدمير الأولى.

اعتقالات بالجملة، وأحكام قضائية مشددة، خلت كل واحد يفكر ألف مرة قبل ما ينزل من البيت.

بالإضافة لتصوير المظاهرات محاولة غربية للقضاء على قيم الأسرة الروسية، بينما بوتين هو الدرع الوحيد أمام موجة الانحلال الغربي.

فاستغل الميول المحافظة لدى قطاع عريض من الشعب الروسي، وهاجم المثليين، وصور الحركة المطالبة بالديمقراطية كخطأ مخادع لقوة غربية هدفها القضاء على الدولة والمجتمع.

فاكتمل مثلث الحكم الروسي القديم، المكون من الدين، والوطنية، والسلطوية.

الاختلاف الوحيد إن المرة دي بوتين لوحده بقى رمز لهم جميعاً.

مع اقتراب الانتخابات الرئاسية، وتسرب الإحباط لقلوب المتظاهرين، الأعداد قلت بشكل تدريجي، لحد ما انهزمت الحركة بفوز بوتين بشكل أفضل مما توقع، بعد حصوله على ٦٤%، وحسمه المنافسة من الجولة الأولى.

الفوز كان دليل على أنه رغم كل شيء، ما زال يتمتع بتأييد نسبة كبيرة من الشعب، وهم الأغلبية الصامتة.

ملايين صوتها غير مسموع في معارك وسائل التواصل الاجتماعي، ولكنه حاسم في معارك الصناديق.

ولكن رغم فوز بوتين بسبب دعم الأغلبية، الحقيقة أن انتصاره الأكبر كان في امتناع الأقلية عن المشاركة.

الدرع الأقوى ضد تغيير الأنظمة السياسية، هو اللامبالاة السياسية⁽¹³³⁾.

٣٢% من الناخبين في موسكو شاركوا في الانتخابات.

إما بسبب الإحباط، أو الرغبة في تسجيل الاعتراض بعدم المشاركة.

كما قال الشيخ الشعراوي: إذا كثرت الأنا وحدي، كثرت الأنا مالي!

في كلا الحالتين غيابهم سهّل مهمة السلطة التي يعارضوها، بغض النظر عن مدى فاعلية المشاركة من عدمها.

وعلى الرغم من إشادة الصحف الغربية بالمظاهرات، وتوقع بعضهم زي جريدة الإيكونوميست الشهيرة بأن دي بداية

النهاية لبوتين، فإن فوزه بالانتخابات كان شهادة وفاة للثورة، وانتصار للكركمليين العازم على الانتقام.

لقد حان دوري!

!My turn

العدو في نظر بوتين كشف عن نفسه في صورة نشطاء، ومؤسسات.

في شهر يونيو تم اقتحام بيت كسينيا سوبتشاك، والتحفظ على مليون ونصف دولار كانت شايلاهم في خزانة بيتها،

وتهديدها بفتح قضية تهرب من الضرائب.

بالإضافة لطرد والدتها وأرملة سوبتشاك من المجلس الفيدرالي، وهو الغرفة الأعلى للبرلمان الروسي شبيهة بمجلس الشورى.

كيسينيا فهمت الرسالة، وتوقفت عن انتقاد النظام بأي شكل، وفسخت علاقتها بالمعارض الشهير، فالحكومة كافئت سلوكها

الحسن، وقللت التحقيق، ورجعت لها فلوسها.

إخواني، لقد تسرعنا في الحكم على بوتين!

أما بالنسبة للمؤسسات، الدوما، أو المجلس التشريعي، أصدر قرار في شهر يوليو بإلزام كل الجهات والمنظمات التي تتلقى أي

دعم أو معونة خارجية بالتسجيل كعملاء أجنب!

وفي نفس الوقت قوات الشرطة ومصلحة الضرائب اقتحموا مقرات كل المنظمات التي شاركوا في حراك ٢٠١١.

وتم إغلاق منظمات بعينها زي ال USAID التي بتدي منح خاصة ببرامج نشر الديمقراطية وتدريب كوادر المجتمع المدني

والصحافة والإعلام.

بالإضافة لتضييق الخناق على المواقع الصحفية، وتغليظ عقوبة الجرائم الإلكترونية لضمان خضوع الفضاء الرقمي للمساءلة

القانونية.

الإنترنت في نظر بوتين اختراع من ال CIA، حصان طروادة لتمرير الأفكار الغربية للمجتمعات الشرقية الساذجة، ولذلك

يجب مراقبته بنفس درجة الحرس في مراقبة الشوارع.

موجة قرارات أحدثت صدى مدوي، ولكن على عكس السنوات السابقة التي الغرب كان مستني له فيها على الواحدة،

الاعتداء على الحريات عدى بسلام؛ لأن الفضيحة الكبيرة المرة دي جت من أمريكا!

¹³² United Russia.

¹³³ The ultimate safeguard against political change is political apathy.

إدوارد سنودن

«إن الديمقراطية جميلة من الناحية النظرية، ولكنها مغالطة في الممارسة العملية، وأنتم في أمريكا سترون ذلك يومًا ما، الحقيقة هي أن الرجال سئموا الحرية».

بينيتو موسوليني

في يونيو سنة ٢٠١٣، الموظف السابق في وكالة الأمن القومي الأمريكية⁽¹³⁴⁾ إدوارد سنودن وصل مطار موسكو، هربًا من الحكومة الأمريكية بعد كشفه عن قيامها بعمليات مراقبة غير قانونية على مستوى غير مسبوق.

سنودن سرب وثائق سرية للصحافة العالمية بالتعاون مع فريق موقع Wikileaks وهرب بعدها بمساعدتهم لهونج كونج، ومنها إلى روسيا بعد إلغاء جواز سفره من الحكومة الأمريكية.

الوثائق كشفت عن كذب الإدارة الأمريكية وإخفائها العديد من المعلومات المهمة.

زي تعاون إدارة أوباما مع الحزب الجمهوري لمنع ملاحقة أعضاء إدارة بوش دوليًا، بسبب انغماسهم في ممارسات ممكن تُدرج تحت بند التعذيب، وضغطها على الحكومة الإسبانية لوقف التحقيقات.

بالإضافة لتشجيع وزارة الخارجية الأمريكية أعضاء وفدها الدبلوماسي في الأمم المتحدة، للتجسس على أعضاء باقي الوفود بما فيهم السكرتير العام!

فضائح زلزلت المجتمع الدولي، وختل أمريكا تطالب روسيا بإعادة جاسوسها الهارب.

بوتين رفض، وقال لهم لو كان جاسوس روسي سافر لكم مكنتوش هترجعوه!

فتحول في ظرف يوم وليلة إلى بطل مدافع عن الحقوق والحريات، في وجه إمبراطورية الولايات المتحدة، اللي بتلاحق كاشفي الممارسات السيئة للحكومة بدلًا من وقفها.

ولكن المكسب الأكبر لبوتين من فضيحة سنودن كانت إصلاح علاقته بألمانيا، وإفساد علاقتها بأمريكا.

الوثائق أثبتت تجسس الولايات المتحدة على مواطنيها بشكل غير قانوني في الداخل، بالإضافة لتجسسها على أي تواصل إلكتروني في العالم كله!

قدرة مهولة لا يمكن تخيلها على مراقبة مليارات المحادثات اليومية في شتى أنحاء الكرة الأرضية، على رأسهم محادثات الزعماء، الحلفاء منهم قبل الأعداء.

الوثائق كشفت تجسس الولايات المتحدة على موبايل أنجيلا ميركل الشخصي، فأثارت عاصفة من الغضب في ألمانيا، اللي برلمانها وصف سنودن بأنه بطل، وناقشوا إمكانية منحه اللجوء في ألمانيا تقديرًا لجهوده.

كل الأعدار الأمريكية فشلت في احتواء الأزمة، اللي خرج منها بوتين ناصع البياض، وأثبتت صحة كلامه بأن الغرب يعمل نفس اللي بيعمله بالضبط، الفرق الوحيد إنه أكثر صراحة.

ولكنه نسي أن الغرب خصم متحرك مش ساند باج⁽¹³⁵⁾.

خصم على وشك تسديد ضربة موجعة لروسيا في أعز ما تملك: الغاز.

¹³⁴ NSA.

¹³⁵ كيس رمل للتدريب على رياضة الملاكمة.

حروب الغاز

«أوكرانيا ليست دولة».

فلايمير بوتين

سنة ٢٠٠٩ الاتحاد الأوروبي تبني سياسة جديدة تهدف لزيادة التنافس في سوق الطاقة، عن طريق إجبار الشركات المنتجة على فصل أقسام الإنتاج والتنقيب عن التوزيع والتسويق (136).

الاتحاد قال إن السياسة هدفها المساواة بين الشركات التابعة لدول الاتحاد الأوروبي، والشركات الأجنبية، ولكن بوتين لم يقتنع، واعتبرها هجوم مباشر على جوهرة التاج الروسي، وفخر الصناعة الروسية كلها: شركة جازبروم. روسيا صاحبة أكبر احتياطي غاز طبيعي في العالم.

سنة ١٩٨٩ وزارة الغاز تحولت لشركة مملوكة للدولة باسم جازبروم. وبعدها بسنوات قليلة يلتسن عرضها للبيع كشركة خاصة، قبل أن تنجح الدولة في إعادة إمتلاك حصة الأغلبية في عهد بوتين.

فأصبحت الشركة الأنجح في روسيا، والأكبر على مستوى العالم من حيث القيمة السوقية. شركة في أوج قوتها كانت تصدر ٤٠% من احتياجات الغاز الأوروبي، وتملك أكثر من ١٧٠ ألف كيلومتر من خطوط الغاز، خلوا الضرائب اللي بتدفعها سنويًا تشكل ربع الموازنة العامة الروسية. ده إلى جانب تشغيلها لأكثر من ٣٠٠ ألف موظف! والغاز سلاح سياسي مثلما هو سلاح اقتصادي.

بوتين أدرك أن الغاز ممكن يخليه يمارس نفوذه على غرب أوروبا زي ما ممكنه من ممارسة نفوذه على دول شرق ووسط أوروبا اللي ما زالوا معتمدين على روسيا لمدهم بالطاقة من أيام الاتحاد السوفيتي. سنة ٢٠٠٥ بوتين والمستشار الألماني جيرهارد شرودر اتفقا على إنشاء خط أنابيب تحت بحر البلطيق لمد ألمانيا بالغاز الروسي مباشرة.

وبعد خسارته أمام ميركل في الانتخابات، شرودر انضم لمجلس إدارة شركة نورد ستريم اللي أنشئت لإدارة الخط العملاق اللي بدأ في العمل سنة ٢٠١١، لنقل حوالي ٥٥ مليار متر مكعب من الغاز الطبيعي سنويًا. والمقصود بالغاز الطبيعي هو الغاز اللي الموجود في الصخور تحت الأرض، وده بيحتاج إما خطوط أنابيب لنقله بشكل مباشر، أو محطات تسهيل لزيادة كثافته لتسهيل نقله بالمرآكب. ولذلك نقله عن طريق الخطوط أسهل، وأسرع، وأرخص.

ولكن مع اضطراب العلاقة بين روسيا والغرب، ومع وضع جازبروم لشروط مجحفة في عقودها لضمان احتفاظ بوتين بعضا في وجه الدول المستوردة للغاز، زي منع إعادة بيع الغاز، والتسعير بشكل قد يصنف على أنه تعسفي، الاتحاد الأوروبي كشر عن أنيابه، وبدأ في زيادة الضغط على جازبروم لتقسيم أعمالها لعدة شركات أصغر.

الشركة رفضت تبني السياسة الجديدة، فتم اقتحام مقراتها داخل الاتحاد الأوروبي، مع التهديد سنة ٢٠١٣ برفع قضية ضدها بسبب ممارستها الاحتكارية.

التهديد خلى بوتين يشوف إن الاتحاد الأوروبي أصبح لاعب جيوسياسي على مستوى آخر. لاعب يشكل تهديد لمصالح روسيا زيه زي الناتو بالظبط إن لم يكن أخطر؛ لأنه تهديد مخفي وراء مزاعم الحب والتعاون والسلام.

تهديد خلاه يعيد التفكير في أهدافه السياسية، ورؤيته الاقتصادية بالكامل.

بعد العودة للرئاسة بوتين قرر أن الأولوية يجب ألا تكون لتحقيق النمو الاقتصادي، ولكن الوصول لدرجة عالية من المرونة، والتكيف، التي يضمنوا قدرة روسيا على العبور بسلام في مواجهة الأزمات.

الأزمة المالية العالمية في ٢٠٠٨، وبعدها أزمة منطقة اليورو وديون اليونان، خلوه يدرك إن الاقتصاد العالمي عبارة عن سلسلة لا تتوقف من الأزمات والانفراجات.

وعملًا باللي اتعلمه في كتاب التخطيط الاستراتيجي، فيجب عمل قائمة هرمية بالأولويات، والاستعداد لكل ما يمكن أن يحدث.

والأولوية في هذه الحالة لوقاية روسيا من التقلبات الاقتصادية؛ لأن اللي هيكسب في نظره مش اللي هيحقق أعلى معدل نمو في الأوقات الطبيعية، ولكن اللي هيقدر ينجو بسلام من الأزمات.

ولتحقيق الهدف عمل خطة من ثلاث نقاط:

الأولى هو العمل على تصنيع منتجات محلية لاستبدال الواردات، عن طريق إجبار الشركات الأجنبية الراغبة في دخول السوق الروسي العملاق، اللي فيه أكثر من ١٤٠ مليون مستهلك، على تصنيع منتجاتهم في روسيا.

عايز تبيع هنا، لازم تصنع عندنا!

ده هيضمن توافر السلع الأساسية على الأقل بشكل لا يرتبط بالظروف الاقتصادية الخارجية.

النقطة الثانية هي اتخاذ الدولة لدور ريادي في الاقتصاد، عن طريق عمل مشاريع قومية عملاقة، توفر فرص عمل، وتضمن دوران العجلة، وتحسن من البنية التحتية لصالح كل من المواطنين، والمستثمرين المستقبليين، فأمر بالعمل على مشاريع مد خطوط سكك حديد، وطرق سريعة، بالإضافة لعمل مصانع عسكرية في الأقاليم، اللي الطلب على منتجاتها مضمون من الجيش أيًا كان حجم السوق الخارجي.

النقطة الثالثة والأهم هي إنشاء اتحاد من الدول أعضاء الاتحاد السوفيتي السابقين، لضمان وجود سوق كبير للمنتجات الروسية بغض النظر عن جودتها.

مفيش دولة تقدر تعيش لوحدها مهما كانت قوتها، والاتحاد الأوروبي حجمه زاد وزادت معاه خطورته، ولا بد من عمل ثقل موازي.

فاقترح تأسيس اتحاد أوراسي (137). لحماية الاقتصاد والاستقرار السياسي، فكرته، على عكس ما تم تداوله في الإعلام، قائمة على الدفاع وليس الهجوم.

ولكن زي ما أدرك يلتسن، ومن قبله جورباتشوف، لا يوجد اتحاد بدون أوكرانيا.

[136](#) Upstream and downstream.

[137](#) Eurasian Union.

البعض يثور مرتين

«الحرب دائماً تنتج عن سوء تقدير جزئي أو كامل، أنت تخطئ في تقدير مدى قوتك، وتخطئ في تقدير مدى ضعف العدو، تخطئ في تقدير مدى سهولة الأمر، ومدى انخفاض التكاليف، ومدى عظمة الفوائد».

المؤرخ الأمريكي

ستيفن كوتكين

سنة ٢٠١٠ الشعب الأوكراني دخل في حالة من الإحباط والغضب لعدم تحقيق أهداف الثورة البرتقالية رغم مرور ست سنوات على قيامها.

يوشينكو فشل في إصلاح الاقتصاد، فلجأ للتذكير بالانقسات العرقية، والمظالم التاريخية، لزيادة شعبيته.

الي بيشفل في تحسين الواقع ببيع حلم العودة إلى الماضي.

في سلسلة من القرارات المثيرة لغضب موسكو، يوشينكو أعلن ستيفان بانديرا اللي تحالف مع الألمان ضد الاتحاد السوفيتي قبل ما الألمان يحبسوه في الحرب العالمية الثانية بطل قومي، وخصص ذكرى الهولودومور كيوم قومي للحداد.

ولكن انعدام الكفاءة والإفلاس السياسي كوم، وفضيحة صفقة استيراد الغاز من جازبروم كوم ثاني خالص.

بعد حوالي سنة من الثورة البرتقالية، في نوفمبر سنة ٢٠٠٥ روسيا طلبت رفع سعر الغاز الي بتصدره لأوكرانيا بسعر ٥٠ دولار للألف متر مكعب، رغم أن العقد ساري لسنة ٢٠٠٩.

روسيا قالت إنها مش هتدعم اقتصاد أوكرانيا في الوقت الي زعمائها بياخدوا مرتباتهم من أمريكا بشكل مباشر أو غير مباشر!

رئيس الديوان أوليه ريباتشوك سافر روسيا في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

ارتفاع سعر الغاز هيضرب الاقتصاد الأوكراني في مقتل، وعدم السداد ممكن يؤدي إلى قطع الغاز في شتاء أبرد من المعتاد.

في الكرملين قابل ديمتري ميدفيديف، رئيس شركة جازبروم في الوقت ده، فطمنه وقاله متخافش، في طريقة ممكن تحافظ على سعر الغاز زي ما هو.

لو أوكرانيا وافقت على استيراد الغاز من الجهة الي يختارها الكرملين، سعر الغاز مش هيتغير، وكمان ممكن كل من الحكومة الأوكرانية والروسية، يكسبوا حوالي ٢ مليار دولار سنويًا من الصفقة الجديدة!

ريباتشوك مكش مصدق اللي بيسمعه!

رئيس أكبر شركة في العالم، وأحد أهم رجال الكرملين، يعرض عليه صفقة مشبوهة، أرباحها من المال العام، داخل الكرملين!

ليه دولة تشتري من دولة ثانية عن طريق وسيط عبارة عن شركة تأسست حديثًا باسم RusUkrEnergo؟

ومن هم ملاك الشركة الجديدة؟

أسئلة في غاية الأهمية، جاوب عنها أكبر مستثمر أجنبي في روسيا، الأمريكي وليام براودر.

أثناء حملة كسب المال من خلال محاربة الفساد، وليام برودر اكتشف أثناء مراجعته للأوراق المالية لجازبروم، عن إهدار الشركة ملايين الدولارات عن طريق سماحها لأحد الوسطاء باستيراد غاز رخيص من تركمانستان، ثم بيعه لأوكرانيا من خلال خطوط أنابيب جازبروم.

ومزيد من البحث اكتشف أن العقد المبرم بين الوسيط، وهو شركة باسم أورال ترانس جاز، وبين جازبروم، وقع قبل يوم من تأسيس أورال ترانس جاز، اللي أسست في إحدى قرى المجر، ويمتلکها أربع أشخاص لا يمتون لمجال عملها بأي صلة، وهم ممرضة، ومبرمج كمبيوتر، وممثلة مغمورة، بالإضافة لمحامي إسرائيلي على صلة بالمافيا الروسية.

بروادر سرب المعلومات للصحافة وكان فاكر إن الكرملين هياخد صفه زي آخر مرة، ولكنه فوجئ بصمت رسمي.

كل اللي حصل أن جازبروم لغت التعاقد مع الوسيط المشبوه، وتعاقدت مع وسيط آخر، وهو شركة باسم RusUkrEnerg.

شركة أسست في سويسرا، تمتلك جازبروم ٥٠% منها، ومحدث عارف من يملك ال ٥٠% التانيين. المؤكد هو أنها على صلة بالكرملين، خاصة إن اتنين من الثلاثة أعضاء مجلس إدارتها ضباط سابقين في الكي جي بي. براودر اكتشف اللعبة الجديدة، وسيط بالحجم ده هيمنع جازبروم من دخل يقدر بحوالي مليار دولار سنويًا؛ دخل ملك المال العام بما تدفعه الشركة من ضرائب، والمال الخاص بما تم ضخه فيها من أموال مستثمرين. براودر سرب التفاصيل للصحافة مرة ثانية، والرد جاله بمنعه من دخول روسيا. منع لم يدرك سببه في وقتها؛ لأنه كان فاكراً أن الكرملين هيمنع وجود وسطاء طفيليين بهذا الشكل، ومنعته سذاجته من إدراك الحقيقة المرة أنهم من صنع الكرملين من الأساس. ريباتشوك رجع كييف وهو واثق أن الرئيس الجديد، الموالي للغرب، والمسبح بعظمة الديمقراطية، مستحيل يقبل صفقة زي دي.

لما حكي له على اللي حصل طلب منه يتأكد من وجود دعم غربي لأوكرانيا في حالة تنفيذ روسيا لتهديدها بوقف ضخ الغاز. وبالفعل، وزارة الخارجية الألمانية، والأمريكية، أعلنوا عن وقفهم في صف أوكرانيا، مش بس لاتخاذها القرار الصحيح، ولكن لأنها مسئولة عن نقل ربع احتياجات أوروبا من الغاز عبر خطوطها، ووقف الغاز عنها معناه وقف الطاقة عن أوروبا كلها! ولذلك مستحيل روسيا تعمل كده.

ولكن في أول أيام السنة الجديدة، المستحيل حصل! يوم ١ يناير روسيا منعت الغاز عن أوكرانيا. ريباتشوك كان عارف إنه قرار متهور مش هيطوّل عن ثلاثة أيام؛ لأن المنع لو زاد عن كده خط الأنايب هيتضرر، وإصلاحه ممكن يكلف روسيا مئات الملايين. وكما توقع، روسيا استأنفت ضخ الغاز في اليوم التالي، ولكن مش بسبب خوفها على الخط، بسبب موافقة يوشينكو على الصفقة!

واتضح مع الوقت أن الشركة الوسيطة يملك نصفها رجل أعمال أربعيني باسم ديميتري فرييتاش، على صلة قريبة بأخو يوشينكو، بدأ يقنعه بالصفقة بشكل سري من قبل ما بيعث ريباتشوك لموسكو! الصفقة قضت على ما تبقى من شعبية يوشينكو، وأفقدت جزء كبير من الشعب الثقة فيه، والثقة في الثورة كلها. صفقة أدت لدفع أوكرانيا ٩٥ دولار للألف متر مكعب، بعد ما كانت بتدفع ٥٠، وقالت عنها رئيسة الوزراء يوليا تيموشينكو أنها لا يمكن كانت تتم لو لم يكن هناك فساد.

البرلمان صوّت لسحب الثقة منه، وسفير أمريكا قال لريباتشوك لما شافه بعد رجوعه لكييف: مرحبًا بك في نادي الفساد!

نادي على وشك انتخاب أهم أعضائه القدامى، فيكتور يانوكوفيتش. رغم إن صعود يوشينكو للرئاسة تم بعد إعادة الانتخابات بأمر من المحكمة الدستورية العليا، لكن كان هناك أجزاء أخرى غير معلنة في صفقة تنازل كوتشما ويانوكوفيتش وقبولهم لإعادة، من أهمها تعديل الدستور لضمان إضعاف سلطة الرئيس مقابل زيادة سلطة البرلمان ورئيس الوزراء.

الشرط ده ممكن لضمان عدم ملاحقة يوشينكو لهم بعد انتخابه، أو عشان يضمنوا إضعافه بشكل يضمن عودتهم على الساحة بعد فشله.

من أول يوم في عهد يوشينكو، يانوكوفيتش أظهر استمرار طموحه في الوصول لمقعد الرئاسة، بتعيينه مجموعة من ألمع المستشارين السياسيين الأمريكيين.

مجموعة شملت أحد أهم مستشاري الحزب الجمهوري، بول مانافورت، وعضو حملة جون كيري للرئاسة في ٢٠٠٤ آدم ستراسبورج، لإعادة تقديمه على الساحة السياسية الأوكرانية.

وبالفعل حزب الأقاليم نجح بقيادته في الفوز بالانتخابات البرلمانية سنة ٢٠٠٦، مما أجبر يوشينكو على تعيينه كرئيس للوزراء قبل عزله مجدداً سنة ٢٠٠٧ بعد نجاح تيموشينكو في تكوين أغلبية برلمانية.

عزل فاده ولم يضره؛ لأنه حماه من انهيار شعبية يوشينكو، واتهامات الفساد اللي طالته، ولم تنجو منها تيموشينكو، اللي اعتبرها خصمه اللدود الساعية لإزاحته في الانتخابات الرئاسية القادمة.

ولكن المفاجأة الأكبر كانت فوز فيكتور يانوكوفيتش بعد حصوله على ٤٩% من الأصوات، مقابل ٤٥% لتيموشينكو، و٥% فقط ليوشينكو.

على عكس الانتخابات السابقة، يانوكوفيتش لم يرفع شعار إعادة العلاقات الروسية الأوكرانية؛ لأن بول مانافورت نصحه بأنه هيخره صغار السن من الناخبين الحاملين بالاندماج مع أوروبا.

فرفع شعار أكثر اعتدالاً، وهو الاندماج الأوروبي مع الاحتفاظ بالحياد.

ولكن من أول يوم له انضح أنه نسخة شبيهة من يلتسن.

عدل الدستور لإعطاء سلطة أكبر لرئيس الجمهورية، ولاحق تيموشينكو قضائياً واتهماها بالفساد في قضية انتهت بسجنها لتنفيذ عقوبة مدتها سبع سنين.

بالإضافة لإحاطة نفسه بحاشية مكونة من مجموعة من الأقارب والمعاونين عرفوا باسم العائلة، كشفت الوثائق فيما بعد تحويله لحوالي ٧٠ مليار دولار لحساباتهم في الخارج.

ابنة ألكسندر أصبح أغنى رجل في أوكرانيا بعد حصوله على نسبة كبيرة من المناقصات الحكومية، بشكل خلى عدد كبير من الأوكرانيين يدركوا الوجه الحقيقي لنظامهم الحاكم.

أما من ناحية السياسة الخارجية، يانوكوفيتش سعى لإرضاء موسكو، واثقاء شرها.

سنة ٢٠١٠ جدد اتفاقية تأجير القاعدة العسكرية في سيفاستوبول لروسيا لسنة ٢٠٤٢، بينما البرلمان صوت لإزالة الانضمام للئاتو من استراتيجية الأمن القومي، مما يعني رسمياً إعلان أوكرانيا كدولة محايدة.

لكن كل ده لم يكن كافياً لموسكو، ولا لبوتين الحالم بإنشاء الاتحاد الأوراسي.

يانوكوفيتش ماطل ورفض الانضمام للاتحاد الروسي؛ لأنه كان حاطط عينه على الاتحاد الأوروبي، اللي نجح في التوصل لاتفاقية معه تشمل التجارة الحرة مع السوق الأوروبية الموحدة، والحصول على استثمارات، والسماح بدخول الاتحاد بدون تأشيرة للأوكرانيين، مع الوعد بإمكانية الانضمام للاتحاد في المستقبل.

الاتفاقية تم عرضها على أربع دول، وهم أوكرانيا، وأرمينيا، وجورجيا، ومولدوفا.

بوتين حس بالخطر على مشروعه السياسي الأهم.

رغم إن مفيش مانع نظرياً من دخول الدولة في أكثر من اتفاق تجاري، وبالتالي لا يوجد ما يمنع دخول أوكرانيا في اتفاقية مع الاتحادين، فبوتين عارف أن الاتفاق، بما يشمله من إصلاحات تشريعية كشرط مسبق لدخول السوق الأوروبية، هيجذب أوكرانيا للغرب على حساب الشرق.

فضغط على الدول الأربعة للانسحاب من الاتفاقية، فوافقت أرمينيا، ورفضت جورجيا ومولدوفا، وهم دولتين شهدوا تدخل عسكري روسي لدعم القوات الانفصالية داخل أراضيهم بعد سقوط الاتحاد السوفيتي.

فالعيون كلها بقت على أوكرانيا.

طبقاً لسيمون سميث، السفير البريطاني في أوكرانيا، مشكلة بوتين الحقيقية ليست في القرب من الناتو، ولكن في القرب من أوكرانيا ديمقراطية، بقضاء مستقل، وسلطة تشريعية قوية.

دي الخطورة الحقيقية اللي هتنتج من انضمامها للاتحاد الأوروبي.

ومع اقتراب موعد توقيع الاتفاقية في قمة الاتحاد المقرر عقدها نهاية نوفمبر سنة ٢٠١٣ في العاصمة الليتوانية فيلنيوس، بوتين قرر رفع الجزرة والعصا ليانوكوفيتش.

الجزرة عبارة عن قرض بخمسة عشر مليار دولار لإنقاذ الاقتصاد من التعثر عن سداد ديونه، أما العصا عبارة عن التهديد بمنع المنتجات الأوكرانية من السوق الروسية، مما سيؤدي إلى كارثة محققة لأن دخول السوق الأوروبية يحتاج وقت وتجهيز، بينما أوكرانيا معتمدة على روسيا في أغلب صادراتها. العرض اتسرب إلى الصحافة في أغسطس، فأحدث حالة من الفوران داخل الشعب الأوكراني. الوضع تعدى الاقتصاد وهدد شعورهم بالكرامة والاستقلال. ولكن الخوف من بوتين أكبر من الخوف من الجماهير.

في مفاجأة لزعماء دول الاتحاد الأوروبي الحاضرين في القمة، يانوكوفيتش رفض توقيع الاتفاقية، وقال لميركل ورئيسة ليتوانيا أنا بقالي ثلاث سنين ونصف في مواجهة روسيا لوحدي على أرض غير متساوية! فيما معناه لو روسيا قلب عليا محدش هيلحقني! الخبر أحدث صدمة كبيرة في أوروبا، وسعادة كبيرة في روسيا، اللي نفذت وعدها بشراء أذون خزانة أوكرانيا، وخفض سعر الغاز.

وعلى الرغم من حالة الإحباط في الشوارع الأوكرانية، والذكرى السلبية الباقية من الثورة البرتقالية وتبعاتها، مجموعة صغيرة من الطلاب قرروا يمارسوا حقهم في التعبير السلمي، واعتصموا في الميدان. سر استمرار الحركة الطلابية هو صغر سن أعضائها.

لم يحظوا بقدر كافي من الهزائم والتروما. فبيعيدوا اختراع العجلة، واستدعاء القبضة في كل مرة. عدد الطلاب في الميدان استمر في الزيادة بشكل يومي. زيادة طفيفة ولكن كافية لإثارة ذعر يانوكوفيتش، اللي خاف يتكرر سيناريو ميدان ٢٠٠٤، فأمر الأمن بفض الاعتصام. ليلة ٣٠ نوفمبر الشرطة هجمت على الميدان، واستخدمت القوة بشكل مفرط أدى لإصابة العشرات بجروح وكسور نقلوا على أثرها للمستشفى.

ضرب الطلاب كان هدفه منع المزيد من الطلاب من التظاهر، ولكنه أدى لغضب عشرات الآلاف من الأهالي. ثاني يوم حوالي نصف مليون متظاهر من الطلاب، والأهالي نزلوا الميدان، فاللي خاف منه يانوكوفيتش حصل، وتحول الميدان لنقطة تجمع أعادت ذكريات ٢٠٠٤.

تم عمل مطبخ، وعيادة، ومكتبة، وفرق نظافة، بالإضافة لتنظيم المحاضرات والجلسات النقاشية، اللي حرّموا منها في حياتهم العادية. واللافت للنظر هو عدم شرب الخمر.

اللي جاي عايز يفضل فايق ومركز بعد ضياع سنوات في الغفلة. واستغلالاً للتطور التكنولوجي حطوا كاميرات في أنحاء الميدان لبث الأحداث طوال ٢٤ ساعة على وسائل التواصل الاجتماعي.

والمدهش أن نموذج الميدان خرج من كييف وانتشر في باقي المدن والقرى الأوكرانية. بعض أصحاب المحلات الصغيرة جابوا بروجيكتور وعرضوا باليه بحيرة البجع لتشايكوفسكي على مباني مجالس المدينة، وهو نفس الباليه اللي كان يعرض وقت انتقال السلطة من زعيم لآخر في الاتحاد السوفيتي، في رسالة واضحة ليانوكوفيتش أن أيامه أصبحت معدودة.

ومع الوقت المظاهرات كبرت وشهدت مشاركة ال Babushkas أو الجدّات في اقتحام مجالس المدينة.

رايحة فين يا تيتة بس صلّ على النبي!

ولكن مع زيادة حدة المظاهرات، زاد عنف الأمن.

بعض المتظاهرين بدأوا في الاختفاء واحد ورا الثاني، واللي يلاقوا جثته بعد فترة بتكون عليها آثار تعذيب! الكرمليين رفض الاعتراف بمطالب المتظاهرين واثمهمم بالخضوع للتأثير الأجنبي، وحت له هدية لا تقدر بثمن أكدت كلامه في منتصف ديسمبر.

عضو مجلس الشيوخ الأمريكي جون ماكين، ونائبة وزير الخارجية الأمريكية فيكتوريا نولاند زاروا الميدان، وقالوا للمتظاهرين اللي رافعين أعلام أمريكا والاتحاد الأوروبي إلى جوار علم أوكرانيا، نحن ندعمكم وندعم قضيتكم! بوتين لم يهتم أن ماكين معارض لإدارة أوباما، كل اللي شافه دليل على نشاط الـ CIA. وما شاف ممثلة الاتحاد الأوروبي كاترين أشتون في الميدان لامها على تحريضها الفج، فقالت له أنا ممثلة عن الاتحاد الأوروبي، ولازم أقابل الناس اللي رافعين أعلام الاتحاد.

قالها يعني لو بعت ممثلين روس للمظاهرات المناهضة للاتحاد في قبرص أو اليونان هتنبسطي؟

بوتين في الوقت ده كان سعيد باستضافة أولمبياد سوتشي، أعلى أولمبياد شتوية في التاريخ.

في مباراة منتخب روسيا ضد منتخب أمريكا في الآيس هوكي، الفريقين كانوا متعادلين ٢-٢ لحد ما الفريق الروسي أحرز هدف في وقت قاتل.

بوتين الشغوف بالآيس هوكي وبيمارسه بانتظام كان في منتهى السعادة، لكن الحكم الأمريكي لغى الهدف لعدم ثبات الشبكة، والمباراة انتهت بفوز المنتخب الأمريكي بضربات الجزاء.

دليل آخر من وجهة نظره على النزاهة والاستقامة الأمريكية!

دولة عايشة عشان تكدرني!

مع استمرار الاعتصام، روسيا أرسلت مجموعة من خبراء الأمن لمساعدة حكومة يانوكوفيتش على إدارة الأزمة، من ضمنهم ضباط فض شغب، وقناصة!

ومن منتصف يناير، المظاهرات السلمية أخذت منحى أكثر دموية، بعد حدوث اشتباكات بين المتظاهرين، ومجموعة من أنصار الرئيس اللي محدش عارف هل هم مجرد مواطنين غاضبين، أم مرتزقة مأجورين.

ومع زيادة العنف، وفشل الاعتصام في تحقيق أي تنازل من جانب الحكومة، المتظاهرين قرروا التصعيد.

يوم ١٨ فبراير، حوالي ٢٠ ألف متظاهر اقتحموا مقر حزب الأقاليم، وحاولوا اقتحام مبنى البرلمان.

هنا يانوكوفيتش قرر استخدام القوة بشكل حاسم، وأعطى الأمر للأمن بإخلاء الميدان مهما كان الثمن.

المواجهة بدأت بقنابل غاز، وطلقات مطاطية، وخرطوش، في مقابل متاريس من صناديق القمامة، وأحجار الأرصفة، بالإضافة إلى الكاوتش المشتعل لتشويش الرؤية، وخلق تيار ساخن لأخذ الغاز المسيل للدموع لأعلى.

ولكن بعد فترة تم سماع دوي إطلاق نار مخيف، كل طلقة بتوقع فرد بإصابة مميتة.

وبالكشف عن الإصابات، تبين أنها طلقات قناصة!

الميدان تحول لساحة معركة، بعض المتظاهرين رفعوا السلاح وألقوا زجاجات المولوتوف على قوات الأمن.

خلال ثلاثة أيام، سقط أكثر من مئة قتيل من ضمنهم ١٣ ضابط شرطة، بالإضافة لمئات الجرحى.

مجزرة أذيعت على الهواء أمام أعين أوروبا والعالم بأكمله.

صوت الدم كان جرس إنذار لزعماء أوروبا كلها.

وزراء خارجية ألمانيا، وفرنسا، وبولندا، حضروا على وجه السرعة لكييف لإيجاد حل سلمي.

وبعد مفاوضات مطولة مع يانوكوفيتش، اللي كان حريص على الاتصال ببوتين وإبلاغه بكافة التفاصيل أول بأول، تم الاتفاق على وقف العنف، مقابل بقاء يانوكوفيتش في السلطة لنهاية ديسمبر.

البرلماني اللامع، والمعارض الشهير، وبطل العالم السابق في الملاكمة للوزن الثقيل، فيتالي كليتشكو، خرج للميدان المكتظ بعشرات الآلاف من المتظاهرين لإعلان بنود الاتفاق. وأول ما بلغهم ببقاء يانوكوفيتش في السلطة لديسمبر، تعالت صيحات الاستهجان، والاتهامات لقادة الحركة بمصافحة القتلة!

!Our leaders are shaking hands with murderers

!Shame on you

وطالبوا برحيل يانوكوفيتش الفوري، وإلا هيقتموا مبنى الحكومة! الجماهير الغاضبة لا يرضيها سوى المقصلة. المشكلة أن عهد المقاصل لا ينتهي إلا بضرب رقاب أصحابها. يانوكوفيتش وحكومته عارفين أنهم على شفا حفرة من النار. في نفس يوم وصول وفد الوزراء الأوروبي، رجال الحكومة أجروا ٦٤ طائرة خاصة، جمعوا فيهم أسرهم، وأموالهم، وما تيسر من حملة من ممتلكاتهم، وسافروا برة البلد خوفًا مما هو قادم. يانوكوفيتش فضل في كييف، ولكن بعد تصويت البرلمان في جلسة طارئة على منع أي استخدام للقوة ضد المتظاهرين، قوات الأمن انسحبت، وبقي وحيدًا أمام الطوفان. فاتصل ببوتين وقاله بعد إذنك يا ريس أنا هاروح أقعد في خاركييف في شرق أوكرانيا يومين كده لحد ما الدنيا تهدى. بوتين انفجر فيه على التلفون: بتقول رايح فين؟ اثبت مكانك، هنا عنوانك!

البلد خارج السيطرة، وكييف تحت رحمة المجرمين والمخربين، وأنت عايز تمشي؟ أنت اتجننت؟

يانوكوفيتش قاله لا تقلق، كل شيء تحت السيطرة، واستعد للرحيل.

بوتين كان هيتجنن، بعد ما قفل معاه قال بالنص:

!I never imagined he was such a cowardly piece of shit

لم أتخيل أبدًا أنه جبان وبلا قيمة للدرجة دي.

رفض استخدام مزيد من القوة لإخلاء الميدان، ودلوقتي عايز يسحب العاصمة ويهرب؟!

تاني يوم في جلسة البرلمان النواب دوروا على الرئيس عشان يوقع على القانون.

فين الرئيس؟ مش موجود!

هرب في نصف الليل هو وحاشيته لشرق أوكرانيا، معقل المظاهرات المناهضة لكييف.

الخطة هي تنظيم مؤتمر لممثلي مجالس شرق وجنوب أوكرانيا، هدفه إعلان نقل العاصمة من كييف إلى خاركييف، وتقسيم أوكرانيا إذا تطلب الأمر!

وهو داخل على مقر المؤتمر جاله خبر أن المتظاهرين الموالين لكييف، عدد كبير منهم من روابط جماهير كرة القدم، حضروا بأعداد كبيرة واقتحموا المقر.

فاتصل ببوتين وطلب مقابلته، فحدد له موعد في مدينة روستوف على نهر الدون الحدودية في روسيا، ولكن وهو في المطار

مراقبي الحركات الجوية (138) رفضوا إقلاع الطائرة لروسيا، فيما يبدوا تنفيذًا لأوامر أمنية قادمة من كييف.

يانوكوفيتش بلغ بوتين أنه مش عارف يسافر، وقاله إنه هيتجه على القمر للاحتماء بالمؤيدين.

بوتين هنا قرر التدخل بنفسه.

رقعة الشطرنج بتتغير بسرعة كبيرة، وفراغ السلطة لو زاد هيدعو كل من له مصلحة في مديده للتأثير على الأحداث. مفيش احتياج لوجود حكومة موالية لموسكو في القرم، لما ممكن القرم كلها تبقى تابعة لموسكو. بوتين بعت له طائرة هيليكوبتر روسية هربته من القرم لروسيا، عشان يبقى تحت عينه، وعشان يجهز الساحة لبداية واحدة من أنجح العمليات العسكرية في التاريخ الحديث: عملية استعادة القرم.

[138](#) Air traffic controllers.

شبه جزيرة القرم

«إن روسيا قوة إقليمية تهدد بعض جيرانها المباشرين، ليس من منطلق القوة بل من منطلق الضعف».

باراك أوباما

بعد استقلال أوكرانيا وانهيار الاتحاد السوفيتي، ظهرت أصوات في روسيا بتنادي بإعادة القرم لروسيا، وإعادة ترسيم الحدود مع أوكرانيا.

نائب الرئيس يلتسن قال اللي وقعوا على قرار منح القرم لأوكرانيا دول أكيد كانوا مش في وعيهم أو بيعانوا من ضربة شمس!

حد يتنازل عن أرض بتجمع بين جمال الطبيعة، والأهمية العسكرية؟

يلتسن استغل الأصوات دي للضغط على حكومة أوكرانيا، ولكنه تراجع عن الدخول في مواجهة مباشرة؛ لأن الأولوية كانت لاستعادة الأسلحة النووية، ولجذب استثمار أجنبي محتاج الحفاظ على رضا أمريكا.

المشكلة أن بينما روسيا وأوكرانيا يتصارعون على القرم، أهل القرم كانت رغباتهم مختلفة عن الانضمام لإحدى الدولتين. صحيح القرم صوتت لصالح الاستقلال عن الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٩١، لكنها كانت صاحبة الدعم الأقل في أوكرانيا كلها بنسبة ٥٦%.

عدد كبير من سكان القرم من بعد تهجير السكان الأصليين من التتار في عهد ستالين من أصول روسية، ومرتبطين بروسيا ثقافيًا ولغويًا.

والحقيقة إن اللي جمع محبي روسيا ومحبي أوكرانيا هو الرغبة في الاستقلال عن الدولتين.

في بداية التسعينيات برلمان القرم صوت لصالح الاستقلال عن أوكرانيا، وتم انتخاب رئيس لشبه الجزيرة اللي أعلنوها كدولة مستقلة.

اللي أنقذ أوكرانيا من خسارة القرم هي الديمقراطية.

انتخاب كوتشما، ابن شرق أوكرانيا اللي بيتكلم روسي، كان خبر سعيد لأهالي القرم اللي اطمنوا بوجوده لعدم تهميشهم من كييف.

وتوصلوا لاتفاق أعطى القرم استقلالية كبيرة تكاد تصل للحكم الذاتي، مقابل حل منصب الرئيس، والعمل على توفيق قوانينها مع القوانين الأوكرانية.

وهكذا استمر وجود القرم في أوكرانيا، واستمر الوجود الروسي في القرم، مدنيًا، وعسكريًا.

ولكن بعد مظاهرات ٢٠١٤ الوضع اختلف تمامًا.

بعد هرب يانوكوفيتش من كييف، وسفره، أو خطفه لموسكو، بعد ما كان ناوي يُنشئ حكومة في القرم، البرلمان صوّت على عزله بسبب تخليه عن مسؤولياته، وعين بدلًا منه رئيس مؤقت.

المشكلة إن أول قرارات الحكومة المؤقتة كان إلغاء قرار سابق بجعل اللغة الروسية لغة رسمية.

العديد من سكان الشرق والجنوب، وبالأخص في القرم، حسوا إنهم في مواجهة حكومة معادية.

الآلاف خرجوا في مظاهرات يوم ٢٣ فبراير وطلبوا مساعدة روسيا ضد ما أسموه بانقلاب كييف، وهتفوا قائلين Putin is

our president بوتين رئيسنا!

صحيح المظاهرات دي شارك فيها أعضاء العصابات وأبناء الجريمة المنظمة، وصحيح إن المخابرات العسكرية الروسية والإف إس بي عملوا كل اللي يقدروا عليه عشان يضمنوا نزول الناس في الشارع، ولكن ده ميمنعش أن في عدد كبير نزلوا بشكل فطري، وحسوا أنهم محتاجين حماية بوتين، وبوتين عاشق لجبر الخواطر.

فهاجم الحكومة الجديدة المفتقدة للشرعية بكل شراسة.

اللي أنتم عملتوه ده اسمه انقلاب.

لا بس الشعب بيدعمنا، والبرلمان معنا، وفي مظاهرات في الشارع.

حد انتخبكم؟ لا

يبقى انقلاب!

ومش أي انقلاب، ده انقلاب يميني متطرف معادي للأجانب، ومعادي للسامية!

حكومة تشكل خطر مباشر على الأقليات الروسية في أوكرانيا، وأنا عاشق للأقليات!

رئيس برلمان القرم سافر موسكو، وأعلن عن استعدادة لمناقشة استقلال شبه الجزيرة.

الوقت مناسب لتغييرات راديكالية، وكل واحد بيدور على مصلحته.

وكالعادة، بينما انشغل الجميع بالجدل والتفكير، بوتين اتحرك بسرعة مذهلة وحزم لتشكيل الواقع طبقاً لرغبته، في واحدة

من أنجح خطط الشطرنج في التاريخ!

في اجتماع مع نيكولاي باتروشييف رئيس مجلس الأمن القومي، وألكسندر بورتنيكوف، رئيس الإف إس بي، وسيرجي شويجو

وزير الدفاع، بوتين ناقش معاهم إمكانية التدخل الروسي في أوكرانيا قبل أيام من رحيل يانوكوفيتش.

باتروشييف وبورتنيكوف قالوا له إن استطلاعات الرأي اللي أجرتها الأجهزة الأمنية في القرم تدل على رغبة السكان في

الانضمام لروسيا.

بالإضافة إلى أن جهاز الدولة في أوكرانيا حالياً فعلياً بلا رئيس، ومنقسم بين مؤيد ومعارض ليانوكوفيتش، ولذلك هناك فرصة

تاريخية للتحرك دون الخوف من العواقب، خاصة أن أجهزة الأمن الروسية بقالها شهور بتتواصل مع أجهزة الأمن الأوكرانية،

وتدفع رشايو لكبار الضبط من أجل شراء ولائهم في حالة حدوث مواجهة قريبة.

بينما شويجو وزير الدفاع، رأيته كان مختلف تماماً.

شويجو ابن لأب روسي وأم أوكرانية، في طفولته كان عاشق للمغامرة وهو صغير لدرجة إن أصحابه أطلقوا عليه لقب

شيطان، قبل ما ربنا يهديه ويتخرج من كلية هندسة ويشق طريقه في الحزب الشيوعي، اللي كبر فيه على مدار السنين لحد

ما اتعين سنة ١٩٩١ رئيس الدفاع المدني المشهور بالفساد وعدم الكفاءة.

ولكنه حولها لأحد أكفأ المنظمات في روسيا وكبرت في عهده لدرجة أنها تحولت لوزارة كاملة عرفت باسم وزارة الطوارئ.

شويجو كافح الفساد وكسب حب الموظفين بسبب اهتمامه، ورفع روحهم المعنوية بسبب إصلاحاته، زي تقديم يونيفورم

جديد خلاهم فخورين بالعمل في الجهاز.

وهما أن الكوارث دائمة الحدوث في روسيا، شويجو شهرته زادت، واتعرف كرجل الإنقاذ في وقت الأزمات.

سنة ١٩٩٣ أثناء الأزمة الدستورية والمواجهة بين الرئاسة والبرلمان، أشرف على توزيع الأسلحة لمؤيدي يلتسن من مخازن

الدفاع المدني، فكرمه بوسام بطل روسيا، وقال إنه أعظم نجم لدينا، ولما مشي قدر يكون علاقة شخصية قوية ببوتين، خده

معاه في رحلات صيد لمسقط رأسه في جنوب سيبيريا، اتصور فيها بوتين وهو راكب الحصان وقالع التيشيرت في فوتوسيشن

يليق بنجم سينمائي، وعرف أنه بيحب الكلاب فجاب له كلبة لابرادور اسمها كوني، أصبحت أشهر كلبة في العالم، بعد ما

جابها في اجتماعه مع ميركل لما عرف إن عندها فوبيا من الكلاب!

إلى جانب حبه وإتقانه للعبة الـ Ice Hockey، فبقى الوحيد اللي في دائرته القريبة اللي مش من خلفية أمنية ولا ينتمي

لشلة لينينغراد.

سنة ٢٠١٢ بوتين كان محتاج شخص يقود الإصلاحات في الجيش، استعداداً لما هو قادم، شخص يقدر يكسب ثقة كبار

القادة والضباط اللي حواليه.

شخص يجمع بين الكفاءة والسياسية، فملقاه أحسن من شويجو.

وبعد نجاحه في رفع الكفاءة القتالية، وزيادة الأجور، وتحسين الظروف المعيشية للعساكر والضباط، أطلق عليه مقولة روسية قديمة، وهي أنه خادم القيصر، ووالد الجنود.

شويجو في الاجتماع لما لقي باتروشييف وبورتنيكوف ببسخونا بوتين على التدخل العسكري، قالهم لا ياخوانا صلوا على النبي كده واستهدوا بالله، دي مش خناقة في المعادي!

ده احتلال لدولة لها سيادة، وفي اتصال دائم مع العسكر الغربي، ولذلك أي غلطة ممكن تؤدي لدخولنا في مواجهة مباشرة مع الناتو، بالإضافة لاحتمالية توقيع عقوبات اقتصادية غربية على روسيا!

إلى جانب أننا لا نملك أي خطط مفصلة للغزو، ولا لكيفية إدارة المشهد بعد الغزو فيما يسمى بخطة الـ Day After، وده معناه أن القرارات هتتخذ دون دراسة، وهو أمر غير مستحب في حالة الحرب!

كلام منطقي، ولكن لما لقيه مش على هوى بوتين، متمسكش به.

القطر ماشي في سكتته، يا تركب، يا تنزل!

فقال له توكلنا على الله، معاك يا ريس!

وطير بينا يا عم!

الساعة أربعة ونصف صباحًا يوم ٢٧ فبراير، مجموعة من الرجال لابسين زي عسكري بلا علامات أو أعلام، ومسلحين بأحدث الأسلحة، سيطروا على مبنى برلمان القرم ورفعوا عليه علم روسيا.

القوات اللي أطلقوا على أنفسهم قوات الدفاع عن النفس المسلحة للقرم، محدش كان عارف عايزين إيه ولا تبع مين.

أوباما اتصل ببوتين على التليفون قال له بتعمل إيه؟

قال له صباح الخير والله قاعد بشرب نسكافيه في البيت، النهاردة يوم السيلف كير فواخده ووركينج فروم هوم.

يا فلاديمير إحنا عندنا عينين وبنشوف يا فلاديمير

!We have eyes

العساكر بيتكلموا روسي، وشايلين سلاح روسي، وراكبين عربيات نمرها روسي.

روسيا بتعمل إيه في القرم يا فلاديمير؟

متكرهناش في الشغلانة يا أخي!

قال له بقولك مش تبعنا وملناش دعوة بيهم، وبعدين هو أي حد لبس يونيفورم يبقى روسي؟

أي حد يقدر يشتري زي عسكري مستعمل.

أوباما مصدقش، وبوتين معترفش، والعالم كله دخل في حالة من التخبط في محاولة معرفة السر وراء The little green men أو الرجال الخضراء الصغار، وهو تعبير يطلق على الفضائيين، وتم استخدامه لوصف القوات الغازية في القرم بسبب لون الزي وعدم معرفة هويتهم.

إنكار بوتين خلاله يكسب وقت ثمين، قدرت فيه القوات الروسية الرسمية الموجودة في القواعد العسكرية على شبه الجزيرة

تتحرك بحرية وتحاصر مواقع القوات الأوكرانية، وتسيطر على المطارات، بتعملوا إيه يا جماعة؟

والله بنحاول نمنع سفك الدماء لو حصل اشتباكات بين المظاهرات المؤيدة والمعارضة، ومن ناحية ثانية بنحمي المنشآت

الروسية، محدش عارف الدنيا قلق.

وقاموا طالعين للشمال وقافلين مدخل شبه الجزيرة من الشمال لمنع وصول إمدادات أوكرانية للجنوب.

كل ده في غياب أي مقاومة من الجيش الأوكراني، اللي جزء منه استسلم، وجزء منه انشق وأعلن انضمامه للجيش الروسي.

مشربتوش من نيلها يا رجالة؟

!Shereen Abd El Wahab reacted sad

القوات الأوكرانية على جزيرة الثعبان غرب القرم استسلموا لسفينة موسكفا، الـ flagship أو سفينة القيادة للأسطول

الروسي، وتخلوا عن أسلحتهم.

بينما أوروبا وأمريكا مقتنعين إن كل اللي في القرم دول تبع روسيا، ومع ذلك بيناقشوا احتمال أنهم يكونوا ضباط أوكرانيين منشقين أو موالين ليانوكوفيتش اتحركوا ردًا على اللي حصل في الميدان وانقلاب البرلمان. بالذات أن بعد الإعلام الروسي ووصفهم لنفسهم بقوات الدفاع عن النفس القرمية، لجان شعبية من المتطوعين ظهوروا بعد سقوط الحكم في كييف.

جوزيه باروسو رئيس المفوضية الأوروبية، ورئيس الوزراء السابق للبرتغال، اتصل ببوتين، فأكد له أن القوات اللي في القرم مش عساكر روس، وقال له لو كانوا روس، كنت خدت كييف في أسبوعين!

وبعدين أنت تابع نفسك وشاغل بالك بأوكرانيا كده ليه؟

أوكرانيا دي من صنع الـ CIA والمفوضية الأوروبية!

قال له والله يا فلاديمير يعني لو كانت من صنع المفوضية كنت عرفت، بما إني رئيس للمفوضية، وقفل معاه وهو مش مصدق اللي بيسمعه.

ولكن زي ما قال جوبلز، الكذبة كل ما كانت كبيرة، كل ما فرص تصديقها زادت.

تصريح يانوكوفيتش أنه ضد التدخل العسكري، وتأكيد على أنه لم يطلب مساعدة روسيا، زاد من حالة التخبط الدولية، اللي زادت بسبب حملة رقمية غير مسبقة من المعلومات المضللة، ونظريات المؤامرة فجأة غرقوا الإنترنت.

حملة شملت مهاجمة مواقع أوكرانيا الإلكترونية، وأعلنت عن تطور قدرات روسيا على شن حرب سيبرانية هدفها تقسيم الجبهة الأوكرانية عن طريق طرح حقائق مختلفة وكاذبة، بشكل يؤدي لإضعاف الروح المعنوية، والقدرة على اتخاذ القرار.

محدث متأكد مين دول، وبالتالي محدش عارف إزاي يتم التعامل معاهم.

لكن مع مرور الوقت، وانتشار القوات الروسية الرسمية وسيطرتها على الجزيرة، الإجابة بقت واضحة زي الشمس.

الحكومة الأوكرانية المؤقتة اتهمت بوتين بإعلان الحرب على أوكرانيا، واستدعت جنود الاحتياط، وفي نفس الوقت طلبت من أمريكا وبريطانيا التدخل لوقف الاعتداء بما أنهم موقعين على معاهدة ١٩٩٤ اللي بموجبها تنازلت أوكرانيا عن أسلحتها النووية.

أوباما اتصل ببوتين لمدة ساعة ونصف قال له مينفعش روسيا تخالف القانون الدولي وتفتكر أنها هتفعلت من العواقب، وهدده بمقاطعة قمة الـ G٨ المقرر عقدها في سوتشي، بالإضافة للعمل على عزل روسيا سياسياً.

بوتين قال له روسيا لها الحق في الدفاع عن مصالحها ومصالح الـ Russian speakers أو الأوكرانيين المتحدثين باللغة الروسية، مش بس في القرم، لكن كمان في شرق أوكرانيا!

ورد إعلامياً على اتهامه بغزو أوكرانيا وقال لا يمكن ندخل في حرب ضد أوكرانيا، ولو حصل لا قدر الله وحاربنا، هنعارب دفاعاً عن الإخوة الأشقاء في أوكرانيا وليس ضدهم.

القوات المسلحة الروسية والأوكرانية إخوة في السلاح!

!Brothers in arms

وأكد على عدم وجود نية لضم القرم لروسيا، في الوقت اللي انضمامها لروسيا كان بدأ بالفعل!

رغم الوجود العسكري المظاهرات الموالية للحكومة الجديدة في كييف استمرت في القرم وشرق أوكرانيا.

في القرم التتار المسلمين خرجوا اعتراضاً على التدخل العسكري الروسي، فتم قمعهم من رجال الإف إس بي والمخابرات العسكرية، اللي قدروا بالتعاون مع رئيس برلمان القرم من إجبار بعض النواب، وإغراء بعضهم، بتنظيم استفتاء على استقلال شبه الجزيرة.

يوم ١٦ مارس ظهرت النتيجة بتصويت القرم على الانفصال عن أوكرانيا بنسبة ٩٧%.

المجتمع الدولي اعتبر الاستفتاء غير قانوني لأنه لم ينظم تحت إشراف الحكومة الأوكرانية، وتم إجراؤه في أجواء عدائية

شهدت قمع وتصفية للمعارضة، ولكن بوتين اللي حب يرد للغرب صفقة الاعتراف باستقلال كوسوفو، اعترف بالنتيجة. البرلمان الروسي أصدر قرار بالسماح للقرم بالانضمام لروسيا، وفي يوم الجمعة ٢١ مارس، بوتين أعلن عن ضم القرم لروسيا بشكل رسمي.

الروس نزلوا الشوارع رافعين الأعلام، واحتفلوا بكلاكسات العربيات طوال الليل. بوتين أعلن عن ضم القرم في خطاب شهد مقاطعته ٢٧ مرة بالتصفيق! شعبية بوتين ارتفعت ل ٨٧%، يعني من كل عشرة في ثمانية يبحبه، والتاسع يقول إنه يبحبه بس من ورا قلبه. بوتين دخل القاعة رئيسًا منتصرًا، وخرج منها قيصرًا متوجًا. قيصر أعاد لروسيا مجدها الإمبراطوري، وعوضها عن اللي حصلها بعد انهيار الاتحاد. شعور الروس الطاغي بالفخر والفرحة عبر عنه رمضان قديروف، زعيم الشيشان اللي حضر وغنى النشيد الوطني الروسي أمام الكاميرات من كل قلبه، لما سأل في نهاية الحفلة وقال:

?What's next? Alaska

صوت أفراس النهر في ألاسكا عاملي إزعاج في أواريس. ومكنش يعرف وهو بيتكلم عن حرب قادمة أن الحرب الحالية لم تنتهي بالفعل. أثناء عملية الاستيلاء على القرم طبقًا لكيف، أو استرجاعها طبقًا لموسكو، الأمن الروسي ساعد في نقل عدد من أعضاء العصابات المنظمة، والمتطوعين من الضباط السابقين، والوطنيين اليمنيين، ونوادي الدراجات النارية اللي بينظموا رحلات على طريق العين السخنة، للمشاركة في قوات الدفاع الشعبية. ولكن بعد ضمها لروسيا، وجودهم أصبح مصدر تهديد، فالكرملين شجعهم على الانضمام للشرطة والقوات المسلحة أو حل تنظيماتهم بعد أداء الغرض منها. عدد كبير منهم اختار السفر للمشاركة في الثورة المسلحة المشتعلة في شرق أوكرانيا. المظاهرات اشتعلت في منطقة الدونباس الشرقية، وتحولت بسرعة لمواجهة مسلحة مع القوات الأوكرانية. الكرملين دعمهم بشكل محدود في الخفاء، ولكن تردد في إعلان الحرب بشكل رسمي. من ناحية لأن التركيز والتخطيط كان مركز على القرم، بينما الشرق الأحداث تطورت فيه بشكل أوجانيك. الانفصاليين نجحوا في إعلان جمهوريات مستقلة في إقليم الدونيتسك واللوهانسك، ولكن فشلوا في فرض سيطرتهم على خاركيف.

الجيش الأوكراني استعاد توازنه، وبدأ في شن هجوم مضاد بعد انتخاب رجل الأعمال صاحب إمبراطورية الشوكولاتة بترو بوروشينكو في انتخابات لم تشهد مشاركة القرم ولا مناطق النزاع في الشرق. أوكرانيا في عهده اتخذت مجموعة من القرارات العاجلة لمواجهة روسيا؛ لأنها ممكن تعلن غزو كامل في أي وقت. فحظروا استخدام أي رمز شيوعي، وحلوا الحزب الشيوعي، ومنعوا مشاركة أي شخص له علاقة بيانوكوفيتش في الانتخابات، بالإضافة لحجب موقع VKontakte للتواصل الاجتماعي ومحرك يانديكس البحثي الشهير بما أنهم الاثنين نتاج شركات روسية وممكن استخدامهم في الدعاية السياسية. ولتشجيع استخدام اللغة الأوكرانية، صدر قرار بإلزام قنوات الراديو والتلفزيون بإذاعة ما لا يقل عن ربع الأغاني، وثلاثة أرباع البرامج باللغة الأوكرانية.

بالإضافة لمنع الممثلين الداعمين لضم القرم لروسيا من الظهور. أما القرار الأهم على الإطلاق كان إلغاء قانون عدم الانحياز الصادر في عهد يانوكوفيتش. الانضمام لأوروبا اقتصاديًا وعسكريًا أصبح مسألة حياة أو موت، فيما يعد الخسارة الأكبر لبوتين وروسيا على المدى الطويل. كل ده أدى لتجاوز مرحلة التخبط والبدء في استعادة الأرض من المتمردين، فروسيا زادت من دعمها لهم، في ظل غياب

أمريكي مفاجئ.

رغم كل التنديد والتهديد، الولايات المتحدة فشلت في إصدار رد فعل مناسب. نائب الرئيس جو بايدن، اللي كان مترشح ضد أوباما في الانتخابات الأولية أو ال Primaries في الحزب الديمقراطي قبل ما ينضم لحملته، بالإضافة للبنتاجون، وال CIA، نصحوا الرئيس باتخاذ إجراءات أعنف ضد روسيا. رئيس المخابرات جون برينان قال أنا اتربيت في مدارس نيوجيرسي، وعارف إن المتنمر ده مش هيسيبك غير لما تضربه وتخلي مناخيره تنزف!

ساعتها بس هيعرف إن الله حق، ويبطل افتراء!

لازم نبعث سلاح لأوكرانيا، زي صاروخ جافلين المضاد للدبابات لتحويل نقطة القوة الروسية لنقطة ضعف عند الاشتباك. لأنه هيجل مشكلة التفوق العددي الروسي، وهيخلي من السهل القضاء على أرتال الدبابات والمدرعات بفرق المشاة. لكن أوباما رفض، واكتفى بتوقيع حزمة من العقوبات الاقتصادية أو ال Sanctions على مجموعة منتقاة من أعضاء الدائرة المقربة لبوتين، بدون توقيع عقوبة واحدة على شركات الغاز أو البترول، باعتبار أن العقوبات ممكن تضر حلفاءها في أوروبا زي ألمانيا أكثر من روسيا.

اشتم اشتم ما هو ده تمامك!

وفي محاولة للتقليل من فلاديمير وضربه في المكان اللي يوجعه، وهو الأنا العليا أو ال Ego، أوباما قال إن روسيا قوة إقليمية Regional power وليست قوة عالمية Global power، فيما قد يكون أيضًا محاولة لتبرير عدم التصعيد والاكتفاء بالعقوبات من الجانب الأمريكي.

وفي اتصال مع بوتين وضح له إن أمريكا ليس لها مصالح في أوكرانيا، باستثناء الحفاظ على أمن وسلامة أراضيها.

مش أي حد يصحى الصبح يقرر تغيير خريطة الدولة اللي جنبه.

أنت مش نتياهو، وروسيا مش إسرائيل!

بوتين قال إنه لم يتدخل إلا بعد الانقلاب على يانوكوفيتش لحماية الأقليات الروسية في الشرق والجنوب، رغم إن في الحقيقة خطة الاستحواذ على القمر مجهزة من قبل هروب يانوكوفيتش.

واللي أثبت عدم صدق كلامه هو ميداليات وزارة الدفاع الروسية اللي صدرت كتكريم للجنود المشاركين في عملية ضم القمر، وطبع عليها تاريخ بداية العملية يوم ٢٠ فبراير!

وحاول ينكر أي علاقة لروسيا بتمردين الشرق، واعتبرهم شأن أوكراني داخلي ليس له يد فيه، ولكن الأحداث أجبرته على التخلي عن إنكاره المعتاد.

يوم ١٧ يوليو سنة ٢٠١٤ طائرة الخطوط الماليزية MH١٧ ضربت بصاروخ في شرق أوكرانيا أثناء رحلتها من أمستردام إلى كوالالمبور، فسقطت على الفور، وقتل داخلها طاقم الطيران و٢٨٣ راكب أغلبهم هولنديين.

التحقيق الهولندي أثبت ضرب الطائرة بصاروخ SAM أرض جو روسي.

نتيجة أكردها اعتراف بعض الانفصاليين على وسائل التواصل الاجتماعي بضرهم للطائرة اللي افتكروها طائرة نقل عسكرية أوكرانية.

التدخل الروسي في الشرق لم يعد من الممكن إنكاره، خاصة بعد القبض على عشرة جنود روس من قبل الجيش الأوكراني في الشرق.

الكرملين رد في البداية وقال مش جنودنا، وبعد كده قال جنودنا ولكنهم كانوا في إجازة وخذوا لفة غلط فلقوا نفسهم هناك، وما إلى ذلك من حجج معتادة طبقًا لفلسفة Deny and Lie.

حجج منتهية الصلاحية لم تعد تلقى مصداقية في الخارج، ولكنها تؤدي الغرض في الداخل.

قادة أوروبا حسوا إنهم أمام قنبلة موقوتة وممكن تتحول لحرب شاملة في أي لحظة، فتوسطوا لوقف إطلاق النار وبحث

حل سياسي طويل الأمد.

في سبتمبر تم عقد مفاوضات في مدينة مينسك، عاصمة بيلاروس، بوساطة فرنسية ألمانية، انتهت بتوقيع اتفاقية وقف إطلاق النار.

الاتفاقية لم يتم احترامها على الأرض، والقتال استمر، المرة دي بدعم أكبر من روسيا للانفصاليين، اللي نجحوا في زيادة رقعة الأرض تحت سيطرتهم، فاضطروا أوكرانيا لقبول جولة أخرى من المفاوضات بعد ٥ أشهر من فشل الجولة الأولى.

في فبراير سنة ٢٠١٥ عقدت جولة أخرى بحضور بوتين، وبوروشينكو، وميركل، وفرانسوا هولاند.

بوروشينكو تظاهر بالقوة وقال إن العساكر الأوكرانيين في منتهى القوة ومستعدين يموتوا دفاعاً عن أرضهم، رغم إنه كان مرعوب من قرب حسم روسيا للمعركة في الشرق، وساعتها مش هيكون في عائق أمام احتلال كييف.

بينما بوتين كان عايز يتظاهر بالتفاوض دون التفاوض بالفعل، كل يوم بيعدي والوضع كما هو عليه بيقوي موقفه ويضعف موقف أوكرانيا.

وهو متمسك بدور روسيا كوسيط زيتها زي منظمة الأمن والتعاون الأوروبي OSCE المسئولة عن مراقبة الوضع على الأرض وضمان تنفيذ الاتفاق.

ميركل، اللي بتتكلم روسي بطلاقة، لاحظت إنه بيحاول يضيع وقت، ومتمسك بإنكار تدخل روسيا في الحرب، فخذته على جنب، وقالت له خلي بالك، لو مشيت من هنا من غير ما نوصل لاتفاق، هيتم توقيع عقوبات أكبر على روسيا، فلم الدور وزق معنا اليوم الله يكرمك!

بوتين اللي لا يجيد غير لغة القوة، رجع لطاولة المفاوضات، واتفقوا على بنود وقف إطلاق نار يشمل سحب الأسلحة الثقيلة، والاعتراف بالوضع الخاص لمناطق الشرق في الدستور الأوكراني، بالإضافة لحقهم في تقرير مصيرهم عن طريق انتخابات حرة نزيهة.

ودي نقطة الخلاف الأكبر بين الدولتين، روسيا شايفة إن الانتخابات لازم تتم قبل عملية نزع السلاح، وأوكرانيا شايفة إن الانتخابات لازم تتم بعد نزع السلاح وتحت إشراف من الحكومة الأوكرانية لضمان نزاهتها.

ولكن رغم الاختلاف، تم الاتفاق على وقف إطلاق النار.

حل مؤقت لأزمة يبدو أنها هتستمر طويلاً، ولكنها في نفس الوقت انتصار جبار لبوتين، مش بس على أوكرانيا، لكن على التحالف الغربي كله.

خلق نزاع محدود وتجميده، معناه حرمان أوكرانيا من الانضمام للناتو إلى الأبد.

انتصار كُـل بتوقيع روسيا وألمانيا اتفاقية لبناء خط نورد ستريم الثاني سنة ٢٠١٥.

انتصار أكد لبوتين أن الغاز أقوى من المبادئ، وأن الغرب أضعف مما يبدو، فقرر تصعيد الهجوم.

فبدأ في تنفيذ المرحلة الثانية من خطة إعادة روسيا لمجدها الإمبراطوري.

مرحلة هيتحول فيها من الدفاع، إلى الهجوم.

فاجنر

«سمن كليك ياكلك».

مثل عربي

في بداية سنة ٢٠١١ في لقاء مع جريدة The Wall Street Journal الأمريكية، الرئيس السوري بشار الأسد سُئل إذا كان يتوقع خروج مظاهرات في سوريا زي اللي خرجت في تونس ومصر ونجحت في تغيير الأنظمة. الأسد قال إن صحيح في صعوبات اقتصادية، وبطء في تنفيذ الإصلاحات السياسية في سوريا، لكنه واثق من عدم اندلاع مظاهرات مشابهة لما سمي بمظاهرات الربيع العربي؛ لأن النظام السوري معروف بمعاداته للغرب وإسرائيل، على عكس تونس ومصر اللي تعاونوا مع الغرب على حساب رضا شعوبهم. بعد أسابيع قليلة من المقابلة مجموعة من الأطفال في مدينة درعا على الحدود السورية الأردنية، كتبوا عبارات مسيئة للنظام على حائط مدرستهم.

المدينة اللي عانت من جفاف شديد خلال السنوات السابقة صُدمت في الصباح مما كتب على الحائط. الشعب يريد إسقاط النظام، أسوة بهتافات مصر وتونس، والدور عليك يا دكتور، في إشارة إلى بشار طيب العيون. الأطفال اللي أعمارهم لا تتعدى ١٥ سنة اتقبض عليهم وتعرضوا لتعذيب مؤلم داخل السجن لمدة أربعين يوم في محاولة لقتل الثورة في مهدها، فاشتعلت الثورة.

النظام حاول قمع المظاهرات السلمية بالعنف العشوائي، اللي مفرقش بين المتظاهرين وغير المتظاهرين. أستاذ العلوم السياسية آصف بيات يقول إن العنف درجات، استخدام كل درجة يؤدي إلى نتيجة مختلفة. العنف البسيط ممكن يخوف المتفرجين من المشاركة، فينجح في إبقاء الحراك صغيراً ومحدوداً. زي ما يحصل في العديد من المظاهرات داخل الدول غير الديمقراطية، اللي عادة بيقوم بها نشطاء، وأعضاء أحزاب سياسية، أو تجمعات مهنية.

الدرجة الأعلى من العنف، زي إطلاق النار البسيط غير الممنهج، زي ما حصل يوم ٢٨ يناير في بعض الأماكن، يثير غضب المتفرجين في البيوت وقد يؤدي إلى رد فعل عاطفي بالنزول.

هنا دافع الغضب هيكون أقوى من قيود الخوف، اللي هيثم ترويضه بالتفكير في أن ضرب النار محدود ومن الممكن تفاديه. الدرجة اللي بعدها من العنف هي إطلاق النار بشكل واسع على جميع المشاركين، زي ما حصل مع اعتصام الطلاب في الميدان السماوي في الصين سنة ١٩٨٩.

قمع لم ينجو منه أحد، فخاف منه الكل، ونجح في إنهاء الحركة بشكل فوري؛ لأنه خلى الناس تدرك أن النجاة في عدم المشاركة.

أما أعلى درجات العنف هي العنف العشوائي Indiscriminate violence، اللي ميفرقش بين مشارك وغير مشارك، عملاً بمبدأ الحسنه تخص، والسيئة تعم.

ده العنف اللي إسرائيل بتتبعه في حربها على غزة، سنة ٢٠٢٣، وده العنف اللي بتمارسه بشكل ممنهج في الضفة الغربية، وفي إهانتها المستمرة وتمييزها ضدهم.

العنف ده مشكلته إنه أوقات كتير يؤدي إلى نتيجة عكسية.

ما دام لا يوجد شخص آمن، بغض النظر عن سلوكه، يبقى الخيار المنطقي الوحيد، اللي ممكن يزيد من فرص النجاة، هو المقاومة.

ده اللي بيحصل في فلسطين، وده اللي حصل في سوريا.

عنف النظام العشوائي، وانتقامه من المتظاهرين بالقبض على كل سكان الأحياء والمباني التي خرجت فيها المظاهرات، زاد من انتشارها، وأسهم في تحولها من السلمية إلى العنف، خاصة في ظل وجود اختلافات دينية بين النخبة الحاكمة، التي تنتمي لمذهب العلوية الشيعي، والأغلبية السنية من المواطنين.

بعض الضباط انشقوا عن الجيش وأسسوا منظمة الجيش السوري الحر، بدعم من قطر والسعودية وتركيا، بينما النظام تلقى دعمًا من إيران، وحزب الله، بالإضافة لدعم محدود من روسيا، صاحبة قاعدة طرطوس البحرية الصغيرة، التي تعتبر أقرب لقواعد الإمداد والتموين.

بينما الولايات المتحدة وعدد من زعماء أوروبا طالبوا بتنحي الأسد في أغسطس، ووقعوا عليه عقوبات اقتصادية بالتعاون مع جامعة الدول العربية.

سنة ٢٠١٢ أوباما حاول يقنع بوتين بضرورة تنحي الأسد، فرفض وقال له الأسد ضروري للحفاظ على استقرار سوريا. رئيس الوزراء البريطاني ديفيد كامرون استضافه في الأوملباد، وحاول يقنعه بعدم حماية الأسد، وقال له اطمئن، دي مش ليبيا، إحنا مش عايزين تدخل عسكري. قال له والله ولا أنا!

وصرح له إنه غير مهتم ببقاء الأسد في السلطة.

الأسد عنده مشاكل، ولكن أديك شفت إيه اللي حصل في العراق وليبيا، لو سقط اللي هيبجي بعده هيبكون أسوأ منه! ولكن كل يوم بيعدي التوحش السوري كان بيقلل احتمالية وجود ما هو أسوأ في المستقبل. يوم ٢١ أغسطس سنة ٢٠١٣ قوات النظام ضربت حي الغوطة في ريف دمشق، الواقع تحت سيطرة الثوار، بعشرات الصواريخ المحملة بغاز السارين، غاز أعصاب أو Nerve agent ببشل الجهاز العصبي ويمنع تلقي العضلات لأوامره. الهجوم أدى لمقتل المئات، وأثار عاصفة من الاستهجان الدولي. ديفيد كامرون قال لبوتين لازم ت Condemn الأسد، وتقنعه بالتنحي، العالم مينفعش يقف ساكت أمام المجزرة، دي مش غزة.

وقال له إحنا معانا أدلة على استخدام أسلحة بيولوجية.

بوتين قال له أي أدلة؟ نحن لم ننس العراق يا ديفيد!

وبعد كده وطى صوته وقال له أنا عارف إنكم دولة عظيمة وتاريخها عظيم، وشايفين إني مش ديمقراطي زيكم.

أنا مش هجادل معاك، أنا رجل كي جي بي سابق.

أنا مكار ومخيف وعندي أنياب ومخالب.

وأنتم كلكم متربيين كويس، ومتعلمين كويس.

ولكن هل تتذكر أبو غريب يا ديفيد؟

هل شاهدت الصور؟

اللي حصل هناك كان من العصور الوسطى، وعشان تعمل اللي أنت عايزه في سوريا ده اللي هيحصل تاني!

وزير الخارجية الأمريكي الجديد وخليفة هيلاري كلينتون جون كيري قرر يحاول يقنع بوتين بنفسه، فسافر موسكو، واستنى في الطائرة ٣ ساعات لحد ما جاله الإذن بالتحرك للكرملين.

وهناك بوتين قال له أهلاً وسهلاً، نورت بيتك ومطرحك يا حبيبي، عندك لافروف قاعد هناك أهو روحوا اشتغلوا مع بعض.

!He is my guy

ورفض يتكلم معاه، وكأنه مستقل بالحديث مع وزير خارجية أمريكا، اللي أغلب رؤساء العالم يتمنوا يتصوروا جنبه، ولكن أغلب رؤساء العالم ليسوا قياصرة!

أمريكا وبريطانيا فقدوا الأمل في مشاركة روسيا وقرروا التصرف لوحدهم.

ولكن لما ديفيد كامبيرون عرض قصف سوريا للتصويت في البرلمان، خسر التصويت.
حرب العراق ما زالت في الأذهان.

بوتين قال له أنا ممتن لمعارضيك في الحزب.

فكامبيرون حب يعلي عليه وقال له خلي بالك، القوانين المناهضة للمثليين، زي قانون منع الترويج للمثلية، وقانون منع تبني المثليين للأطفال، هيسبب لك مشاكل في الأولمبياد الشتوية القادمة في سوتشي.
قال له أنا عندي مشكلة ديمغرافية، لو سمحت بزواج المثليين عدد الأطفال هيقبل!
كامبيرون محاولش يتحدى البرلمان، وصرف نظر عن التدخل العسكري في سوريا؛ لأنه محتاج دعم النواب في الاستفتاء القادم على عضوية بريطانيا في الاتحاد الأوروبي أو البريكزت.
أما أوباما فكان في موقف لا يحسد عليه.

سنة ٢٠١٢ صرح بأن الخط الأحمر للولايات المتحدة هو استخدام الأسلحة الكيميائية.
استخدام غاز الأعصاب، رغم نفي النظام، في هجوم كيميائي يعد الأكبر منذ استخدام صدام حسين للغاز ضد الأكراد سنة ١٩٨٨، تعدي علني للخط الأحمر، واختبار لقدرة وإرادة أمريكا على رد الفعل.

تراهنني أضرب نفس الراحل تاني هو هو على قفاه، قال له أراهنك!

قصف القوات الروسية، وبالأخص المطارات والقواعد الجوية، هيرد الاعتبار لأوباما، وقد يؤدي لانتصار الثوار، ولكنه في نفس الوقت هيضر مفاوضاته النووية السرية مع إيران، وقد يؤدي لنتائج غير محمودة، وغير معلومة العواقب.
ولذلك بعد إعلانه عن نيته الرد على مجازر المدنيين في سوريا، والبدا في مشاوره أعضاء الكونجرس لضمان دعمهم للتدخل، عقد صفقة غير متوقعة مع بوتين نتيجة لمحادثات كيري ولافروف.

أمريكا مش هتضرب سوريا، مقابل تعهد روسيا بتدمير مخزون الأسلحة الكيميائية في سوريا وعدم استخدامها من قبل النظام.

تراجع أوباما أضر بمصداقية الولايات المتحدة، زي ما قال نائب مستشار الرئيس للأمن القومي اليهودي أنتوني بلينكن:
القوى العظمى لا تتوعد بتهديدات لن تقدم عليها!

!Super powers don't bluff

لكن تراجع أوباما كان انتصار لبوتين، مش بس بسبب منع الولايات المتحدة من تنفيذ تهديدها، ولكن لأن التخلص من الأسلحة الكيميائية، معناه التوقف عن المطالبة بتنحي النظام المسئول عن تنفيذ الاتفاقية.
مينفحش تقضي على حماس وفي الوقت نفسه تتفاوض على استعادة الرهائن.
يجب اختيار هدف من الاتيين.

التقارب الأمريكي الروسي انتهى بضم روسيا للقرم، ورجع تاني بظهور عدو المشترك: الدولة الإسلامية في العراق والشام، المعروفة باسم داعش.

الكاتب الجميل الراحل دكتور محمد أبو الغيط، في مقاله لماذا حلت اللعنة على داعش في جريدة الشروق، بيقول إن سنة ٢٠١٢ النظام السوري أفرج عن عدد كبير من الجهاديين، ومن ضمنهم أبو محمد الجولاني، أحد أهم كوادر تنظيم القاعدة في سوريا، والمعتقل منذ سنة ٢٠٠٨ في معتقل صيدنايا الشهير.

الجولاني أول ما طلع خد بعضه وطلع على العراق، وقابل أبو بكر البغدادي، أمير دولة العراق، أحدث براندات تنظيم القاعدة، اللي أصبحت أقوى بانضمام ضباط سابقين في جيش صدام حسين.

بعد نجاح أمريكا في اغتيال بن لادن داخل مخبأه في باكستان سنة ٢٠١١، تولى قيادة تنظيم القاعدة من بعده أيمن الظواهري، طبيب مصري من المعادي، أسس أول خلية سرية لقلب نظام الحكم وهو عنده ١٥ سنة!

سافر أفغانستان بعد القبض عليه من ضمن المتهمين في قضية اغتيال السادات سنة ١٩٨١، والإفراج عنه سنة ١٩٨٤، وهناك

اتعرف على بن لادن وأصبح الرجل الثاني في تنظيمه الجديد.

سنة ٢٠١٢ عملاً بتوجيهات الظواهري، وبعد ما كان المقاتلين ويتم تهريبهم من سوريا للعراق لقتال القوات الأمريكية، المقاتلين بقى يتم تهريبهم من العراق إلى سوريا للمشاركة في الثورة السورية.

الجولاني خد مال وسلاح ومقاتلين من البغدادي، ورجع سوريا وأسس جبهة النصر للجهاد ضد النظام السوري.

وطبقاً لأبو الغيط اختيار الاسم دعوة لانضمام المقاتلين الأجانب من العرب، والشيشان، والأفغان، والأوروبيين أيضاً، باعتبار أنهم المهاجرون بينما السوريون هم الأنصار.

الجبهة نجحت في تحقيق انتصارات سريعة بسبب استخدامها المتكرر للتفجيرات الانتحارية، فالبغدادي استغل نجاحها وأعلن عن تأسيس دولة العراق والشام (داعش) في أبريل سنة ٢٠١٤.

الظواهري أمر بتك سوريا للجولاني، على أن يتولى البغدادي أمر العراق، لكن البغدادي تجاهل الأمر، وأعلن الحرب على الجبهة، وعلى القاعدة، وعلى النظام.

العالم شاهد برعب التمدد السريع لداعش في العراق وسوريا.

هجوم كاسح أشبه ببليتزكريج هتلر مكنها من السيطرة على عدد من حقول الغاز والبتترول، وفر لها دخل بملايين الدولارات. وحشيتها في التعامل مع الأعداء الخارجيين، من جنود الجبهة، والنظام، والثوار العلمانيين، أو الأعداء الداخليين، من مخالفين الشريعة وقوانين الدولة الصارمة، أدى لإلقاء الرعب في قلوب المتابعين، واستسلام الآلاف خوفاً منهم من قبل مواجهتهم.

العالم نسي اللي حصل في أوكرانيا، وأمريكا اللي كان هدفها التخلص من الأسد، أصبحت الأولوية القصوى في نظرها هي القضاء على داعش.

في نهاية سنة ٢٠١٤ داعش نجحت في السيطرة على ثلث مساحة سوريا، و٤٠% من مساحة العراق.

في سبتمبر الولايات المتحدة قصفت مواقع التنظيم، ودعمت الأكراد على الحدود السورية التركية لمواجهتهم، اللي قاتلوا داعش باسم القوات الديمقراطية السورية.

بشار الأسد طلب من بوتين التدخل، فقال له يا سلام، من عينيا!

أمريكا بتحاول تعزل روسيا دولياً، والوجود في سوريا هو أكبر صفقة ممكن يوجهها للنظام الأمريكي، اللي لازم يعرف أن روسيا أكبر من الاحتواء.

الجيش الروسي قصف مواقع لداعش، وفي نفس الوقت قصف مواقع للجيش الحر بعد ما تحول لمظلة واسعة وغير منظمة.

ألمانيا وفرنسا حاولوا يقنعوه بعدم ضرب أي أهداف مدنية أو تابعة للقوات الثورية، فأكد أنه بيستهدف الإرهابيين فقط، وبما أن حلب مليانة إرهابيين شيشان، محتاج يقضي عليهم في سوريا قبل ما يرجعوا له روسيا.

ولكن السلاح الروسي الأخطر في سوريا، لم يكن القوات الجوية، وإنما قوة من المرتزقة بدأت في شرق أوكرانيا، ثم أصبحت أحد أشهر الفرق القتالية في العالم: فاجنر.

ديميتري أوتكين ضابط سابق في القوات الخاصة، والمخابرات العسكرية الروسية، كون فرقة قتالية من المرتزقة، أو القتل المأجورين، للمشاركة في الحرب الانفصالية في شرق أوكرانيا.

أوتكين معروف بميوله النازية زي ما كان واضح من وشم قوات الـ SS على رقبتة، اللي بيرمز لقوات الـ Schutzstaffel أو وحدة الحماية المرعبة، اللي بدأت بفريق من حراس هتلر الشخصيين لأشرس أداة قمع في الحرب العالمية الثانية بقيادة هينريك هيملر.

ميوله النازية ظهرت أيضاً في اختيار اسمه الحركي: فاجنر، على اسم الموسيقار ريتشارد فاجنر، موسيقار هتلر المفضل.

الفرقة أسسها بعد عودته من مهمة سرية في سوريا انتهت بالفشل في مواجهة داعش سنة ٢٠١٤، بعدها رجع روسيا وأسس فرقة للمشاركة في حرب شرق أوكرانيا، اشتهرت باسمه الحركي، وشاركت في غزو القرم مع الرجال الخضر الصغار، بالمشاركة مع فرق ثانية كثير بدرجات متفاوتة من القرب للكرملين.

ظهر الخلاف بينهم وبين الكرملين بعد توقيع اتفاقية مينسك الثانية في ٢٠١٥. بعض الفرق المشاركة في القتال، وبالأخص الفرق الروسية، رفضوا وقف إطلاق النار، وبعضهم تهادى لدرجة الهجوم على بوتين لتقصيره في مصلحة روسيا!

فتم توكيل فاجنر بالقضاء على قادة الفرق المتمردين، بالإضافة لقادة الفرق من أصحاب الشعبية الحقيقية في الشرق، اللي ممكن يعصوا أوامر الكرملين أو يسببوا له مشاكل في المستقبل.

يقتل المرء ويسجن ليس لما فعله، ولكن لما يمكن أن يفعله.

فاجنر أثبتت كفاءة عالية في القتال، وولاء في التنفيذ، خلوها مجموعة المرتزقة المفضلة للكرملين.

بنهاية سنة ٢٠١٥ بعد قرار التدخل في سوريا، الكرملين كلف فاجنر مهمة حماية نظام بشار الأسد، واستعادة حقول البترول والغاز من داعش.

استخدام فاجنر يحمي بوتين من التكلفة السياسية داخل روسيا لمقتل جنود في حرب بعيدة لا تمت للمجتمع الروسي بصلة. وفي نفس الوقت يساعده في تخطي العقوبات الاقتصادية الأمريكية، عن طريق عمل كيان منفصل عن الحكومة الروسية، يقدر يتعاقد ويمارس نشاط تجاري بحرية.

فاجنر في سوريا اشتهرت كقوة متوحشة، بتقتل الأعداء، والهاربين بلا رحمة، وبتصور مشاهد القتل والتعذيب وترفعهم على الإنترنت لإلقاء الرعب في القلوب.

وهما أن عدد كبير من أعضائها ضباط وجنود سابقين حبوا يستغلوا خبراتهم العسكرية لكسب حوالي ٣٠٠٠ دولار شهرياً على الجبهة، حققوا انتصارات سريعة وحاسمة، وأعادوا للنظام السوري عدد كبير من الحقول المهمة.

وهما أن النظام لا يملك ما يكفي من النقد لتغطية تكلفة الحملة العسكرية، تم التعاقد مع شركة Evro Polis، وهي إحدى الشركات الوهمية التابعة لفاجنر، على حماية حقول النفط، مقابل الحصول على ٢٥% من الإنتاج.

وبعد فترة تم منح الشركة حق الحفر في أرض مساحتها حوالي ١٢٠٠٠ ميل في البر والبحر!

الشركة واحدة من ضمن أكثر من ٦٤ شركة تابعة لفاجنر، كلها شركات وهمية هدفها التهرب من العقوبات الأمريكية، والتغطية على سير الأموال من وإلى الكرملين، اللي دعم فاجنر بالمعدات والأسلحة، بما فيهم الدبابات، وسمح لها باستخدام البنية التحتية، زي طائرات النقل والقواعد العسكرية الروسية.

الوجود الروسي في سوريا، بالإضافة للوجود الأمريكي، قلبوا ميزان القوة ضد داعش، اللي اختفت بسرعة، على الأقل ظاهرياً، زي ما ظهرت بسرعة.

بوتين نجح في ضرب ثلاث عصافير بحجر واحد:

حماية بشار وزيادة نفوذ روسيا الدولي عن طريق الحفاظ على موضع قدم في الشرق الأوسط.

زيادة الطلب على الأسلحة الروسية عن طريق عرضها بشكل عملي في سوريا.

خلق طلب من الحكومات السلطوية الراغبة في الحماية لخدمات فاجنر بعد إثبات فاعليتها.

فقدت خدمات أمنية للدول اللي فيها مزيج مغربي من نزاعات قوية وحكومات ضعيفة، مقابل استغلال الموارد الطبيعية للدول كبديل عن النقد.

فخذت حقوق مناجم ذهب في السودان، وإفريقيا الوسطى، وقدمت خدمات في أربع قارات، بعد التعاقد مع الرئيس مادورو في فنزويلا.

بيزنس موديل رائع حقق مكاسب بمليارات للكرملين، ونفوذ سياسي لا يقدر بثمن.

نفوذ سيصل إلى حد التدخل في اختيار رئيس أقوى دولة في العالم.

دونالد ترامب

«أعتقد أن بوتين سيواصل إعادة بناء الإمبراطورية الروسية، ليس لديه أي احترام لأوباما أو الولايات المتحدة».

دونالد ترامب

سنة ٢٠١٦ الانتخابات الأمريكية كانت على صفيح ساخن.

دونالد ترامب، رجل الأعمال فائق الثراء، الي شهرته في عالم العقارات أكبر من قصر الكبابجي، فاز بترشيح الحزب الجمهوري.

بينما هيلاري كلينتون، السيدة الأولى، ووزيرة الخارجية السابقة، فازت بترشيح الحزب الديمقراطي.

الفرصة سنحت لبوتين للانتقام من هيلاري كلينتون ومن الولايات المتحدة بوجه عام، على محاولة تهمة روسيا، واستغلال الديمقراطية كحجة لتغيير الأنظمة.

عملاً بمقولة طبياخ السم لازم يذوقه، بوتين قرر استخدام سلاح الديمقراطية ضد أمريكا.

الشعب هو من يختار في الأنظمة الديمقراطية، ولا يوجد أسهل من التأثير في الشعوب.

في بداية سنة ٢٠١٦ تم عقد اجتماع سري بين بوتين ورؤساء الأجهزة الأمنية بمن فيهم وزير الدفاع، اتفقوا فيه على دعم ترامب بكل قوة.

انتخابه هيؤدي إلى إضعاف موقف الولايات المتحدة في الخارج، بسبب زيادة الانقسام داخل المجتمع الأمريكي، وآراءه المعادية لحلف الناتو، وانشغال أمريكا بالخارج على حساب الداخل.

قرار كبير زي ده بالتأثير على نتيجة أهم انتخابات في العالم مكنش هيحصل لولا ثقة روسيا المتناهية في ترامب، الي علاقته بروسيا وبالكى جي بي تمتد لأكثر من أربعين سنة!

ترامب كبر لقي والده يملك واحدة من أنجح شركات الإنشاءات والتطوير العقاري في نيويورك، اشتهرت بتطوير إسكان الطبقة الوسطى في ضواحي كوينز وبروكلين.

ترامب الي يملك فهم فطري عميق لعالم الإعلام والثروة، عرف إن الفلوس الحقيقية في الإسكان الفخم، والمناطق الغالية، فقرر دخول منطقة مانهاتن، عاصمة المال والإعلام على الساحل الشرقي للولايات المتحدة، الي فيها شارع وول ستريت الشهير.

أول مشروع له كان تطوير فندق كومودور القديم بجوار محطة جراندي سنترال وتحويله إلى فندق جراندي حياة الحديث الفاخر.

مشروع ضخم في أحد أرقى أحياء نيويورك أسهم في تقديمه على الساحة كرجل أعمال سنه صغير، لكن طموحه كبير. وحطه لتاني مرة على رادار الكي جي بي.

في كتاب

American Kompromat: How the KGB Cultivated Donald Trump, and Related Tales of Sex, Greed, Power, and Treachery.

الصحفي كريج أونجر يقول إن أول مرة ترامب يظهر على رادار الكي جي بي كانت بسبب زواجه من عارضة الأزياء التشيكية إيفانا زيلينكوفا سنة ١٩٧٧.

رجل غني، ويحظى بشهرة في نيويورك، ولا يخجل من التصريح عن رغبته بالترشح في انتخابات الرئاسة، لازم يتحط تحت المراقبة؛ لأنه مؤثر، وقد يزداد تأثيراً مع مرور الأيام.

المخابرات التشيكية، المتعاونة عن قرب مع الكي جي بي المهتم بما يحدث على الساحة الأمريكية، فتحت له ملف وبقى

تحت النظر.

المرة الثانية التي ظهر على رادار الكي جي بي كانت أثناء شرائه أجهزة تلفزيون لتجهيز فندق جراند حياة سنة ١٩٨٧، المحل يملكه عميل للكي جي بي كتب تقرير عن ترامب كرجل أعمال صاعد وبقوة ويجب العمل على بناء علاقة معه إن لم يكن للتعجيد، فللتأثير، وهذا أضعف الإيمان.

سفير الاتحاد السوفيتي في واشنطن دعاه لزيارة موسكو لمناقشة تطوير سلسلة من الفنادق الفاخرة. ترامب قبل الدعوة، وهناك الكي جي بي كوّن عنه تحليل نفسي شامل، وصفه بأنه شخص غير متزن نفسيًا، يعاني من عقدة نقص، ويستجيب للإطراء والتملق، مما يعني سهولة التأثير عليه.

ويرجح أنهم حصلوا على بعض المواد المحرجة أثناء زيارته، محدش عارف هي إيه على وجه التحديد، ولكن بعد اللي حصل للنائب العام الروسي في نهاية التسعينيات، من الممكن تخيل هي إيه وحصلوا عليها إزاي.

لكن أمريكا مش روسيا، والشريط اللي ممكن يعمل فضيحة هنا، ممكن يبقى وسام شرف هناك! ولذلك الكي جي بي ركز أكثر على التلاعب بترامب عن طريق تملقه وزرع أفكار تخدم مصلحة روسيا في ذهنه بشكل خفي. يعني الأهم من مصيدة العسل، هو وضع السم في العسل.

لما عرفوا إنه بيفكر يترشح للرئاسة في المستقبل كبروا الفكرة في دماغه عن طريق معاونيهم وشبكة عملائهم اللي خلوه ميشكش للحظة إنه بيتعامل مع الجهاز، وقالوا له إنه لازم يترشح لأنهم معجبين جدًا بشخصيته، وعارفين إن اللي زيه فقط همًا اللي ممكن يغيروا العالم!

ترامب رجع من الرحلة مقتنع إنه محتاج يؤجل مشروع بناء سلسلة للفنادق بسبب الفوضى اللي شافها في الاتحاد، لكنه في نفس الوقت رجع مقتنع إنه لازم يبقى رئيس جمهورية!

فبدأ في تنظيم حملته الانتخابية وعمل مؤتمرات في بورتسموث ونيوهامبشير، وعمل إعلان بطول صفحة كاملة في جريدة نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، وبوسطن جلوب، بيقول فيما معناه إن السياسة الخارجية الأمريكية محتاجة تنشف شوية، وأن أمريكا بيتم استغلالها من اليابان، وباقي حلفائها؛ ولذلك يجب عدم التزام أمريكا بالدفاع عن الدول اللي مش قادرة تدافع عن نفسها، في رأي ينافي التزامات أمريكا تجاه حلف الناتو بشكل تام، طبقًا لزام الحلف بيضر أمريكا أكثر ما بينفعها.

رجال الكي جي بي شافوا الإعلان مبقوش مصدقين أنفسهم!

اضرب كمان عايزين نتوب!

ده مش معناه إنهم كانوا مخططين إنه هيبقى رئيس، ولكن معناه رغبتهم في الاستعداد، والمساعدة في قدومه كرئيس.

الكي جي بي زي أي جهاز مخبرات في العالم بيرمي الشبك من بدري، ويستنى يشوف السمك اللي هيطلع معاه.

في اللي بيطلع بساريا، وفي اللي بيكبروا ويبقوا حيتان زي ترامب.

الفرصة لتوطيد العلاقة بين ترامب وروسيا ظهرت سنة ١٩٩٦، مع مروره بضائقة مالية شديدة وقضايا إفلاس، روسيا ظهرت كمصدر ممتاز للتمويل بعد سقوط الاتحاد وظهور الأوليباركي، فأعيدت إحياء العلاقة، واستأنفت الزيارات، في نفس الوقت اللي غير فيه ترامب نموذج أعماله من البناء، وجمع كل ما يتطلبه من استثمارات، لترخيص العلامة التجارية فقط، والبناء باستخدام أموال الغير.

ترامب أدرك من صغره إن الشهرة بتجيب فلوس، والفلوس بتجيب شهرة.

زي ما قال رجل الأعمال الكندي، وعضو برنامج شارك تانك، كيفن أوليري:

Popularity lowers the cost of capital.

الشهرة تخفض من تكلفة رأس المال ومخاطرة الاستثمار.

وأكد على كلامه بالإشارة لأن إيلون ماسك لا يخصص ميزانية تسويقية لتسلا على عكس باقي شركات تصنيع السيارات؛ لأن

عنده فوق التمانين مليون متابع على تويتر! الرقم ده ارتفع في نهاية ٢٠٢٣ ليصل إلى أكثر من ١٦٦ مليون متابع، بعد شراءه لتويتر وتحويله لمنصة إكس.

الفلسفة دي هي اللي خلت ترامب سنة ١٩٩٦، نفس السنة اللي عانى فيها ماليًا وسجلت فيها شركاته خسارة بمبلغ ٩٦٠ مليون دولار، اشترى منظمة Miss Universe المسئولة عن اختيار ملكة جمال العالم، وملكة جمال الولايات المتحدة، وملكة جمال الولايات المتحدة للمراهقين.

المنظمة كانت فرصة لزيادة شعبيته، وبناء علاقات في دول معينة عن طريق دعم مرشحيها، واختيار مكان تنظيم الحفل النهائي.

جدير بالذكر هنا إن منظمة Miss USA و Miss Universe من صنع شركة كاتالينا لملايس السباحة.

سنة ١٩٥١ الفائزة بلقب Miss America رفضت تتصور وهي لابسة مايوه أثناء القيام بجولات ترويجية.

الراعي الرسمي شركة كاتالينا حسست بالإهانة، فعملت مسابقات منافسة للمنافسة الرئيسية لضمان عدم حدوث ذلك في المستقبل.

وبالفعل، كل سنة بيتم بعناية مكان تنظيم الحفل النهائي في أماكن استوائية، زي أمريكا اللاتينية، لعرض المتقدمات بملايس السباحة والمتاجرة بأجسادهم أمام أعين المتفرجين الجائعة.

لما اتسأل عن طريقة إدارته للمنظمة قال:

The bathing suits got smaller and the heels got higher and the ratings went up

المايوهات صغرت، والكعوب عليت، والمشاهدات ارتفعت!

ولكن فجأة وعلى غير العادة، سنة ٢٠١٣ ترامب قرر تنظيم حفل اختيار ملكة جمال العالم في روسيا.

جدير بالذكر إن المشاهدات قلت مزادتش.

سنة ١٩٨٤ المشاهدات في أمريكا كانت ٣٥ مليون، نزلوا ل ١٢ مليون سنة ١٩٩٧، ووصلوا ل ٤ مليون فقط سنة ٢٠١٣.

لكنه مكنتش مهتم غير بمشاهدة واحدة فقط: مشاهدة فلاديمير بوتين.

الحفل اتعرض دفع تكلفة تنظيمه الملياردير الروسي أراس أجالاروف، وهناك ترامب اتكلم بإعجاب كبير عن بوتين، وأشاد بقدرته على قيادة روسيا لحد ما بقى أحد أهم زعماء العالم.

بوتين محضرش الحفل، ولا قابله بعدها، ولكن كل كلمة اتسجلت، وكل حركة اتشافت، ومبقاش في أي تردد بعدها بسنوات قليلة إن مصلحة روسيا في انتخابه.

مصلحة إيه ده أنت لقطه!

سنة ٢٠١٦، في الذكرى الخامسة والعشرين لحل الاتحاد السوفيتي، بدأت خطة الكرملين لدعم انتخاب ترامب.

الخطة شملت عمليتين حصلوا بالتوازي، الأولى بقيادة المخابرات العسكرية الروسية GRU، والثانية بقيادة الرجل الأول في فاجنز: يفجينى بريغوجين.

المخابرات العسكرية جمعت فريق كبير من الهاكرز لاختراق حسابات المؤتمر الوطني للحزب الديمقراطي، المسئول عن انتخاب مرشح الحزب.

الهاكرز قاموا بهجمات Phishing أرسلوا فيها لينكات على البريد الإلكتروني وحسابات وسائل التواصل الاجتماعي لأعضاء المؤتمر، وأعضاء حملة كلينتون، اللي يدوس عليها، جهازه يتم اختراقه من غير ولا حس ولا خبر.

باستخدام تقنية تتبّع الضغط على أزرار لوحة المفاتيح يقدروا يعرفوا كلماتهم السرية، ويحملوا كل الوثائق والمراسلات السرية.

أكثر من عشرين ألف إيميل اتسربوا بالتعاون مع موقع ويكيليكس، كشفوا انحياز بعض مسئولى الحزب الديمقراطي لهيلاري كلينتون، على حساب اليهودي اليساري العجوز بيرني ساندرز.

الإيميلات كشفت تحضير قائمة بكبار المتبرعين للحزب لترشيحهم في مجالس الإدارة، في دليل على أن المناصب تُمنح مقابل المال وليس الكفاءة.

الإيميلات مكنت فيها قنابل صادمة، ولكنها تسببت في إحراج لكلينتون، وأضرت بشعبيتها وسط محبي بيرني ساندرز، فخرت دعم بعضهم أمام ترامب.

أما العملية الثانية فكانت بقيادة أحد أهم رجال الأعمال في روسيا الحديثة يفجيني بريغوجين. ابن شوارع لينينغراد الموحشة، اتقبض عليه سنة ١٩٨١ بتهمة السكر، والنصب، والسرقعة، واتحكم عليه وهو عنده ٢٠ سنة بالسجن لمدة ١٣ سنة.

وبعد الإفراج عنه في بداية التسعينيات فتح سلسلة أكشاك هوت دوج، كسبوا فدخل هو وشركاؤه على سوق السوبر ماركت، ومن بعدها على المطاعم الفاخرة.

هناك اتعرف على نائب العمدة اللي بقى زبون دائم، واعتمد عليه في تعهدات أعياد الميلاد، ولما ربنا كرمه وبقي رئيس جمهورية استضاف زعماء الدول زي بوش وشيرك في مطعمه، فعرف باسم Putin's Chef كناية عن قربه منه وثقته فيه.

وكمكافأة حصل على عقود توريد غذاء للجيش والمدارس الحكومية، فدخل في دائرة المليارديرات. العقود المليارية سمحت بتحويل جزء من الأرباح لصالح عمليات الكرملين، اللي كسب ثقة بوتين على مدار السنين في قدرته على تنفيذها بكفاءة وسرية.

سنة ٢٠١٣ بريغوجين أسس ما يعرف بوكالة بحوث الإنترنت: IRA: Internet Research Agency. وكالة عينت مئات من الهاكرز وجمعتهم فيما يسمى ب Troll farm أو مزرعة متصيدين رقميين، هدفهم إثارة الجدل، ونشر نظريات المؤامرة والأخبار الكاذبة، لتأجيج حالة الانقسام المجتمعي بهدف التأثير والإضعاف السياسي. الوكالة اشتغلت سنة ٢٠١٦ على عمل حسابات وهمية على وسائل التواصل الاجتماعي والتظاهر بأنهم أمريكيان لمهاجمة كلينتون.

في تحقيق لاحق لوكالة الأمن القومي الأمريكية، الحملة الروسية نجحت في الوصول ل ١٢٦ مليون حساب أمريكي على الفيسبوك فقط، عن طريق دفع إعلانات واستغلال لوغاريتيمات الموقع اللي بتروج المحتوى المثير للجدل؛ لأنه الأكثر قدرة على عمل تفاعل.

النتيجة كانت مفاجأة العالم بأكمله بانتخاب ترامب، اللي اتشهر كنجم تلفزيون الواقع، وظهر في حلبة مصارعة المحترفين WWE، واستضافته لبرنامج المتدرب، كرئيس للولايات المتحدة.

هل ده معناه إنه كسب بسبب روسيا؟

كثير من الآراء شافين إن التفسير ده فيه نوع من المبالغة؛ لأن حملته نجحت في استخدام وسائل التواصل الاجتماعي بشكل فعال، بينما هيلاري لم تتعلم من أوباما.

رئيس حملته، بول مانافورت، اللي كان المستشار السياسي ليانوكوفيتش، تواصل مع فيسبوك وقال لهم إنه حط ميزانية إعلانات بقيمة ١٠٠ مليون دولار، وطلب وجود موظفين من عندهم داخل مقر الحملة.

وعمل مناقصات يومية لوكالات الإعلانات لاختيار الفائز بالإعلان في كل منطقة انتخابية بناء على نتائج إعلاناته الأولية.

الوكالة صاحبة البوست اللي يجيب أعلى تفاعل هي اللي بتاخذ العقد.

كل ده بالإضافة للتغييرات المجتمعية، وال Clinton Fatigue أو الإرهاق من براند كلينتون السياسية منذ التسعينيات، بالإضافة لشخصية ترامب الموهوبة في معرفة كيفية جذب انتباه الإعلام، اللي ممكن يقللوا من حجم المفاجأة لانتصاره.

لكن أستاذة الإعلام بجامعة بنسلفانيا Kathleen Hall Jamieson، المتخصصة في الإعلام السياسي، لها رأي ثاني.

في كتاب:

Cyberwar: How Russian Hackers and Trolls Helped Elect a President: What We Don't, Can't, and Do

.Know

كاثلين بتقول إن الأرقام ترجح بشكل أقرب ما يكون للتأكيد أن روسيا هي السبب وراء انتخاب ترامب، ليس عن طريق التلاعب، ولكن عن طريق الإقناع.

كلينتون حصلت على حوالي ٢.٩ مليون صوت أكثر من ترامب، ومع ذلك خسرت؛ لأن الولايات المتحدة، عاصمة الديمقراطية في العالم، لا تعتمد على الانتخاب المباشر.

هناك مجمع انتخابي أو Electoral College فيه ممثلين عن كل ولاية طبقاً لعدد ممثليها في الكونجرس، وعادة الفائز بأكبر عدد من الأصوات في الولاية هو اللي يباخذ أصوات ممثلي المجمع.

واللي بيكسب ٢٧٠ صوت من أصل ٥٣٨ هو اللي بيكسب.

ترامب نجح في الحصول على ٣٠٤ صوت في المجمع الانتخابي، مقابل ٢٢٧ لكلينتون، الإجمالي أقل من ٥٣٨ لأن في سبعة كانوا عارفين إن الموضوع خلص، فصوتوا لناس خارج المنافسة زي بيرني ساندرز وكولين باول.

ترامب كسب أصوات في ثلاث ولايات ضمن ما يسمى بالحزام الأزرق نسبة لتصويتهم الدائم للحزب الديمقراطي، وهما بنسلفانيا، ومينيسوتا، وويسكونسين.

الثلاث ولايات دول لوحدهم منحوه ٤٦ صوت في المجمع الانتخابي، كان ممكن يحسموا النتيجة لصالح كلينتون.

ولكن إيه علاقة الثلاث ولايات دول بالتدخل الروسي؟

المخابرات العسكرية نجحت في الحصول إلى جانب قاعدة الإيميلات على بيانات التصويت الخاصة بحملة هيلاري كلينتون. بيانات وضحت وجود عدد كبير من الناخبين الديمقراطيين اللي ييفكروا في التصويت لمرشح آخر، سواء كان ترامب أو شخص مستقل.

توضيح مناطق تمركز الناخبين دول سهّل عملية استهدافهم بالحملة الدعائية الروسية، اللي ركزت على خفض عدد الناخبين السود لصالح هيلاري.

دعايا شملت أكاذيب فجّة، زي ليه تقفوا في طابور لما ممكن تصوتوا من البيت؟

عشان يضيع عليهم يوم التصويت.

أو ليه تصوّت لترامب أو هيلاري لما ممكن تصوّت لحد تالت؟ عشان صوتهم يضيع عليها.

الفئة الأكثر عرضة للتأثر بالدعاية الانتخابية هم الناخبين اللي لا ينتمون لأي من الحزبين، وبالتالي لم يحسموا قرارهم.

لكن اللي أخذ قراره ده صعب يغيره.

في الثلاث ولايات سابقة الذكر حوالي ٦٦٠ ألف ناخب صوتوا لصالح مرشح ثالث.

ترامب كسب فيهم بفارق حوالي ٨٠ ألف صوت، حوالي ١٢% من عدد الأصوات اللي مراحتش لأي من الحزبين.

فهل ممكن يكون التدخل الروسي هو السبب في إزالة الأصوات دي من كلينتون، حتى وإن لم تذهب لترامب؟

طبقاً لكاثلين، نعم، ممكن جدّاً.

الانتخابات المؤثرة على حوالي سبعة ونصف مليار شخص على كوكب الأرض، حسمها ٨٠ ألف، حركتهم إرادة شخص واحد فقط على بعد آلاف الأميال.

انتخاب ترامب تسبب في فرحة عارمة في روسيا، وأثار عاصفة من التحقيقات في الولايات المتحدة لكشف سر العلاقة بين ترامب والكرملين.

تحقيقات ال FBI بدأت من قبل نهاية الحملة، أدت لاستقالة بول مانافورت بعد تسريب علاقته بيانوكوفيتش، بالإضافة لعدد من معاونيه لم يفصحوا عن مقابلاتهم لعدد من المسؤولين الروس.

مانافورت اتحكم عليه بالسجن لمدة سبع سنين ونصف بسبب قائمة اتهامات شملت تلاعب مالي وتهرب ضريبي، وبعدها على غير العادة، رجل الظلام خرج للنور.

بوتين نفى التدخل في الانتخابات بأي شكل، ولكنه اعترف برغبته في فوز ترامب؛ لأنه شافه الأفضل لمصلحة روسيا. ويرجح أنه هو السبب وراء تسريب لقاءات حملة ترامب برجال من الكرملين أثناء الحملة، رغم تعوده على العمل في الخفاء، رغبة منه في توجيه صفة لوجه أوباما، اللي حب يوري له إنه قادر على التحكم في اللي هيقتعد على كرسيه في البيت الأبيض.

روسيا قوة إقليمية؟

مين كسب ترامب؟

مين طبق نفس العملية في استفتاء البريكزت في بريطانيا، ونجح في إخراجها من الاتحاد الأوروبي؟

مين حبيب بابا؟

نجاح ساحق وراء الآخر جعله رمز الصمود في وجه الغرب المتعجرف ومحل إعجاب الكثيرين بالأخص من سكان وزعماء العالم النامي، ولكن على سيرة المهرجين، بينما هو منهمك في التلاعب بالولايات المتحدة، وبريطانيا، أحد المهرجين كان في طريقه للفوز بانتخابات أوكرانيا.

مهرج محترف اعتاد إضحاك الملايين ومكنش عارف إنه على موعد مع الدموع.

اليهودي النازي

«سندافع عن أنفسنا، حين تهاجمون، سوف ترون وجوهنا، وليس ظهورنا».

فولوديمير زيلينسكي

يوم ٢٥ يناير سنة ١٩٧٨ اتولد الرجل الذي يملك العالم في أوكرانيا.

فولوديمير، وهو النطق الأوكراني لفلاديمير، ابن وحيد لأسرة يهودية مثقفة في مدينة كريفى ريه الصناعية الأوكرانية. أبوه أستاذ حاسب آلي في الجامعة، وأمّه مهندسة، عايشين في حي أو كفارتال ٩٥، في أحد أهم المناطق الصناعية على نهر الدنيرو في أوكرانيا.

والمناطق الصناعية تحتاج عمال كثير، والعمال محتاجين أكل، وترفيه!

وزيلينسكي من صغره مؤدي بالفطرة.

يحب الأطفال، والأطفال يحبوه.

وأظهر اهتمام مبكر بالموسيقى وبدأ في تعلم عزف البيانو.

أبوه اتخض من اهتمامات ابنه المثيرة للقلق!

يا بني افهم!

البيت اللي مفيهوش صايح حقه ضايح!

هنعمل إيه بالبيانو؟! لما يجوا يبتوك في الشارع هتعزف لهم بيتهوفن؟!

فاشترك له في فرق المصارعة وكمال الأجسام.

عايزك كرم جابر، مش كاظم الساهر!

زيلينسكي اشتغل على الباي والتراي، ولكنه في نفس الوقت اشترك في مسرح المدرسة، وأظهر اهتمام بالرقص والغناء.

المشكلة إن صوته عميق لا يصلح للغناء، فعمل زي أمير عيد ولقى نفسه في الكتابة، والكوميديا.

في كتاب:

Humor Seriously: Why Humor is a Secret Weapon in Business and Life

جينيفر إيكر وناعومي باجدوناس يقولوا إن دراسات متعددة ربطت حس الفكاهة، سواء بالقدرة على توليدها، أو مجرد تقديرها، بدرجات مختلفة من الذكاء.

اللي بيضحك، واللي بيضحك، الاتنين بنشوفهم أذكيا وعندهم قدرة أعلى على القيادة.

وده ظهر في زيلينسكي اللي بقى قائد مجموعته، وفي نفس الوقت أظهر تفوق ملحوظ في المدرسة.

وعلى الرغم من مهاراته الفنية، وهو عنده ١٦ سنة كان مركز في السياسة.

مهتم بالسياسة الدولية وعايز يدخل السلك الدبلوماسي بعد التخرج، فبذل جهد كبير في دراسة اللغة الإنجليزية لدرجة إنه

كسب مسابقة أهله للحصول على منحة كاملة للدراسة في إسرائيل، لكن والده رفض.

فقرر يقدم على معهد السياسة الدولية في موسكو، أو في كييف، ولكن الاتنين محتاجين حجم مهول من العلاقات والرشاوي،

فرضي بنصبيه، وقدم على معهد الاقتصاد في كريفى ريه.

زيلينسكي درس قانون واقتصاد دولي، وتخرج بشهادة في المحاماة، ولكنه مشتغلش بيها، وقرر التفرغ للأنشطة الطلابية.

هل قرأ فولوديمير زيلينسكي كتاب طاهر المعتز بالله الحركة الطلابية في الجامعة الأمريكية؟

أشك، مكنش حصل اللي حصل.

وهو عنده ١٧ سنة زيلينسكي شارك مع مجموعة من أصدقائه في مسابقة KVN أو نادي المضحكين والمبدعين الصغار.

سنة ١٩٦١ في موجة التحرر الوجيهة التي مر بها الاتحاد السوفيتي بعد وفاة ستالين، تم عرض برنامج أمسية الأسئلة المضحكة لأول مرة، وكان عبارة عن مجموعة من الفقرات الكوميديّة والغنائية.

ولكن سنة ١٩٧١ تم حظر البرنامج باعتبار إن الفكاهة والسخرية أنشطة غير سوفيتية Anti soviet، وفضل ممنوع من العرض لحد عودته بعد إصلاحات غورباتشوف كمسابقة فنية على مستوى الاتحاد السوفيتي كله. زيلينسكي كوّن فرقة مع أصدقائه للمشاركة في البرنامج، وسموها كفارتال ٩٥ على اسم منطقتهم، وقاد المجموعة ككاتب، وممثل، ومخرج رقصات.

الفريق قدم عروض في موسكو وحقق نجاح مبهر، فاتعرض على زيلينسكي وظيفة كمحرر في فريق المسابقة ولكنه رفض، وقال إنه محبش يسبب أصدقائه، وفي نفس الوقت محبش يفضل في موسكو، التي الواحد ممكن يفضل يخبط على الباب فيها وميفتحش، مش بس على الجار، ولكن على الحياة عموماً! فرجع مع فرقته أوكرانيا ونظموا مجموعة من العروض الناجحة، أدت لانضمامه لفريق قناة ١+١ الأوكرانية الشهيرة سنة ٢٠٠٣.

فاستمر في التألّق، ليس فقط كمؤدي ولكن كمنتج، لحد ما انتقل لأهم وأكبر قناة في أوكرانيا بحوالي ٢٥% من المشاهدات، قناة Inter TV، وأصبح رئيس الإنتاج فيها سنة ٢٠١٠. جهد جبار في الكتابة والتمثيل والإنتاج خلوه من أشهر وأنجح الشخصيات الإعلامية في أوكرانيا، وكما هو معتاد، الإعلام اصطدم بالسياسة.

سنة ٢٠١٤ أعضاء من فرقة زيلينسكي شاركوا في بعض المظاهرات، ولكنه مراحش الميدان إطلاقاً، واكتفى بالتبرع بمليون هريفنيا، أقل بقليل من ٢٧ ألف دولار، للجيش الأوكراني، بالإضافة لسعيه لذكر أبطاله في نهاية كل اسكتش وكل عرض. وبعد ضم القرم شعبية زيلينسكي بقت في السماء، واسكتشات فرقته بقت نوع من أنواع العلاج النفسي الجماعي أو ال Collective Therapy لوطن مهزوم.

حوالي ٨٥% من الأوكرانيين اتفرجوا على عرض من عروضه، بعد تنظيمه عروض في مدن أوكرانيا المختلفة، قدر يشوف فيها البلد خارج العاصمة، ويتعرف على سكانها بكل مشاكلهم، وأحلامهم. المشكلة إن مع زيادة التركيز على السياسة، زادت الشعبية، وزادت معها حدة الانتقادات، وخطورة تبعاتها. زيلينسكي سخر من بوتين في سكتش لبس فيه فستان وتقمص شخصية أينا كاباييفا، بطلة الجمباز وصاحبة الميدالية الذهبية في أولمبياد ٢٠٠٤، التي يرجح دخولها في علاقة عاطفية مع بوتين خاصة بعد طلاقه ليودميلا سنة ٢٠٠٤. الفرق بينهم ٣١ سنة، ولكن الشباب شباب القلب. قوليلي يا بوتوت!

زيلينسكي في الاسكتش تقمص شخصيتها ومثل إنها زعلانة إن بوتين مروّح متأخر، ولما قالها إنه كان مشغول بإرسال القوات للقرم، قالت له متضحكش عليا!

أنا بتفرج على التلفزيون الروسي، وعارفة إن مفيش قوات روسية في القرم! فاتحط على رادار الإف إس بي كفنان معادي!

رغم إنه في نفس الوقت اللي انتقد فيه بوتين وروسيا، انتقد فيه بوروشينكو وأوكرانيا. في أحد الاسكتشات شبّه أوكرانيا بالعاهرة، فالمتفرجين شعروا بالإساءة!

وفي اسكتش تاني تساءل لو وزعوا عصيان من مادة الإيبوني على الشرطة، والمتظاهرين لبسوا صوف، هل هيولدوا كهرباء؟ تعليق ممكن يؤخذ كانتقاد لعنف الشرطة، أتفهم كسخرية من المتظاهرين. كنسلوه ... أوه ... امنعوه ... أوه ... أوه.

الموضوع دخل في الجدل لما عرض فيديو للزعيم الشيشاني رمضان قديروف وهو بيعيط بعد إزالة تمثال لينين على أثر

مظاهرات ٢٠١٤.

المشكلة إن الفيديو متاخذ من جنازة والده، وأثار موجة من الغضب في الشيشان، وفي روسيا، الي أحد أعضاء برلمانها
نصحوا بالاستعداد لجنازته!

محدث يهرج مع الشيشان، دول الزراير!

فطلع اعتذر على أي سوء فهم، وأي إساءة غير مقصودة للعالم الإسلامي.

ولكن هو ده ال Occupational Hazard أو الخطر المهني الخاص بالكوميديا.

كله عايز يضحك على الناس، ومحدث عايز يضحك على خبيته!

وزيلينسكي بالنسبة له الاسكتشات تحولوا من وسيلة للضحك لأداة سياسية، وصفها بعلامات الطريق، وسيلة للتواصل مع

السياسيين، وتشجيعهم على تعديل سلوكهم لأن هناك خطر على الطريق!

وقال الكوميديا تعكس المجتمع، الكوميديا طريقة سهلة لرئيس الدولة لمعرفة أين يسكن، وفي أي وضع.

ده خلاه هدف ثمين للأحزاب اللي عايزة تستفيد من شعبيته.

سنة ٢٠١٤ اتعرض عليه ينضم لقائمة حزب الرئيس بوروشينكو في انتخابات مجلس الشعب، فرفض، وقال لو دخلت البرلمان

الناس هتشوفني زي أي نائب ثاني.

وهو عنده رؤية مختلفة، وطموح مختلف.

ولذلك سنة ٢٠١٥ قرر يوصل رسالته عن طريق أهم عمل في حياته الفنية: مسلسل خادم الشعب، أو Servant of the

people.

أول حلقة من المسلسل، اللي قام ببطولته وشارك في كتابته، لعب فيها شخصية فاسيل هولوبورودوكو، مدرس تاريخ بينتقد

الأوضاع في أوكرانيا من خلال مونولوج غاضب، طلابه بيصوروه وهو مش واخذ باله وبينزلوا الفيديو على الإنترنت، فالفيديو

بينتشر، وبتبدأ حملة انتخابية بيفوز في نهايتها برئاسة الجمهورية.

هولوبورودوكو بيكسب ويبدأ يصطدم بالأمر الواقع من خلال مقعد الرئيس في أعلى هرم السلطة.

المسلسل اللي فكرته قائمة على ال Accidental Hero أو بطل بالصدفة لعمل مفارقة كوميدية، ناقش خلال حلقاته

موضوعين في منتهى الأهمية.

الأول هو الوطنية أو Patriotism.

ووضح الفرق بين من يتغنون بالوطنية، بينما هم في الواقع أعداء للوطن، وبين من يعمل في صمت لخدمة الوطن وخدمة

سكانه.

والثاني هو المسؤولية الشعبية عن انتشار الفساد.

في إحدى الحلقات الرئيس هولوبورودوكو بينتقد تهرب والده من الضرائب عن طريق عدم ترخيص التاكسي بتاعه.

ولما بيووجهه بيقول له إن الفلوس اللي كان هيدفعها في الترخيص، يا دوب يشتري بيها زجاجة خمرة عشان يقدمها رشوة

للدكتور عشان يسرع له موعد العملية الجراحية اللي محتاجها!

موقف صعب ومعضلة أخلاقية متكررة في المجتمعات المعتادة على الفساد.

عدم المشاركة في الفساد موقف خطير؛ لأنه من ناحية هيووقف كل المراكب السائرة، ومن ناحية ثانية هيتسبب في عقاب

من المجتمع اللي هيشوف مدى قبح سلوكه في مرآة شرف الممتنع، فهيحاول يكسر المرآة، ويكسر معاها الشخص بكل

طريقة.

ولكن إذا اختار الكل المواءمة وعدم المواجهة، الفساد هينتشر، ويتخلل كافة طبقات المجتمع بشكل هيقضي على ثقة أفراد

في بعضهم، وفي المجتمع ككل.

مواضيع صادقة وتناول مثير للفكر والتساؤل خلوا المسلسل يكسر الدنيا!

حوالي ٢٥% من الأوكرانيين اترفجوا عليه خلال الموسم الأول والثاني، وبعضهم تساءل هل ممكن رئيس المسلسل يصبح رئيس في الحقيقة؟

هل تشهد أوكرانيا ميلاد رونالد ريجان جديد؟

زيلينسكي تفادى الإجابة عن السؤال، ورفض عرض للترشح للبرلمان للمرة الثانية، المرة دي كعضو في قائمة حاكم محافظة دنيبرو بيتروفسك، وصاحب القناة، الأوليجاري إيغور كولومويسكي.

لكن الأحداث اضطرتة يتدخل أسرع مما تخيل.

سنة ٢٠١٧ مجموعة ملهاش أي علاقة بزيلينسكي حاولت تسجيل حزب باسم خادم الشعب.

في محاولة للحفاظ على البراند زيلينسكي وفريق البرنامج اللي منهم عدد كبير من أصدقائه وزملائه من القناة وفريق كفارتال سجلوا الحزب بنفسهم.

استطلاعات الرأي بينت إنهم لو نزلوا الانتخابات هيكسبوا ٤% من الأصوات، وهو عدد كافي للفوز بمقاعد في البرلمان، من غير أي جهد أو حملات انتخابية!

بينما لو اترشح زيلينسكي في انتخابات رئاسية هيحصل على ٥% من الأصوات، وهو رقم ضئيل لكن في ظل الأوضاع السياسية المحبطة هيخليه من المنافسين!

زيلينسكي معلقش على الاستطلاعات، وركز في التحضير للموسم الثالث المقرر عرضه بالتزامن مع الانتخابات الرئاسية سنة ٢٠١٩.

وفجأة، سنة ٢٠١٨، اليفط الإعلانية غرقوا الشوارع:

قريبًا الرئيس خادم الشعب!

رسالة تصلح للمسلسل، وتصلح للانتخابات!

حالة من الإثارة والتشويق لم تحظى باهتمام جاد في الساحة السياسية.

زيلينسكي رغم شهرته في الأول وفي الآخر ممثل، الحملة دي مجرد نكتة، أو لعبة جديدة في يد الملياردير كولومويسكي، اللي يبدو إنه عايز يضحك شوية.

ولكن ليلة رأس السنة، محدش ضحك!

في موعد الحفل السنوي المعتاد لكفارتال، زيلينسكي اتكلم بمزيج من الروسية والأوكرانية، وقال إن كل مواطن أمامه ثلاثة اختيارات:

يا يفضل عايش زي ما هو عايش دلوقتي.

يا يسافر ويبعت فلوس لأهله من بره.

يا يشيل المسؤولية كمواطن ويغير البلد!

وأعلن إنه اختار الخيار الثالث، وهيترشح في الانتخابات الرئاسية!

الإعلان في الوقت الحساس اللي حظي بنسب مشاهدة عالية زق إعلان الرئيس الحالي عن إعادة ترشحه لما بعد منتصف الليل، في أول انتصار للمهرج على المحنك.

المحنك هنا هو بوروشينكو مش صاحبك اللي بيتفرج على أفلام بولندي.

ومن أول لحظة زيلينسكي قلب العيب اللي عنده، إنه كوميديان ومهرج، لميزة جبارة عن طريق الاعتراف به.

زي ما قال تيريون لانستر في مسلسل Game of Thrones:

Never forget what you are, the rest of the world will not. Wear it like armor and it can never be used to hurt you

ارتدي عيبك كالدرع ولن يستطيع أحد استخدامه لإيذائك.

قول إنك بتشتغل Food blogger عادي الشغل مش عيب!
زيلينسكي قال أنا مهرج، وهدير الحملة وكأنها تلفزيون الواقع أو Reality TV.
كل شيء مذاق من أجل الشفافية!
بيتصور في الجيم، وفي الشارع، وفي الشغل.
رسائل واضحة وقصيرة ومختلفة عن رسائل الحملات الانتخابية المعتادة.
اللي بيبعد عن الكليشيهات ربنا بيكرمه.
وزيلينسكي وفريقه أظهروا فهم عميق لوسائل التواصل الاجتماعي، واعتمدوا عليها لخلق صورة جذابة للشباب، والناخبين
اللي تعبوا من الصورة النمطية للسياسيين.
واعتمد في مراسلاته على وعدين:
محاربة الفساد عن طريق إنهاء الحصانة القضائية لنواب البرلمان، وتحقيق السلام عن طريق إنهاء الحرب.
ولكن على قد ما الشعب الأوكراني عايز السلام، على قد ما مش عايز سلام مبني على هزيمة.
ولذلك البعض اتهموه بأنه عميل لروسيا، فقال اطمنوا يا جماعة، مستقبل أوكرانيا في أوروبا!
بينما بوروشينكو رفع شعار الجيش، واللغة، والعقيدة، وقال إن التصويت لأي حد غيره، معناه التصويت لبوتين!
وطبع يفظ عليها صورته وبوتين جنبه، باعتبار إن زيلينسكي مجرد دمية في يد الكرملين!
تهمة كفيفة بإنهاء حياته السياسية من قبل ما تبدأ، ولكنها لم تكن الأخطر في ترسانة بوروشينكو.
فجأة الشائعات انتشرت عن إدمان زيلينسكي للمخدرات!
فيديوهات سابقة له وهو بيتكلم ببطء وكأنه تحت تأثير المخدرات استخدمتها حملة بوروشينكو للتشكيك في مدى
جاهزيته لتولي مسؤولية أهم منصب في الدولة.
اتهام غير مستبعد في عيون الناخبين لشخص بيشتغل في مجال الترفيه والإعلام.
وهما أن بوروشينكو خطيب مفوه، دعاه في مناظرة علنية هي الأولى من نوعها في تاريخ أوكرانيا، ولكنه اشترط يعملوا هما
اللاتين تحليل مخدرات قبلها، باعتبار إن البلد محتاجة رئيس صحي وبيشرب ألموند ميلك.
زيلينسكي مكش قدامه أي حل ثاني غير إنه يوافق، ولكن بشروط.
رغم دعوة بوروشينكو له لعمل تحليل في معمل المركز الطبي الأولمبي، زيلينسكي عمل التحليل في معمل مملوك لأحد
أصدقائه، ونشر النتيجة على الفيسبوك.
المشكلة إن النتيجة بتاريخ يوم ٢ أبريل، بينما المفروض إنه عمل التحليل يوم ١٥!
زيلينسكي قال متدخلنيش في تفاصيل يا مدحت!
ده خطأ بريء ممكن يقع فيه أي موظف، المهم إني خالي من المخدرات طبقاً لتعليمات الكابتن محمد صلاح.
أما بوروشينكو قال يا جماعة أنا مش بقول إنه مدمن، أنا كل اللي بقوله إن مينفعش يكون رئيس الدولة صحته مش
كويسة، عشان يرسخ صورته كمدمن في أعين الناخبين.
وبقى بيعد الأيام لحد المناظرة وهو واثق إنه هيسحقه أمام الكاميرات، ومخدش باله إن من الغباء تحدي قرش في وسط
المحيط!
في إستاد المجمع الرياضي، وهو الأكبر في أوكرانيا، حوالي ٦٠ ألف متفرج حضروا لمشاهدة لقاء العمالقة بين زيلينسكي
وبوروشينكو، في مناظرة أذيعت للملايين على الهواء مباشرة.
بوروشينكو هاجم زيلينسكي، واتهمه إنه أداة في يد مالك القناة، اللي هرب على إسرائيل بعد ثبوت قضايا فساد وتزوير في
البنك اللي يملكه أدت لتأميمه وحبس مساعده.
وأضاف إنه لا يتمتع بالخبرة، ولا الوطنية، بدليل إنه اتهرب من التجنيد!

زيلينسكي اللي استعد للمناظرة بمنتهى الجدية، وكان في بيئته الطبيعية أمام أعين الجمهور وعدسات الكاميرات، رد بثبات وقال إن هو وكولومويسكي صاحب القناة مش أصدقاء، وأكد على ده بأنهم من أجيال مختلفة، رغم أنه سافر عشان يقابله بالفعل أثناء الحملة.

ولكنه تنصل من علاقته به أمام الناس وقال إن القناة هي اللي استفادت منه بسبب ملايين الدولارات والمشاهدات اللي كسبتها بسبب عروضه.

وتحول من الدفاع للهجوم واتهمه بالتربح من الصراع، ولعب على ثرائه وقال إزاي البلد هي الأفقر في أوروبا بالقياس بعدد السكان بينما رئيسها هو أغنى مواطنيها؟

وأضاف إنه فشل في محاكمة مجرمي الميدان، وفشل في إنهاء الحرب في الشرق، وقال له أنا لست خصمك، أنا حكم عقابك!

I am not your opponent, I am your verdict

أنا بابا يلا!

بوروشينكو حس إنه بيخسر بالنقط فحب يحسم النزال بالضربة القاضية، وسأله عن تعليق سابق قال فيه إنه لو كسب مستعد يركع على ركبته قدام بوتين.

وكأنه كان مستنيه يسأله، زيلينسكي قال التعليق اتاخذ من سياقه.

أنا قولت إني مستعد أركع أمام بوتين لكن أوكرانيا متركعش!

وأنا حاليًا مستعد أركع أمام كل أم وابن وزوجة، وبدعوك أنت كمان أنك تعمل زيي!

وفجأة نزل على ركبته أمام الناس كلها، وبوروشينكو مبقاش قدامه أي حل غير إنه يسمع كلامه ويعمل زي، فركع هو كمان! وبقي من الواضح أمام الجميع مين اللي نجح في فرض سيطرته على المناظرة، ومين اللي هيفرض سيطرته على الصناديق.

زيلينسكي كسب الانتخابات بنسبة ٧٣%، مقابل ٢٤.٥% لبوروشينكو.

لو ماتش باسكت الفرق مكنش هيبقى كبير كده!

الخبر كان مفاجأة مدوية للعديد من المتابعين، خاصة في الصحافة الغربية اللي تعاملت مع النتيجة على أنها فيلم هوليوودي.

ممثل كوميديان على نتفليكس كسب الرئاسة!

مهرج أغلب الظن لا يملك برنامج، ونجح بسبب الشعبية، لا يجب أخذه بجدية.

دي قصة كوميدية زي أعماله.

الوحيد اللي مكنش بيضحك هو بوتين.

طبول الحرب

«المشكلة معكم أيها الأميركيون هي أنكم تعتقدون أنكم انتصرتم في الحرب الباردة، وأنكم تعاملوننا مثل جمهورية الموز» (139)، ما زلنا قوة نووية، كان بإمكاننا خوض تلك الحرب لكننا لم نفعل ذلك».

فلاديمير بوتين

في خطاب تنصيبه كرئيس للجمهورية، زيلينسكي طلب من الأوكرانيين معلقوش صورته في مكاتبهم، وقال علقوا صور أولادكم، وفكروا فيهم كل ما تاخذوا قرار، واسألوا نفسكم لو القرار ده في مصلحتهم.

وفي جملة مؤثرة قال أنا قضيت عمري كله بحاول أضحك الأوكرانيين، دلوقتي هحاول أخليهم على الأقل ميعيطوش!

خطاب ملائكي خلى كثير من الأوكرانيين يتفائلوا بالرئيس الجديد، لحد ما توقف عن الكلام، وبدأ في الحكم.

حزب خادم الشعب اكتسح الانتخابات البرلمانية وفاز ب ٤٣% من الأصوات، فبعض النواب بدأوا في التعامل باعتبار أنهم يملكوا أوكرانيا!

تعليقات مسيئة لا تصدر إلا ممن يشعر بالتعالي ووصفت الصحفيين بالخرقان، وطلبت من المسنين اللي بيشتكوا من الغلاء بيع حيواناتهم الأليفة لدفع الفواتير.

بيعي الكلب يا حَجَّة عشان تشتري بطاطس!

ده بالإضافة لصور مخزية لنواب مش مركزين أو فاتحين تطبيقات مواعدة Dating apps داخل الجلسة، في نفس الوقت اللي صدرت فيه عشرات القوانين بسرعة فائقة بدون نقاش أو مشاورة.

ومع الوقت الفضائح بدأت تظهر.

قائمة الحزب شملت عاطلين عن العمل، ومصورين أفراح، بعضهم لما دخلوا البرلمان استغلوا سلطاتهم الجديدة في التريح زيهم زي اللي قبلهم بالظبط!

أحد النواب لما اتسأل عن سر ملكيته ل ١٧ عربية رياضية، قال إن والدته بتحب تسوق بسرعة.

ماما يا ستي، من عشاق فورميولا ١!

واحد تاني كان بياخد بدل سكن وهو عايش مع أهله.

أما الفضيحة الكبيرة كانت اتهام ١١ من نواب الحزب بتلقي كل منهم رشواي تقدر بحوالي ٣٠ ألف دولار، مقابل معارضتهم لقانون هدفه الحد من الفساد في قطاع العقارات عن طريق تقنين ومراقبة طريقة تقييم الأصول.

واللي زاد من جدية الاتهام هو عدم إقرار القانون لعدم حصوله على أصوات كافية بالفعل.

شعبية زيلينسكي بدأت في الانخفاض بنفس السرعة اللي زادت بيها، والفضائح المحلية، بعد شهور قليلة أصبحوا فضائح عالمية، أول واحدة منهم كانت من بطولة ترامب.

ترامب بعد فوزه أنكر أي تدخل روسي في الانتخابات، حتى بعد إثبات التحقيقات أن اختراق قاعدة بيانات الحزب الديمقراطي كان من فعل الكرملين.

وزي ما توقع بوتين اتخذ موقف عدائي تجاه الناتو وأوكرانيا.

ترامب رفض مد بوروشينكو بالسلح وقال إن القوة العسكرية هستتفز روسيا، رغم إن روسيا بيستفزها الضعف، زيها زي القروش، بتشم رائحة الدم.

ترامب استغل كل فرصة في مهاجمة أوكرانيا لتبرير عدم مساعدتها.

وصفها إنها أحد أكثر الدول فساداً على وجه الأرض، وقال إن والله أعلم يبدو أن القرم ملك الروس؛ لأن كل سكانها بيتكلموا روسي، وكلهم عايزين ينضموا لروسيا.

ولذلك مفيش أي فائدة من الاستمرار في محاولة عقاب روسيا على ضمها.

بوتين كان في منتهى السعادة من التغيير الجذري في السياسة الأمريكية.

ربنا يفتح عليك!

ولكن داخل أمريكا الصحافة والكونجرس استمروا في مهاجمته بسبب علاقته بروسيا، ومع اقتراب الانتخابات سنة ٢٠٢٠،

ترامب حب يرد الجميل لمرشح الحزب الديمقراطي جو بايدن.

أثناء عمل والده كنائب رئيس جمهورية، هانتز ابن جو بايدن اتعين في مجلس إدارة شركة بوريسما، إحدى أكبر شركات الطاقة في أوكرانيا.

عمدة نيويورك السابق، ومحامي ترامب الحالي، رودى جوليانى، حاول يظهر فساد جو بايدن عن طريق إثبات محاولته

إجبار أوكرانيا على تغيير النائب العام سنة ٢٠١٦ لحماية ابنه من الفساد.

النائب العام مكنتش بيحقق في فساد الشركة في الوقت ده، ولكن دي مش مشكلة، المهم وجود تهمة قوية تخفف الضغط الإعلامي على ترامب وتوجه أصابع الاتهام لبايدن.

ترامب اتصل بزيلينسكي في شهر يوليو، وقال له بمنتهى الوضوح، لو عايز دعم عسكري، ودعوة للبيت الأبيض، محتاج تفتح

تحقيق في محاولة تأثير بايدن على الحكومة السابقة، ويا سلام لو فتحت تحقيق تاني عن احتمال صدور هجمات الاختراق الإلكتروني وقت الانتخابات من أوكرانيا وليس روسيا.

زيلينسكي قال له إنه هياخد الموضوع بمنتهى الجدية من غير ما يديله كلمة محددة، ولمح له إنه قريب هيكون عنده نائب عام من رجالته.

المكاملة اتسربت، والدنيا اتقلبت.

زيلينسكي ظهر في موقف الرئيس الضعيف اللي بيتعرض للتمر من رئيس أمريكا.

ستيريو ثمنه ٣٠٠٠ جنيه تاخده من الغلبان ده ب ٣٠٠ بس بأمانة إيه؟

ولا إكمنه عبيط يعني!؟

زيلينسكي أنكر إنه تعرض للضغط من ترامب، اللي مجلس الممثلين صوت على عزله قبل ما مجلس الشيوخ الجمهوري يرفض القرار ويتكتب له عمر جديد.

التحقيقات أثبتت أن الشركة مملوكة لوزير الموارد الطبيعية السابق في حكومة يانوكوفيتش.

النائب العام فتح تحقيق ضد الوزير بتهمة بالتربح وبعد كده التحقيق اتقفل والشركة دفعت الضرائب اللي عليها والموضوع انتهى.

ولكن بالنسبة لبوتين المكاملة أكدت له إنه أمام خصم ضعيف، لما اتسأل عليه قال إنه بالحكم على اللي شافه، فهو ممثل جيد، وبيضحك، ولكن فرق كبير بين أنك تلعب شخص، وأنت تكوّن شخص.

ممكن تلعب دور جعفر العمدة، لكن صعب تكون جعفر العمدة!

زيلينسكي ممكن يلعب دور مختلف كل عشر دقائق، ولكن عشان يدير دولة محتاج مهارات مختلفة تمامًا، مهارات من الواضح في نظر بوتين أنه لا يمتلكها!

من قبل ما يكسب الانتخابات وزيلينسكي متأكد أنه لو قعد مع بوتين هيقدر يحل الموضوع.

ومش بس هيكثفي باستعادة الأرض، لا ده كمان هياخد منه تعويضات!

وقال أنا متأكد إني لو بصيت في عينيه، هشوف فيها حزن لمقتل ١٤ ألف شخص في منطقة الدونباس!

عايز يقول لفولدمورت عينيكي فيها حزن!

الكلام ده تقوله وأنت رايح تصالح خطيبتك، مش وأنت رايح تتفاوض مع الرئيس الروسي!

درس اتعلمه بالطريقة الصعبة بعد أول مكاملة له مع بوتين.

في شهر يوليو زيلينسكي اتصل ببوتين، وطلب منه الدخول في جولة مفاوضات بوساطة أوروبية. وفي دليل على صدق النوايا، عرض عليه صفقة تبادل أسرى: ٣٥ مقابل ٣٥.

بوتين وافق، زيلينسكي قال طلع مبعوضش أهو!

كفاية سوء ظن بالناس حرام عليكم إن بعض الظن إثم!

الصفقة كانت سرية، ولكن قبل موعد إتمامها حساب وهمي على تويتر باسم زيلينسكي أعلن عنها، وبعدها على طول الكرملين طلب إضافة اسم على القائمة اللي وافق عليها مسبقاً، لشاهد رئيسي في قضية إسقاط طائرة الخطوط الماليزية سنة ٢٠١٤.

المحققون الهولنديون طلبوا من زيلينسكي رفض طلب الكرملين لإن الإفراج عن الشاهد هينز القضية، لكنه اضطر يوافق، الإعلان عن الصفقة لغى إمكانية التراجع عنها، فأفرج عنه مقابل تحقيق انتصار صغير، ومرير، خلاه يدرك لأول مرة هو يتعامل مع مين.

ولكنه مستسلمش، وحاول ينفذ وعده بإنهاء الحرب بأي طريقة، والحل المرة دي ظهر من ألمانيا.

اتفاقية مينسك الأولى والثانية لم ينجحوا في إنهاء الحرب في الشرق اللي استمرت بشكل محدود على مدار السنين رغم وقف إطلاق النار بشكل رسمي.

سنة ٢٠١٦ وزير خارجية ألمانيا فرانك فالتر شتاينماير اشتغل على اتفاقيات مينسك وطرح خطة مبسطة لإعادة تحريك المياه الراكدة عرفت باسم وصفة شتاينماير (140).

الوصفة بتقول إن الحل يبدأ من تنظيم انتخابات في مناطق النزاع في الشرق طبقاً للقانون الأوكراني، وتحت مراقبة منظمة الأمن والتعاون الأوروبي OSCE.

لو المنظمة أكدت نزاهة الانتخابات، وطلعت النتيجة لصالح الاستقلال، يتم تغيير الدستور الأوكراني لمنح المنطقة الشرقية وضع خاص يسمح باستقلال ذاتي، على أن تعود السيطرة الحدودية إلى أوكرانيا.

خطة هدفها عدم التوقف عند معضلة الانتخابات الأولى ولا سحب الجنود الأول، فضلت في الدرج لحد ما أعاد إحياها زيلينسكي بالموافقة عليها هو وممثلين عن روسيا، والمناطق الانفصالية، تحت رعاية فرنسا وألمانيا.

زيلينسكي وافق عليها لأنها في نظره الطريقة الوحيدة لإنهاء الحرب دون خسارة الأرض.

الخبر أول ما اتعرف الآلاف خرجوا للميدان، ورفعوا يفظ مكتوب عليها لا للاستسلام!

قادة الميليشيات الأوكرانية، اللي تكونوا من المتطوعين والضباط السابقين لمساعدة الجيش في الشرق، أعلنوا رفضهم التام للوصفة اللي اطلب منهم بموجبها ترك السلاح وقبول نتيجة الاستفتاء.

واتهموا زيلينسكي إنه أداة في يد الكرملين ولا يحترم الجنود، الأحياء منهم والأموات.

زيلينسكي قال يا جماعة ده مش استسلام، بالعكس، ده انتصار هيجبر روسيا على الانسحاب.

وأكد أن الانتخابات لن تتم تحت تهديد السلاح، ولن تنظم إلا بعد خروج كل المقاتلين التابعين لروسيا.

لكن كلامه لم يقنع المتظاهرين، ولا أقتع نواب البرلمان اللي رفضوا دعم مشروع القانون.

وهما إن حزبه لا يملك الأغلبية الكافية لإقراره وتغيير الدستور، فشلت الخطة من قبل ما تبدأ.

ولم يعد هناك حل آخر غير المواجهة المباشرة.

شهر ديسمبر الرئيس الفرنسي ماكرون نظم قمة في باريس لمناقشة الأزمة الأوكرانية بحضور المستشار الألمانية في أول مقابلة بين بوتين وزيلينسكي.

زيلينسكي كان متوتر بشكل واضح، بينما بوتين وصل متأخر بعد وصول زيلينسكي وميركل.

وبعد السلام وال (141) Small talk، بوتين الحريص على إظهار السيطرة (142) من خلال الإيماءات (143) الصغيرة

زي التأخير، ولغة الجسد (144). زي إنه يقعد مالي الكرسي ويوسع رجله عشان ياخذ أكبر مساحة فيما يعرف بال Manspreading، ربنا يكفيننا شهرهم في المترو، قال زيلينسكي بعد صورة الزعماء التذكارية: لما يطلعوا هنبداً تفاوض. زيلينسكي أصغر منه بأكثر من ٢٥ سنة، تلميذ على وشك تلقي أول درس من أستاذه. ولكن المفاجأة أن زيلينسكي، رغم توتره، أظهر صمود في مواجهة الدبابة اللي قدامه. زيلينسكي موافق على الانتخابات ولكن عايز روسيا تنسحب الأول، بينما بوتين موافق على الانسحاب، ولكن بشرط عمل انتخابات الأول.

ساعات طويلة من الجدل ومحاولة فرض السيطرة، شهدوا مقاومة ملحوظة من زيلينسكي، اللي في وسط الاجتماع زعق في وزير الخارجية الروسي لافروف وطلب منه يبطل يهز رأسه على كل كلمة بوتين بيقولها! لافروف قاله زعق ياخويا زعق، ما اللي مقدرش على الحمار يتشطر على وزير الخارجية! ولكن رغم الدخول في متاهة البيضة ولا الفرخة المعتادة، بعد تسع ساعات الاثني اتفقوا على تبادل جميع الأسرى بنهاية السنة، وإعادة وقف إطلاق النار اللي تم خرقة باستمرار منذ الاتفاق عليه في ٢٠١٥. زيلينسكي قال إن القمة انتهت بالتعادل، وأن العودة لطاولة المفاوضات مكسب في حد ذاته، قد يؤدي لحل أشمل لما يتقابلوا مرة ثانية كمان أربع شهور زي ما اتفقوا. ولكن زيلينسكي يريد، وبوتين يريد، والله يفعل ما يريد. بعد أربع شهور العالم كان على موعد مع كوفيد ١٩.

بعد فشل وقف إطلاق النار، وعدم سحب روسيا لقواتها من على خط الاشتباك رغم سحب أوكرانيا لقواتها في دليل على حسن النوايا، أوكرانيا أعادت نشر قواتها، وزيلينسكي خد موقف أكثر حدة تجاه روسيا. ربما يكون بسبب إدراكه استحالة تغيير بوتين لموقفه عن طريق التفاوض، وربما يكون بسبب الضغط الداخلي عليه اقتصادياً وسياسياً.

زيادة عجز الميزانية، وانخفاض الناتج الصناعي ضغطوا على الاقتصاد، وزيلينسكي لا يفقه شيء في الاقتصاد. تصريح قاله رئيس الوزراء واتسرب في يناير، فرفده في مارس، وقال إنه مش بس هينهي الحرب في الشرق، لكن كمان هيجرر القرم!

ولما اتعرض على أوكرانيا كميات من تطعيم سبوتنيك الروسي، رفض! لا تصالح ولو منحوك الذهب!

ولكن كله كوم، واللي عمله مع الأوليجاركي كوم تاني خالص.

سنة ٢٠٢١ زيلينسكي أصدر سياسية التخلص من الأوليجاركي أو ال Deoligarchization.

السياسة تحولت لقانون عرّف الأوليجاركي كأى شخص تنطبق عليه ثلاث نقط من أربعة:

مشارك في الحياة السياسية، أو لديه تأثير على الإعلام، أو يملك مزايا احتكارية في أحد القطاعات، أو يملك ثروة تقدر بحوالي مليون ضعف الحد الأدنى للأجور.

القانون يلزم أي شخص ينطبق عليه التعريف بالتسجيل في الحكومة كأوليجاركي، وبيمنعه من المشاركة في خصخصة الشركات العامة، وبيحده من مشاركته السياسية.

التعريف انطبق على صديق بوتين وصاحب عقد توريد الديزل للجيش الأوكراني فيكتور ميدفيدتشك، اللي حصل بسبب قربه من الكرملين على حقوق احتكارية لاستيراد الغاز الطبيعي والفحم من مناطق الانفصاليين في الدونباس.

ولكنه مسجلش نفسه، واستمر في دعم بوتين على قنواته الإعلامية، فالقنوات اتقفلوا بقرار من مجلس الأمن والدفاع القومي الأوكراني، وتم التحفظ على ممتلكاته.

أما الرئيس السابق بوروشينكو اللي اتهمه زيلينسكي بالفساد وتخبئة أملاكه في شركات بالخارج أثناء الحملة كان أذكى منه. أول ما صدر القانون باع قنواته الإعلامية، وسجل مصنع الشوكولاتة باسم ابنه. السفارة الأمريكية علّقت على الخبر وقالت لا يجوز استخدام القضاء لتصفية الخلافات السياسية، أما بوتين كان هيتجنن! فبن حقوق الملكية؟

أبن حرية الإعلام؟

أنتم إزاي تتهجموا على الناس كده في بيوت الدعارة!؟

الإعلام الروسي بدأ في مهاجمة زيلينسكي اليهودي النازي، والجيش بدأ التحضير للغزو. في بداية سنة ٢٠٢١ الناتو عمل تدريبات عسكرية ضخمة باسم مدافع أوروبا، شارك فيها ٣٠ ألف ضابط وعسكري من ٢٧ دولة.

بعد ضم القرم لروسيا الناتو رفع حالة التأهب.

زود بطاريات الدفاع ضد الصواريخ على حدوده الشرقية تحسبًا لأي مواجهة محتملة، وكثف من التدريبات العسكرية المشتركة مع أوكرانيا لرفع كفاءة الجيش الأوكراني. لكن طلب الانضمام قوبل بالرفض.

رغم موافقة دول معروفة بصدقتها مع روسيا زي تركيا على انضمام أوكرانيا للتحالف، دول تانية زي فرنسا وألمانيا استمروا في سياسة توخي الحذر.

بايدن عزم زيلينسكي في البيت الأبيض على عكس ترامب اللي تهرب من الدعوة، وطمنه إن عضوية الناتو مسألة وقت مش أكثر.

التصريحات أغضبت بوتين، فرد بتنظيم أكبر تدريب عسكري في تاريخ روسيا الحديث بالشراكة مع بيلاروس، شارك فيه حوالي ٢٠٠ ألف ضابط وعسكري على الحدود الأوكرانية، وعرف باسم مناورات زاباد، أو الغرب. شهداء يناير اللي ماتوا في أحداث يناير.

أوكرانيا ردت بالمشاركة في مناورات عسكرية مع الناتو في مشهد بقى أقرب لمباراة بينج بونج ساخنة المنافسة فيها نقطة بنقطة.

ووسط ذعر أوروبي من الحشد الروسي، زيلينسكي قال إن وجود القوات على الحدود حرب نفسية من الرئيس الروسي، اللي عامل فيها الرئيس أنور السادات كل شوية يحشد قوات ويرجعهم تاني. لكن أمريكا كان لها رأي تاني.

دي مش حرب نفسية، دي طبول الحرب!

في يوليو سنة ٢٠٢١ أثناء استعداد أوكرانيا للاحتفال بالذكرى الثلاثين للاستقلال، بوتين كتب مقال بعنوان عن الوحدة التاريخية بين روسيا وأوكرانيا.

مقال مزج الحقيقة بالخيال، أهم فكرة فيه هي إن أوكرانيا وروسيا شعب واحد، قسمهم الغرب بالأعبه، وضحك عليهم لقرون طويلة.

الرئيس السابق ميديفيديف نشر مقال بعده أعلن فيه عدم جدوى الحديث مع زيلينسكي، اللي اتهمه بالتخلي عن أصوله زي ما بعض اليهود تعاونوا مع النازيين في الحرب العالمية الثانية.

المقالات بالإضافة لتقارير المخابرات عن تصرفات بوتين في العزل كانوا جرس إنذار للإدارة الأمريكية.

بوتين من ساعة انتشار الكورونا وهو غائب عن الكرملين، وقاعد في مقره الثاني في ضواحي موسكو، أو في مقره الآخر على ساحل البحر الأسود في سوتشي.

المقرات تم تجهيزها بأحدث معدات الكشف والتعقيم بتكلفة بلغت حوالي ٨٥ مليون دولار.

أي حد عايز يشوفه لازم يقعد من أسبوع لأسبوعين في عزل تام ويخضع لاختبارات يومية، وبعدها يعدي على نفق مخصص للتعقيم، يطلع منه يدخل أوضة فيها ترابيزة حوالي ٦ متر يقعد في طرفها وبوتين في الطرف الثاني. ورغم كل التجهيزات دي، مش أي حد كان مسموح له المقابلة. الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش أثناء زيارته لموسكو قابل بوتين عن طريق الفيديو كول، زيه زي أعضاء الحكومة اللي كانوا مقضيينها على زووم. في كتاب:

Overreach: The Inside Story of Putin and Russia's War Against Ukraine

الصحفي والمؤرخ البريطاني أوين ماثيوز بيقول إن سبب خوف بوتين من الكورونا مرجح يكون لسببين: الأول هو سنه، بوتين مواليد ١٩٥٢ يعني عنده ٦٩ سنة وله حق يخاف من تأثير الكورونا على صحته. السبب الثاني هو احتمالية إصابته بمرض مزمن. بالنظر لسجلات طيران أهم أطباء الأورام في روسيا، ومقارنتهم بتاريخ اختفاء بوتين عن الأنظار، يمكن ملاحظة بعض العلامات المثيرة للريبة. من سنة ٢٠١٩ كل سفريات بوتين كان معاه فيها فريق طبي لا يقل عن تسع أطباء، من ضمنهم يفجيني سيلوفانوف، طبيب أورام متخصص في سرطان الغدة الدرقية للكبار. سيلوفانوف قابله ٣٦ مرة على مدار ١٦٦ يوم خلال السنة، واحتمال يكون أجرى عملية لبوتين في سبتمبر سنة ٢٠٢٠، وده ممكن يفسر سر انتفاخ وجهه بسبب المنشطات (145). اللي تستخدم في العلاج. المخرج الأمريكي أوليفر ستون، اللي عمل معاه مجموعة من المقابلات على مدار السنوات، قال إن بوتين أصيب بالسرطان ولكنه قضى عليه.

رأي معاكس لوليام بيرنز رئيس ال CIA، اللي قال إن بوتين يتمتع بصحة ممتازة ولا يوجد أي دليل على مرضه. كلها ترجيحات، الشيء المؤكد الوحيد إنه بيخاف على صحته، وإن خوفه زاد بعد انعزاله. أثناء أوقات فراغه بوتين كان بيطلع على الخرائط والوثائق الأثرية القديمة، بالذات اللي بيوصفوا الإمبراطورية الروسية في عز مجدها.

خلال السنوات الأخيرة من حكمه بوتين بدأ يشوف نفسه ليس فقط كرئيس ولكن كمؤرخ ومفكر. ده اللي خلاه يشتغل لشهور طويلة على مقال طويل من ٧٠٠٠ كلمة عن تاريخ روسيا وأوكرانيا. ومن المرجح يكون شعور العزلة زاد من الخوف، وبالتالي زاد من الرغبة في القضاء على مصدره. وفي نفس الوقت زاد من أهمية الآراء اللي بيسمعاها في ظل عدم وجود أصوات أخرى. نيكولاي باتروشييف علق بعد انتشار الكورونا أن الفيروس جزء من الحرب البيولوجية الغربية، وأسهم في ترسيخ قناعة بوتين إنه لازم يتغدى بالغرب، قبل ما يتعشوا بيه.

وعلى الرغم من تنظيم استفتاء لتعديل الدستور للسماح بالترشح لفترتين إضافيتين ممكن يخلوه في الحكم لسنة ٢٠٣٦، وهو تعديل أسهم في مروره وضمه لتعديل آخر بمنع زواج المثليين، إلا أن بعض الآراء ترجح أن تقدمه في السن حطه تحت ضغط للتحرك بسرعة لتأمين إرثه (146).

كل ده كتبته المخابرات الأمريكية في تقاريرها. في أكتوبر سنة ٢٠٢١ مستشار الأمن القومي الأمريكي جيك سوليفان طلب عقد اجتماع عاجل مع بايدن، وقال له إن بوتين على وشك إصدار الأمر بغزو أوكرانيا! بايدن أدرك حجم الورطة اللي هو فيها، وقرر يتحرك على ثلاث محاور.

توحيد الناتو، وتنبية زيلينسكي، وتحذير بوتين!

الولايات المتحدة تواصلت مع أعضاء التحالف، وبلغتهم بنية روسيا بغزو أوكرانيا. تقريبًا جميع الأعضاء باستثناء بولندا، ودول البلطيق، وبريطانيا، لم يقتنعوا بكلام أمريكا. ماكرون وأولاف شولتس خليفة ميركل قالوا أكيد مش هياخذ قرار بالغباء ده!

مفيش حد يدمر اقتصاد بلده بإيده!

أمريكا قالت يا جماعة والله العظيم عندنا معلومات مؤكدة من المخابرات إن الغزو مسألة وقت مش أكثر! الدول الأعضاء قالوا ما هو الاعتماد على المخابرات الأمريكية ده اللي مخلينا مش مصدقين.

أنتم نسيتم اللي عملتوه في العراق؟

نسيتم أسلحة الدمار الشامل؟

يا جماعة دي نقرة ودي نقرة، دي دولة عربية، ودي دولة أوروبية، والاتنين لا يستويان!

All animals are equal, but some animals are more equal than others!

بايدن فشل في توحيد الناتو لاتخاذ قرار قوي لردع بوتين قبل الفاس ما تقع في الرأس، فقرر يحذر زيلينسكي عشان ياخذ احتياطاته.

في مؤتمر المناخ COP ٢٦ في جلاسجو، بايدن خد زيلينسكي على جنب وقاله ركز معايا وسيبك من السلاحف!

أنتم داخلين على أيام سوداء!

جاركم في العمارة اللي جنبكم ناويلك على شر!

صور الأقمار الصناعية مبينة حشد غير مسبوق للقوات الروسية على حدود أوكرانيا من الشرق، والجنوب، والشمال. زيلينسكي قاله كفاية Anxiety أرجوك، دي حرب نفسية، مينفعش كل ما يتحرك على الحدود نسيب اللي ورانا ونقعد نتفرغ له.

تلاقيه بيرد على مشاركتنا في تدريبات الناتو.

شو إعلامي أجوف لا يستحق الاهتمام.

وله حق مياخدش موقف، في نهاية سنة ٢٠٢١ تم تسريب حوالي ١٢ مليون وثيقة في أكبر تحقيق صحفي في التاريخ، كشفه تحالف دولي من الصحفيين لدراسة شبكات الشركات الوهمية المستخدمة لغسيل الأموال، وإخفاء الثروة، والتهرب من الضرائب.

الأوراق كشفوا امتلاك زيلينسكي وأعوانه لمجموعة من الشركات الوهمية في الخارج، تلقوا تحويلات من كولومويسكي مالك القناة على مدار السنوات!

شركات لم يعلن عنها في كشف حساب الذمة المالية اللي قدمه قبل الترشح للرئاسة، وباع على الأقل جزء من ملكيته فيها لأحد معاونيه قبل الانتخابات.

موقف لما اتعرف أضر بشعبيته وخلي صحيفة الجارديان تقول في أحد المقالات يبدو أنه طلع زي الأوليجاركي اللي بيهاجمهم.

زيلينسكي امتنع عن الرد في البداية، وبعد كده قال إن اللي حصل ده شيء طبيعي أي حد يقدر يعمله في أوكرانيا بيعمله لحماية أمواله في ظل اقتصاد منهار وعملة غير مستقرة.

ولكنه أكد في نفس الوقت إن فلوسه حلال وإن الشركات الوهمية لم تستخدم في غسيل الأموال.

ولكن صوت الفضيحة طغى عليه صوت الدبابات على الحدود.

بوتين بيحرك قواته على الحدود، وييصعد خطابه الإعلامي بشكل واضح.

بينما زيلينسكي وأغلب أعضاء الناتو رافضين يتعاملوا مع التهديد بجدية، ومش كل مرة هتسلم الجرة!

بايدن قال مبدهاش بقي، ونشر تقارير أجهزة المخابرات الأمريكية بالتفصيل.
تقارير شملت قائمة اغتيلات على رأسها زيلينسكي، تنفذ في أول أيام الغزو، وقائمة ثانية فيها خلفاء زيلينسكي المحتملين على رأسها الرئيس السابق يانوكوفيتش.

قرار غير مسبوق لأن الكشف عن تفاصيل معينة ممكن يعرض المصادر داخل الكرملين للخطر، لكنه اضطر يأخذه عشان يثبت للمشككين إن المرة دي غير كل مرة!

وفي نفس الوقت يوجه رسالة لبوتين إن المركب اللي أنت سايقها مليانة ثقوب، والمركب المتقوبة تغرق!
وبدأ يفكر في حل المعضلة اللي هو فيها:

إزاي ممكن يحمي أوكرانيا من غير ما يحارب روسيا؟
الحل في تسليح الجيش الأوكراني.

أوكرانيا تلقت مساعدات عسكرية من الولايات المتحدة بقيمة ٢.٧ مليار دولار منذ ٢٠١٤.
في يناير ٢٠٢٢ بايدن وافق على مساعدات إضافية بقيمة ٢٠٠ مليون دولار شملت صواريخ جافلين المضادة للدبابات.
في رسالة لبوتين إن اللي هيتهور، هيتعور، فالطيب أحسن، ومفيش داعي لاستخدام العنف.
بوتين قال لا معلش وقت الكلام انتهى، ورفع شعار الملكة سيرسي في مسلسل

Game of Thrones:

I choose violence!

أنا أختار العنف!

في نهاية سنة ٢٠٢١ روسيا أصدرت قائمة مطالب من ٨ نقط لتفادي التصعيد العسكري في أوكرانيا، أهمهم عدم انضمام أوكرانيا للناتو، والتعهد بعدم التوسع للشرق، ووضع حدود على نشر القوات والأسلحة في المناطق الشرقية للتحالف، بهدف إعادة الوضع لما قبل توسع سنة ١٩٩٧، مما يعني سحب أسلحة وقوات التحالف من بولندا، ودول البلطيق، ودول البلقان!
القائمة قوبلت بالرفض من أعضاء الناتو، وعلق عليها السكرتير العام النووي ينس ستولتنبرج وقال إن انضمام أوكرانيا للتحالف أمر يخص الثلاثين دولة الأعضاء وأوكرانيا فقط.

أنت مالك أنت، بصوت الكابتن أحمد شوبير.

مش شغلتك أنت خالص، مش حدودك أنت خالص!

ولكن بوتين لم يهتم بعدم قبول الغرب للمطالب، بالعكس، يمكن يكون قصد إصدار القائمة بهذا الشكل المبالغ فيه لضمان رفضها، عشان يبقى اسمه جنح للسلم ولم يجنحوا له.

الدولة الوحيدة اللي اهتم برأيها والدخول في تحالف معها هي الصين.

تحالف السبب الرئيسي وراءه هو جو بايدن.

في فبراير سنة ٢٠٢١ الصين كانت على موعد مع تنظيم الأولمبياد الشتوية في بكين، في وقت علاقتها بأمريكا كانت في أسوأ فتراتهما.

الخلاف بين الدولتين على زعامة العالم ظهر على ثلاث محاور:

غزو الصين المحتمل لجزيرة تايوان، اللي تعتبرها جزء من أرضها، وحرب الرقاقات أو ال Chips War، ونفوذ الصين المتزايد في شرق آسيا.

ورغم علاقة بايدن الجيدة بشي جين بينغ أثناء إدارة أوباما، إلا أن بعد انتخابه كرئيس العلاقة توترت بشكل ملحوظ.
أول مكاملة بينهم بايدن أعرب عن قلقه تجاه ما يحدث من تطهير عرقي للمسلمين في الصين، وتحديدًا في إقليم شينجيانغ، بالإضافة لاعتراضه على السياسات العدائية تجاه الجار الأصغر والأضعف تايوان.

شي جين بينغ قاله لا ده أنت جاي تنشر الديمقراطية عندنا بقي!

في سبتمبر الولايات المتحدة، وبريطانيا، وأستراليا، أعلنوا عن تحالف عسكري باسم تحالف أوكوس.
تحالف هدفه عزل الصين ومنعها من زيادة نفوذها في محيطها الجغرافي.
ومع بداية ٢٠٢٢ بايدن أعلن المقاطعة الدبلوماسية لأولمبياد بكين بسبب انتهاكات حقوق الإنسان في الصين.
الرياضيين هيثاركووا ولكن في غياب أي حضور لممثلي الحكومة.
مقاطعة انضم لها في ذيل أمريكا بريطانيا، وأستراليا، وكندا، وسهلت على الصين وقوفها في صف روسيا.
قبل بداية الأولمبياد بوتين قابل جين بينغ للمرة الـ ٣٨ الصين وروسيا وقعوا على بيان مشترك طالبوا فيه أمريكا بالتخلي عن عقلية الحرب الباردة، ووقف تمدد الناتو للشرق.
البيان انتقد تحالف أوكوس، والمقاطعة الدبلوماسية، وأعلن عن تعاون بلا حدود بين روسيا والصين، أحد أهدافه هو منع حدوث ثورات زي الثورة البرتقالية وثورة الورد، بحجة نشر الديمقراطية اللي اعتبروها حسان طروادة التدخل الأجنبي.
تحالف روسيا والصين شبيه بتحالف روسيا وألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية، وفرنسا وروسيا قبل الحصار القاري والمرحلة الأخيرة من الحروب النابليونية.
تحالف ينذر بصراع وشيك على وشك زلزلة أوروبا كلها.
ماكرون اللي يرجح إنه شاف نفسه زعيم الاتحاد الأوروبي بعد خروج بريطانيا، وتنحي ميركل بعد قرارها عدم خوض الانتخابات، زار بوتين في موسكو، ولما رفض يعمل اختبار الكوفيد خوفاً من حصول روسيا على حمضه النووي، قعد بعيد عن بوتين على ترابيزة طولها ٦ متر، وحاول يقنعه بضرورة عدم التصعيد.
بوتين اشتكى من الناتو ومن المعاملة الغربية، وفي النهاية لم يلتزم بأي شيء.
عايزيني أفضل ساكت؟ تعهدوا بعدم انضمام أوكرانيا للناتو.
ماكرون رجع من عنده زي ما راح، ولكنه مستسلمش.
يوم ٢٠ فبراير اتصل بيه واقترح عليه تنظيم قمة مع بايدن في جنيف لمناقشة الأمن الأوروبي، بوتين قال له بص أنا هاكلمك بصراحة، أنا حالياً في الجيم، ورايح ألعب آيس هوكي!
بس أوعدك قبل ما أبدأ الماتش هكلم المعاونين عندي وأبلغهم باقتراحك.
ماكرون قفل معاه وقعد يرقص في المكتب، واقترح إنه على وشك تحقيق انتصار دبلوماسي يؤكد إنه المعلم الجديد في أوروبا، ومكنش يعرف إن المعلمين الكبار خدوا قرارهم بالفعل.
يوم ٢١ فبراير، بعد انتهاء دورة الألعاب الشتوية، تم عقد اجتماع مجلس الأمن القومي الروسي في الكرملين، لمناقشة اقتراح البرلمان بالاعتراف بمناطق دونيتسك ولوهانسك كجمهوريات مستقلة.
الوزراء وقادة الأجهزة الأمنية قعدوا على بعد ١٠ متر من بوتين كأنهم طلاب في المدرسة قاعدين أمام الأستاذ.
وزير الخارجية لم يدعم المشروع وفي نفس الوقت لم يهاجمه، بينما رئيس الوزراء حذر من العواقب الاقتصادية فبوتين قاطعه، وقاله موافق ولا تشرب شاي؟
شكلك عايز تشرب شاي!
واحد شاي بالبولوجيوم هنا يابني!
رئيس المخابرات الأجنبية الروسية سيرغي ناريشكين اتكلم وهو متوتر، فبوتين قاطعه وقاله اتكلم بوضوح!
ناريشكين توتر أكثر وقال إنه يؤيد الاقتراح بضم دونيتسك ولوهانسك لروسيا.
بوتين قاله مش ده اللي بنناقشه، إحنا بنناقش الاعتراف باستقلالهم، عايز إجابة واضحة، مع أم ضد؟ أه ولا لأ؟
ناريشكين تلغثم، ولكن استجمع قواه، وقال مع يا ريس!
بوتين مسابش عضو من أعضاء المجلس مهما كانت درجة توتره أو عدم ارتياحه إلا لما خلاه يؤيد بشكل واضح وصريح الاعتراف باستقلال المنطقتين، وفي نهاية الاجتماع، وقع على مشروع القانون، وأصبحت روسيا الدولة الأولى والوحيدة المعترفة

باستقلال دونيتسك ولوهانسك.

في خطاب تلفزيوني لاحق في المساء، بوتين أعلن عن اعتراف روسيا باستقلال الجمهوريتين، اللي دعمهم الكرملين آخر أربع سنين بثلاثة مليار دولار سنويًا، وعن إرساله قوات روسية لحفظ السلام. أوكرانيا أصبحت دولة يقودها نظام نازي تابع للغرب. نازي؟

يا عم والمصحف يهودي!

دي شهادة وفاة بابا يا أستاذ لمبي!

في المقابل زيلينسكي استمر في التقليل من احتمالية الغزو.

بعد إخلاء السفارتين الأمريكية والبريطانية في منتصف فبراير، زيلينسكي قال العدو الأكبر الآن هو الذعر (147)، لو الحكومات الغربية عندها أدلة على الغزو ياريت يشاركوها معنا. تصريحه أدى لانتشار ميم على السوشيال ميديا، شاركها أعضاء في البرلمان والمخابرات، عليها مستر بين واقف على طريق فاضي، ومكتوب جنبه في انتظار الغزو الروسي. صورة ساخرة ومضحكة، ولكن زيلينسكي من جواه مكنش بيضحك؛ لأنه كان عارف إن الغزو مسألة وقت مش أكثر، ولكن خاف لو عبر عن مشاعره الحقيقية يتسبب في انهيار الاقتصاد، وهروب الرجال ورأس المال. ولكن بعد ضم دونيتسك ولوهانسك، معدش ينفخ التجاهل. يوم ٢٣ فبراير زيلينسكي رأس اجتماع مجلس الأمن والدفاع القومي الأوكراني لمناقشة الغزو المحتمل. التقارير أشارت لثلاثة احتمالات:

الأول هو بقاء القوات الروسية وعدم التحرك خارج دونيتسك ولوهانسك.

والثاني هو الغزو من الشرق لعمل كوريدور لربط القرم بدونيتسك ولوهانسك بريًا.

الثالث وده الأخطر هو الغزو الشامل من روسيا وبيلاروس في الشمال، مما يعني محاولة احتلال العاصمة كييف!

هل ممكن يغامر بوتين بالغزو في ظل خسائر عسكرية محتملة، وعقوبات اقتصادية مؤكدة؟

من السهل الاستهانة بالعقوبات الاقتصادية من مجموعة ضباط سابقين في الكي جي بي لا يفقهوا شيء عن الاقتصاد.

بالإضافة إلى أن اعتماد أوروبا على الغاز الروسي، ونجاح روسيا في جمع احتياطي نقدي بقيمة ٦٥٠ مليار دولار، خلقوا شعور زائف بالأمان، وقللوا من حجم المخاطر، ولذلك كل الاحتمالات قائمة.

الاجتماع انتهى دون وضع خطة محددة لما هو قادم لصعوبة توقعه، خاصة بعد تحول خطاب الإعلام الروسي.

القنوات التلفزيونية بعد استمرارها في التأكيد على رغبة روسيا في التفاوض والحل السلمي، فجأة بدأوا في عرض مشاهد قتلى وضحايا تفجيرات ادعوا إنها من شرق أوكرانيا، حيث الأقليات الروسية تتعرض لاضطهاد من الحكومة النازية المحببة للإبادة العنصرية في كييف.

زيلينسكي قرر محاربة الكلمة بالكلمة، وبما إنه مش عارف يتفاهم مع الحكومة الروسية، هيخاطب الشعب الروسي.

فألقي خطاب تلفزيوني كتبه بالكامل، وقاله باللغة الروسية، لغته الأم اللي نادرًا ما يستخدمها في الخطابات العامة، وقال:

أريد أن أناشد اليوم جميع مواطني روسيا لكن ليس كرئيس.

إنني أناشد المواطنين الروس كمواطن أوكراني.

اليوم، تقف قواتكم على طول تلك الحدود، ما يقرب من ٢٠٠ ألف جندي، وآلاف المركبات العسكرية.

هذا يمكن أن يصبح بداية حرب كبرى في القارة الأوروبية، أي شرارة يمكن أن تشعلها.

يُقال لكم إننا نازيون، ولكن كيف يمكن لشعب ضحى بأكثر من ثمانية ملايين روح من أجل النصر على النازية أن يدعم

النازية؟

كيف يمكن أن أكون نازياً؟

قل ذلك لجدي، الذي خاض الحرب بأكملها في مشاة الجيش السوفيتي، ومات برتبة عقيد في أوكرانيا المستقلة. نحن مختلفون، ولكن هذا لا يعني أننا يجب أن نكون أعداء.

لقد ذهب العديد منكم إلى أوكرانيا.

العديد منكم لديه أقارب في أوكرانيا.

البعض منكم درس في الجامعات الأوكرانية، وأصبح صديقاً للشعب الأوكراني.

أنتم تعرفون شخصيتنا.

أنت تعرفون شعبنا.

أنت تعرفون مبادئنا.

أنت على علم بما نعتز به.

لذا يرجى الاستماع إلى أنفسكم، إلى صوت العقل، إلى الفطرة السليمة.

اسمعونا!

الشعب الأوكراني يريد السلام.

أغلب معاوي زيلينسكي غلبتهم الدموع وهم يسمعه بيلقي أقوى، وأهم، وأصدق خطاب قاله في حياته.

زيلينسكي حاول يتصل ببتوتين، لكنه مردش عليه.

فأوجه لمقر إقامته الرئاسي في جنوب كييف على بعد ١٥ كم من وسط المدينة، وقضى المساء مع مراته أولينا، وأولاده

أولكسندرا ١٧ سنة، وكيريلو ٩ سنوات.

انتهت حلول الأرض، الأمر متروك للسماء.

وسماء كييف كانت على وشك التحول لقطعة من جهنم.

[139](#) مصطلح في العلوم السياسية يستخدم لوصف الدول غير المستقرة التي تعتمد على تصدير الموارد الطبيعية.

[140](#) Steinmeier Formula.

[141](#) الأحاديث غير المهمة بين الأعراب لقتل الوقت وتبادل الذوقيات مثل الحديث عن الطقس.

[142](#) Dominance.

[143](#) Gestures.

[144](#) Body language.

[145](#) Steroids.

[146](#) Legacy.

[147](#) Our greatest enemy now is panic.

الحرب العالمية الثالثة

«كنا نعتقد أن الروس لديهم ثاني أفضل جيش في العالم،

والآن نعلم أن لديهم ثاني أفضل جيش في أوكرانيا».

نكتة أوكرانية

الساعة ٢ الفجر يوم ٢٤ فبراير، روسيا أصدرت توجيه للطارين أو NOTAM: Notice to Airmen لتحذير كل الطائرات المدنية لمغادرة الأجواء الأوكرانية، وإعلان بداية الغزو الروسي.

الساعة ٤:٣٠ زيلينسكي صحي مفزوع على الخبر، عائلته تم أخذها لمكان آمن خارج العاصمة، وهو راح مجمع المباني الحكومية المغلق في شارع بانكوف.

الشارع مغلق أمام السيارات ومحصن بشكل يخليه أكثر مكان متأمناً في العاصمة رغم إنه في وسطها.

أول حاجة عملها كانت تسجيل خطاب موجه للشعب الروسي:

لقد قيل لكم إن هذه الشعلة ستجلب التحرر لشعب أوكرانيا، لكن الشعب الأوكراني حر.

إنهم يتذكرون ماضيهم، وسيبنون مستقبلهم.

إنهم يبنون، ولا يهدمون، كما يقولون لكم هم أنفسهم يوماً بعد يوم على شاشة التلفزيون.

أوكرانيا في الأخبار، وأوكرانيا في الحياة الحقيقية هما مكانان مختلفان تماماً، والفرق هو أن الأخيرة حقيقية.

من سيعاني أكثر من هذا؟ الناس.

من لا يريد هذا أكثر من أي شخص آخر؟ الناس.

من يستطيع منع هذا؟ الناس.

أعلم أنهم لن يظهروا مناشدتي هذه على التلفزيون الروسي، لكن مواطني روسيا يجب أن يروا ذلك.

يجب أن يعرفوا الحقيقة، والحقيقة هي أن هذا يجب أن يتوقف قبل فوات الأوان.

وإذا كانت القيادة الروسية لا تريد الجلوس معنا على الطاولة من أجل السلام، فرمما تجلس معكم.

هل يريد الروس الحرب؟ أود كثيراً أن أجيب عن هذا السؤال، لكن الجواب يعتمد عليكم فقط، مواطني روسيا الاتحادية.

خطاب آخر مؤثر لكنه لم يحدث أي فارق.

الوقت اتأخر لاستجداء عطف الشعب.

اليوم سكتت الأفواه، وتكلمت البنادق.

الساعة ٤:٥٠ دقيقة السماء الأوكرانية بدأت تمطر صواريخ.

قصف شرس من الشرق للغرب، ومن الشمال للجنوب.

الهجوم البري بدأ من الشمال، والشرق، والجنوب.

حوالي ١٦٠ - ١٩٠ ألف جندي اجتاحوا حوالي ٢٠٠٠ كم من الحدود الفاصلة بين أوكرانيا، وروسيا، وبيلاروسيا، في حشد

عسكري هو الأكبر في تاريخ روسيا منذ الحرب العالمية الثانية.

تحرك تزامن مع إذاعة خطاب لبوتين، يرجح إنه مسجل لأنه لبس فيه نفس البدلة التي كان لابسها في اجتماع مجلس الأمن

القومي يوم ٢١ فبراير، وأعلن عن بداية العملية العسكرية الخاصة (148) في أوكرانيا، وطالب الجيش الأوكراني بالتخلص

من زيلينسكي، والانقلاب على أعضاء الحكومة، التي وصفهم بالإرهابيين، وعصابة المدمنين، والنازيين الجدد!

بايدن كان أول رئيس يتصل بزيلينسكي لمواساته والتأكيد على مساعدته، وعرض عليه إخلائه من أوكرانيا للحفاظ على

حياته.

زيلينسكي هو الهدف رقم واحد على قائمة الاغتيالات الروسية، وعائلته من رقم اثنين لأربعة. وتقارير المخابرات الأمريكية، والبريطانية، بتقول إن كلها أيام على سقوط كييف. سقوط توقع بعض الخبراء العسكريين حدوثه في أقل من ٧٢ ساعة!

زيلينسكي رفض، وقاله الحرب هنا، أنا مش محتاج توصيلة، أنا محتاج ذخيرة! (149).

المقولة انتشرت كالنار في الهشيم، وأظهرت زيلينسكي كبطل شجاع في وجه معتدي غاشم. ولكن في نفس الوقت تم التشكيك فيها لعدم تأكيدها من البيت الأبيض أو مكتب زيلينسكي، قبل ما يؤكد لها رئيس وزراء بريطانيا بوريس جونسون، ويصرح إنه عرض على زيلينسكي الإخلاء، ولكنه رفض بشكل قاطع.

مش عايزين إخلاء، عايزين ذخيرة!

زيلينسكي خبير التواصل فاهم إن أهم حاجة في الأوقات الحرجة هي التواصل المستمر، وعارف إن دوره كرئيس هو رفع الروح المعنوية وطمأنة الشعب، على أن يقوم بمهام الدفاع رجال وزارة الدفاع. أحياناً تعتمد القيادة على ما لا يفعله القائد أكثر مما يفعله.

زيلينسكي تحول لماكينة تواصل، خاطب الشعب الأوكراني بثقة وهدوء، وقال لهم اطمئنوا، إحنا بنشتغل، ونقاتل للدفاع عن أوكرانيا.

وخاطب الشعب الروسي مجددًا، وطلب منهم الضغط على الحكومة لوقف الحرب، ولكنه حذرهم وقالهم لو هاجمتونا هتشفووا وشنا مش ظهرنا!

وفي نفس الوقت خاطب المجتمع الدولي وطلب مساعدات عاجلة بعد ما روسيا هجمت عليهم زي النازيين.

وزير المالية الألماني كريستيان ليندнер قال له أنت مستعجل على المساعدات ليه؟

كلها كام ساعة وتسقط كييف!

ولكن كما علمتنا غزة، الأرض تقاتل بجانب أبنائها.

وزير الدفاع الروسي شويجو كان واحد من أربعة عارفين خطة الغزو، مع رئيس المجلس نيكولاي باتروشييف، ورئيس الإف إس بي بورتنيكوف، ورئيس المخابرات الأجنبية ناريشكين.

وعلى عكس موقفه من غزو القرم سنة ٢٠١٤، سنة ٢٠٢٢ أيد غزو أوكرانيا لاقناعه أن العملية العسكرية لن تستمر لأكثر من عدة أيام، أو أسابيع قليلة في أقصى تقدير.

والسر وراء الثقة في سرعة تنفيذ المهمة بالتخلص من حكومة زيلينسكي وتعيين حكومة أخرى موالية لروسيا هو التركيز على غزو العاصمة، والاقناع أن سقوط الرأس سيؤدي إلى انهيار الجسد.

المشكلة أن الخطة دي تفترض القدرة على احتلال العاصمة، والمشكلة الأكبر أنها شديدة الشبه بخطة غزو جروزني عاصمة الشيشان، وكابول عاصمة أفغانستان، وفي كلتا الحالتين العاصمة قاومت أكثر مما هو متوقع، وبعد سقوطها الجسد استمر في المقاومة.

وبالنظر لجغرافية المدينة، احتلال كييف قد يكون أصعب من احتلال كابول وجروزني.

والخطوة الأولى فيه كانت السيطرة على مطار أنتونوف.

الهجوم الأول للجيش الروسي مع بداية الغزو كان على مجموعة من القواعد العسكرية، والمطارات، ومخازن الأسلحة والذخيرة.

أوكرانيا رغم تشكيكها في الغزو في العلن، نجحت في نقل عدد كبير من المعدات لأماكن آمنة في الخفاء تحسبًا لأي حركة غد.

الخطة الروسية لاحتلال كييف اعتمدت على ضرب الطائرات لضمان التفوق الجوي، واحتلال المطارات لعمل جسر جوي

قادر على نقل الجنود والمعدات من روسيا بدلاً من الاعتماد على اجتياح العاصمة برياً من الشمال، وانتظار القوات القادمة من بيلاروس.

الجسر الجوي هيصم الانتصار خلال أيام، إن لم يكن ساعات! والمكان الأمثل لعمل الجسر هو مطار أنتونوف للشحن الدولي، في حي هوستوميل على الأطراف الشمالية الغربية لكييف، على بعد ٣٥ كم من مقر الحكومة!

مطار حذر رئيس الـ CIA وليام بيرنز أثناء زيارته لأوكرانيا في يناير أن روسيا هتحاول تسيطر عليه في حالة الغزو، وقد كان. قصف المطار بالصواريخ بدأ فجر يوم ٢٤.

روسيا نجحت في تدمير بطاريات الدفاع الجوي بصواريخ بعيدة المدى قبل وصول الطائرات، ابن أحد العاملين في المطار بلغ المخابرات الروسية بأماكن البطاريات بعد تجنيده، وتدميرهم المطار أصبح بلا حماية في وجه القوات الجوية. ٣٠٠ ضابط وجندي من ضمنهم جنود صغار السن بيقتضوا الخدمة العسكرية الإجبارية عمرهم ما حاربوا قبل كده، أصبحت على عاتقهم مسئولية الدفاع عن العاصمة.

في منتصف اليوم، مجموعة من طائرات الهليكوبتر، وطائرات النقل المحملة بزينة جنود الجيش الروسي من فرق المظلات والعمليات الخاصة، حاولوا الهبوط في المطار، ففوجئوا بسيل لا يتوقف من النيران أدى لإسقاط بعض الطائرات وانسحاب البعض الآخر.

مئات الجنود اللي على الطائرات القادمة من بيلاروس، كانوا فاكرين إنهم طالعين مناورة، وفوجئوا أنهم رايعين أوكرانيا! خلال الرحلة من حدود بيلاروسيا إلى كييف، العساكر الروس عاشوا حالة من الرعب، تحولت لذعر تام مع وصولهم للمطار وتلقيهم للنيران وهما طارين!

مشهد الطائرات المدمرة وجثث زميلهم القتلى على المهبط كانوا كافيين لهزيمتهم من قبل نزولهم. العساكر الأوكرانيين عارفين إن الروس لو خدوا المطار ستسقط العاصمة، فدافعوا عنه بشكل مستميت، وأسقطوا الطائرات الروسية بصواريخ أرض جو محمولة على الأكتاف، وبالاشتباك معهم بما تيسر من الطائرات المقاتلة الأوكرانية، وحتى بالمدافع الرشاشة.

٧ طائرات هليكوبتر أسقطوا بالإضافة لطائرتين شحن من الطراز الكبير وقعوا فمات داخلهم حوالي ٣٠٠ جندي روسي من قوات النخبة.

ولكن بما أن العساكر في الشطرنج وظيفتها الموت من أجل الملك، استمر الدفع بالجنود في مشهد أشبه بكبس اللحم في المفرمة، إلى أن نجحوا في السيطرة على المطار.

فتحولوا لأهداف سهلة للمدفعية الأوكرانية، اللي قصفت المطار من كل ناحية، ودمرت المهابط.

وفي ظل فشل الإنزال الجوي، الأولوية تحولت للاجتياح البري.

(مكنوش بيلعبوا ريد أليرت دول ولا إيه؟!)

كييف تقع على ضفتي نهر الدنيبرو، كأنها مدينتين مختلفتين زي القاهرة والجيزة، على مساحة أكبر من ٧٧٠ كم مربع. مساحة شاسعة محتاجة عدد كبير من الجنود مش بس لاقتحامها لكن كمان للسيطرة عليها، وده الخطأ الأول اللي ارتكبه بوتين.

إعلان الحرب كعملية عسكرية محدودة أدى لعدم حشد عدد كافي من قوات المشاة، فحط العساكر في موقف ضعف بالمقارنة بأهالي المدينة، اللي أول ما عرفوا عن الغزو بدأوا في وضع المتاريس في الشوارع لوقف سير الآليات، أو مدرعات نقل جنود ودبابات الجيش الروسي.

عربات نقل وأتوبيسات وعجل سيارات وبلوكات أسمنتية وأي وكل شيء يصلح لعمل حواجز، ولكن هيعملوا إيه دول في وجه الطوفان؟

الاستراتيجية العسكرية الروسية لم تتغير منذ سنة ١٩٤١: الاعتماد على القوة المفرطة في صورة موجات لا تتوقف من الجنود والآليات لسحق أي مقاومة، وبث الرعب في النفوس.

والرعب تجسد في هيئة صفين من الدبابات والمدرعات طولهم حوالي ٦٠ كم بدأوا في التحرك من الشمال تجاه العاصمة كييف.

المشهد كفيل لفرار أشجع المقاتلين، ولكنه لم يكن كافيًا لكسر الأوكرانيين. صاحب الحق قوي ولو كان ضعيف.

الجيش الأوكراني استعان بكل المعدات وطلاب المعاهد العسكرية للدفاع عن العاصمة.

المدفعية انتقلت للأطراف، فأنقذت من التدمير على يد القصف الروسي للمواقع العسكرية في اليوم الأول.

خطة الدفاع ركزت على منع تقدم القوات الروسية للعاصمة، وتقسيمها بشكل يسرع من عملية اتخاذ القرار.

على عكس الجيش الروسي، الجيش الأوكراني اتعلم من الناتو ضرورة عدم مركزية صنع القرار، فقسم العاصمة لمناطق صغيرة، كل منطقة لها قائد حر في اتخاذ القرارات التكتيكية دون الرجوع للقيادة.

وبالإضافة تم تفجير الكباري فوق نهر الدنيبر، وتفجير السد الواصل بنهر إربين لإغراق مدخل العاصمة من الغرب.

(ضربوا الكباري يبقوا دول كانوا يلعبوا ريد أليرت)

القوات المدفعية تمركزت في هيئة دائرتين دفاعيتين، واحدة في وسط المدينة، والثانية على أطرافها، للاشتباك مع القوات الروسية بعيدًا عن المركز في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من المدنيين.

لكن المدنيين، أو رأس المال الاجتماعي، اللي لا يقل أهمية عن رأس المال النقدي لأي دولة، قرروا المواجهة.

مراكز الدفاع المدني بدأوا في توزيع الأسلحة، وقبول المتطوعون من المدنيين.

الإقبال كان كبيرًا لدرجة أن المراكز أغلقت أبوابها في وجه المزيد من المتطوعين خلال أقل من ٤٨ ساعة؛ لأن معادش في أماكن يقعدوا فيها، أو معدات يستخدموها!

على عكس استطلاعات الرأي اللي أجهزة الأمن الروسية عملتها قبل الغزو ووضحت مدى سخط الشعب على الحكومة؛ لأن الشعب يقاتل دفاعًا عن الأرض وليس الحكومة.

وعلى عكس العساكر الروس غير المدربين، وغير المجهزين، وبعضهم غير راغبين في القتال، الجنود والمتطوعين الأوكرانيين أظهروا إرادة وقدرة على القتال أبهرت البنتاجون!

وسلاحهم الأهم في مقاومة الجيش الروسي، كان خط إمداد الجيش الروسي نفسه!

القوات المقاتلة بتحتاج فرق معاونة لا تقل أهمية من المهندسين، والأطباء، والطهاة، وغيرهم من الوظائف غير القتالية اللي من غيرهم الجيش ينهار.

في الجيش الأمريكي كل جندي مقاتل قصاده حوالي عشر جنود غير مقاتلين.

النسبة أقل في الجيش الروسي في الأوقات العادية، ولكنها مع ذلك بتحط ضغط كبير على خطوط الإمداد والتموين أثناء الحركة؛ لأنها بتتطلب حماية من المشاة.

الجندي الروسي يحتاج حوالي ٢٠٠ كيلوجرام من المون والمعدات يوميًا.

مياه، ووقود، وطعام، وذخيرة، ومستلزمات طبية، بيحتاجوا جهد ووقت لإيصالهم للجبهة.

١٥٠ ألف جندي روسي، محتاجين نقل ثلاثين ألف طن مؤن ومعدات يوميًا!

كابوس خلى الإمداد والتموين يعرف بكعب أكيليس (150). الجيش الروسي، وخلته يفضل الاعتماد على القطارات كحل أضمن وأسهل من العربات.

الأوكرانيين فجروا خطوط السكة الحديد اللي بتربط روسيا بشرق أوكرانيا، بينما في الشمال، لا توجد سكة حديد ممكن

استخدامها للهجوم على العاصمة!

عربات الطبخ والأجهزة الطبية والوقود والمياه كلها عربات غير مدرعة، وبالتالي بحاجة لحماية المشاة أثناء الحركة. يعني المقاتلين محتاجين خدمات معاونة، والخدمات المعاونة محتاجة حماية مقاتلين. وبما أن الجيش الروسي لم يعلن التعبئة العامة، وتعامل مع الغزو كعملية عسكرية خاصة ومحدودة، إما بسبب الاقتناع أن الغزو أسهل وأتفه من وصفه بالحرب، أو خوفاً من الآثار السياسية السلبية للتعبئة العامة داخل روسيا. فتطوير الآليات الطويلة تحوّلت لصيد ثمين للقوات الأوكرانية، العسكرية والمدنية، خاصة بعد تعطل عدد كبير منها، والاضطرار لفك بعضها لاستخدامهم كقطع غيار للباقي! الفساد والاستهتار أدوا لعدم الاهتمام بالصيانة، فالمعدات انهارت مع أول استخدام. ده بالإضافة للمشاكل المعتادة من نقص الوقود والغذاء والملابس. وهكذا باستخدام صواريخ ستينجر الأمريكية المضادة للطائرات، اللي وزعتها الولايات المتحدة على المجهدين الأفغان، الأوكرانيين قدروا يقللوا من إمكانيات الغطاء الجوي للقوات المتقدمة. وباستخدام صواريخ م.د المضادة للدبابات، استهدفوا المدرعات في أول وآخر كل صف، وبعد كده اصطادوا المدرعات اللي في المنتصف بعد افقادهم القدرة على الهرب. أما المقاومة المدنية فهاجمت الآليات غير المدرعة، بعد مناشدة صفحة وزارة الدفاع على وسائل التواصل الاجتماعي بمهاجمة عربات الوقود، اللي اشتعالها هيكون أشبه بانفجار قنبلة. الجيش وجه رسالة واحدة للشعب الأوكراني مع بداية الغزو. اقتلوا جميع المحتلين! صباح الخير يا عم جرجس

Do you condemn Hamas?

التكتيكات الأوكرانية أدت لتراجع عدد كبير من القوات بعد تقدمهم لحماية خطوط الإمداد المكشوفة. وبما أن روسيا ما زالت تعتمد على القيادة المركزية في العمليات العسكرية، العساكر كانوا بيستنوا الأوامر قبل ما يتخذوا أي مناورة ضرورية أمام القوات الأوكرانية. وبما أن الجنود تم حشدهم من مناطق وأسلحة مختلفة داخل الجيش الروسي، خط القيادة لم يكن واضح بالنسبة لكثير منهم؛ ولذلك عدد كبير من القادة اضطروا يروحوا بنفسهم للخطوط الأمامية لضمان تنفيذ تعليماتهم بدقة. النتيجة كانت اصطيادهم من القوات الأوكرانية، اللي قدروا يتبعوا عدد كبير منهم باستخدام موجات المحمول. الروس بيستخدموا قنوات تواصل غير مؤمنة سهلت عملية تعقبهم والتنصت عليهم، مما أدى لاغتيال ١٥ قائد منهم ٧ جنرالات! ولكن رغم بسالة المقاومة وبراعتها، الأعداد المهولة أدت لاستمرار تقدم الروس، ووصلوا للمدن المجاورة لكيف، لكنهم اصطدموا بحقيقة يغفلها أغلب غزاة المناطق الحضرية، وهي وجود فرق شاسع بين القدرة على اجتياح الأرض، والقدرة على الحفاظ عليها.

معارك المناطق الحضرية (151). المهاجم فيها بيكون الطرف الأضعف مهما بلغ من قوة؛ لأنه مع دخوله الشوارع فجأة يبلاقي نفسه في بيئة معرض فيها للخطر من كل اتجاه.

الطوابق العليا، وأنفاق الصيانة، بيخلوا المهاجم معرض للقتل من الأسفل، والأعلى.

إلى جانب ما يسمى بجحور الفئران (152). أو فتحات صغيرة في جدران المباني، المدافع بيضرب من خلالها المهاجم، وبعد كده يهرب من داخل المبنى للناحية الثانية فلما المهاجم يقصف مكان الضرب يكون هو رجع وبعث الفيديو لأبو عبيدة!

كل ده حول الحلم الروسي بإسقاط العاصمة خلال ثلاث أيام إلى كابوس، وخلي الكرملين يلجأ لسلحه السري، اللي بيجهزه من قبل الغزو لتحقيق أهم هدف من أهداف العملية العسكرية: اغتيال زيلينسكي. في الوقت اللي القوات الروسية كانت بتحاول تدخل كييف، فرق الاغتيالات كانوا في العاصمة بالفعل. ٤٠٠ مقاتل من فاجز من أوكرانيا، وبيلاروسيا، وروسيا، دخلوا كييف بجوازات سفر مزيفة، معاهم قائمة اغتيالات على رأسها زيلينسكي، ومعه عمدة كييف فيتالي كليتشكو، وأخوه بطل العالم السابق للملاكمة فلاديمير كليتشكو. قائمة تعقبوا أفرادها على مدار ست أسابيع عن طريق إرسال هواتفهم المحمولة. الخطة كانت الانتظار لحد ما القوات المتقدمة تقدر تخترق الجدار الدفاعي لتأمين طريق خروجهم من العاصمة بعد تنفيذ المهمة، لكن بعد فشل التقدم، الأمر جه بالتنفيذ. الفرقة حاولت الوصول لزيلينسكي مرتين، وفي كل مرة كان بيتم تصفية المهاجمين نظرًا لاستعداد فرق الحراسة وارتفاع درجة تأهبهم.

ولكنها لم تكن الفرقة الوحيدة.

ما لا يقل عن ثلاث فرق اغتيالات كانوا في العاصمة للبحث عن رأس الأفعى، من أخطرها فرقة الشيشان! يوم ٢٥ فبراير تم سماع إطلاق النار في وسط كييف، على بعد حوالي ٤ كم من مقر زيلينسكي! فريق الحراسات الخاصة المكلف بحمايته اقترحوا عليه نقله لمنطقة آمنة في غرب أوكرانيا، في نفس الوقت اللي اتعرض عليه الإخلاء من أوكرانيا كلها من الولايات المتحدة وبريطانيا.

زيلينسكي رفض بشدة، وقال إنه لو هرب من العاصمة الروح المعنوية للجنود هتنتهار، وهينهار معاها الدفاع. وردًا على تصريح متحدث البرلمان الروسي بأنه هرب من العاصمة، خرج للشوارع وصور فيديو وهو بيطمئن فيه الشعب الأوكراني وبيطلب منه الصمود. وأمر بمنع الرجال من سن ١٨ لـ ٦٠ سنة من السفر، وفرض حظر تجول تام لمدة ٣٦ ساعة تصفية المخربين الروس من الشوارع.

طبقًا لرئيس مجلس الأمن والدفاع القومي الأوكراني أوليكسي دانيلوف، أعضاء من جهاز الإف إس بي معترضين على الحرب اتصلوا بهم وبلغوهم بمكان فرقة الاغتيال الشيشانية. وبالفعل، لقوها على أطراف كييف وصفوها بالكامل.

دانيلوف بيقول إن المتصل ممكن يكون بيكذب بخصوص الدافع وراء المكالمة، وممكن لا. لو صادق فده يدل على انقسام المجتمع الروسي وأجهزة الدولة حول جدوى الحرب. ولو كاذب، فيمكن بعض أعضاء الأجهزة الأمنية رفضوا حصول قاديروف على امتياز اغتيال زيلينسكي فبلغوا عن العملية لضمان إحباطها.

في كل الأحوال الغزو بيوحّد أوكرانيا، وبيقسم روسيا، اللي خلال وقت قليل أعلنت الانسحاب من الشمال، والتركيز على الشرق، بعد فشلها في احتلال كييف.

الفشل أثبت ارتكاب بوتين لأربع أخطاء مصيرية عن طريق الاعتماد على افتراضات غير حقيقية.

الخطأ الأول هو الافتراض أن الشعب سيرحب بهم كمحررين (153).

الشعب قاوم عملاً بمقولة أدعي على حكومتي وأكره اللي يقول آمين.

الخطأ الثاني هو الثقة الزائدة في قوة الجيش الروسي.

القوة العددية شيء، لكن الكفاءة الميدانية شيء آخر.

الخطأ الثالث هو الاستهانة بقدرة وإرادة الجيش الأوكراني على القتال.

على عكس اللي حصل سنة ٢٠١٤، لما طُلب من العساكر الأوكرانيين على جزيرة الثعبان الاستسلام من قبل السفينة موسكفا سنة ٢٠٢٢، العساكر ردهم كان:

!Go fu*k yourselves

منتج يا باولو!

ويمكن يكون الصمود سببه ارتفاع الشعور بالهوية الوطنية منذ ضم القرم، وممكن يكون بسبب الفظائح اللي ارتكبتها روسيا خلال القصف العشوائي خلال الأيام الأولى.

أستاذ العلوم السياسية الأمريكية جون ميرشايمر يقول إن أحد أهم أسباب مقاومة الاتحاد السوفيتي للغزو النازي هو اقتناع النازيين إنهم أمام خطر إبادة، وده بيخلي احتمال الموت أهون من مرارة الاستسلام.

مفيش حد عاقل يقصف المدنيين، وبعد كده يتوقع استسلام المقاومة!

الخطأ الرابع والأهم هو استهانته بزيلينسكي اللي أثبت إنه الشخص السليم في المكان السليم.

قائد لا يتدخل في الأمور العسكرية، وعارف إن هدفه جمع المساعدات ورفع الروح المعنوية.

الكرملين له حق يتوقع هرب زيلينسكي، أجدع منه وهربوا!

يانوكوفيتش هرب سنة ٢٠١٤، والرئيس الأفغاني المدعوم من الولايات المتحدة، أشرف غاني، هرب من أفغانستان بعد اجتياح طالبان للعاصمة سنة ٢٠٢١.

ولكن زيلينسكي رغم خوفه وتعرضه لضغط مهول كان بيخليه يعرق من كف إيده كأنه طالب على وشك دخول امتحان غير مستعد له، رفض الهروب رغم تعرضه لما لا يقل عن ١٢ محاولة اغتيال، فأصبح رمزاً عالمياً للصمود.

زيلينسكي اللي بطل يخلق، وبطل يضحك، وبقى يلبس تي شيرت عسكري بدل البدل، شعبيته ارتفعت لحوالي ٩٣%، وبقى من أشهر الشخصيات حول العالم.

مع كل اقتحام لقرية، ومع كل قصف، وكل مجزرة، كان بيبعث صور البيوت المهدومة، والأطفال المقتولة لزعماء العالم على تليفوناتهم، ومن ضمنهم جيك سوليفان مستشار البيت الأبيض للأمن القومي، فعجل من وصول المساعدات لأوكرانيا، وتوقيع العقوبات على روسيا.

وعقوبات ٢٠٢٢، مش زي عقوبات ٢٠١٤!

من أول يوم في الغزو الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، وقعوا مجموعة من العقوبات لشل الاقتصاد الروسي وتقييد يد بوتين.

تم طرد البنوك الروسية خارج نظام سويفت العالمي للبنوك، والاستحواذ على أكثر من نصف أصول روسيا وحساباتها البنكية في الخارج.

العقوبات المرة دي على روسيا كدولة، وعلى أعضاء النخبة الروسية من الحكومة ورجال الأعمال.

آلاف اليخوت، والشركات، والحسابات البنكية تم التحفظ عليها.

رومان أبراموفيتش أُجبر على بيع نادي تشيلسي، وتحول اسمه لشبهة بعد ما كان أعضاء نخبة لندن السياسية والاقتصادية يتمنوا دخول دائرته.

شبكات المعاملات البنكية فيزا وماستر كارد توقفوا عن العمل في روسيا، ومنعوا استخدام الكروت الروسية في الخارج، وفي نفس الوقت منعوا الكروت الأجنبية من العمل داخل روسيا.

ده بالإضافة لحظر كامل على تصدير الرقائق الإلكترونية ضرب صناعة الأجهزة الكهربائية المنزلية، والمعدات العسكرية في مقتل!

وإلى جانب العقوبات الغربية وحظر الشركات الأمريكية من العمل في روسيا، زيلينسكي وجه دعوة لجميع الشركات

متعددة الجنسيات (154). لترك روسيا، لضمان عدم حصول الكرملين على أي دخل يساعد في استمرار الغزو.

حوالي ١٣٠٠ شركة متعددة الجنسيات أعلنوا وقف عملهم في روسيا!

أكثر من ٥ مليون وظيفة مهددة!

الشعب أصيب بحالة من الذعر!

النقود اختفت من ماكينات السحب، والبضاعة اختفت من على الرفوف توقعًا لعدم وجودها في المستقبل القريب.

الروبل فقد ٤٠% من قيمته، والبورصة انهارت فالحكومة اضطرت لإغلاقها ومنع التداول.

بعد أسبوعين من بداية الغزو بايدن تباهي بقرب انهيار الاقتصاد الروسي بسبب العقوبات، بينما بوتين، التلميذ النجيب لكتاب التخطيط الاستراتيجي، كان يستعد لتوجيه ضربته.

الشركات اللي أعلنت توقف العمل في روسيا، ما زال عندها أصول في روسيا، وفلوس عايزة تخرجها من روسيا!

الحل هو إيجاد مشتري روسي، أو من دول غير غربية وبالتالي غير خاضع للعقوبات.

بوتين قال مش عايزين تشتغلوا؟ وماله، ابقوا قابلوني لو عرفتم تبيعوا!

وأمر بعمل لجنة لمراجعة كافة صفقات الاستحواذ، والتأكد أن الشركة هتتباع بخسارة.

في تقرير في صحيفة النيويورك تايمز عن بيع الأصول الأجنبية في روسيا، أحد المصادر أكد أن الشركات لا تحصل على موافقة لإتمام الصفقة إذا لم يكن السعر المطروح نصف القيمة السوقية أو أقل!

وأحيانًا اللي بيقوم بعملية الشراء، أو الاستحواذ بوضع اليد في بعض الأحيان، بنوك وشركات تابعة للدولة، أو للأوليغاريكي الجدد من حاشية بوتين.

التقرير الصادر سنة ٢٠٢٣ يقول إن الشركات تكبدوا خسائر تفوق ١٠٣ مليار دولار منذ بداية الغزو، بينما بوتين كسب من شراء أصول برخص التراب، وفرض ضرائب على عمليات البيع للسماح بخروج النقود خارج روسيا، وفي نفس الوقت استخدم الشركات كجزرة تمنح لمن يشاء لخلق نخب جديدة، والحفاظ على ولاء النخبة القديمة.

ولضمان عدم خسارة الوظائف، تم استبدال البراندات العالمية بأخرى محلية، بتقديم نفس المنتجات، وبنفس الطعم.

محل الحلويات كريسبي كريم فتح مكانه في نفس الفروع، وباستخدام نفس الأفران، محل اسمه كرانشي كريم، بينما ستار باكس فتح بدلًا منه ستار كوفي.

بعض الشركات لا يوجد لها بدائل محلية، على الأقل بصورة مطابقة، زي نتفليكس اللي وقفت تقديم خدماتها، وديزني ووارنر برازرس اللي قالوا إنهم مش هيعرضوا أفلامهم في السينمات الروسية.

ولكن بوتين قال مش مشكلة، كفاية علينا لن أعيش في جلباب أبي!

وبدأ هو في استخدام سلاح العقوبات على الغرب عن طريق وقف ضخ الغاز لأوروبا في خطوط نورد ستريم، باعتبار إن التوربينات بحاجة لصيانة، والصيانة غير ممكنة في ظل العقوبات.

أسعار الغاز تضاعفت في أوروبا، وتسببت في أزمة غلاء طاحنة تزامنت مع زيادة الطلب على البضائع الناتج عن تعافي الاقتصاد بعد الكورونا.

بعض الأصوات في الكرملين راهنت أن احتياج أوروبا للغاز الروسي هيقف دعمهم لأوكرانيا، ولكنه أثبت مع الوقت أنه رهان خاسر.

لأن الغاز مهما غلي، مش هيبكون أغلى من الكرامة.

صحيح بعض المظاهرات خرجوا للتنديد بدعم أوكرانيا والاعتراض على الغلاء في العواصم الأوروبية، لكن الرغبة في التخلص من الاعتماد على روسيا كانت أكبر.

وده خطأ استراتيجي قاتل ارتكبه بوتين.

مش بس لأنه قطع الغاز في الصيف فممنح أوروبا شهور للاستعداد قبل الشتاء، لكن كمان لأنه حرم نفسه من الدولارات قبل ما يحرمهم من الطاقة، وحرقت كارت كان ممكن يستخدمه بشكل أكثر حكمة وهوادة. الحكومات الأوروبية، وعلى رأسهم ألمانيا، بدأوا في الاعتماد على الغاز المسال واستيراده من دول أخرى زي قطر لتعويض نقص الغاز الروسي.

وأصبح أحد أهداف الاتحاد الأوروبي تعويض كل الطاقة الناتجة من الغاز الروسي بشكل كامل بسنة ٢٠٢٧. فروسيا اللي كانت فاكرة إن أوروبا كلها تحت ضرسها، أصبحت تحت فك تنين لا يرحم: الصين. الصين استفادت من الحرب الأوكرانية بسبب إنهاك الولايات المتحدة بالدعم العسكري والدبلوماسي، وإلهاء الإعلام الأمريكي عن الحرب التجارية مع الصين.

بالإضافة أنها فرصة ممتازة لدراسة ردود الأفعال اللي ممكن تنتج من الغزو الصيني المحتمل لتايوان. طول عمر روسيا سابقة الصين بخطوة منذ بداية الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧، والقدرة على التعلم من أخطاء الحزب الشيوعي الروسي ممكن يكون أحد أهم أسباب استمرار الحزب الشيوعي الصيني في الحكم حتى هذه اللحظة. الصين أيضًا استفادت هي والهند من توافر كميات كبيرة من الغاز والبتروال الروسي، اللي حصلوا عليه بتخفيضات مهولة وصلت في بعض الأحيان لـ ٤٠%.

لكن الصين في النهاية زي ما قال هنري كيسنجر في كتابه On China دولة ترى نفسها مركز العالم، أو ال Middle Kingdom، وتعتمد على التجارة كسلاح رئيسي في مواجهة العالم، سواء لكسب الأصدقاء، أو السيطرة والتأثير على الأعداء. والتاجر ميحبش الخناق قدام المحل!

لا يوجد دليل ولكن صعب تصديق أن بوتين اتخذ قرار الغزو دون إبلاغ شي جين بينغ. وربما ظن شي أنه لا يوجد ضرر من صراع مؤقت ومحدود، ولكن في اليوم الثالث للغزو، بوتين هدد باستخدام السلاح النووي، والوضع اختلف تمامًا!

يرجح أن التصريح أغضب شي، وربما تسبب في فقهه لبعض احترامه لبوتين. حرق كارت كبير زي السلاح النووي في هذا الوقت المبكر، حركة متطلعش من معلمين كبار! بالذات إنها ممكن تتسبب في ردود أفعال غير محمودة للعواقب من الناتو. والصين لا تحب التهور، ولا تحترم عدم الكفاءة!

وفي الوقت نفسه رغم منافستها للولايات المتحدة اقتصاديًا وسياسيًا، إلا أنها لن تستفيد من الدخول معها في مواجهة عسكرية، ومن المؤكد أنها هتضر زيتها زي باقي دول العالم على اختلاف مواقعها من قيام حرب نووية. وقف صادرات القمح في أوكرانيا أثر على أسعار العيش في مصر ودول إفريقيا. العالم أوضة وصالة، واللي بيتخانق في الصالون صوته بيسمّع في المطبخ! بكين فتحت خط اتصال مع واشنطن عن طريق قادة القوات المسلحة في البلدين. رغم التصعيد الدبلوماسي، الجيوش ما زالت على اتصال.

الجيش الصيني فقد الثقة في حكمة بوتين والتزامه بضبط النفس، خاصة في وقت يعاني فيه من تقبل مرارة الفشل في احتلال كيبف وإسقاط الحكومة خلال أيام، فطلب من الجيش الأمريكي عدم الرد باستخدام القنابل النووية في حالة استخدام روسيا لها في أوكرانيا، حتى في حالة تلقيه أمر من القيادة السياسية في واشنطن! وبما أن روسيا غاضبة لعزم الناتو تزويد أوكرانيا بطائرات من طراز ميج السوفيتية عن طريق بولندا، الصين تعهدت للولايات المتحدة بعدم استخدام بوتين للأسلحة النووية، في حالة إلغاء صفقة الطائرات، وقد كان.

وهكذا نجحت الصين في إنقاذ العالم من كارثة محققة، ولكنها لم تستطع إنقاذ بوتين من عواقب أفعاله في الخارج، أو في الداخل.

بعد ثلاثة أسابيع من بداية الغزو، في إستاند لوجنيكي في موسكو أمام حوالي ٢٠٠ ألف شخص رافعين أعلام روسيا، بوتين اللي لبس جاكيت وسويتز مستوردين من إيطاليا ثمهم يتعدى الـ ١٣ ألف يورو، ألقى خطبة للدفاع عن الحرب اللي قال إنه شنها دفاعاً عن المبادئ الروسية.

الخطبة المذاعة على الهواء اتقطع إرسالها حوالي ١٧ مرة، وعلى الرغم من تبرير التلفزيون للقطع إنه نتيجة أعطال فنية، فالمقاطع التي تم نشرها على وسائل التواصل الاجتماعي أظهرت تعرض بوتين لصافرات استهجان من الجماهير في المدرجات!

في حركة تماشت مع خروج عدد صغير ولكنه معبر في مظاهرات ضد الغزو في موسكو.

بوتين قرر قمع المظاهرات بكل قوة لمنعها من النمو والانتشار.

رؤية المقاومة تشجع على مزيد من المقاومة.

في تجربة ميلغرام الشهيرة لفهم العلاقة بين السلطة والطاعة، زي ما ٩٠% من المشاركين أطاعوا الأوامر، واستخدموا كميات مميتة من الكهرباء لصعق شخص الافتراضي بناء على طلب القائمين على التجربة، ٩٠% من المشاركين اللي شافوا حد بيقاوم قاوموا هم كمان!

ولذلك المرة دي على عكس ٢٠١١ المظاهرات اتفضت فور اندلاعها، وأي حد اتمسك اتعاقب بالحبس والغرامة.

واحد مسك رواية الحرب والسلام لتولستوي جنب ضريح الجندي المجهول، اتقبض عليه.

واحدة تانية مسكت ورقة مكتوب عليها لا للحرب في الميدان الأحمر، اتقبض عليها.

واحدة تالثة مسكت ورقة فاضية مش مكتوب عليها أي حاجة، اتقبض عليها برضه!

ولكن السيطرة على الشوارع لم تمنع انتشار الأخبار من الجبهة على وسائل التواصل الاجتماعي، عدد كبير من الجنود سقطوا في الأسابيع الأولى رغم تأكيد الإعلام الرسمي على تحقيق انتصار ساحق.

فتم حجب تويتر وفيسبوك وإنستغرام بتهمة نشر الآراء المتطرفة، ضمن حملة موسعة شملت حجب حوالي ٧٠٠٠ موقع!

خلال ٤ شهور حوالي ٢٥ مليون روسي كانوا بيستخدموا VPN لتخطي الحجب، فالحكومة منعت استخدام التطبيقات الحكومية، زي تطبيقات البنوك، على أي تليفون عليه VPN لتصعيب عملية التخطي.

وفي نفس الوقت البرلمان أصدر قانون بحبس أي حد يروج لمعلومات كاذبة عن الغزو، زي استخدام كلمة حرب بدل عملية عسكرية خاصة، لمدة ١٥ سنة!

قوانين أعادت للأذهان عصر ستالين، فرد الكرملين وقال وماله ستالين؟

مش ستالين ده اللي حقق النصر وقاد الجيش الأحمر لبرلين؟

ضرب النشطاء وحجب المواقع الإخبارية المستقلة وحظرها ضمن احتكار سردية الكرملين للفضاء العام، خاصة في ظل مشاهدة ٨٦% من الشعب للقنوات الحكومية!

المدهش أن رغم النجاح في إخراس القطاع الأكبر من الشعب، أبناء النخبة همّما اللي اتكلموا!

صوفيا أبراموفيتش اللي عندها نصف مليون متابع على الإنستغرام قالت إن أنجح وأكبر كذبة في بروباغاندا الكرملين هي ترويجه لأن أغلب الروس مع بوتين!

بينما بنت المتحدث الرسمي للكرملين كتبت لا للحرب على الإنستغرام!

أما حفيدة بوريس يلتسن، اللي قال لأقاربه قبل ما يتوفى سنة ٢٠٠٧، في نفس السنة اللي حصل فيها بوتين على لقب شخصية العام من جريدة تايمز، أن تعيينه كنائب له كان غلطة كبيرة، عبرت عن دعمها لأوكرانيا!

حتى كسينيا سوبتشاك عارضت الحرب وقالت محدش عارف الكابوس ده هيخلص إمتي، لكن الشيء الوحيد الأكيد أن الناس بتموت.

ولكنها تعلمت من اللي حصلها بعد مظاهرات ٢٠١١، فخذت بنتها وسافرت على تركيا.

وده يطرح تساؤل مهم، ليه مظاهرات ٢٠٢٢ أضعف وأقصر من مظاهرات ٢٠١١، رغم أن المفروض العدد يزيد مع طول المدة، وزيادة المظالم؟

لأن فشل الحركات الاجتماعية يؤدي لليأس، أو الهرب.

اللي نزلوا في ٢٠١١ وانهزموا، يا إما سافروا، يا إما تابوا.

أغلب الظن اللي نزلوا اعتراضًا على الغزو في ٢٠٢٢ كانوا أصغر من استيعاب هزيمة مظاهرات ٢٠١١، وده اللي خلاهم يغامروا أمام قبضة لم يختبروا بعد مدى قوتها.

ومفيش أصعب من المعارضة في وقت الحرب.

المعتزين على الحرب تم رش أبواب منازلهم بعلامة Z اللي استخدمها الجيش الروسي كعلامة على آلياته أثناء الغزو.

محدث عارف على وجه التحديد الحرف معناه إيه، في اللي قال إن الآليات استخدمت حروف مختلفة كل حرف له علاقة بالمنطقة التابعة لها وبالتالي Z من Zapad أو الغرب، بينما وزارة الدفاع كتبت أن Z من Za Pobedu أو من أجل النصر!

ولكن مع الوقت الحرف تحول لرمز الحرب في أوكرانيا، وأصبح يستخدم كوسام شرف للوطنيين، ووصمة عار للقلة المندسة من الخونة والمعارضين!

طبقًا لاستطلاعات الرأي ٧٥% من الشعب الروسي كانوا مؤيدين للغزو في بدايته.

وحتى وإن كانت النسبة غير صحيحة بسبب الخوف من المعارضة، ما زالت تعكس وجود دعم كبير من الناس لبوتين وأحلامه وطموحاته.

المشكلة أن الأحلام دي تحقيقها متوقف على انتصار الجيش على الجبهة، وكل يوم الانتصار ده بيبعد أكثر من اللي قبله!

من أول يوم في الغزو بوتين صعق من ضعف الأداء أمام جيش أضعف وأصغر زي الجيش الأوكراني، ونسبة كبيرة من ضعف الأداء تعود للفساد.

الشائعات انتشرت عن أن قادة جهاز الإف إس بي، اللي كان مفروض يجندوا عدد كبير من القيادات الأمنية الأوكرانية، اختلسوا فلوس الرشاوي بدل ما يدفعوها للضباط.

بتسرقوا فلوس الرشاوي؟

وعايزين ربنا يبارك لكم؟

يقال إن بوتين حط المسئولين عن العملية تحت الإقامة الجبرية، ورفد عدد كبير من الجنرالات لفشلهم في تنفيذ المهمة.

لكن الحقيقة أن الفساد أصبح مؤسسي، وتعدى المسئولية الفردية.

صفقة استيراد عجل للعربات الحربية انتهت بشرائهم من الصين للتوفير واختلاس جزء من الأموال، مما أدى لانفجار العجلات فور تحركها في الظروف المناخية الصعبة في أوكرانيا.

بالإضافة لعدد كبير من القنابل فشلت في الانفجار إما بسبب تخزينهم لفترة طويلة، أو بسبب عيوب في الصناعة، وفي وسط كل ده، العساكر لم يوفر لهم ما يكفي من الغذاء، فسرقوا بيوت ومحلات القرى اللي دخلوها.

ده إلى جانب عدد كبير من الضباط والعساكر الراضين للحرب، وفي نفس الوقت لا يملكون رفاهية العصيان اللي ممكن يعرضهم للمحاكمة العسكرية، فعملوا كل اللي يقدروا عليه لعدم المشاركة، زي إفراغ الدبابات من الوقود، والتحجج بالأعطال لعدم التحرك.

بوتين لم يدرك أن الفساد يؤدي إلى القتل، واكتفى بلوم القادة على عدم الكفاءة، ولوم الجنود على عدم الاستبسال في الدفاع عن الوطن.

ولكن في شهر أغسطس، شهادة الجندي بافيل فيلاتييف أثبتت أن الجيش مهزوم من قبل ما يحارب.

فيلاتييف نشر شهادته على موقع Vkontakte الروسي عن الفترة اللي قضاها في صفوف أحد وحدات النخبة، وقال إنه كان بينام على الأرض في الوحدة لأن مفيش سراير، ولا كان في مياه، ولا كهرباء، ولا حتى أكل، مجرد عيش وشوربة.

على الورق الوحدة فيها ٥٠٠ جندي، ولكنهم في الواقع ٣٠٠. فيلاتيف أضاف إنه اضطر يشتري لبسه الشتوي، لأنه استلم لبس صيفي فقط، ومش مقاسه! أما البندقية فكانت مصدية، وعطلت بعد إطلاق عدة طلقات! أما العربة المخصصة لنقل القذائف، فراملها كانت بايظة! ورغم كل المشاكل دي، تقارير القادة من الجبهة كلها كانت بتقول إن كل حاجة زي فل! زي ما قال كينيث بولاك في كتاب Armies of Sand، هي دي مشكلة عدد كبير من الجيوش السلطوية. الخطة لا يتم توضيحها من الأعلى للانفراد باتخاذ القرار، والتقارير غير صادقة من الأسفل للاحتفاظ بالوظائف! كل ده أدى لمقتل ما لا يقل عن ١٥ ألف جندي وضابط روسي خلال الثلاث شهور الأولى من الغزو! ولم يعد هناك مفر من تعبئة المزيد من الجنود! البرلمان أصدر قانون لإجبار كل الذكور من سن ١٦ إلى ٢٦ سنة للتسجيل في مكاتب التجنيد. الخبر تبعه عشرات الهجمات التخريبية ضد المكاتب عن طريق زجاجات المولوتوف، وغيرها من الوسائل الحارقة اللي هدفها تدمير الوثائق اللي فيها أسماء الجنود المحتملين! ورغم إصراره على عدم وصف الغزو بالحرب، في شهر سبتمبر بوتين اضطر يعلن عن تعبئة جزئية لـ ٣٠٠ ألف مقاتل، في ظل تسريبات عن نية الكرملين زيادة الرقم لمليون و٢٠٠ ألف، فألاف الرجال والأسر تحركوا في طوابير طويلة على الحدود للسفر قبل إجبارهم على التجنيد. وهنا بوتين أدرك الحاجة الملحة لقوة قادرة على تحقيق مكاسب على الجبهة، دون إحداث الخسائر في الداخل. قوة توفر له المقاتلين من غير ما يتحمل تكلفة تعبئة المدنيين. وكلمة السر اللي أثبتت فاعليتها في سوريا، ووفرت له حل المعادلة الصعبة في أوكرانيا، هي فاجنز.

[148](#) Special military operation.

[149](#) The fight is here. I don't need a ride, I need ammo.

[150](#) بطل حرب طرودة الشهر في ملحمة الإلياذة لهوميروس، كان جندي لا يهزم، ولكنه قتل بسهم في كعبه، ومن هنا استخدم التعبير لوصف نقطة ضعف الشيء القوي.

[151](#) Urban warfare.

[152](#) Mouseholes.

[153](#) Liberators.

[154](#) Multinationals.

مذبحة المماليك

«العدو: أنت تقاتل، وتنظر في عينيه، وتطلق النار عليه، ثم يمكنك التوقيع على اتفاق سلام والبدء في تكوين صداقة معه. العدو هو شخص نبيل، لكن الخائن سيطلق النار عليك في ظهره بلا رحمة».

فلاديمير بوتين

رغم إنكاره لسنوات طويلة أي علاقة له بفاجنر، يفجيني بريغوجين ظهر بعد بداية الغزو في فيديوهات مسجلة وهو ييخاطب السجناء داخل السجون الروسية، ويبيشجهم على الانضمام لفاجنر مقابل العفو عن جرائمهم، أيًا كان نوعها، بعد ست شهور من القتال.

فنجح في تجنيد ما لا يقل عن ١١٠٠٠ مقاتل من السجون!

وبسبب صغر حجمها، ومركزية ووضوح القيادة بالمقارنة بالجيش، وفي نفس الوقت بسبب الخبرة اللي اكتسبتها خارج روسيا، وسمعتها المخيفة بسبب تكتيكاتها الوحشية، فاجنر نجحت في تحقيق مكاسب مبهرة في أوكرانيا.

عدد من المدن لم تسقط إلا بعد تقدم فاجنر على رأس القوات الغازية، وده خلى بريغوجين بقى أحد أهم رجال روسيا، لدرجة أن بعض الآراء رجحت احتمالية صعوده للحكم كخليفة لبوتين عاجلاً أو آجلاً.

صعود نجمه السريع زي ما خلاه بطل في نظر بعض الروس، زي ما خلاه محل سخط الجيش الروسي، وعلى رأسه شويجو.

مقاتلي فاجنر بيتلقوا حوالي ثلاث أضعاف أجر مقاتلي الجيش، وسمعتهم ووجودهم الإعلامي القوي وبالأخص على تليجرام خلق حساسية بينهم وبين القوات النظامية، فشويجو حب يرد الجميل.

سنة ٢٠١٨ قوات من فاجنر إلى جانب قوات من الجيش السوري هجموا على مصنع معالجة غاز تابع لشركة كونوكو في شمال شرق سوريا، تحت سيطرة قوات سوريا الديمقراطية الكردية، ومعهم أفراد من القوات الخاصة الأمريكية!

الهجوم على مكان فيه قوات أمريكية معناه المغامرة بالتعرض لهجوم من أقوى قوات جوية في العالم، ولذلك تم الاتفاق مع الجيش الروسي على توفير غطاء جوي.

ولكن مع بداية المعركة، الدعم الجوي لم يظهر!

الجيش الأمريكي رصد تحركات قوة معادية تجاه مصنع معالجة الغاز، فتواصل مع الجيش الروسي وسأله القوات دول تبعك؟

الجيش الروسي كالعادة أنكر أي علاقة بهم رغم أنه مشارك في التخطيط للهجوم.

فالجيش الأمريكي حب يعمل منهم عبرة، ويفهم الجيش الروسي إن الانكار له توابع مكلفة، وأمر القوات الجوية بالاشتباك.

طائرات مسيرة، وطائرات نفاثة، وطائرات هليكوبتر، اشتركوا في تصفية المهاجمين بالكامل!

بريغوجين شعر بالخيانة لعدم ظهور القوات الجوية الروسية كما هو متفق عليه، ولكنه مكنش يعرف إنه اتسلم تسليم أهالي قبلها بيوم، وفضل فاك الموقف لشويجو اللي تحول لعدوه اللدود.

بينما بوتين سعيد بفاجنر، وسعيد بالتنافس.

وجود فاجنر يضمن طاعة وزير الدفاع، ويخلق ثقل مضاد للوقاية من الانقلابات.

وفي نفس الوقت العداء بينهما يضمن عدم تحالفهم ضده، زي ما تحالف برهان وحמידتي في السودان أدى للانقلاب على عمر البشير في أعقاب مظاهرات ٢٠١٩.

توازن حساس تحول لصراع قوي مدمر في شهر يونيو ٢٠٢٣.

مع نهاية ٢٠٢٢ أصبح من الواضح أن فاجنر هي أقوى فرقة في الغزو الروسي لأوكرانيا.

نجاحهم في غزو مدن مهمة زي سوليدار وباخموت حولهم لنجوم داخل روسيا.

المشكلة أنهم مع كل مدينة يباخدها كانوا بيشتكوا من سوء إدارة الجيش للعمليات القتالية. بريغوجين اللي فضل فاكر خيانة شويجو في سوريا لدرجة إنه حكاها في أحد فيديوهات، بدأ يهاجم وزير الدفاع ورئيس الأركان بالاسم، دون أي ذكر لبوتين لا سمح الله. بريغوجين هاجم شويجو بسبب حياة الرفاهية اللي عايشها هو وعائلته، وذكر صفقات حولته في نظره من مقاتل إلى رجل أعمال يتربح من منصبه. وهاجم رئيس الأركان لأن خطه تتسبب في مقتل الآلاف دون تحقيق أي عائد أو مكسب استراتيجي، حرب استنزاف أرخص ما فيها العساكر.

!Too many men for too little gains

نجاحاته العسكرية وهجومه الإعلامي غير المسبوق على أعضاء النخبة السياسية والعسكرية الروسية، وكلامه العلني عن تفكيره في تأسيس حزب، خلى العديد من المتابعين يقتنعوا أنه أصبح الرجل الثاني في روسيا بعد بوتين. أكيد له مكانة خاصة عند بوتين وإلا مكانش يجروا يقول اللي بيقله. لكن الحقيقة إن كلامه المتكرر ده علامة على البعد وليس القرب. بوتين على عكس رؤساء كثيرين لا يتابع ما يحدث على وسائل التواصل الاجتماعي بنفسه، ويكتفي بتقارير أجهزة الأمن والمخابرات.

كل يوم الصبح بوتين يبدأ يومه بقراءة ثلاث تقارير: تقرير المخابرات الأجنبية عن الأحداث العالمية، وتقرير الإف إس بي عن الأحداث المحلية، وتقرير الحراسات الخاصة عن أعضاء النخبة الروسية. أحد أهداف بريغوجين من الظهور الإعلامي المتكرر هو ضمان الظهور أمام بوتين ومعرفة إنجازاته. المشكلة إن انتقاده لقادة الحرب زاد من شعبيته عند المواطنين لدرجة لفتت انتباه الكرملين، خاصة بعد كلامه عن الحزب، ووضوح رغبته في استغلال صعود نجمه سياسياً.

ولذلك في يناير، وزير الدفاع أنهى السماح لفاجنز بتجنيد المساجين، وبعدها أعطى جميع الشركات العسكرية الخاصة، وعلى رأسها فاجنز، مهلة لحد شهر يوليو إما لتوقيع عقد مع الجيش والانضمام للقوات المسلحة، أو لحل المنظمة وترك السلاح. بريغوجين شاف القرار محاولة من شويجو لابتلاع فاجنز، ومخدش باله أنه لا يمكن ياخذ قرار زي ده دون علم وموافقة بوتين، فصعد هجومه ضد وزارة الدفاع، في نفس الوقت اللي الجيش بدأ في التضييق على فاجنز عن طريق الحد من الدعم وإمداد السلاح والذخيرة.

القتلى في صفوف فاجنز زادوا لدرجة خسارتها حوالي ٥٠% من قواتها الأمامية. فبريغوجين زاد من حدة انتقاده، واتصور وهو واقف أمام مقبرة لجنوده، واتهم شويجو بقتلهم لتأخره في إمدادهم بالذخيرة!

وفجأة شتم وزير الدفاع، وقال له: أنتم حثالة تجلسون في نواديكم الفخمة، وأبنائكم يستمتعون بحياتهم، ويسجلون مقاطع الفيديو على YouTube، في إشارة لزوج بنت شويجو، أليكسي ستوليباروف، وهو fitness blogger شهير! الصراع بينهم وصل لمرحلة خطيرة، وبريغوجين بقى عامل زي النخلة الفرعة اللي طرحت في حوش البيت، وزى ما الفنان محمود عبد العزيز قال في فيلم إبراهيم الأبيض، محدش عارف هل بوتين هيقطعها، ولا هيستنى ياخذ طرح بلحها الأول، والإجابة ظهرت بعدها بشهر.

يوم الخميس ٢٢ يونيو بريغوجين طلع في فيديو وهو قاعد بيشرب كوباية شاي، وقال إن وزارة الدفاع خدعت بوتين لشن غزوه على أوكرانيا.

وأضاف أن الحرب ليس لها أي علاقة بالأهداف المعلنة زي ال denazification وال demilitarization أو محاربة النازية، ونزع السلاح من أوكرانيا.

الحرب قامت لأن شويجو عايز ياخذ ميدالية بطل روسيا تاني زي اللي خدها قبل كده!
تصريح عبقري بيحاول يلعب فيه على الحبلين:
من ناحية يهاجم الحرب فيكسب الناس، ومن ناحية يتفادى إغضاب بوتين بانتقاد اللي حواليه وإظهاره في موضع الزعيم
الجيد المحاط بالسيئين!
لكن العالم كان على موعد مع تصعيد من نوع آخر.
يوم الجمعة بريغوجين طلع في فيديو لمعسكر لقوات فاجنز تبدو عليه آثار الدمار، واتهم وزارة الدفاع بقصف الموقع وإيقاع
عدد كبير من القتلى.
صباح يوم السبت سكان مدينة روستوف فوجئوا بدبابات فاجنز في الشوارع.
بريغوجين تحرك تجاه مقر القيادة العسكرية الجنوبية، المسئول عن إدارة عمليات الغزو في شرق أوكرانيا، وسيطر على
المدينة بأكملها دون مواجهة أي مقاومة!
بريغوجين طلب عزل وزير الدفاع ورئيس الأركان، وأعلن إنه لو لم يتم الاستجابة لكل طلباته هيتحرك تجاه موسكو في
مسيرة عدالة Justice March، ليس هدفها تحدي بوتين، ولكنها مظاهرة هدفها محاسبة المسئولين!
سلمية ... سلمية!
وهكذا، انضم بريغوجين لنادي محبي غزو روسيا مع هتلر ونابليون، وبدأ في التحرك بقواته تجاه موسكو!
الكرملين صدم من اللي حصل!
مفاجأة صاعقة أثبتت للعالم كله مدى هشاشة النظام مهما كانت قوته!
بينما الولايات المتحدة كانت عاملة حسابها من قبلها بأيام.
يوم الخميس المخابرات المركزية عملت جلسة مغلقة مع مجموعة من أعضاء الكونجرس لإخبارهم عن تقارير تشير لوجود
مؤامرة كبيرة على بوتين بقيادة بريغوجين ومجموعة من قادة الجيش.
وكأن التاريخ بيعيد نفسه، والزمن رجع للانقلاب على غورباتشوف، السؤال الأهم في نظر الولايات المتحدة أصبح من
سيتحكم في القنابل النووية بعد سقوط النظام؟
وهل بوتين في محاولة مستميتة للتمسك بالحكم ممكن يجر العالم لحرب عالمية تالثة؟
الجيش والمخابرات الأمريكية تواصلوا مع نظرائهم الروس وأكدوا لهم إنهم ليس لهم أي علاقة بتحركات بريغوجين، اللي
تعتبر أكبر تهديد واجه بوتين منذ صعوده للرئاسة مع بداية القرن.
فظهر بوتين في فيديو الساعة العاشرة صباحًا وتحدث بغضب عن تعدي فاجنز على الدستور، ووعد بمعاينة الخونة، ولكن
يبدو أن الخطاب لم يحدث أي أثر.
عشرات الآليات، من ضمنهم دبابات، وبطاريات دفاع جوي، تحركوا تجاه موسكو على طريق M4 السريع اللي بيوصل
روستوف بموسكو مباشرة.
كل اللي يفصل بريغوجين عن العرش ١١٠٠ كم فقط.
شرطة العاصمة انتشرت لتأمين الوزارات والمباني الحيوية، بينما عشرات الطائرات غادرت العاصمة، ويرجح سفر بوتين على
متن إحداها للاحتفاء في الشمال.
وفي نفس الوقت اللي الطائرات المدنية تحركت للشمال، الطائرات المقاتلة تحركت للجنوب.
في منتصف الطريق وتحديداً في مدينة فارونيش، الطائرات الروسية قصفت قوات فاجنز لمنع تقدمها، فقوات فاجنز اشتبكوا
معاهم باستخدام بطاريات الدفاع الجوي وصواريخ SAM الأرض جو، وقدروا يوقعوا طائرة حربية بالإضافة لست طائرات
هليكوبتر!
صوت الانفجارات لا يعلو عليه سوى صوت دعاء الأوكرانيين: اللهم اضرب الظالمين بالظالمين.

معقول القيصر ممكن يقع بالسهولة دي؟

وهل بريغوجين ممكن يكون بروتس؟

قوات فاجنر استمرت في التقدم لحد ما بقت على بعد حوالي ٢٠٠ كم من العاصمة، والعالم كله بقى منتظر مواجهة دامية، ممكن نهايتها تكون نهاية بوتين، ونهاية الحرب في أوكرانيا.

ولكن فجأة، الساعة ٨ مساءً، رئيس بيلاروسيا ألكسندر لوكاشينكو أعلن عن نهاية الانقلاب بعد نجاحه في عمل اتفاق بين بوتين وبريغوجين.

الاتفاق ينص على إسقاط التهم ضد بريغوجين، على أن ينسحب مع قواته إلى بيلاروسيا. الخبر أكدته تسجيل صوتي لبريغوجين يقول فيه إنه وقف تقدمه تجاه العاصمة حقناً للدماء.

المرتزقة الحنين رزق!

وأثناء مغادرته هو وقواته لروستوف، بعض السكان هتفوا وسقفوا له وتجمهروا أمام عربيته عشان يسلموا عليه قبل ما يمشي!

مشهد يعد أكبر دليل على نجاحه في التعبير عما يدور داخل عدد لا يستهان به من الشعب الروسي، اتفقوا مع انتقاده للحرب وأعضاء النخبة.

بريغوجين خرج من المواجهة بطل، ولكن مستحيل القفص يستحمل أسدين!

بريغوجين راح بيلاروس، ومنها رجع لروسيا، وشارك في القمة الروسية الإفريقية في سانت بطرسبرغ ولا كأن أي حاجة حصلت!

معقول بوتين بالضعف ده؟

حد ينقلب عليه بالشكل ده ويسيبه عايش؟

بوتين التزم الصمت، واتحرك على أربعة محاور:

الأول هو تطهير الجيش من معاويني فاجنر.

عدد من الضباط ألقى القبض عليهم للشك في مشاركتهم في الانقلاب، اللي صعب يقوم به بريغوجين غير لو عارف أن له حلفاء في موسكو.

الثاني هو ضرب شعبية فاجنر عن طريق التصريح لأول مرة بعد سنوات من الإنكار، أن المنظمة ممولة بالكامل من الكرملين، وبالتالي بريغوجين ده مجرد موظف، بينما البطل الحقيقي هو الدولة الروسية.

الثالث هو احتواء مقاتلي فاجنر، والحصول على الأسلحة الثقيلة بحوزتهم.

الرابع وهو الأهم، طمأنة عملاء فاجنر من الحكومات الأجنبية، وبالأخص في إفريقيا، أن كل شيء تحت السيطرة.

ولما انتهى من فعل كل ده، قرر عقاب بريغوجين بشكل يعيد تذكير الجميع بخطورة إغضاب القيصر، وضرورة عدم التشكيك في عواقب خيانتة.

في نهاية أغسطس بريغوجين رجع روسيا من رحلة في إفريقيا فشل فيها في إقناع الحكومات بدعمه ورفض محاولة الكرملين لاستبداله، وصوّر فيها فيديو وهو يقول إن فاجنر تعمل على تحرير إفريقيا، وزيادة نفوذ روسيا حول العالم.

يوم ٢٣ أغسطس بريغوجين سافر على متن طائرة خاصة من موسكو لسانت بطرسبرغ بصحبة ديميتري أوتكين وعدد من قادة المنظمة.

وزارة الطوارئ في روسيا اللي كان يرأسها شويجو سابقاً أعلنت سقوط الطائرة ووفاة جميع ركابها، وبعدها ظهر فيديو لها أثناء سقوطها يشير إلى تحطمها، وفقدتها لأحد أجنحتها، فيما يبدو علامة على انفجارها في الجو، إما بسبب صاروخ أرض جو زي ما قالت صفحات تابعة لفاجنر على وسائل التواصل الاجتماعي، أو بسبب قنبلة.

محدث عارف السبب على وجه التحديد، لكن المؤكد هو أن القيصر لا ينسى، ولا يسمح.

طوفان الأقصى

«اغتيال لن يؤثر على مسار الحركة ولا على مسار المقاومة».

الشيخ أحمد ياسين

نهاية بريغوجين المسرحية، والمرعبة، رسالة لكل الخونة، والمشككين في قدرة بوتين على الاستمرار في الحكم، اللي بخوضه لانتخابات سنة ٢٠٢٤، ممكن يستمر لسنة ٢٠٣٦!

وطول ما هو في الحكم الحرب مستمرة.

لأن لا أمريكا ولا الاتحاد الأوروبي هيسمحوا بسقوط أوكرانيا بعد كل المليارات اللي اتدفعت، ولا روسيا هتسحب ولا هتتقبل الهزيمة، بالذات أنها الحالة الوحيدة اللي ممكن يلجأ فيها لاستخدام السلاح النووي دفاعاً عن حكمه، وعن دولته. المشكلة أن المعركة متوازنة بشكل شديد الشبه بالمعارك الأولية في الحرب العالمية الأولى، كل دولة حفرت خنادق وفضلت فيها إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، والقضاء في كلا الحالتين كان في صورة تدخل أمريكا. لحماية الأجواء الأوكرانية أمريكا زودت الجيش الأوكراني بطائرات باتريوت للدفاع الجوي. النظام الواحد تكلفته مليار دولار، والصاروخ الواحد فيه تكلفته ٤ مليون دولار، ولكنه يستاهل. الصواريخ فائقة التقدم قدرت تعترض الصواريخ الفائقة لسرعة الصوت Hypersonic الروسية. شي جين بينغ قاعد بيتفرج وهو بيلطم على وشه لأن ده معناه إن غزو تايوان في ظل وجود صواريخ أمريكية لن يكون بهذه السهولة.

ومع امتناعه عن تقديم الدعم العسكري لروسيا، واكتفائه بالدعم الإعلامي والدبلوماسي، وتحت شعار عدو عدوي صديقي، بوتين لجأ لإيران، واشترى منها طائرات مسيرة رخيصة الثمن باسم شاهد، الواحدة منها تكلفتها ٢٠ ألف دولار. الهدف هو غمر السماء الأوكرانية بالصواريخ والمسيرات لإنهاك الدفاع الجوي، ورفع فائقة الدعم الأمريكية. كل مائة ألف دولار مسيرات إيرانية اعتراضهم لو تم بصواريخ الباتريوت، هيتكلف ٢٠ مليون دولار! المسيرات استهدفت البنية التحتية المدنية لتدمير شبكة الكهرباء قبل الشتاء، وعلى الرغم من نجاح الدفاع الجوي في اعتراض ٨٠% من المسيرات والصواريخ، ال ٢٠% اللي عدوا تسببوا في دمار كارثي! الكهرباء قطعت في ٤٠% من مدن أوكرانيا، فبايدن زاد من حزم المعونة العسكرية، ووقع اتفاقية تأجير وإقراض شبه اللي الولايات المتحدة وقعتها مع بريطانيا في الحرب العالمية الثانية لحمايتها من الانهيار. يبدو أن المواجهة أقرب للماراثون من سباق السرعات، محتاجة نفس طويل، وحلفاء. بعد إلغاء ترامب للاتفاق النووي، وإعادة فرض عقوبات اقتصادية على إيران، روسيا أصبحت بديل ممتاز لإتمام المشروع النووي الإيراني.

التعاون بين البلدين يكمل على تعاونهم السابق في دعم النظام السوري، وهو ما أثار قلق إدارة بايدن من تأثير تحالف روسي - صيني - إيراني على توازن القوة في منشأ الأديان، ومصدر الوقود الأحفوري الأهم في العالم: الشرق الأوسط. بايدن حاول يضغط على روسيا عن طريق إقناع المملكة العربية السعودية بزيادة إنتاج البترول. السعودية من الدول القليلة اللي عندها ما يسمى بال Spare oil capacity، أو القدرة على زيادة الطاقة الإنتاجية، لأنها لا تنتج بكامل طاقتها، من ناحية اقتصادية حتى لا ينهار السعر بإغراق السوق، ومن ناحية سياسية للاحتفاظ بالقدرة على تحديد السعر كأهم عضو في منظمة الدول المصدرة للنفط أوبك. المحاولة اللي تسببت في أول زيارة من بايدن للسعودية، لم تنجح في تحقيق الهدف منها، بالعكس، اللي حصل بعدها كان بداية إصلاح العلاقات السعودية الإيرانية بعد سنوات من الجفاء بواسطة صينية!

الصين وروسيا حاضرين وبقوة في منطقة اعتادت الولايات المتحدة التعامل معها كباحتها الخلفية! وعلى مدار الشهور محاولة روسيا لتحقيق انتصار عسكري حاسم فشلت، فلجأت لتحقيق مكسب سياسي بإعلان ضمها لجمهوريات لوهانسك ودونيتسك. بينما أوكرانيا رغم نجاحها في صد الهجوم الروسي على العاصمة، واستعادة توازنها في الشرق بعد الصدمة الأولى، نجحت في استعادة جزء كبير من الأرض اللي خسرتها.

الهجوم المضاد (155). المنتظر بعد انتهاء الشتاء الأول للغزو فشل بشكل ذريع. روسيا نجحت في تأمين جبهة بطول ألف كم بشكل خلى مهمة اختراقها شبه مستحيلة. المساحات الزراعية المفتوحة بتخلي القوات المهاجمة صيد سهل لنيران الطيران والمدفعية. روسيا عملت خطوط دفاعية متلاصقة من الخنادق المضادة للدبابات، حفرة عميقة الدبابات اللي بتقدر تسحق أي شيء لو وقعت فيها مش هتطلع.

بالإضافة لألغام، وبلوكات خرسانية باسم أسنان التنين (156). كل ده خلى الحرب تدخل في مرحلة من الركود، من غير ما أي من الجيشين يقدر يحقق مزيد من المكاسب. وده حول استراتيجية بوتين من الرغبة في الكسب السريع، للرغبة في القتل البطيء.

طبقاً لمقال What Ridley Scott's 'Napoleon' Gets Wrong About War في جريدة السياسة الدولية (157)، الكاتب ومحلل الدفاع فرانز ستيفان جادي بيقول إن الحروب لا تكسب بالمعارك الحاسمة زي ما بيحصل في الأفلام، ولكنها تحسم عن طريق استنزاف الجنود والموارد.

زي ما ستالين كسب هتلر قبل أي شيء بالكميات اللامحدودة من الجنود والسلاح، بوتين عارف أنه هيقدر ينتصر في النهاية بالصبر والاستمرار إلى أن يجف الدعم الغربي لأوكرانيا، أمر ممكن يكون مستبعد نظرياً، ولكنه وارد عملياً بسبب سلاح بوتين السري ضد الغرب: الديمقراطية.

القيصر مستمر والديمقراطيون راحلون. الحرب تحولت من بليتزكريج إلى حرب استنزاف، كل اللي محتاج يعمل إنه يصبر لحد عودة ترامب، أو تمرد الناخبين على جو بايدن، فاللي يبجي بعده يحاول يخرج من المستنقع اللي أميركا دخلت فيه، خاصة في ظل الخوف من اندلاع صراعات ثانية في المستقبل القريب.

واللي بوتين بيتمناه حصل يوم ٧ أكتوبر مع عملية طوفان الأقصى في فلسطين. فجأة الولايات المتحدة أصبحت مسئولة عن دعم حربين مع إعلان إسرائيل حربها على غزة. بوتين اللي الغرب صورته كجزار لا يشعر بالرحمة، ندد بقتل المدنيين في غزة، وطالب بحل عادل للصراع عن طريق تبني حل الدولتين.

بينما زيلينسكي، رمز الحرية والنضال، أعلن عن دعمه الكامل لإسرائيل، وعن حقها في الدفاع عن نفسها ضد الإرهاب، اللي اعتبره جريمة ضد الإنسانية بحالها، وأعلن عن رغبته في زيارة إسرائيل، فنتياهاو رفض الطلب وقاله مش وقته، وبعدها بأقل من شهرين استقبل إيلون ماسك عادي.

لن نرضي المهرج على حساب القيصر! الاعتياد على الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة منذ سنة ١٩٦٧ في نظر المجتمع الدولي وصل لدرجة أنه معدش متشاف من الأساس!

كله عايز يسماش خماس، ومعدش بيسأل لماذا وكيف ظهرت خماس؟ الشعب يقاوم لأن الشعب محتل، ولذلك فالحل الأفضل للقضاء على حماس هو إنهاء الاحتلال، لكنه حل لا يروق لإسرائيل

الطامعة في مزيد من الأرض، والدم.

وعلى الرغم من محاولة تنتياهو التقرب من بوتين، مما حد من دعم إسرائيل لأوكرانيا بعد الغزو، وخلي حزب الليكود يطبع صورة عملاقة لتنتياهو وهو يبسلم على بوتين أثناء حملة انتخابية سابقة، وفي الجانب الثاني من العمارة صورة بنفس الحجم مع ترامب، باعتبار أن المعلمين ييقعدوا مع معلمين، أو كما قال أستاذ إدارة الأعمال بجامعة هارفارد ألفارو رودريجيز:

,Guerrillas hang out with guerrillas

بوتين لم يرقص على نغمة إسرائيل.

من ثاني يوم لعملية طوفان الأقصى بوتين أصبح قادر على المساهمة في إنهاء الصراع، أو إشعاله إذا أراد. روسيا استضافت قادة حماس، والرئيس الإيراني إبراهيم رئيسي، لعقد مباحثات في موسكو، في رسالة لأمريكا أنها حاضرة وبقوة.

رسالة أكدها دخول حزب الله على خط المواجهة واشتباك مع القوات الإسرائيلية على الحدود اللبنانية بشكل يومي من يوم ٨ أكتوبر، رغم تمسكه بعدم إعلان الحرب، فيما يبدو لعدم إعطاء إسرائيل ذريعة لممارسة هوايتها المفضلة في قصف المدنيين.

الاشتباكات أدت إلى نزوح عشرات الآلاف من سكان المستوطنات الشمالية، وقيام إسرائيل بتعبئة عامة ل ٣٥٠ ألف من جنود وضباط الاحتياط، ١٠٠ ألف منهم في درجة تأهب قصوى في الشمال، أدوا لشل حركة الاقتصاد. في بداية نوفمبر، صحيفة وول ستريت جورنال قالت إن المخابرات الأمريكية رصدت مفاوضات بين فاجنر وحزب الله لتزويد القوات اللبنانية المدعومة من إيران ببطاريات دفاع جوي.

علمًا بأن الجيش الإسرائيلي ينظر لحزب الله على أنه أقوى من حماس بحوالي عشر مرات، طبقًا لصحيفة هآرتس، صفقة زي دي لو أدت لحرمان إسرائيل من تفوقها الجوي، ممكن تغيير شكل المواجهة تمامًا. رد إسرائيل هو التوقف عن إبلاغ روسيا بضرباتها الجوية على الأهداف السورية مسبقًا كما جرت العادة منذ دخول القوات الروسية لسوريا.

إسرائيل تستبيح الغلاف الجوي السوري وتقوم بعمليات ضد قوات تابعة لإيران، وحزب الله، وأحيانًا الجيش السوري نفسه، ومن ساعة دخول روسيا كانت بتبلغ مسبقًا عشان ميحصلش مشاكل.

ولكن عقابًا على موقف روسيا المخزي في نظرها توقفت عن التنسيق العسكري في سوريا. المدهش أنه بعد حوالي ٣ شهور من طوفان الأقصى لم يظهر الدعم الروسي للجبهة اللبنانية بشكل مباشر. ممكن يكون بوتين مش عايز يحرق الكارت بسرعة، ويحاول يحتفظ به لضمان الحد من الأسلحة الأمريكية اللي هتتبعث لأوكرانيا، باعتبار أن العين بالعين، والسن بالسن، والبادي أظلم. وممكن يكون بيرتكب خطأ آخر بعدم إتهام الصفقة أو حتى بتأجيلها؛ لأنه بيضيع فرصة توريث الولايات المتحدة في صراع قد يكلف بايدن الرئاسة.

استطلاعات الرأي تشير إلى فقدده لعدد كبير من الناخبين بسبب موقفه تجاه إسرائيل فيما يخص حربها على غزة. إسرائيل ما زالت تحظى بدعم أغلبية المجتمع الأمريكي، ولكن فلسطين لأول مرة أصبحت تحظى بدعم صغار السن من سن ١٨ إلى ٣٤ سنة.

وهذا يطرح سؤال في منتهى الأهمية، يا ترى ماذا سيحدث في المستقبل، إذا كان في مستقبل؟! بس أنتم تفضلوا فاتحين كمان خمس سنين!

[155](#) Counteroffensive.

[156](#) Dragon's teeth.

احلموا بعالم سعيد

إِنَّا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا}.

[الأحزاب: ٧٠]

ترى كم عين ستفقاً قبل أن نتوقف عن فقء العيون؟

وإلى متى تستمر الحرب وإلى متى يستمر القياصرة؟

الإجابة القصيرة هي إلى أن تقوم الساعة، حكم الفرد موجود منذ فجر التاريخ بشكل أو بآخر، وهيفضل موجود إلى نهاية التاريخ بشكل أو بآخر.

ولكن ده مش معناه أن القياصرة خالدون، بالعكس، الخطر الأكبر على حكم الفرد، مهما بلغ من قوة، هو الفرد نفسه!

في الدراما الإغريقية القديمة، البطل عادة هو مؤلف قصة سقوطه!

يقول الشاعر أمل دنقل في قصيدة كلمات سبارتاكوس الأخيرة:

لا تحلموا بعالم سعيد، فخلف كل قيصر يموت قيصر جديد.

والبيت ده على قد ما حمل نظرة تشاؤمية، على قد ما ممكن يكون جمع ملخص حكمة العلوم السياسية على مر العصور.

في كتاب The World: A Family History المؤرخ البريطاني سيمون صباغ مونتيفيوري يقول إن تاريخ العالم كله يتلخص في صراع العائلات.

إما صراع عائلات ضد بعضها، أو صراع داخل العائلة الواحدة.

صراع يستعر، ويظهر بشكل خاص في أوقات الخلافة، أو التعاقب (158).

القياصرة مهما بلغوا من قوة، لن يقهروا الموت.

كما يقول الله عز وجل في سورة الرحمن: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

مشروع القيصر ينتهي بوفاته؛ لأنه لا يستثمر في بناء مؤسسة، ولا يثق في تعيين خليفة، وبالتالي المشروع الفردي، مهما كان عظيم، ينتهي بنهاية الفرد، اللي لو قمع الثورة، ومنع الانقلاب، لن يتغلب على الوفاة.

وده في حد ذاته سبب قوي للتفاؤل، وللتفكير.

إذا عرف هتلر مسبقاً أن الرايخ الذي توقع أن يدوم لألف عام، سينتهي بانتحاره مختبئاً في قبوه في برلين، هل كان ليفعل ما فعل؟

إذا علم موسوليني أنه سيعدم وتُعلق جثته في ميدان عام، هل كان سيسعى لإعادة أمجاد الدولة الرومانية باحتلال أجزاء من أوروبا وإفريقيا؟

الله يخربيتك يا موسوليني!

وإذا علم بوتين أن حرب أوكرانيا أغلب الظن ستوقف حين ينادي من لا يُرد نداؤه، إن عاجلاً أم آجلاً، هل كان سيسئها ليروح ضحيتها عشرات الآلاف من الأبرياء؟

ينسوا الموت فينسيهم الموت.

يأتي ليهدم قصور وأبراج عاجية يتضح بعد عمر طويل أنها من ورق!

!House of Cards

القياصرة زوار والشعوب باقية!

ولذلك على عكس ما قال الشاعر أمل دنقل، يجب أن نحلم بعالم سعيد.

ليس فقط لأن القياصرة بشر، والبشر مهما طال عمرهم إلى زوال.

ما دائم الا وجه الله.
ولكن أيضاً لأن حكم القياصرة جزء من التجربة الإنسانية منذ قيام الثورة الزراعية.
الزراعة مكنت الإنسانية من الحصول على فائض طعام، أدى لتراكم فائض ثورة، وتجنيد فائض بشر ليسوا بحاجة للصيد وجمع الثمار.
فمنهم من عملوا محاسبين في الجهاز البيروقراطي الجديد، ومنهم من حملوا السلاح لحماية القيصر.
وعلى مدار التاريخ نجح العديد من القياصرة في تحقيق إنجازات ملحوظة وطفرة فائقة.
طبقاً لكتاب Poor Economics أو اقتصاد الفقراء لاستر دافلو، وأبهيجيت بانرجي، الحاصلين على جائزة نوبل في الاقتصاد، فالديمقراطية ليست شرطاً لنجاح سياسات مكافحة الفقر.
ممكن القيصر عن طريق قدرته على إصدار القوانين وإنفاذها ضمان نجاح سياسات التنمية الاقتصادية، ومحاربة الفقر، ومحاربة الفساد، بشكل يعكس بالإيجاب على حياة المواطنين، فيما يسمى في العلوم السياسية بال Enlightened Despot أو المستبد العادل، في إشارة إلى إنه الأهم من إنه يكون مستبد، هو إنه يكون عادل.
ودي أكثر نقطة سلبية، وفي نفس الوقت أكثر نقطة إيجابية في حكم القياصرة.
لو مستبد عادل هيحقق نتائج بسرعة خيالية؛ لأنه غير مقيد بالمؤسسات.
ولو مش عادل هيحقق نتائج عسكرية بسرعة خيالية أيضاً؛ لأنه غير مقيد بالمؤسسات.
وهي دي الخطورة الحقيقية لحكم الفرد.
بطيخة، يا صابت، يا خابت!
ولذلك ندعو الله أن تصيب.
تم بحمد الله.
للتواصل مع الكاتب: taher@aucegypt.edu

المصادر

Books:

- ١- The New Tsar: The Rise and Reign of Vladimir Putin, Steven Lee Myers.
- ٢- Putin's People: How the KGB Took Back Russia and then Took on the West, Catherine Belton.
- ٣- The Man Without a Face: The Unlikely Rise of Vladimir Putin, Masha Gessen.
- ٤- Putin's Wars: From Chechnya to Ukraine, Mark Galeotti.
- ٥- Not One Inch: America, Russia, and the Making of Post-Cold War Stalemate, M. E. Sarotte.
- ٦- Zelenski: A Biography, Serhii Rudenko.
- ٧- The Zelenski Effect, Olga Onuch and Henry E. Hale.
- ٨- Overreach: The Inside Story of Putin's War against Ukraine, Owen Matthews.
- ٩- Mr. Putin: Operative in the Kremlin, Fiona Hill, Clifford G. Gaddy.
- ١٠- The Gates of Europe: A History of Ukraine, Serhii Plokhy.
- ١١- The Russo-Ukrainian War, Serhii Plokhi.
- ١٢- Bargaining With the Devil: When to Negotiate and When to Fight, Robert Mnookin.
- ١٣- Red Notice: A True Story of High Finance, Murder, and One Man's Fight for Justice, Bill Browder.
- ١٤- Good Strategy, Bad Strategy, Richard Rumelt.
- ١٥- On China, Henry Kissinger.
- ١٦- Rise and Kill First: The Secret History of Israel's Targeted Assassinations, Ronen Bergman.
- ١٧- Armies of Sand: The Past, Present, and Future of Arab Military Effectiveness, Kenneth M. Pollack.

١٨ - الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم، الأمير عمر طوسون.

١٩ - مقدمة قصيرة عن الثورة الروسية، ستيف سميث.

٢٠ - حكايتي في تل أبيب، رفعت الأنصاري.

Documentaries:

- ١- Greatest Events of WW٢ in Colour Docuseries, Netflix.
- ٢- Citizen K, Amazon Prime Video.
- ٣- Putin Vs the West, BBC.
- ٤- Putin and the Presidents, PBS.
- ٥- Putin's Road to War, PBS.
- ٦- President Biden, PBS.
- ٧- Trump and Russia Docuseries, Amazon Prime Video.
- ٨- The Mueller Investigation, PBS.
- ٩- Negotiating With Vladimir Putin: Advice from ٥ US Secretaries of State, YouTube.
- ١٠- The Russian Revolution and Civil War Series, BBC.
- ١١- The Soviet Union: ١٠٠th Anniversary, PBS.

Courses:

The Making of Modern Ukraine Course, Timothy Snyder, Yale University.

Papers:

Russia: A Drama in Three Acts, Harvard Business School Case.

Articles:

[Germany, Soviet Union sign non-aggression pact](#)

[Why St. Petersburg was once called Leningrad and other names - Russia Beyond](#)

[Operation Barbarossa: Date & Significance - HISTORY.](#)

[Soviet Union invades Afghanistan | December 1979, 24 | HISTORY](#)

[Germany - Reunification, Berlin Wall, Cold War | Britannica](#)

[Chechnya and Russia: A History of Conflict – DW – 12/06/2003](#)

[Chechnya | History, Location, Religion, & Facts | Britannica](#)

[Imam Shamil: a contested legacy that still resonates in the Caucasus](#)

[‘Capable of anything’: How the 1999 apartment bombings explain Putin’s rise and regime](#)

[Why the World Should Be Worried About Chechnya](#)

[Russia’s 2000 Presidential Elections: Implications for Russian Democracy and U.S.-Russian Relations - Carnegie Endowment for International Peace](#)

[Trump urges Russia to hack Clinton’s email - POLITICO](#)

[The Untold Story of ‘Russiagate’ and the Road to War in Ukraine - The New York Times](#)

[Zelensky’s Opponents Fear He Is Ready to Capitulate to Russia - The New York Times](#)

[Ex-Nato head says Putin wanted to join alliance early on in his rule](#)

[One. More. Time. It’s not about NATO | Brookings](#)

[As Expected, Putin Easily Wins a Second Term in Russia - The New York Times](#)

[The omnipotent victim: how tyrants work up a crowd’s devotion | Aeon Essays](#)

[The Psychology of Tyranny - Scientific American](#)

[Stanford Prison Experiment](#)

[Akhmad Kadyrov | Russia | The Guardian](#)

[Chechnya once resisted Russia. Now, its leader is Putin’s brutal ally in Ukraine : NPR](#)

[Ten Years Ago, Russia’s Independent NTV, The Talk Of The Nation, Fell Silent](#)

[TV’s Impious Puppets: On Kremlin’s Hit List? - The New York Times](#)

[Starring Tonight: ‘Kukly,’ Vlad and Billy - The Washington Post](#)

[Putin’s tears: Why so sad, Vlad? | Russian presidential election 2012 | The Guardian](#)

[Opinion | Was Lenin a German Agent? - The New York Times](#)

[Berlin Airlift](#)

[Federal Republic of Germany is established](#)

[Atlantic Charter - Definition, Purpose & Significance](#)

[Yalta Conference: Definition, Date & Outcome - HISTORY](#)

[Soviets put a brutal end to Hungarian revolution](#)

[Hungary · The Revolutions of 1989 · exhibits](#)

[The real and imagined history of Ukraine](#)

[Treaties of Brest-Litovsk](#)

[Nikolai Patrushev, the man dripping poison into Putin's ear | The Spectator](#)

[Prigozhin's death has exposed Putin's weakness | The Spectator](#)

[Sanctions are failing to turn Putin's oligarchs against him | The Spectator](#)

[St. Petersburg founded by Peter the Great](#)

[Catherine the Great assumes power | July 1762, 9 | HISTORY](#)

[Bohdan Khmelnytsky | Leader of the Zaporozhian Cossacks, Ukraine | Britannica](#)

[Truce of Andrusovo | Treaty of Pereyaslav, Cossack Rebellion, Muscovite-Polish War | Britannica](#)

[A Short History Of The «Winter War»](#)

[Substance used to poison Litvinenko could only have come from Russia – inquiry](#)

[What is polonium, the rare chemical Russia allegedly used to murder Alexander Litvinenko](#)

[Yasser Arafat's widow says her marriage was «a big mistake»](#)

[Yasser Arafat may have been poisoned with polonium, tests show](#)

[Navalny Investigation Shines Light On «Putin's Palace»](#)

[Portrait: Lyudmila Putina | Financial Times](#)

[Factbox - Deadly attacks in Russia | Reuters](#)

[Timeline: Russia terror attacks - Sep 2004, 2](#)

[21-1920 | Exposing the 'Protocols' as a Fraud - The New York Times](#)

[Hacked emails allege Russian youth group Nashi paying bloggers | Russia | The Guardian](#)

[Leonid Kravchuk: The man who buried the Soviet Union – DW – 05/10/2022](#)

[Anatoly Sobchak | | The Guardian](#)

[A historical timeline of Afghanistan | PBS NewsHour](#)

[Afghanistan and its neighbourhood - GOV.UK](#)

https://archive.nytimes.com/thelede.blogs.nytimes.com/2009/05/05/pakistans-british-drawn-borders/?_php=true&_type=blogs&_r=0

[Remembering President Daoud's Coup: Lessons for Afghanistan's Future – The Diplomat](#)

[Why the Durand Line Matters – The Diplomat](#)

<https://nsarchive2.gwu.edu/NSAEBB/NSAEBB07/essay7.html>

[Afghanistan: the land that forgot time](#)

[The history of US intervention in Afghanistan, from the Cold War to 9/11](#)

[Détente - Definition, Policy & Cold War](#)

[Third Afghan War and the Revolt in Waziristan | National Army Museum](#)

[Afghanistan: History Of 1973 Coup Sheds Light On Relations With Pakistan](#)

<https://www.hrw.org/reports/1991/afghanistan/AFGHAN.htm>

[The Taliban File](#)

[Ahmad Shah Massoud was Afghanistan's best hope | The Spectator](#)

[Brezhnev Doctrine | Definition, Significance, & Facts | Britannica](#)

[ON LANGUAGE; DUST HEAPS OF HISTORY - The New York Times](#)

[Reagan brands Soviet Union 'evil empire,' March 1983, A - POLITICO](#)

[The Yalta Conference Was More Than a Victors' Feast - Carnegie Europe](#)

[The Yalta Conference, 1945 - The Cold War origins 07-1945 - Edexcel - GCSE History Revision](#)

[Why Germany surrendered twice in World War II](#)

[Learn about the civil unrest and the widespread revolution amongst the Germans after Germany's defeat in World War I leading to the abdication of Wilhelm II](#)

[Everything You Know About How World War I Ended Is Wrong](#)

[Hades Definition & Meaning - Merriam-Webster.](#)

[HITLER FORECASTS NO REICH OVERTURN IN NEXT 1,000 YEARS; Proclamation to Nazi](#)

[Congress Says Movement Won't Yield No Matter What Happens.](#)

[Allied Occupation of Germany, 02-1945](#)

[Clement Attlee | Biography, Accomplishments, & Welfare State | Britannica](#)

[Klaus Fuchs - Nuclear Museum.](#)

[Former PM Miklós Németh On Pan-European Picnic, Hungarian Memory Politics - Hungary Today.](#)

[Outrage at poll that breached Berlin Wall | Financial Times](#)

[Hungarian lake resort helped reunify Germany | Reuters](#)

[Erich Honecker | East German Leader, Communist Politician | Britannica](#)

<https://www.britannica.com/topic/Gestapo>

[Spies Who Spilled Atomic Bomb Secrets | History | Smithsonian Magazine](#)

[How Communism Took Over Eastern Europe After World War II - The Atlantic](#)

[Soviet expansion into Eastern Europe, 1945-1948 - The Cold War origins, 1945-1948 - AQA - GCSE History Revision - AQA - BBC Bitesize](#)

[The Truman Doctrine, 1947](#)

[Order of the Day, No. 00](#)

[Marshall Plan \(1948\) | National Archives.](#)

[North Atlantic Treaty Organization | History, Structure & Purpose | Britannica](#)

[Camp David | Definition, Location, & Facts | Britannica](#)

[Rivers](#)

[Was Saint Augustine Good for the Jews? - TIME](#)

[Napoleon Bonaparte - Biography, Facts & Death | HISTORY](#)

[Why Napoleon's Invasion of Russia Was the Beginning of the End | HISTORY](#)

[7 Things You Should Know About Napoleon | HISTORY](#)

[Treaties of Tilsit | Napoleon, Alexander I & Prussia | Britannica](#)

[The Russian Campaign, 1812 - Napoleon at War](#)

[How Napoleon Plotted One of History's Greatest Prison Breaks](#)

[Vladimir Lenin: Quotes, Death & Body](#)

[From Tsar to U.S.S.R.: Russia's Chaotic Year of Revolution](#)

<https://www.history.com/this-day-in-history/bolsheviks-revolt-in-russia>

[Commanding Heights : Vladimir Lenin | on PBS](#)

[Vladimir Lenin Was Part Jewish, Say Declassified KGB Files - TIME](#)

<https://www.history.com/news/joseph-stalin-religion-atheism-ussr>

[Yeltsin Has 9-Hour Heart Surgery And Doctors Say It Was a Success - The New York Times](#)

[Chechen Military Chief Says He Won Vote - The New York Times](#)

[The Second Most Powerful Man In Russia - New Lines Magazine](#)

[Osama bin Laden | Biography, al-Qaeda, Terrorist Attacks, Death, & Facts | Britannica](#)

[Yasser Arafat | Biography, History, & Facts | Britannica](#)

[The Black and Orange Ribbon of Putin's Army - The Moscow Times](#)

[St. George's Ribbon | Perspectives on History | AHA](#)

[How WikiLeaks Enlightened Us in 2010 - CBS News](#)

[The history of Nord Stream – DW – 07/23/2021](#)

[How Putin has maimed Gazprom](#)

<https://www.britannica.com/event/Syrian-Civil-War>

[Red Line Redux: How Putin Tore Up Obama's 2013 Syria Deal](#)

[Wagner Group | Facts, Leader, Rebellion, & Russia-Ukraine War | Britannica](#)

[How Russia Helped Swing the Election for Trump | The New Yorker](#)

<https://www.theguardian.com/world/2021/jul/10/kremlin-papers-appear-to-show-putins-plot-to-put-trump-in-white-house>

[Donald Trump's ties to Russia go back 30 years](#)

[Trump's Miss Universe Gambit | The New Yorker](#)

[You're hired: how The Apprentice led to President Trump | Stuart Heritage | The Guardian](#)

[DNC email leaks, explained - Vox](#)

[Yevgeny Prigozhin | Wagner Group, Sanctions, & Death | Britannica](#)

[A Historic Number of Electors Defected, and Most Were Supposed to Vote for Clinton - The New York Times](#)

[2020 Presidential Election Results](#)

[Revealed: 'anti-oligarch' Ukrainian president's offshore connections | Volodymyr Zelenskiy | The](#)

[Guardian](#)

[Why Russia gave up on urban war in Kyiv and turned to big battles in the east - Washington Post](#)

[Battle for Kyiv: Ukrainian valor, Russian blunders combined to save the capital](#)

[Why the Russian military is bogged down by logistics in Ukraine - The Washington Post](#)

[How Putin Turned a Western Boycott Into a Bonanza - The New York Times](#)

[The Wagner uprising: ۲۴ hours that shook Russia](#)

[Before Prigozhin plane crash, Russia was preparing for life after Wagner](#)

[Movie Review: What Ridley Scott's 'Napoleon' Gets Wrong About War](#)

[Russia's Wagner Group Plans to Send Air Defenses to Hezbollah, U.S. Says - WSJ](#)

[كلمات](#)

[المنصور](#)

[برهان](#)

[سييد](#)

[»](#)

[كيف](#)

[لماذا](#)

[ترايب](#)

Videos:

[Russia's private military force, explained](#)

[German reunification: How two countries \(sort of\) became one | UNPACKED](#)

[Why is Ukraine the West's Fault? Featuring John Mearsheimer](#)

[Vladimir Pozner: How the United States Created Vladimir Putin](#)

[Putin's Russia: from KGB agent to Kremlin operator](#)

[Putin compares himself to Peter the Great in Russian territorial push](#)

[٤. Peter the Great](#)

[Lecture ۲: From Soviet Communism to Russian Gangster Capitalism](#)

[This ۶۰-Mile Strip of Land Is NATO's 'Weak Spot' Against Russia | WSJ](#)

[The Yugoslav Wars - History, Hatred, and War Crimes](#)

[Ramzan Kadyrov: brutal tyrant, Instagram star](#)

[How did Kosovo become a country?](#)

[A brief history of modern Ukraine - BBC News](#)

[How Russia's Economic War in the Black Sea Is Impacting Ukraine | WSJ](#)

[How Russia Sowed ۹۰۰ Miles of Ukrainian Frontline With Mines | WSJ](#)

[How the Patriot Missile System Works in Ukraine | WSJ](#)

[Why India and Russia Were Racing to the Moon's South Pole | WSJ](#)

[Putin's Influencers: The bloggers selling Russia's War - BBC News](#)

[Ukraine's history and its centuries-long road to independence](#)

[Why Russia took Crimea first](#)

[What happened to the air war in Ukraine?](#)

[Russian invasion of Ukraine | How Putin lost in ۱۰ days](#)

[Brics: The G-۷ Economic Alliance's Rival, Explained | WSJ](#)

[Did Israel Kill Yasser Arafat? Investigation Exposes Israel's Secretive Assassination Program](#)

[What Killed Arafat? | Al Jazeera Investigations](#)

[Who Killed Nemtsov? New evidence on Russia's most shocking assassination - BBC News](#)

[Ukraine and Russia: What Caused the War?](#)

[Deep Dive: A history of the Taliban](#)

[Who are the Taliban? | Start Here](#)

[Soviet - Afghan War - The USSR's Downfall](#)

[The Looming Tower | Lawrence Wright | Talks at Google](#)

[How did Russia begin? | ۱۹0۰ - Present | AP US History | Khan Academy](#)

[History of Russia - Rurik to Revolution](#)

[How empires collapse | John Mearsheimer and Lex Fridman](#)

[How the war in Ukraine will end | John Mearsheimer and Lex Fridman](#)

[Will Russia use nuclear weapons? | John Mearsheimer and Lex Fridman](#)

[How Wagner's Advance Unfolded Within ۲۴ Hours | WSJ](#)

[Why Ukraine's counteroffensive has stalled](#)

[Napoleon Bonaparte: Crash Course European History #۲۲](#)

الدحيح

الم

مهمة

الم